قراءات دينية في قضايا معاصرة

الشيخ حسان محمود عبدالله

دار الهادي

شبكة الفكر
alfeker.net

قراءات دينية
في قضايا معاصرة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

ISBN 978-9953-540-09-2

الأفكار والآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن مواقف واتجاهات يتبناها دار الهادي

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف:03/896329-01/550487- فاكس:541199- ص.ب:25/286غبيري - بيروت - لبنان
Tel.:03/896329-01/550487-Fax:541199-P.O.Box:286/25 Ghobeiry-Beirut-Lebanon
E-Mail: daralhadi @ daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

الشيخ حسان محمود عبدالله

قراءات دينية في قضايا معاصرة

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهــــداء

إلى كل من يسعى لإقامة حكومة العدل الإلهي

إلى كل باحث عن الحقيقة في وقت ضاعت فيه والتبست

إلى كل إنسان يبحث عن القيم والأخلاق

في ما يسمعه من المفاهيم والإيديولوجيات

إلى كل من يسعى لأن تكون كرامة الإنسان محفوظة ومصانة

فيما يُدعى إليه من عقائد ومفاهيم

إلى كل من يبحث عن مجتمع يعيش فيه الإنسان إنسانيته

إلى كل من يريد معرفة رأي الإسلام

في ما نواجهه من دعوات وأفكار

إلى كل مجاهد رفع راية الإسلام عالية في سماء بلادنا

إلى الشهداء والجرحى والمعوقين

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل المتواضع سائلاً المولى سبحانه وتعالى

أن ينفع به الناس وينفعني يوم لا ينفع مال ولا بنون

مقدمة المؤلف

بعد التطور البارز في وسائل الاتصالات، وبعد التداول الواسع لأفكار ذات أبعاد ومداليل تتعارض مع الدين، بات من الضروري أن يتصدى علماء الدين لتبيان الحقيقة العلمية التي توضح رأي الدين في هذه المسائل على قاعدة ما ورد عن الإمامين الصادقين عليهما السلام أنهما قالا:

«إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يُظهر علمه، فإن لم يفعل سُلب نور الإيمان»[١].

وبما أن الأفكار التي سأناقشها هي أفكار تحمل في طياتها معاداة للدين، بل وسعي لإقصائه عن أي دور في الحياة، فإن التصدي لهذه الأفكار يعتبر واجباً كفائياً من الناحية الشرعية، ولا يجوز التهاون في مواجهتها وإبداء الرأي الشرعي في كل مضامينها.

إننا نعتبر أن الحملة على الدين في الآونة الأخيرة قد وصلت إلى مرحلة متقدمة، وأصبحت الحملة تتخذ أشكالاً متعددة يستعمل فيها العدو الأسلحة المتاحة كافة، فمن الكتب الفكرية، إلى محاضرات بعض من ما يسمى بالمثقفين، وإلى وسائل الإعلام التي تضع إمكاناتها كافة في خدمة هذه الأفكار الهدامة، وإلى الفن بمجالاته كافة من مسرح، وتمثيل، ورسم،

---

(١) وسائل الشيعة، الجزء ١١، الصفحة ٥١١.

ونحت، وخلافه. لذلك، وأمام هكذا حملة، لا بد من حملة مماثلة تجبه نشر الأفكار الهدامة التي تعتمد خلط السم بالدسم، وذلك من خلال إيضاح هذه المؤامرة الخبيثة وتمييز السم فيها عن الدسم، وهذا ما يفرض على العلماء أن يواجهوه بالفكر، والفن، والإعلام، والثقافة، والممارسة الحياتية العملية؛ لأن صيانة الدين تكليف إلهي لا يجوز التهاون فيه.

بناء على ذلك كله، وجدت أنه من الواجب علي شرعاً أن أتعرض لأهم هذه الأفكار الهدامة بشيء من التوضيح الذي لا يصل إلى حد الإطناب الممل ولا ينحسر إلى درجة الاختصار المخل. فتعرضت للأبحاث التالية:

١ ـ البحث الأول: العولمة، باعتبارها واحدة من أهم الأساليب التي يعتمدها الغرب المستكبر في مواجهة الإسلام، عبر السيطرة على كل وسائل الإعلام، ووسائل الاتصالات، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومؤسسات الرعاية الاجتماعية العالمية، ومؤسسات الأمم المتحدة كافة، ومن خلال البحث سيتبين لنا رأي الدين بهذه الظاهرة.

٢ ـ البحث الثاني: هو موضوع الحداثة واستخدامها كوسيلة لاتهام الدين بغض النظر عن نوعه بالتخلف والرجعية، ونحن سنبين أن موضوع الحداثة بما هو دعوة للتجديد لا مانع منها ولا إشكال شرعي فيها، بل إنه ومن وجهة نظر إسلامية تُعتبر هذه المسألة جزءاً من الدين الذي يعتمد على الاجتهاد في التعامل مع التطورات الحاصلة على مر العصور والأزمنة، أما الحداثة بمعنى ترك القديم بكل تفاصيله بشكل يؤدي إلى التخلي عن الدين، فهذا لا مجال للقبول به.

٣ ـ البحث الثالث: هو موضوع الحوار بين الحضارات في مقابل الفكر الجديد للصهيونية، من خلال المحافظين الجدد في الولايات المتحدة الأميركية المتبني للصراع بين الحضارات كما طرح صموئيل هنتنغتون

وفرانسيس فوكوياما، وسيتبين لنا أن الإسلام يدعو للحوار بين الحضارات لا إلى الصراع بينها.

٤ ـ البحث الرابع: هو موضوع الحرية، وسيتبين لنا من خلال البحث أن الإسلام يؤمن بالحرية ولكنه لا يطلقها من دون ضوابط، بل هي حرية مقيدة بعدم الخروج عن النص الإلهي هذا من جهة، ومن جهة أخرى فلا بد من رعاية حرية الآخرين عندما نمارس حريتنا فيجب أن لا تتعارض حريتنا مع حريات الآخرين.

٥ ـ البحث الخامس: هو موضوع نظام الحكم المعتمد في الإسلام، وذلك من خلال مقاربة نظرية لفكرة الديمقراطية ومقارنتها مع نظامي الشورى وولاية الفقيه، والتوصل من خلال البحث إلى تحديد النظام الذي يتبناه الإسلام، انطلاقاً من وجهة نظري الشخصية.

٦ ـ البحث السادس: هو موضوع العلمانية وما يمثله هذا الفكر تحديداً من عداء للدين وسعي لإبعاده عن الحياة مقدمة لإلغائه كلياً. ونحن سنبين من خلال البحث وجهة نظر الإسلام في هذه المسألة الخطيرة.

لذلك كله، اتخذت قراراً بالبدء بإعداد هذا الكتاب وأسميته «قراءات دينية في قضايا معاصرة»، وأردت من خلال هذا العنوان أن أوضح أن ما سأتناوله من خلال هذا الكتاب هو نظرة الدين إلى قضايا معاصرة أثيرت في القرنين الأخيرين. وهذا الكتاب ليس بحثاً فكرياً فلسفياً صرفاً، بل هو بحث عملي يعتمد مقاربة فكرية بسيطة لا تتوسل المصطلحات المعقدة ولا الإغراق في الفلسفة المجردة، بل حاولت قدر الإمكان أن تكون لغة الكتاب بسيطة إلى حد كبير، ما يتسنى من خلالها لأوسع شريحة من القراء الاستفادة منه، علّني أنال من الله عز وجل الأجر عن هذا العمل المتواضع ويفيدني يوم لا ينفع مال ولا بنون، إنه سميع مجيب.

أخيراً أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا العمل مفيداً لامتنا ومجتمعاتنا وللبشرية، ويُسهم في تقديم إجابات محددة حول أفكار هدامة تسعى لضرب الفكر الديني والقضاء على وجوده في الأمة، والحد من أخطار تفاقمها وتعاظمها، ولا يسعني في النهاية إلا أن أشكر في هذا المجال كل من ساهم بإنجاح هذا العمل من دون التعرض لأسمائهم.
والحمد لله رب العالمين.

الشيخ حسان محمود عبدالله

الجمعة الواقع فيه ٧/ جمادى الآخرة/ ١٤٢٩هـ

الموافق لـ ١١/ حزيران/ ٢٠٠٨

ماذا نعني بقضايا معاصرة؟

١ ـ العولمة من منظور إسلامي.

٢ ـ الحداثة من منظور إسلامي.

٣ ـ بين الحضارات حوار أم صراع؟

٤ ـ الحرية.

٥ ـ بين الديمقراطية والشورى وولاية الفقيه.

٦ ـ العلمانية.

ماذا نعني بقضايا معاصرة؟

لا بد من التوضيح، وقبل الولوج في البحث، من أن ما نقصده من قضايا معاصرة لا يعني قضايا مستجدة في القرن الحالي أو الماضي، بل إننا نقصد من وراء هذا التعبير قضايا طرحت بقوة في القرن الأخير، وأقصد هنا القرن العشرين الميلادي وبدايات القرن الواحد والعشرين، وإن كانت من حيث المبدأ قضايا أثيرت قبل ذلك، ولكنها، وبسبب ظروف معينة، تخلفت عن الواجهة لصالح قضايا أخرى في مرحلة سابقة لتعود وتقفز إلى الواجهة من جديد.

ولا بد من التوضيح أيضاً، أننا لا نعني بقضايا معاصرة قضايا تقدمية وثورية في مقابل قضايا متخلفة ورجعية كما يحلو للبعض أن يفسر كل ما هو جديد في طرحه بأنه قضايا تقدمية وأن ما هو قديم قضايا متخلفة. فليست المسائل الفكرية من قبيل صرعات الموضة في الثياب وقصات الشعر حتى يُطلق على الدارج منها تعبير العصري المتقدم في مقابل اتهام القديم منها بالتخلف والرجعية، بل إن مسائل الفكر يكون مقياس التقدم والتخلف فيها هو مدى انطباق هذا الفكر على الواقع وتقديمه إجابات ناجعة لمشاكل الشباب النفسية والفكرية والحضارية، فقد يكون الجديد منها متخلفاً إذا ما لم ينجح في حل مشاكل الشباب المعاصرة، في حين أننا يمكن أن نصف القديم الذي يقدم الإجابات الشافية بالعصري الذي يتناسب مع روح العصر

ويستطيع الخروج من دائرة الزمان والمكان ليكون في إطار الفكر المتوقد الحي والحاضر دائماً والمتفهم للمشاكل التي تعاني منها الأمم والشعوب على اختلاف أنواعها.

وأنا في هذا الكتاب، وإن كنت أقدم تفسيراً إسلامياً لهذه القضايا بحسب ما توفر لإدراكي الضعيف، إلا أنني في نفس الوقت سأحاول أن أتعامل مع الموضوع على أساس وجهة النظر الدينية بشكل عام في كل القضايا التي سأتعرض لها، لذا اخترت للكتاب عنوان قراءات دينية ولم أختر عنوان قراءات إسلامية، ذلك أنني في نفس الوقت أعتبر فيه أن الدين بحسب وجهة نظر إسلامية هو الإسلام ليس إلا، فقد أنزل الله على أنبيائه عليهم السلام كافة ديناً واحداً تدرج في نزوله بحسب الظروف الموضوعية وهذا الدين هو الإسلام، ويدل على ذلك ما ورد في القرآن الكريم من قوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[1].

فالإسلام هو الدين الذي أنزله الله على الأنبياء كافة منذ نبينا آدم عليه السلام إلى خير الأنام محمد صلى الله عليه وآله، أما الاختلافات التي حصلت فيما بعد بين أهل الكتاب فهي كما في الآية الكريمة كانت بسبب البغي وهو الظلم والتعدي والخروج عن دائرة الحق، ومعناه كما في لسان العرب:

«ومعنى البغي قصد الفساد... وأصل البغي مجاوزة الحد»[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٢) لسان العرب، الجزء ١٤، الصفحة ٧٨.

لذلك، فإني لا أرى فرقاً، ولو بسيطاً، بين القراءة في هذه القضايا المعاصرة على أساس الرأي الديني أو الإسلامي، فهما بالنسبة إلي كما أنهما بالنسبة إلى الواقع يعبّران عن شيء واحد.

البحث الأول

العولمة من منظور إسلامي

١ ـ العولمة من منظور إسلامي

١ ـ مقدمة لا بد منها

العولمة كمصطلح حديث أُختلف في تعريفه، بل يمكن أن يقال إنك قد تجد في بعض الأماكن شبهة مفهومية حول معنى العولمة والمراد منها، لكن القاسم المشترك للأهداف التي أنطلق منها كل من أثار فكرة العولمة في هذا العصر هو مسألة استغلال العالم الغربي المستكبر لشعوب العالم المستضعفة، معتمدين في ذلك على ما توفر لهذه القوى من إمكانات تكنولوجية مكنتها من السيطرة، وذلك من خلال مركزة كل وسائل العيش الحديث بيد هذه القوى، سواء تلك الأساسية الضرورية أو تلك الكمالية الترفيهية. فالعالم اليوم بات كما يُقال قرية صغيرة يستطيع أقصى شرقه أن يتصل بأقصى غربه بلحظات قليلة، وبسبب ثورة الاتصالات لم يعد أي حدث بعيداً عن متناول الناس مهما بعد عنهم، بل إنه وبفترة قصيرة يصبح بمتناول الناس صوتاً وصورة، بل أكثر من ذلك بات من الممكن أن يتصل المواطن العادي بأخيه الذي يبعد عنه آلاف بل ملايين الكيلومترات بالصوت والصورة عبر وسيلة يضعها في منزله من خلال الاتصال عبر شبكة الإنترنت. والإسلاميون اليوم تختلف نظرتهم إلى هذه المسألة باختلاف فهمهم لمعنى العولمة، فمن معتبر لها أنها باتت أداة لهيمنة دول الغرب المستكبر والكافر وعلى رأسه أميركا، إلى معتبر إياها أنها سلاح ذو حدين يمكن استخدامه منا كما يمكن استخدامه من عدونا، وبالتالي، وحيث أنه لا

مجال للاستغناء عنه لتوقف الحياة العصرية عليه؛ بات من الضروري التمكن من وسائله للدعوة الإسلامية في العالم ككل؛ أي لنشر الإسلام والدعوة إليه من خلاله بدل من لعنه والتعريض به، ومنهم من غاص فيه واعتبره قوة لا نقدر نحن على التغلب عليها فلا بد من الاستسلام لها أو على الأقل التقوقع والبعد عنها. وليست العولمة أو (Globalization) ومثلها ما اصطلح على تسميته بالنظام العالمي الجديد أو (New World Order) تعبيراً دخل حديثاً على المسلمين، بل هي مصطلح دخل حديثاً على القاموس السياسي الغربي المعاصر أيضاً، فيجب أن لا نقع تحت وطأة عقدة النقص أمام الغرب، فهم أيضاً ما زالوا في بداية التعاطي والفهم مع هذا المصطلح الجديد. نعم، مفهوم العولمة بمعنى السيطرة والهيمنة من قبل القوى العظمى على شعوب العالم الأقل قوة أو المستضعفة كانت سياسة متبعة منذ بداية التاريخ حتى على الصعيد الفردي عندما قتل قابيل أخاه هابيل طمعاً في السيطرة الأحادية على الكون وإن كان هذا الكون ليس كمثله اليوم، وتراه في الخطاب الإلهي لكل الأنبياء عليهم السلام في الوقوف في وجه القوى المتجبرة والمستكبرة كما في خطاب الله عز وجل لنبيه موسى عليه السلام في الذهاب إلى فرعون لأنه طغى، وقد عبر عن ذلك في القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى:

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾[1].

وهذا الأمر ليس في المجتمع المتدين أو من خلال دعوات الأنبياء عليهم السلام، بل تراه في المجتمعات المادية البعيدة عن الدين. فلا تجد على مر التاريخ الإنساني منذ بداية البشرية من قوة متعاظمة إلا وحاولت التمدد والهيمنة على حساب الشعوب المستضعفة مقدمة للسيطرة على العالم والهيمنة عليه، فالإسكندر، وهنيبعل، وجنكيز خان، ونابليون، وهتلر، كما

(١) سورة طه، الآية: ٢٤.

بريطانيا وفرنسا ثم الولايات المتحدة الأميركية وعددٌ لا بأس به من قادة الدول القوية، راودهم حلم السيطرة على العالم ولكن الذي كان يحصل دائماً أنهم يصلون إلى مرحلة يتراجعون بعدها ويضعفون وتصبح هناك قوة أخرى تسعى لذلك لأن سنة الله في أرضه أن لا يستقر طاغٍ في حكم الأرض فقد قال في كتابه الكريم:

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

ولعل هذه السنّة هي حكمة أرادها الله في خلقه كي يعرف المستضعفون أن سيطرة المستكبر ليست قدراً، بل هي مرحلة لا بد من مرورها ضمن مخاض يصل فيه المستضعفون في النهاية إلى مبتغاهم فيرثوا الأرض ومن عليها كما قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾(٢).

فمهما علا فرعون الذي هو نموذج لكل طاغية وظالم في الأرض فإن له في نهاية الأمر موسى يقود قومه ويخرجهم من نير الظلم إلى رحابة العدل والسلام. وهناك تعبير لطيف لنابليون بونابرت لعله توصل إليه بعد فشل حلمه بالسيطرة على الكون فقال ما معناه:

«إن الإمبراطوريات تموت دائماً بمرض التخمة!»(٣).

فإنه يحاول أن يعبر عن فشل مشروعه الإستكباري بأن السبب أنه لم

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.
(٢) سورة القصص، الآيتان: ٥ ـ ٦.
(٣) الشباب المسلم والعولمة. مقالة.

يستطع هضم ما دخل إلى جوفه من الدول والشعوب المختلفة. ومن المستغرب أن الدول التي تسيطر على الشعوب المستضعفة ودولها تسعى بعد إتمام السيطرة إلى طرح فكرة السلام كي يستقر وضعها في احتلال أراضي الغير فلا يفكروا بالمقاومة لأنها تعارض السلام. فكانت فكرة السلام الروماني بعد الإمبراطورية الرومانية، والسلام البريطاني بعد السيطرة البريطانية على بلاد المسلمين، والكيان الصهيوني أيضاً طرح بعد احتلاله لفلسطين السلام على العرب الذين انتهكت كرامتهم باحتلال أرضهم، فما هو معنى السلام مع الاحتلال؟ وهذا المعنى نقله لنا الشاعر الروماني تاسيتوس في أشعاره عن حروب الرومان تحت عنوان أنشودة السلام حين قال:

«إنهم ينهبون، إنهم يذبحون، إنهم يسرقون، هذه الألقاب الشنيعة يسمونها إمبراطورية، وحين يحيلون الأرض إلى صحراء جرداء يسمونه سلاماً!»(١).

وفي هذا السياق يتساءل الباحث الاستراتيجي صموئيل هنتنغتون الذي قسم العالم إلى نوعين من الناس: الغرب والباقي «West and the Rest» وكأننا نشهد عودة نزعات القرن الثامن عشر العنصرية التي صورها كيبلنج بعبارته المشهورة:

«الشرق شرق والغرب غرب، ولن يجتمعا!»(٢).

«هل إن المؤسسات الدولية وتوزيع القوة، وسياسات واقتصاديات الدول، في القرن الواحد والعشرين ستعكس قيم الغرب ومصالحه، أم أنها ستتشكل أولاً بقيم الإسلام والصين ومصالحهما؟

وقال: «إن النظرة الواقعية في العلاقات الدولية توحي بأن الدول التي تمثل الحضارات غير الغربية سوف تتحالف لتقيم توازناً مع قوة الغرب المسيطرة»(٣).

---

(١) العولمة من منظور إسلامي، مقالة.
(٢) المصدر السابق.
(٣) صدام الحضارات وإعادة رسم النظام العالمي، الصفحة ١٨٥.

ونفس هذا المعنى يطرحه الكاتب الأميركي الياباني الأصل (فرانسيس فوكاياما) في كتابٍ أثار نشره أصداء واسعة بعنوان «نهاية الحضارة والرجل الأخير». والكتاب كله يدور حول فكرة واحدة وهي أن الحضارة الغربية هي نهاية المطاف، وآخر ما يمكن أن تفرزه العبقرية الإنسانية، وليس أمام الآخرين سوى أن ينتظموا في هذا الصف! وباختصار، يمكن لنا أن نقول إن «العولمة» الراهنة كما نراها الآن، هي نفس المنتج بحلة جديدة وإنها لا تعدو أن تكون أسلوباً مختلفاً تمليه ظروف الزمن وطبيعة المرحلة، وإن أهم دواعي نجاحه وخصوصاً في المنطقة العربية ـ الإسلامية هو حالة «الفراغ» والتفكك التي تصبغ حياتنا السياسية والاقتصادية والفكرية، كما سنبين لاحقاً.

٢ ـ تعريف العولمة

العولمة كما قدمنا سابقاً هي تعريب للمصطلح الانجليزي (Globalization) والذي يعني كما ورد في مجلة فكر ونقد:

«وتحليل الكلمة بالمعنى اللغوي يعني تعميم الشيء وإكسابه الصبغة العالمية وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله»(١).

وبالتالي يمكن القول إن هناك إرادة ما لجهة تريد السيطرة على العالم من خلال توحيد مفاهيمه وأفكاره ومصطلحاته لتصبح جميعاً تنطلق من نظام واحد يُسَهِّل لهذه الجهة السيطرة على العالم. ولكي نوضح كيف انتقل هذا المصطلح إلى اللغة العربية نورد ما ذكره الأستاذ عبد الصبور شاهين عضو مجمع اللغة العربية حول هذا الموضوع حيث قال: «فأما العولمة مصدراً فقد جاءت توليداً من كلمة عَالَم، ونفترض لها فعلاً هو عولم يعولم عولمة بطريقة التوليد القياسي. . .، وأما صيغة (الفعللة) التي تأتي منها العولمة،

(١) «العولمة والهوية الثقافية» من مجلة «فكر ونقد» العدد السادس.

فإنما تستعمل للتعبير عن مفهوم الإحداث والإضافة، وهي مماثلة في هذه الوظيفة لصيغة التفعيل»(١).

ونتيجة لكون المصطلح من المصطلحات الحديثة، وبنفس الوقت، ونتيجة لكثرة الجدل حوله كثرت التعاريف بحيث تكاد لا تجد تعريفاً جامعاً مانعاً لهذا المفهوم حتى إنك قد تجد تبايناً بين التعاريف ناتجاً عن المنطلقات التي ينطلق منها المعرف؛ فلذلك تجد أن تعريف السياسي للمفهوم يختلف عن تعريف الاقتصادي الذي بدوره يختلف عن تعريف الاجتماعي أو ذلك العامل في المجال التقني العلمي. لذلك تجد أنواعاً من التعاريف تختلف باختلاف المنطلقات التي تنطلق منها نورد على سبيل المثال هذه الأنواع:

١ ـ تعريف السياسيين:

يختلف هذا النوع من التعاريف باختلاف توجه المعرِّف السياسي. فإذا ما كان المعرِّف من الجهة المتسلطة على العالم أو الساعية للتسلط عليه فإنه يعطيه البعد الإيجابي الساعي للترويج له فيقول مثلاً: «العولمة هي محطة في مسيرة التكامل الإنساني تهدف لخدمة البشرية والتواصل السريع بين الناس، وتضع التكنولوجيا المتطورة في خدمة الإنسان تخفيفاً من معاناته وآلامه وتسهل من تكاليف الحياة ومصاعبها». أما الجهات التي تعاني من الهيمنة الأميركية فإنها تعطي العلمنة بعداً آخر؛ فتجد أن التعريف يختلف اختلافاً كلياً عن تعريف القسم الأول ليكون على الشكل التالي: «العولمة هي السعي لفرض نمط حضاري معين يختص ببلد يسعى للهيمنة نتيجة الإمكانات التي يمتلكها على شعوب أخرى لا تتفق معه في توجهاته الحضارية ومعتقداته الإنسانية».

---

(١) «العولمة جريمة تذويب الأصالة»، عبد الصبور شاهين، مجلة المعرفة، العدد (٤٨).

٢ ـ تعريف الاقتصاديين:

الاقتصادي ينظر للعولمة نظرة إيجابية من وجهة نظره الاقتصادية البحتة، فيعتبرها وسيلة تُسهم في التطور الاقتصادي للشعوب على قاعدة تسهيل التبادل التجاري، ونقل المعلومات، وخرق الحدود من خلال قانون تجارة عالمي واحد، ولذلك، نجد أن الصندوق الدولي عرّفها على الشكل التالي:

«العولمة هي: التعاون الاقتصادي المتنامي لمجموع دول العالم والذي يُحتّمه ازدياد حجم التعامل بالسلع والخدمات وتنوعها عبر الحدود إضافة إلى رؤوس الأموال الدولية والانتشار المتسارع للتقنية في أرجاء العالم كله»[١].

وهذا التعريف ينطلق من نظرة إيجابية للعولمة، أما لو رجعنا إلى فئة أخرى من الاقتصاديين خاصة أولئك الذين يعترضون على العولمة معتبرين إياها سبباً في شقاء الدول وخاصة الدول النامية أو الفقيرة، فإنك سترى أن التعريف يأخذ بعداً آخر مختلفاً عن تعريف الصندوق الدولي وما شابهه في ذلك، فتراه يعرّفها على النحو التالي: «العولمة هي السيطرة على سوق المال العالمي واحتكاره وهيمنة القوى الاقتصادية العظمى على القوى الضعيفة، ما يؤدي لخضوعها لإرادة هذه القوى من خلال انحسار السيادة الوطنية أو القومية لصالح السيادة الكونية ذات القطب الواحد المهيمن، وهذا ما يجعل العالم بأجمعه تحت رحمة الشركات الرأسمالية الضخمة، ومن خلال إزالة الحواجز الجمركية تزول سيطرة الدولة الوطنية لصالح سيطرة الدول والشركات الكبرى».

٣ ـ تعريف التقنيين:

التقني يرى في العولمة فكرة مختلفة عن الأيديولوجي أو السياسي،

(١) عمرو عبد الكريم، مجلة المنار الجديد، العدد الثالث.

فهو بحاجة دائمة إلى تطور وسائل الإنتاج لديه، لذلك تراه دائماً يعتبر أن كل ما يوفر له الوصول إلى تقنيات الآخر، خاصة إن كان الآخر أكثر تطوراً، أمراً إيجابياً لا بد من الاستفادة منه، لذلك قد تجد تعريفه على الشكل التالي: «العولمة هي جعل الكون دولة واحدة تنتقل فيها وسائل التطور بسرعة كبيرة ما يؤدي إلى التقدم العلمي والنمو الاقتصادي ويسهل الحصول على أفضل التقنيات الحديثة لتدعيم وتطوير وسائل الإنتاج».

٤ ـ تعريف الاجتماعيين:

الاجتماعي ينظر إلى العولمة من جهة نظرة إيجابية على أساس أنها تؤمن الاتصال السريع بين البيئات المختلفة والحضارات المتباينة ما يسهل عملية فهم الآخر، ومن جهة أخرى يخاف منها البعض على أساس خلوها من ميزة التمايز بين الحضارات؛ باعتبار أن الاختلاف البيئي (بمعنى المحيط الذي يعيش فيه المجتمع موضوع الكلام) عن البيئة الأخرى هو الذي فرض هذا النوع من التباين الحضاري بين المجتمعات، فكل مجتمع يتبنى فكراً وطريقة اجتماعية تتناسب مع ما يعيشه هو وطبيعة تراثه وأفكاره ومعتقداته التي يؤمن بها والتي قد تتباين أو تختلف مع المجتمعات الأخرى التي لا تؤمن بما يؤمن به هو ولا تعتقد بما يعتقده، وهذا ما أدى إلى تعريف العولمة عند بعضهم على الشكل التالي: «العولمة هي جعل الكون الكبير قرية صغيرة لا حدود جغرافية أو فكرية تفصلها عن بعضها البعض، مما يؤدي إلى إلغاء الحواجز الفكرية والاجتماعية بين المجتمعات مقدمة إلى قيم أخلاقية واجتماعية واحدة».

٥ ـ التعريف الأشمل:

من خلال ما تقدم يصعب عليك تبني تعريف موحد للعولمة، ولكن يمكن أن يكون التعريف التالي هو أقربها للواقع:

«العولمة هي تعميم الأيديولوجيات والسياسات والثقافات والأخلاقيات لمجتمع مسيطر إلى مجتمعات أخرى من دون اعتناء بسيادة السلطات الموجودة في تلك المجتمعات، ومن دون النظر إلى الحاجات الفعلية لهذه المجتمعات مما ينقل لها من هذه الأمور. فالعبرة هي انقياد العالم في كل هذه الأمور للجهة المسيطرة، وتستخدم هذه القوى كل الوسائل المتاحة لفرض ما تريد كالوسائل الإعلامية، أو الشركات الرأسمالية الكبرى، أو التمدد العسكري، الخ...».

٣ ـ جذور العولمة

هناك خلاف كبير بين الباحثين حول موضوع جذور العولمة، فهل هي أمر طرأ في عصرنا الحديث أي في القرن العشرين، أم هي من وقت أقدم من ذلك؟. ذهب البعض إلى أن العولمة ليست ظاهرة جديدة، بل بداياتها الأولى ترجع إلى القرن التاسع عشر، مع بدء الاستعمار الغربي لآسيا وأفريقيا والأمريكيتين، ثم اقترنت بتطور النظام التجاري الحديث في أوروبا، الأمر الذي أدى إلى ولادة نظام عالمي متشابك ومعقد عرف بالعالمية ثم العولمة. وذهب آخرون إلى أن مصطلح النظام العالمي كان مستخدماً منذ مؤتمر فيينا عام ١٨١٥م الذي قاده مترنيخ رئيس وزراء النمسا آنذاك، وجدده بسمارك الألماني في سبعينيات القرن التاسع عشر الميلادي، ثم تجدد ثانية على يد كليمنصو الفرنسي في مؤتمر فرساي عام ١٩١٩م، ثم تجدد في مؤتمر يالطا (شباط ١٩٤٥) على يد الحلفاء في الحرب العالمية الثانية والذي قام أطرافه بتوزيع أسلاب المحور على الدول المنتصرة وقسّم مناطق العالم بينهم حتى تلك التي لم تصلها الحرب، وذلك لكي تمنع قيام محاور جديدة، وتعطل ما سمي حينذاك بالاستقطاب الجديد (New Polarization). وقد يتساءل البعض هل يعقل إدخال الاتحاد

السوفياتي في المنظومة الغربية لتحسب على هذا الأساس من مجموعة الدول الرأسمالية التي تأخذ من العولمة طريقاً لفرض السيطرة وهي دولة شيوعية تختلف كلياً عن الدولة الرأسمالية؟ والحقيقة، أن هناك أكثر من سبب لذلك، منها أن روسيا القيصرية كانت تعتبر نفسها دائماً دولة أوروبية، وشريكاً أصيلاً في الحضارة (المسيحية) الغربية، وعندما أنشئ الاتحاد السوفياتي لم يغير هذه النظرة، بل عمل لتوسيع الإمبراطورية الروسية من خلال الفكرة الشيوعية كأسلوب لمد السيطرة من خلال مفاهيم جديدة بعد أن يئست الناس من الرأسمالية وعانت ما عانت من ويلاتها، فاختارت الشيوعية كوسيلة لتنفيذ أهداف عجزت عن تحقيقها الرأسمالية، فقامت هذه الظاهرة الجديدة بسحق مقاومة الشعوب المغلوبة، ولاسيما الشعوب الإسلامية في القوقاز. فالفرق إذن لم يكن في الأهداف النهائية بقدر ما كان في الوسائل وأسلوب الخطاب لتحقيق تلك الأهداف. ولا يفترق النظام الجديد «العولمة» في فرض السيطرة والذي اعتمد على الغزو الثقافي كوسيلة لتمرير وحماية الغزو السياسي والاقتصادي، وشل القدرات الوطنية عن المقاومة، فهو في الواقع نفس السلاح القديم الذي استخدمه الاستعمار القديم على نطاق واسع، وخصوصاً في العالم الإسلامي، فالدولة الشيوعية حرّمت دراسة القرآن الكريم، وأغلقت المدارس الدينية، ومنعت بناء المساجد، إلا في الإطار الذي يخدم السياسة الشيوعية، بما يساعدها على فتح المجال لها داخل الدول الإسلامية، في الوقت الذي اعتبرت المادية وعدم الإيمان بوجود الله هي المحور الأساسي للثقافة والفكر، وفرضته مادة إجبارية في برامج التعليم، وتعاملت مع الدين كقوة «معوقة للحضارة ويجب أن تقاوم بشدة»، ومقولة الدين أفيون الشعوب هي مقولة اشتهرت على لسان الشيوعيين وقادتهم ومفكريهم. ومع كل التباين المدعى بين الشيوعية والفكر الغربي الرأسمالي فإن هناك تشابهاً واضحاً بينهما لجهة أن كلاً منهما يدعي أنه يمتلك الفكر والمبدأ الصحيح الذي يؤمّن التفوق

والحضارة السامية، وبالتالي يجد أنه مدعو لفرض هذه الحضارة على الشعوب المختلفة التي لا تعرف مصلحتها، ومن هنا برز الحديث عن «الرسالة الحضارية» لبريطانيا وفرنسا في الشرق الذي أنتج الانتداب على الدول المستضعفة، وهذا ما لخصه جول هيرمند أحد أهم الدعاة للاستعمار الأوروبي في بداية القرن العشرين حيث قال:

«إن من الضروري القبول بمبدأ هام كنقطة انطلاق، أن هناك طبقات من السلالات والحضارات، وإننا «الغربيون» ننتمي إلى السلالة العالية والحضارة المتفوقة. إن القاعدة الشرعية للفتوحات الغربية ضد السكان المحليين، هو الاقتناع ليس فقط بقوتنا العسكرية، والاقتصادية، والآلية، ولكن بتفوقنا الأخلاقي. إن شرفنا يرتكز على هذه الموهبة، ويؤكد حقنا في قيادة الإنسانية، والقوة العسكرية ليست إلا وسيلة لتحقيق هذه الغاية»(١).

إذن، فالحقيقة تقول إن الأمر بحسب المعنى كان موجوداً منذ القدم، ففي كل مرحلة من مراحل التاريخ عندما كانت تقوم إمبراطوريات كبيرة كانت هذه الإمبراطوريات تسعى لفرض سيطرتها على العالم من خلال فرض أفكارها ومبادئها وتقاليدها على الأمم المستضعفة التي كانت تحتلها، والتاريخ ذاخر بهكذا حالات ومنذ أقدم العصور، ففي كل زمان كانت تظهر إمبراطوريات تشكل قوة عظمى تريد أن تنفرد دائماً، بحكم العالم، وإخضاعه إلى مبادئها، فاليونان والرومان والفرس والتتار والإمبراطوريات الحديثة، كلها كانت تتجه هذا الاتجاه في الهيمنة والسيطرة. وأوروبا الحديثة ذات التاريخ الاستعماري هي النموذج الجلي في محاولة السيطرة والهيمنة؛ لأن الحضارة الحديثة تعد نفسها حضارة عالمية مركزية؛ فهي عالمية في أفكارها ومنتجاتها، وهي مركزية لأنها تدور حول نفسها في قيمها المبعثرة. ولذلك، فإنها حضارة

---

(١) الثقافة والإمبريالية، إدوارد سعيد، الصفحة ١٧.

لا تعترف بغيرها من الحضارات، ويصل الأمر بقادة هذه الحضارة إلى أن ينكروا أي حدث مهم وقع في العالم قبل عصر هذه الحضارة. يقول العلامة مالك بن نبي حول هذا الموضوع:

«هذه الأقوال هي التي خلقت ثقافة الإمبراطورية الغربية التي تقوم على أساس السيادة العنصرية والاستعمار»(١).

وأرى أن هيمنة العولمة على العالم اليوم بمواصفاتها الشاملة نتيجة لتطور الأوضاع السياسية والاقتصادية والعلمية، تمشي مع طبيعة الأشياء في تاريخ الغرب الحديث، وتمثل المرحلة الأخيرة في محاولة الحضارة الغربية للسيطرة على العالم ومحو الآخر. وقد عارض باحثون آخرون هذه النظرة وذهبوا إلى أن العولمة ليست تطوراً عن الاستعمار الأوروبي أو ظاهرة الثورة الصناعية، وإنما هي نظام كوني شامل جديد، مواصفاته لا تشبه مواصفات الإمبراطوريات السابقة. في حين أن هناك باحثين يُرجعون بدايات العولمة الحالية إلى السياسات التي ارتأت أمريكا أن تسيطر بها على العالم، غير أن الحرب الباردة بينها وبين الاتحاد السوفياتي، أجّلت تلك الهيمنة إلى سنة ١٩٨٩م، حيث ضعف الاتحاد السوفياتي وظهرت فيه نتائج سياسة البيريسترويكا التي حمل لواءها السكرتير العام الأخير للحزب الشيوعي السوفياتي ميخائيل غورباتشوف. يُرجع صاحبا كتاب فخ العولمة البداية الحقيقية للعولمة إلى زمان آخر حيث قالا:

«إن بدايات العولمة تعود إلى العام ١٩٩٥ميلادياً؛ حيث وجّه الرئيس السوفياتي الأسبق ميخائيل غورباتشوف الدعوة إلى خمسمائة من قادة العالم في مجال السياسة والمال والاقتصاد في فندق فيرمونت المشهور في سان فرانسيسكو لكي يبنوا معالم الطريق إلى القرن الحادي والعشرين. وقد

---

(١) وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، الصفحتان ٢٧ ـ ٢٨.

اشترك في هذا المؤتمر المغلق أقطاب العولمة في عالم الحاسوب والمال وكذلك كهنة الاقتصاد الكبار، وأساتذة الاقتصاد في جامعات ستانفورد وهارفرد وأكسفورد. واشترك فيها من السياسيين، الرئيس الأميركي جورج بوش الأب، ووزير خارجيته شولتز، ورئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر، ورئيس وزراء مقاطعة سكسونيا وغيرهم»[١].

والأصح أن نقول إن العولمة يعود تاريخها إلى بدايات ظهور الإمبراطوريات التي سعت أن تسيطر على العالم من دون مراعاة لقيم أو أخلاق فالمهم السيطرة على العالم. ولكن العولمة ظهرت بأبشع صورها في القرن العشرين خاصة بعد أن تحول العالم إلى سياسة القطب الواحد الذي تسيطر عليه الولايات المتحدة الأميركية.

٤ ـ أنواع العولمة

من خلال ما تقدم يتبين لنا أنه هناك أنواع متعددة من العولمة حيث أنها تتمظهر بمظاهر مختلفة سنبينها مع بعض الشرح فيما يلي:

١ ـ عولمة الفضاء الكوني:

لم تحصر الإمبراطوريات الحديثة اهتمامها في السيطرة على الأرض والناس، بل مدت هيمنتها إلى الفضاء الرحب؛ فغزته وسعت للسيطرة عليه مانعة أي دول أخرى لا تسير في فلكها من غزوه أو الاستفادة مما يمكن أن يطلع عليه الإنسان من خلاله لما فيه مصلحته، حتى بات في الإمكان أن نسمي الفضاء الخارجي إمبراطورية الفضاء الكوني؛ حيث استفادت هذه الإمبراطوريات منها لجعل الكرة الأرضية كلها بحجم قرية واحدة عن طريق مئات الأقمار الصناعية التي تجوب الفضاء الأرضي، وترسل البرامج

---

(١) فخ العولمة، الصفحتان ٢٢ ـ ٢٣.

المنوعة في كل يوم إلى كل عائلة من عوائل بلدان العالم، لتستقبلها أجهزة التلفاز والإنترنت، فتشكل في النهاية سلطة تكنولوجية ذات منظومات معقدة لا تعترف بالحدود الوطنية أو الفضائية أو البحرية، تقودها شبكات اتصالية معلوماتية من خلال سياسة العولمة واقتصادها وثقافتها وأفكارها وأنظمتها الاجتماعية، كي تقيم عالماً جديداً تتسلل من خلاله، ومن دون استئذان، إلى عقول وقلوب ونفوس البشر جميعاً من دون استثناء، ومن دون رقيب من دولة أو أمة أو دين أو وطن. هذه الشبكات ذات التأثير الخطير سلباً وإيجاباً مملوكة في غالبها إلى النظام العالمي الجديد الذي تقوده الولايات المتحدة الأميركية، وللصهيونية العالمية دورٌ أساسي فيه لا يمكن إغفاله، وتسعى هذه الشبكات كي تُبعد الناس عن انتماءاتهم وقيمهم وأخلاقهم ومنظومة حياتهم التي اعتادوا عليها لتُحِل مكانها منظومة جديدة غريبة عنهم لم يتربوا عليها، وقد لا تكون نافعة لهم أو هم غير محتاجين إليها، ولم يدعوهم إلى ذلك مصلحتهم بقدر ما كان التقليد الأعمى الناتج عن التأثير الذي توقعه هذه الشبكات هو الدافع، ما أدى إلى أن يخرج هؤلاء الناس من جلودهم فيتبنوا قناعات غير تلك التي تربوا عليها بشكل أدى إلى محو ذاكرتهم الجمعية والفردية فوقعوا فريسة أمام مغريات الحياة الرأسمالية الأمريكية وأنماطها الاجتماعية والأخلاقية في أمور لا علاقة لها بالتكنولوجيا المفيدة للناس والمجتمع، بل كل ما هو قشري لا قيمة له، وإنما هو مجرد مظاهر خداعة كطريقة اللباس خاصة المتهتك منه وطريقة الأكل من خلال ما غزا أسواقنا من الطعام السريع أو ما يسمى في اللغة الإنكليزية بالـ (fast food) مع ما لهذه الطريقة من الطعام من آثار أدت إلى تفشي الأمراض في مجتمعاتنا، هذا عدا الأمور المتعلقة بالترفيه والألعاب والجنس وخلافه. كل ذلك ينطلق من مصالح المعولم الذي يريد أن يروج لسلعته ويسيطر على العالم لا مصلحة شعوبنا المستضعفة. ولأهمية هذا المجال الرهيب في عالم العولمة تم عقد أربعة مؤتمرات دولية لبحث قضاياه (جنيف ١٩٩٢،

بيونس أيرس ١٩٩٤، بروكسل ١٩٩٥، جوهانسبرج ١٩٩٦)، نجح خلالها الأمريكيون من تسويق فكرتهم حول مجتمع المعلومات العالمي والضغط لفتح حدود أكبر عدد ممكن من البلدان أمام تدفق المعلومات. ويقول في هذا المجال العالم الأمريكي المعروف نعوم تشومسكي:

«إن العولمة الثقافية ليست سوى نقلة نوعية في تاريخ الإعلام، تعزز سيطرة المركز الأمريكي على الأطراف، أي على العالم كله»(١).

إن هيمنة أمريكا ناتجة من أن ٦٥٪ من مجمل المواد والمنتجات الإعلامية والإعلانية والثقافية والترفيهية تحت سيطرتها، ومن إنتاجها. هذا الأمر الذي أدى إلى توجس بعض الدول الغربية وخوفها على أجيالها. حيث أن المجال الإعلامي أكثر أوجه العولمة سلبية، إذ يسيطر أصحاب المصالح التجارية والاقتصادية على الإعلام، عبر التوظيف المالي والسيطرة الإدارية والفنية، ويستخدمونه في تشويه معرفتنا بالعالم ووعينا بأنفسنا ومعرفة الآخرين ووعيهم بأنفسهم وقضاياهم. وهنا لا بد من التأكيد على أن عولمة الفضاء الكوني بكل أبعاده، من أخطر القضايا التي تمس العالمين العربي والإسلامي معاً، بسبب سيطرة الصهيونية العالمية على أجهزة الإعلام والاتصالات، وما يرافق ذلك من تشويه الحقائق وطمس معالم الحضارة العربية الإسلامية، وصورة العربي المعاصر وتراثه لدى الرأي العام العالمي.

٢ ـ العولمة الاقتصادية:

بالرجوع إلى التاريخ الحديث نجد أن أول من بدأ بعولمة الاقتصاد العالمي هي الولايات المتحدة الأميركية منذ العام ١٩٤٤م، حيث سعت لتأسيس الصندوق الدولي ليكون حارساً على النظام النقدي الدولي، والبنك

---

(١) العولمة بين منظورين، ص١٢٥.

الدولي ليعمل على تخطيط التدفقات المالية طويلة المدى، وأنشأت منظمة التجارة العالمية التي أدت إلى اتفاقية «ألغات» والتي حوّلت السياسة التجارية للدول المستقلة إلى شأن دولي وليس عملاً من أعمال السيادة الوطنية، وسعت من خلال النظام النقدي العالمي للتحكم في حركة رؤوس الأموال، من خلال الشركات المتعددة الجنسيات التي لأمريكا فيها نصيب الأسد.

وإذا ما رجعنا إلى تاريخ البنك الدولي على سبيل المثال، نجد أنه قام وبتوجيه من الولايات المتحدة الأمريكية بإجبار كثير من الدول الإسلامية، باعتبارها إحدى مكونات مجموعة دول الجنوب، على إعادة هيكلة اقتصادياتها، وفقاً للسياسة التسلطية للولايات المتحدة الأميركية، فاتجهت هذه الدول إلى الخارج لجذب رؤوس الأموال الأجنبية، وتبني مفهوم القطاع الخاص، من خلال استخدام آليات السوق الحرة، وما يتطلبه ذلك من التقليص الواضح للملكية العامة وزيادة الفوارق الاجتماعية، ورهن أجيال المستقبل بالديون الخارجية. لقد كان للسوق العالمية الأثر الأبلغ في الإخلال بالتوازن في الدول القومية. وفتح الباب أمام الشركات المتعددة الجنسيات العملاقة للسيطرة ليس فقط على اقتصاديات الدول الفقيرة بل على سياسات هذه الدول، وهذا ما أدى إلى فرض نمط اقتصادي على الدول الأخرى وخاصة الفقيرة منها من دون أي مراعاة لمصالح المستضعفين. ويمكن هنا أن نعرض إحصائية أولية لقوة تلك الشركات المتعددة الجنسيات نقلاً عن مجلة البيان حيث ورد ما نصه:

«هناك في العالم ثلاثمائة وخمسين شركة كبرى لتلك الدول تستأثر بما نسبته ٤٠٪ من التجارة الدولية. وقد بلغت الحصة المئوية لأكبر عشر شركات في قطاع الاتصالات السلكية واللاسلكية ٨٦٪ من السوق العالمي،

وبلغت هذه النسبة ٨٥٪ من قطاع المبيدات، وما يقرب من ٧٠٪ من قطاع الحاسبات، و٦٠٪ في قطاع الأدوية البيطرية، و٣٥٪ من قطاع الأدوية الصيدلانية و٣٤٪ في قطاع البذور التجارية»[١].

إن نظرة موضوعية لهذه الإحصائية تدلنا بشكل واضح على أن هذه الاحتكارات ستؤدي إلى إقامة الحواجز بين الشعوب، وستصبح وسيلة للسيطرة والهيمنة على مصادرها. إن وحشية هذا النظام من خلال تصرفات هذه الشركات العملاقة يمكن أن نفهمها من خلال ما ورد في قضايا الفكر العربي حيث ورد ما نصه:

«وهذه الشركات العملاقة هي في حدود خمس عشرة شركة، هم السادة الفعليون الذين يطبقون نظرية: إنتاج أكثر ما يمكن من السلع والمصنوعات بأقل ما يمكن من العمال، من أجل تركيز الثروة العالمية في أيدي الرأسماليين الجشعين من أصحاب تلك الشركات الأمريكية وحلفائها»[٢].

إن سعة انتشار السلع التي تنتجها هذه الشركات العملاقة ونتيجة لفتح الأسواق العالمية أمامها من دون أية عوائق أو ضوابط، يجعل المنتج المحلي غير قادر على المنافسة وبالتالي يؤدي ذلك إلى إفلاس الشركات المحلية مما يعني تعثر العديد من الأنشطة الاقتصادية الوطنية. وعليه، لا يعود أمام الدولة المستضعفة سوى الاستيراد؛ ما يؤدي إلى ضياع الموارد المحلية، وفقدان السيولة، وزيادة التضخم ما يؤدي للاستسلام النهائي لسياسات الإمبريالية الأمريكية. والذي يساعد هذه الشركات العملاقة في السيطرة على اقتصاديات الدول الفقيرة هو أنها تأخذ ما يكفيها من التسهيلات والضمانات السياسية

(١) نهاية الجغرافية، مجلة البيان، الصفحة ١٠٢، نقلاً عن موقع إسلام أون لاين.
(٢) قضايا الفكر العربي، الصفحة ١٤٢، نقلاً عن موقع إسلام أون لاين.

والاقتصادية التي لا تحظى بها رؤوس الأموال المحلية، وهو ما يؤدي إلى فشل الشركات المحلية وعرقلة الاقتصاد المحلي، وأكثر من ذلك، فإن هذه الشركات تقتصر معظم أنشطتها على السلع الاستهلاكية ذات العائد الأسرع نتيجة للنمط الاستهلاكي السائد، ما يؤدي إلى اقتصاد مشوه وليس في مصلحة المواطنين وخاصة الفقراء منهم. وخلاصة الأمر أن هذه الشركات تقوم بامتصاص الفوائض المالية لدى المستهلكين عن طريق الإغواء والإغراء الاستهلاكي. ومن هنا، فإن نسبة كبيرة من الفساد المنتشر في دول العالم الثالث هو من صنع الشركات المتعددة الجنسيات التي تتركز مقارها في الدول الصناعية، وتعمل على تقديم الرشاوى الكبيرة لمسؤولي الدول المختلفة من أجل الفوز بالصفقات دائماً. إن العولمة الاقتصادية بهذا المعنى أدت وتؤدي إلى انتشار البطالة وهذا ما أشار إليه أحد المتخصصين بقوله:

«والنتيجة التي يستخلصها المختصون هي: إذا كان النمو الاقتصادي في الماضي يخلق مناصب الشغل، فإن النمو الاقتصادي في إطار العولمة يؤدي إلى تخفيض عدد مناصب الشغل، لأن بعض القطاعات في مجال الإلكترونيات والإعلاميات والاتصال، وهي من القطاعات الأكثر رواجاً في العالم، لا تحتاج إلاّ إلى عدد قليل من العمال. فالتقدم التكنولوجي يؤدي في إطار العولمة إلى ارتفاع البطالة، وهو ما سيؤدي حتماً إلى أزمات سياسية»[1].

إن العولمة، بحسب ما تقدم، تسعى من خلالها الولايات المتحدة الأمريكية والصهيونية العالمية للسيطرة على الشعوب، ونهب ثرواتها وخيراتها، وجعلها تابعة لها على الصعيد الاقتصادي والسياسي، بحيث

(١) قضايا في الفكر المعاصر، الصفحة ١٤٣، نقلاً عن موقع إسلام أون لاين.

يصبح من المستحيل بعد ربط اقتصاديات هذه الدول بها أن تتحلل لاحقاً من ذلك فتقع في براثنها إلى الأبد.

٣ ـ العولمة الاجتماعية:

إن البعد الاجتماعي للعولمة يعتبر من أوضح الأبعاد التي تسعى لها أو لا يمكن أن تعيش العولمة من دونه، ذلك أن العولمة التي تسعى لكي يكون هذا الكون بمثابة قرية صغيرة، لا يستقيم الأمر لها إن لم تجعل لهذه القرية نظاماً اجتماعياً واحداً ومنظومة قيم تخدم أهدافها في تحقيق السيطرة الشاملة على الكون. فالهدف هو تحقيق المجتمع الواحد، الذي يتألف من مجموعة من البشر تقودهم أنظمة اجتماعية واحدة حتى لو كانت قاسية الملامح وبلا قلب ولا عاطفة، فلذلك كان من أولويات العولمة تأسيس المجتمع ذي النظام الاجتماعي الواحد، ما يجعل من السهل على الجوانب الأخرى للعولمة العمل على إفساد المجتمع وتفريغه من القيم الأصيلة، والأخلاق الحميدة النابعة من الأديان السماوية، والفطرة الإنسانية العقلية. ولتكريس هيمنة الولايات المتحدة الأميركية على النظم الاجتماعية، والصهيونية في العالم من خلال العولمة قامت، وخاصة في فترة التسعينيات من القرن الماضي (العشرين)، ومن خلال سيطرتها على الأمم المتحدة، بالسعي لعقد مؤتمرات خاصة في جانب الأسرة، والسكان، والحرية الجنسية، وحرية الإجهاض، وما إلى هنالك من أمور تؤدي إلى تفكك اللبنة الأولى في مجتمع صالح والتي هي الأسرة؛ فكان مؤتمر المكسيك الذي عقد في العام ١٩٧٥ والذي دعا إلى حرية المرأة في الإجهاض، والحرية الجنسية للمراهقين والمراهقات، وتنظيم الأسرة لضبط السكان في العالم الثالث، غير أن هذا المؤتمر فشل في تحقيق أهدافه بعد أن فشلت الأمم المتحدة سابقاً بعقد مؤتمر مماثل في القاهرة في العام ١٩٥٠ م. وفي العام ١٩٨٥م عُقد في نيروبي مؤتمر بعنوان استراتيجيات التطلع إلى الأمام

من أجل تقدم المرأة، والذي كان يعني تحررها من القيود التي تحدد حركتها بحسب المنظومات الاجتماعية السائدة، خاصة تلك التي تحفظ كرامتها وتصون عفافها كما في الإسلام، ولا يكون ذلك إلا من خلال تفلتها وممارسة غرائزها علناً وتهتكها بدلاً من الحشمة والوقار. وبنفس المسار عُقد في القاهرة في العام ١٩٩٤م مؤتمر السكان والتنمية الذي دعا إلى قضايا منها تغيير حياة المرأة والأسرة من الناحية الدينية. وفي العام ١٩٩٥م عقد في بكين مؤتمر تحت عنوان المساواة والتنمية والتنظيم. وكان أيضاً في العام ١٩٩٦م مؤتمر السكان والتنمية والتنظيم في إسطنبول، هذه المؤتمرات إذا ما اطلعت على مقرراتها لوجدت أنها تطالب بأمور يندى لها الجبين، على سبيل المثال:

١ ـ للمرأة الحق بعلاقات جنسية آمنة مع من تشاء.

٢ ـ لكل من الجنسين حق تغيير جنسه، وبالتالي ممارسة الدور المترتب على هويته الجنسية الجديدة.

٣ ـ تشريع الشواذ الجنسي وإعطاؤهم الحق في الزواج المثلي بأن يتزوج الذكر من الذكر والأنثى من الأنثى، وإعطاء الحرية للمخنثين وإدراج هذه الحقوق ضمن شرعة حقوق الإنسان. إلى ما هنالك من مقررات تهدف أساساً إلى تفريغ الأسرة من محتواها الأساسي، وضرب بنيتها الاجتماعية، والتأثير على المجتمع في نشر الفاحشة في أطنابه، ومع تفكك عرى العائلة وضياع القيم يصبح من السهل السيطرة على هكذا مجتمع والتحكم به. ولعل أبلغ ما يدل على الأثر المدمر لهذه التغيرات هو ما حذرت منه رئيسة جمعية الأمهات الصغيرات في أمريكا المسلمين في مؤتمر القاهرة عندما قالت لهم:

«لقد دمّروا المجتمع الأمريكي وجاءوا الآن بأفكارهم للمجتمعات

الإسلامية حتى يدمروها ويدمروا المرأة المسلمة ودورها فيها»[(١)].

ولم يقتصر الأمر على إصدار المقررات في هكذا مؤتمرات، بل قامت الولايات المتحدة بالضغط على الدول، وخاصة الإسلامية منها، لتنفيذ هذه المقررات تحت طائلة تقديم المساعدات المالية لمن ينفذها وفرض عقوبات مالية غير موثقة بقرارات معللة لأسباب مختلفة عن هذا الموضوع، وإن كان الجميع يعرف أن هذه العقوبات إنما كانت بسبب عدم تنفيذ هذه الدول لهذه المقررات، بل إن الحصول على قرض من البنك الدولي يفترض مثلاً على بعض الدول الإسلامية أن تقوم بحملة لتنظيم النسل، أو إعطاء حقوق معينة للمرأة على صعيد الحرية الجنسية مثلاً، فإذا ببعض الحكام وتحت حجة الانصياع لقرارات البنك الدولي أو صندوق النقد يقومون بتنفيذ هذه المقررات. ولكونها أكثر النساء منعة أمام هذه الهجمة عملت دوائر الاستكبار العالمي للهجوم على المرأة المسلمة لتنفيذ المقررات السابقة هادفين من وراء ذلك هدم كيان المجتمع الإسلامي من خلالها ولأهمية دورها في بناء كيان الأسرة والمجتمع، فعملوا على تمويل الجمعيات الأهلية النسائية، من أجل تنفيذ مخططات إخراج المرأة المسلمة من الأخلاق الإسلامية. وقامت الولايات المتحدة الأميركية بعقد الاتفاقيات الدولية الخاصة بحماية حقوق الإنسان وإزالة آثار أشكال التمييز كافة ضد المرأة، وإلزام الدول الإسلامية بالتوقيع عليها مقابل إعفائها من بعض الديون التي عليها. كل هذه المؤتمرات تهدف إلى إيهام المرأة أن الظلم الواقع عليها إنما هو بسبب الإسلام والعادات والتقاليد التي انطلقت منه، في حين أن الحقيقة أنهم يريدون إخراجها من كرامتها التي حفظها لها الإسلام إلى التحلل الأخلاقي الذي يدمرها ويدمر أسرتها وفي النهاية يدمر مجتمعها.

---

(١) سقوط الحضارة الغربية، رؤية من الداخل، الصفحة ٢٨.

٤ ـ العولمة والدولة الوطنية:

تقدم معنا فيما سبق خاصة عند الحديث عن العولمة الاقتصادية أن من نتائجها إلغاء سيادة الدولة الوطنية وسيطرة الشركات الكبرى العملاقة لذلك، صح أن نقول إن العولمة تلغي الدولة الوطنية. وفي هذا المعنى يقول الفيلسوف الفرنسي جارودي ما نصه:

«والتيار المهيمن في صفوف الاقتصاديين الرسميين والسياسيين هو الدفاع عن الليبرالية بدون حدود، والداعي إلى اختفاء الدولة أمام السلطة المطلقة للسوق، وحتى لا يبقى أي عائق أمام الاحتلال الاقتصادي»(١).

لأن العولمة تحتاج إلى السيطرة على الدولة الوطنية وإخضاع قوانينها لحركتها وحريتها في العمل. وبذلك تؤدي العولمة المعاصرة إلى حرمان الدول من حق السيادة المطلقة وصولاً إلى مفهوم جديد للسيادة يركز على العالم أجمع بصفة الوحدة السياسية التي تحل محل الدولة التقليدية المعتادة»(٢).

بهذا المعنى لن يكون هناك أية سيادة لأية دولة، فالسيادة أصبحت دولية عالمية. وإذا ما تعارضت السيادة الوطنية مع السيادة الدولية فإن الأخيرة مقدمة على ما عداها، وهذا هو انقلاب بالمفاهيم خلقته العولمة الحديثة، بل إن خرق الحدود الخاصة للدولة لم يقتصر على مجال دون آخر بل شمل كل مجالات الدولة، وذلك من خلال وسائل الاتصال، أو التدخل الاقتصادي، أو أي وجه من وجوه العولمة، وهذا لا يتعارض مع السيادة الوطنية بحسب النظرة العولمية. وبمعنى آخر، فإن هناك تعريفاً جديداً للسيادة لا يمت بصلة إلى التعاريف القديمة أو المعنى الحقيقي للكلمة. وبذلك، لا يعود هناك

---

(١) العولمة والمستقبل إستراتيجية تفكير، الصفحة ٤٦.

(٢) مقالة السيادة في عصر العولمة، جريدة الشرق الأوسط، تركي محمد، عدد ٧٤٣٩.

دولة حقيقية بل شكل دولة هي أقرب ما يكون إلى حكومة تصريف أعمال أو إدارة عامة في وزارة لا أكثر ولا أقل. ولكن ما مهامها الأخرى؟!. يجيبنا صاحبا كتاب فخ العولمة على ذلك فيقولان:

«إنهم يهددون بهروب رؤوس أموالهم: أي الشركات المتعددة الجنسيات، ما لم تستجب الحكومات لمطالبهم، وهي مطالب عديدة، مثل منحهم تنازلات ضريبية سخية، وتقديم مشروعات البنية التحتية لهم مجاناً، وإلغاء وتعديل التشريعات التي كانت تحقق بعض المكاسب للعمال والطبقة الوسطى، مثل: قوانين الحد الأدنى للأجور، ومشروعات الضمان الاجتماعي والصحي وإعانات البطالة، وبما يقلل مساهماتهم المالية في هذه الأمور وخصخصة المشروعات، وتحويل كثير من الخدمات العامة التي كانت تقوم بها الحكومات، لكي يضطلع بها القطاع الخاص، وإضفاء الطابع التجاري عليها»[١].

وعليه يمكن القول إن الدولة بالمعنى الحقيقي للكلمة في مجتمع العولمة هي مجالس إدارات الشركات الصناعية العملاقة التي تقود فعلياً الدول الفقيرة والمستضعفة، فتقوم بالإطاحة بها تارة والدفاع عنها أخرى، بحسب ما تكون مصلحتها في هذا المجال. والدولة الحقيقية لم يعد لها وجود في ظل العولمة، فهي تراجعت أمام ضربات الرأسمالية الاحتكارية عن حقوقها وحدودها الجغرافية وواجباتها تجاه مجتمعاتها فتنازلت عن شخصيتها وكيانها لصالح هذه الشركات.

٥ ـ بين العالمية والعولمة

يقع الكثير من الناس ولعل بعض المثقفين كذلك في اشتباه بين هذين المصطلحين، إذ إنهم يخلطون بينهما فيجعلونهما مترادفين معبرين عن

---

(١) فخ العولمة، المقدمة، الصفحة١٠.

مفهوم واحد، وهذا خلط من عندهم، فإن لكلا المصطلحين معنى مغايراً للآخر كلياً، فهما يعبران عن أمرين متقابلين تقابل الخير والشر. العالمية هي انفتاح على العالم الرحب الواسع بكل أبعاده، واحتكاك بالشعوب والحضارات المختلفة للاستفادة من التجربة الإنسانية للآخرين فنأخذ منهم ما هو إيجابي ونترك ما هو سلبي، بمعنى أن نستفيد من سبل التقدم لدى المجتمعات الأخرى في أي مجال من المجالات من دون التخلي عن الهوية الفكرية والثقافية والحضارية لمجتمعاتنا، فهي، أي العالمية، احتكاك بالآخرين بعقلية وروحية منفتحة لا تجد حرجاً من الاستفادة منها، بل وإفادتها أيضاً بما توصلنا إليه نتيجة إيماننا أو بنتيجة تجاربنا العلمية والفكرية والاجتماعية، ما يؤدي إلى تكامل بشري وصولاً إلى المجتمع الأسلم الذي لا يكرر التجربة الخاطئة ويستفيد من التجربة الناجحة. وهذا الأمر لو تمت مراعاته سيؤدي حتماً إلى إثراء التجربة الحضارية للمجتمع المنفتح، في حين أن المجتمع الذي يعيش في بوتقة منغلقة لن يتقدم أو على الأقل فإن مسيرة تقدمه ستطول كثيراً. والعالمية بهذا المعنى حض عليها الدين الإسلامي ودعا إليها، فالإسلام لم يعتبر أن الفوارق الشكلية كالقومية واللون والجنس هي فوارق أساسية، بل اعتبرها مدعاة للتواصل والتحاور وصولاً لتحقيق الهدف الأسمى الذي هو مرضاة الله سبحانه وتعالى الذي قال في محكم كتابه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١).

فالهدف من جعلنا شعوباً وقبائل كما أراد الله سبحانه وتعالى هو التعارف، والذي لا يعني مجرد التعرف على النسب والقبيلة التي ينتمي إليها من نتعرف إليه بقدر ما يعني التعرف على كل خصوصياته وما يفيد من

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

تجربته الحضارية كما عليه هو أن يفعل ذلك، ما يؤدي إلى إغناء تجربتنا وصولاً إلى الكرامة والتي هي عند الله المزيد من التقوى التي تتمثل على الأرض من خلال خدمة عيال الله. والإسلام أيضا دين عالمي لم يأت لقبيلة محمد ﷺ بل أتى للبشر كافة، لذلك ترى أن آيات القرآن الكريم حافلة بالخطاب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾. ومن ذلك ما قاله الله على لسان نبيه محمداً، ﷺ في كتابه الكريم:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(١).

فالنبي ﷺ لم يرسله الله سبحانه وتعالى لفئة خاصة من البشر، بل أرسله لكل الناس من دون تمييز بين أبيض وأسود، عربي وأعجمي. وهذا ما يُطلق عليه عالمية الإسلام التي تعني الانفتاح على كل الأمم ودعوتها للدين الواحد الذي فيه خلاصهم ولكن من دون الانغلاق عليها والاستفادة منها أو إفادتها. بل يمكن أن يكون الأمر أبعد من عالمنا نحن فالإسلام دين لم يدعُ عالم الإنس فقط، بل هو دعوة للعالمين عالم الإنس والجن، وهذا ما عبر عنه الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾(٢).

أما العولمة فهي كما بينا فيما سبق، هي محاولة للسيطرة على الأمم والشعوب الأخرى من خلال تذويب كل مقوماتها الحضارية وإلغاء شخصيتها الفكرية والاجتماعية لتصبح تابعة للآخرين فلا تعود كما كانت، ولعله من الصعب أن تصبح كما تريد. إن العولمة تسعى لتكريس

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

إيديولوجية القوى المسيطرة على مجتمعات استسلمت لها وألغت شخصيتها، سواء ألغتها بإرادتها أو من خلال هيمنة القوى المستكبرة عليها عبر الحروب أو السيطرة الاقتصادية. ففي حين أن العالمية لا تلغي الانتماء إلى الوطن أو القبيلة أو الجماعة، فإن العولمة تؤدي إلى فقدان الشعور بالانتماء إلى الوطن أو الدولة أو القومية أو الأمة، ما يؤدي إلى فقدان الهوية الثقافية والحضارية للشعوب. لذا، فإن هناك فرقاً شاسعاً وبوناً واسعاً بين المصطلحين، فبينما ترى أن العالمية تعني أن العالم على مختلف انتماءاته يعيش أبناؤه على أرض واحدة، ويستظلون سماء واحدة، ويستفيدون من موارد واحدة؛ ما يفرض عليهم أن يستفيدوا من بعضهم البعض إن على صعيد التقدم العلمي أو على صعيد التوزيع العادل للموارد المتوافرة، مما يجعله مجتمعاً متكاملاً وليس مجتمعاً متناحراً ومتصارعاً، وهذا ما يميز المجتمع الإنساني عن المجتمع الحيواني، وبالتالي لا يجوز أن يفرض فيه القوي على الضعيف دينه، أو لغته، أو عاداته، أو تقاليده، أو مبادئه، فإذا ما اتفقنا على ذلك تغير المجتمع نحو الأفضل، وإن لم نفعل فإن النتيجة الطبيعية هي الحروب والمشاكل.

٦ ـ الإسلام دين عولمة أم عالمية

قد يقول البعض إن الإسلام يفعل ما نهيتم عنه فيما سبق، فهو يدعو لسيطرة الدين الإسلامي على البشرية كافة ولو بالقوة، وبالتالي فهو دين عولمة كتلك التي نهيتم عنها وأدنتموها. والصحيح، أن هذا الكلام ليس صحيحاً على الإطلاق، فلم يفرض الإسلام، وبالنظر إلى معتقداته ومفاهيمه، الدين بالإكراه، بل دعا إليه بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، وبالرجوع إلى الآيات القرآنية يتبين لنا هذا المعنى ومن ذلك على سبيل المثال ما ورد في قوله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ

بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

فالإسلام ومن خلال هذه الآية الكريمة دعا وبشكل واضح إلى أن لا يكون هناك إكراه للناس على الدخول في الإسلام، بل أراد أن يكون هذا الانتماء ناتجاً عن قناعة داخلية على قاعدة أن الرشد بيِّن، والضلال بيِّن، وعليك أنت أيها المكلف أن تُعمِل عقلك فتختار بين الطريقين ما هو الأصلح لك في دنياك وآخرتك. وأن يكون هذا الاختيار على أساس المنطق السليم، بل أكثر من ذلك، إن الإسلام تحدث عن الاختلاف باعتباره سنة إلهية وإرادة من الخالق الكريم لمصلحة لنا فقال في كتابه الكريم: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(٢).

فالإرادة الإلهية تعلقت في أن نكون مختلفين من نواحي متعددة، ومن ذلك أن نكون مختلفين في توجهاتنا العقدية والفكرية، فلو كنا كذلك، فإن على الواحد منا أن لا يتعصب لما يؤمن به ويعتقد به، بل عليه أن يبحث عن الحقيقة ولو كانت عند الآخرين وحتى لو كانوا على عداء معنا، فالحقيقة ضالة المؤمن، ولا يجوز لنا أن نترك الإيمان والالتزام بها لمجرد أنها دين أو عقيدة غيرنا فهذا غير مقبول من الناحية الشرعية، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾. أما بعثة الأنبياء من أجل تبليغ الناس رسالة الإسلام فإن ذلك مرتبط بعملية التبليغ الإلهي المنطلقة من رحمته ورأفته بنا؛ فلم يتركنا نبحث عن الحقيقة من دون أن ينير لنا الدرب، بل تدخل

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

وأرسل لنا الأنبياء مبشرين ومنذرين ليدلوننا على طريق الصواب فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فلذلك نعتبر أن تدخل الأنبياء في عملية الدعوة إنما كان من أجل أن يلقي الله الحجة علينا وساعتئذٍ إن هلكنا فلم نتبع الطريق القويم أصبنا بشر أعمالنا كما قال الله سبحانه وتعالى:

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

فعملية دعوة الناس للإسلام لا تنطلق من المفهوم الذي تحدثنا عنه في فرض الرأي على الآخر كما في العولمة، بل هي من قبيل دعوة الناس بالحسنى لما توصلنا إليه نحن ووجدنا فيه صالحنا، انطلاقاً من تكليف إلهي لنا بعدم كتم علمنا عمن هو محتاج إليه، وليتبين للناس الحق فإن أبوا واستكبروا فلم نكلف أزيد من البيان لهم وهذا ما شرحه القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(٢).

فمهمة الرسول اقتصرت على الدعوة للإسلام فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. فليست مهمته القصر والإلزام بالإسلام، بل مهمته مجرد الدعوة والتبليغ. بل وأكثر من ذلك، إن الإسلام دعانا إلى أن نقسط إلى من لم يحاربنا ممن لا يؤمن بديننا فقال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٣).

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.
(٣) سورة الممتحنة، الآية: ٨.

فإذا لم يكن بيننا وبين من خالفنا في الدين حرب اعتدوا بها علينا فأخرجونا من ديارنا، أو سعوا للقضاء علينا من خلال التآمر علينا، أو تشجيع عدونا على غزونا، أو مساعدته في ذلك، فلا مانع لدى الله سبحانه وتعالى من أن تكون العلاقة بيننا وبين هؤلاء علاقة البر والرحمة والإلفة.

تشريع الجهاد والعولمة:

يُتحدث في هذا المجال عن أن الإسلام شرع الجهاد وأمر بالقتال بل والغلظة فيه، كل ذلك من أجل فرض السيطرة على الآخرين، وجعلهم يؤمنون بالدين ولو غصباً عنهم، فهل يمكن بعد ذلك أن تحدثوننا عمّا يفعله المستكبرون اليوم؟ والحقيقة أن هذا الكلام يحتاج إلى تدقيق وتمعن وعدم أخذه على عواهنه، ولكي نوضح رأي الإسلام في تشريع الجهاد لا بد من مقدمة بسيطة حوله في أصوله الأولية كي يسهل فهمه وعدم الوقوع في الشبهة. إن الجهاد فرض من فرائض الإسلام شرعه لنا مع ما فيه من المكاره والصعاب فقد قال سبحانه وتعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وبالتالي لا نستطيع أن ننكر هذا التكليف أو نتبرأ منه، ولكن ما يجب أن نفهمه هو من أجاز لنا الإسلام جهادهم؟ ولماذا؟ وهل ذلك مشابه للعولمة التي يتحدث عنها في أيامنا هذه. وعليه فإننا نقول في هذا المجال إن الإسلام قسم غير المسلمين الذين تجب مجاهدتهم إلى فئات ثلاث، سنتحدث عنها بشيء من التفصيل وهي على الشكل التالي:

١ ـ المشركون أو الذين لا يؤمنون بإله وخالق للكون.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

٢ ـ أهل الكتاب.

٣ ـ البغاة.

١ ـ المشركون:

الإسلام يرى أن الإيمان بالله عز وجل ينطلق من الفطرة السليمة التي فطر الله عز وجل الناس عليها، والذين لا يؤمنون بالله كالذين يعبدون الأصنام، أو النار، أو الشمس، أو القمر، وأي معبود غير الله سبحانه وتعالى فهؤلاء عليهم إما أن ينصاعوا للفطرة السليمة ويؤمنوا بخالق للكون الذي هو الله سبحانه وتعالى، وإما أن يقوم المسلمون بمجاهدتهم كي يدخلوا في هذا الدين ويعودوا إلى الفطرة السليمة التي جبلنا الله سبحانه وتعالى عليها كما ورد في قوله سبحانه وتعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

فبعد أن كان الإيمان بالله عز وجل منطلقاً من الفطرة، وهذه الفطرة أودعها الله عز وجل في النفس الإنسانية كي تهتدي إلى الحق والصواب والذي أساسه الأول التوحيد، كي لا يكون للإنسان عذر في عدم عبادة الله، وبما أن ذلك هو حق من الحقوق الإنسانية فإن الدفاع عنه ومنع التعرض له يعتبر حقاً مشروعاً، ولذلك فإن من يخالف الفطرة بعدم عبادة الله بل الدعوة إلى عبادة غيره، ومن يعمل على عدم التصديق بالفطرة، يجب مجاهدته وإعادته إلى جادة الحق والصراط المستقيم، وهذا لا يعني فرض الإرادة السياسية على الآخرين، بل يعني تنفيذ إرادة الله عز وجل في أن لا يكون هناك معبود غيره على وجه الكرة الأرضية. فالمسألة تتعلق

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

بالدين كمعتقد إلهي تتعلق به الإرادة الإلهية، حيث إن الله عز وجل خلقنا كي نعبده ولا نشرك به أبداً فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(١).

والقتال الذي فرضه الله علينا إنما فرضه كي لا تنتشر فتنة عبادة من ليس أهلاً للعبادة، كعبادة الأصنام، أو الأشخاص، أو حتى الذات والشهوات والغرائز، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

ومن خلال الآية الكريمة يظهر بشكل واضح أنه لو انتهى هؤلاء الكفار عن مخالفة فطرتهم في عبادة غير الله عز وجل فلا مجال ساعتئذٍ لمقاتلتهم لانتفاء السبب، وهذا ما يفترض أن يكون هناك دعوة للإيمان قبل القتال. فالقتال في الإسلام ليس غاية في نفسه وإنما المطلوب هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

٢ ـ أهل الكتاب:

أما أهل الكتاب فالحال معهم مختلف، وذلك لأنهم يؤمنون بأن خالق هذا الكون هو الله سبحانه وتعالى. غاية ما هنالك أن اليهود لم يؤمنوا بنبوة النبي عيسى المسيح عليه السلام فضلاً عن النبي محمد ﷺ والنصارى لم يؤمنوا بنبوة النبي محمد ﷺ مع إيمانهم بنبوة النبي موسى عليه السلام، وبالتالي، فإن الإسلام حدد التعامل معهم على أحد الأسس الثلاثة التالية:

١ ـ إما أن يؤمنوا بالإسلام باعتبار أن النبي محمداً ﷺ هو رسول من الله والقرآن هو كتاب الله.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

٢ ـ أن يدفعوا الجزية للدولة الإسلامية مع المحافظة على دينهم، وهذه الجزية تكون في مقابل توفير الحماية لهم مع عدم إلزامهم بالجهاد مع المسلمين والقتال معهم، وليس لهذه الجزية مقدار محدد، بل أمرها بيد الحاكم الشرعي ضمن ظروف يقررها اعتماداً على حاجات الدولة الإسلامية.

٣ ـ إذا ما رفضوا كلا الأمرين أي الإسلام أو دفع الجزية، فإن الحل معهم والحال هذه هو قتالهم حتى يلتزموا بأحد الأمرين السابقين. وهذا التحديد يمكن ملاحظته في قوله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[1].

والجزية هنا ليست بمعنى الجزاء، وإنما دفع ما يؤدي الاجتزاء به في حقن دمائهم، قال الراغب في المفردات:

«الجزية ما يؤخذ من أهل الذمة وتسميتها بذلك للاجتزاء بها في حقن دمهم»[2].

أما الصغار فليس بمعنى إهانتهم والسخرية بهم، بل تعني خضوعهم للسنة الإسلامية في هذا التشريع تماماً كما يسلم المسلم بالالتزام بأحكام الشريعة، وهذا ما أورده الله عز وجل عنهم عندما قال:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[3].

فقد اعتبر الله عز وجل التسليم صفة للإيمان يفقده المسلم إن لم

---

(١) سورة التوبة ٢٩.
(٢) مفردات غريب القرآن الصفحة ٩٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ٦٥.

يتحلَ بها على قاعدة التسليم الكامل. انطلاقاً من كل ما تقدم في هذه الفقرة تبين لنا أن الإسلام لا يمنع أهل الكتاب من أن يظلوا على معتقدهم شرط قيامهم بدفع الضريبة المفروضة عليهم باعتبارهم مواطنين في دولة تؤمن لهم الحماية والأمن ومقتضيات العيش الكريم، وبالتالي لا يفرض الإسلام على أهل الكتاب أن يؤمنوا به إكراهاً وغصباً عنهم.

٣ ـ البغاة:

البغاة هم المسلمون الذين خرجوا عن طاعة الإمام عليه السلام، وهؤلاء يجب قتالهم حتى يعودوا إلى طاعة الله ورسوله وأولي الأمر. وهذا الموضوع خارج عن موضوع النقاش في العولمة؛ لأنه يتعرض لمسلمين خالفوا أحكام الدولة والدين الذي ينتمون إليه، والمطلوب من وراء قتالهم هو إعادتهم إلى جادة الصواب والتزامهم أحكام الشريعة وعدم خرقهم للنظام العام، وهذا ما يتفق عليه كل الناس في وجوب مقاومة التمرد على السلطة خارج الإطار المشروع من النقد البناء الساعي لتقويم اعوجاج السلطة أو السلطان. فالمسألة أولاً أن المطلوب هو عودتهم في الأساس لا قتالهم، باعتبار أن القتال طريق لذلك وليس غاية في الأساس، وهذا ما نستظهره من قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(١).

فالظاهر من الآية الكريمة أن المعنى هما فئتان من المؤمنين، وثانياً أن المطلوب قتال الفئة الباغية حتى تعود إلى أمر الله، فالغاية والهدف هو العودة لا

(١) سورة الحجرات، الآية: ٩.

القتال الذي هو وسيلة كما قلنا. ويترتب على العودة قيام المؤمنين ممن هم خارج دائرة الاقتتال بالإصلاح بين الفئتين.

وجوب دعوة المشركين للإسلام قبل قتالهم:

وبناء لما تقدم، وحيث إن الهدف في الأساس ليس القتال في حد نفسه وإنما إرجاع الناس إلى فطرتهم التي فطرهم الله سبحانه وتعالى عليها، لم يجز لقائد المسلمين في الحرب أن يبتدئ بالقتال قبل دعوة المشركين إلى الإسلام، فإن وافقوا حقنوا دماءهم ودماء المسلمين وتحققت الغاية الإلهية، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«قال أمير المؤمنين علي عليه السلام بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليمن فقال: يا علي لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام: وأيم الله لئن يهدي الله عز وجل على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت ولك ولاؤه يا علي»(١). المطلوب هو الهداية من الضلالة التي التبست على هذا الإنسان وضيعت عليه، ما فطره الله عليه وليس المطلوب قتالهم وقتلهم، وهذه مسألة مرتبطة كما قلنا بإعادة الإنسان إلى فطرته وهدايته لما فيه مصلحته في الآخرة عندما يلقى ربه. وليس الأمر مرتبطاً بفرض مصالح سياسية على الآخرين لخدمة مصالح دول أو أشخاص، وهذا هو الفرق بين ما هو إلهي أخروي وبين ما هو إنساني شخصي مصلحي. ويؤيد هذا المعنى ما ورد في كيفية دعوة المشركين للإسلام عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام فيما رواه عنه الزهري أنه قال:

«دخل رجال من قريش على علي بن الحسين عليهما السلام فسألوه كيف الدعوة إلى الدين؟ فقال: تقول بسم الله الرحمن الرحيم ادعوك إلى الله عز وجل ودينه وجماعه أمران: أحدهما معرفة الله عز وجل، والآخر العمل برضوانه،

---

(١) وسائل الشيعة، الجزء ١١، الصفحة ٣٠.

وإن معرفة الله عز وجل أن يعرف بالوحدانية والرأفة والرحمة والعزة والعلم والقدرة والعلو على كل شيء وأنه النافع الضار القاهر لكل شيء، الذي لا تدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن ما جاء به هو الحق من عند الله عز وجل، وما سواه هو الباطل فإذا أجابوك إلى ذلك فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين»[١].

إن المتمعن في هذا الحديث يجد بشكل واضح أن المسألة كما بينا سابقاً هي إنقاذ هؤلاء الناس مما هم فيه من جهل وكفر ما يجعلهم أخوة لنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وهنا لا بد من الالتفات إلى مسألة مهمة وهي أن كل القوى المتغطرسة التي تتعامل مع دول مستضعفة لا تتعامل معهم بهذا الأسلوب السامي النبيل، فهم إما أن يستسلموا أو أن يقهروا ويقاتلوا حتى يسحقوا، وفي الحالين فإنهم لن يرتفعوا إلى أن يكونوا أقراناً للدولة المستكبرة. أما هنا فإن دخولهم في الإسلام وقبولهم دعوته يجعلهم أخواناً للدولة الإسلامية القوية، بل يمكن أن يصبحوا بما يملكون من كفاءات قيادات في هذه الدولة. ومن المعروف في التاريخ الإسلامي أن الإسلام وإن انطلق من بيئة عربية إلا أن دخول غير العرب في الإسلام ولو من خلال الفتح الإسلامي جعلهم قواداً لهذا العالم، ومن المعروف أن الخلافة العثمانية كانت لغير العرب، فالمتدبر بهذا المعنى يجد فرقاً كبيراً بين العولمة وما نتكلم عنه هنا من تشريع الجهاد في الإسلام.

بين الدفاع والجهاد:

وقع بعض المسلمين وغيرهم بالخلط بين مفهومي الجهاد والدفاع المستلزم للقتال، والحقيقة أن الدفاع ليس جهاداً بالمعنى المصطلح، بل هو أمر آخر وله تعريف آخر. وفي موضوع بحثنا أي العولمة فهو أبعد من أن يكون عولمة، بل هو

---

(١) وسائل الشيعة، الجزء ١١، الصفحة ٣١.

دفاع عن بلاد المسلمين أو المسلمين أنفسهم إن هم تعرضوا الخطر داهم من عدو يريد غزو أرضهم وديارهم. وبمراجعة للنصوص الشرعية الكثيرة الواردة في هذا المجال نرى أن كثيراً مما ورد في القرآن الكريم مثلاً حول القتال إنما كان في مورد الدفاع المشروع عن النفس وليس في مورد الهجوم وفرض النظام الإسلامي على الآخرين، ومن هذا القبيل ما ورد في قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾(١).

فالنظر في معنى الآية الكريمة يُظهر بشكل واضح أن القتال دفاعي وليس ابتدائي وعدواني، بل هو رد فعل على إرادة الآخرين الاعتداء على الإسلام وأهله. وبنفس المعنى وردت آيات كثيرة، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢). فالآية عندما تحدثت عن قتال المشركين لم ينطلق الأمر الإلهي فيها من طلب القتال كيفما كان أو أن نقاتل المشركين حتى لو لم يبادرونا بشيء، بل كان القتال هنا رد بالمثل على اعتداء المشركين علينا كمسلمين، وإذا ما دققنا أكثر في الموضوع نجد أن الله سبحانه وتعالى نهانا عن أن نفرط في استخدام الحق في الدفاع عن النفس فقال سبحانه وتعالى:

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

فلو اعتدي عليكم من قبل أية جهة كانت فإن لكم الحق في الدفاع عن أنفسكم، ولكن هذا لا يجيز لكم أن تتمادوا في رد الاعتداء بل أن يكون الدفع بمقدار الفعل من قبل المعتدي.

هل هناك جهاد في أيامنا هذه؟

بناء لما بيناه سابقاً من أن تشريع الجهاد الابتدائي هو عملية دعوة لأمم أخرى للإسلام من خلال جيوش قوية للمسلمين، وبما أن هذه العملية من الخطورة بمكان أن تكون بيد أناس عاديين، وجدنا أن الإسلام اشترط أن يكون الخروج لهذه الحرب مع إمام عادل كي لا يقع المسلمون في حبائل قائد يريد إخراجهم للحرب تحت عنوان الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وهو يريد في حقيقة الأمر توسيع ملكه وسيطرته كما يفعل أرباب العولمة في أيامنا هذه في إعطاء عناوين براقة لحروبهم، كأن تكون ضد الإرهاب أو للحفاظ على حقوق الإنسان، فيما هم في الواقع يريدون السيطرة والتسلط وتوسيع رقعة ملكهم، لذلك كان شرط أن يكون صاحب راية الجهاد إماماً عادلاً هو أحد الشروط الأساسية في تشريع الجهاد. وقد ورد في هذا المعنى روايات عدة منها ما ورد عن بشير في سؤال الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«قلت له: إني رأيت في المنام أني قلت لك إن القتال مع غير الإمام المفترض طاعته حرام مثل الميتة والدم ولحم الخنزير، فقلت لي: نعم هو كذلك، فقال أبو عبد الله عليه السلام: هو كذلك، هو كذلك»[١].

فيظهر من هذا الحديث الشريف وغيره مما هو من هذا القبيل أن الموضوع ليس موضوعاً يتهاون فيه أو أن الإسلام تركه كيفما كان، بل هو موضوع أوكله الله عز وجل لولاة الأمر المفترضي الطاعة من المؤمنين العدول الذين نؤمنهم على ديننا وآخرتنا. وهنا يوجد اختلاف بين الشيعة

(١) وسائل الشيعة، الجزء ١١، الصفحة ٣٢.

الإمامية حول الجهاد الابتدائي في فترة غياب الإمام الحجة القائم المنتظر المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ فمنهم من اعتبر أن تشريع الجهاد الابتدائي لا يجوز في فترة الغيبة، بل هو محصور في الجهاد الدفاعي وإخراج المحتل من أراضينا التي احتلها، ومنهم من ذهب إلى أن الأمر ممكن في هذه الفترة إذا ما وجد قائد إمام عادل يمكن أن يقود الأمة في هكذا جهاد. وهذا الخلاف منطلق من فهم بعض الروايات ومنها ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«كل راية ترفع قبل قيام القائم فصاحبها طاغوت يعبد من دون الله عز وجل»[1].

في حين استظهر آخرون ومن خلال أن العلماء ورثة الأنبياء، وأن الإمام المنتظر (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أوكل للثقات منهم قيادة الأمة فلهم أن يبتدئوا بجهاد، ومن ذلك روايات كثيرة منها ما ورد في التوقيع الشريف عن الإمام الحجة المنتظر عليه السلام فيما رواه إسحاق بن يعقوب أنه قال: «سألت محمد بن عثمان العمري أن يوصل لي كتاباً قد سألت فيه عن مسائل أشكلت عليّ فورد التوقيع بخط مولانا صاحب الزمان عليه السلام: أما ما سألت عنه أرشدك الله وثبتك ـ إلى أن قال: وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله»[2].

وكيف كان، وبغض النظر عن الرأي الأصح في ذلك، فإن هناك قدراً متيقناً ألا وهو أنه لا يصح الجهاد الابتدائي إلا بقيادة الإمام المعصوم أو من يعينه على وجه الخصوص، فيما اصطلح على تسميته بالنائب الخاص، أو من يعينه على وجه العموم، فيما اصطلح على تسميته بالنائب العام أو ولي الفقيه.

---

(١) وسائل الشيعة، الجزء ١١، الصفحة ٣٧.
(٢) وسائل الشيعة، الجزء ١٨، الصفحة ١٠١.

نظرة الإسلام إلى الآخر:

مما تقدم، وبالرجوع إلى الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والتعرض لما ورد في التاريخ الإسلامي الحافل، نجد أن الإسلام لم يعمل على فرض رأيه ووجهة نظره وطريقة تفكيره وعاداته وتقاليده ولغته على الآخرين، بل إنك كنت تجد دولة إسلامية مترامية الأطراف من قوميات مختلفة وأعراق متباعدة ولغات متباينة تجمعها دولة إسلامية واحدة لا تلغي شيئاً من خصوصياتهم إلا ما ألغوه هم أو هذبوه ليكون متناغماً ومتطابقاً مع ما آمنوا به من أحكام الإسلام، وأدل دليل على ذلك أن بقيت اللغة الفارسية واللغة التركية وغيرها من اللغات ولم تلغَ لصالح اللغة العربية لغة القرآن وموطنه. بل أكثر من ذلك، وجدنا أن الإسلام اعترف بواقع الأديان الأخرى وعامل أتباعها معاملة كريمة، فعاش النصراني واليهودي والمجوسي مع المسلمين من دون أن يعمل الإسلام على تغيير ديانتهم بالإكراه والضغط. وإذا ما رجعنا إلى بدايات التاريخ الإسلامي وجدنا أن النبي ﷺ عقد في المدينة المنورة مع اليهود صلحاً نقضوه هم كما هو عهدهم دائماً، وعقد مع المشركين في مكة صلحاً اسمه صلح الحديبية نقضوه هم أيضاً، بل هناك معاهدات ومواثيق أقامتها الدولة الإسلامية مع الدول الملاصقة لها. ولعل الجامع الأساسي لهذا المعنى ما ورد في قوله سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾(١).

فالمرجع أساساً من الناحية الشرعية الإسلامية في كل ما يميز علاقتنا مع الآخرين هو تقوى الله عز وجل، وأما التغاير فهو مدعاة للتقارب والتعارف وليس مدعاة للتنابذ والاختلاف والتناحر.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

٧ ـ دور الولايات المتحدة الأمريكية في العولمة

تشكلت الولايات المتحدة الأميركية من المهاجرين من عدة دول، وكان يجمعهم أنهم كانوا على خلاف عقائدي مع تلك الدول فوجدوا في الأرض العذراء التي لم تطأها حضارة من قبل أملاً في بناء دولتهم المنشودة، وفي ذلك قال صموئيل آدمز أحد قادة الثورة الأميركية في إحدى خطبه:

«طردوا من كل زوايا الأرض، لكن عشقهم لحرية الفكر، وحق الاختيار في قضايا الضمير، قادهم لهذا البلد السعيد كملجأ أخير»[١].

وساعد هؤلاء في تحقيق غايتهم أنهم وطئوا أرض قارة مترامية الأطراف كثيرة الثروات يمكن لهم الاكتفاء منها ولا يحتاجون إلى الاعتماد على دول أخرى ما يؤمن لهم الاكتفاء الذاتي.

وبعد تأمين الاستقرار الداخلي حاولت الولايات المتحدة الأميركية أن تنتشر خارج إطار حدود الدولة بل حدود القارة، من خلال مفاهيم الحرية والاستقلال، ما شد إليها أنظار الشعوب الفقيرة والمستضعفة ووجدت فيها أملها الذي اكتشفت لاحقاً أنه لم يكن سوى وهم. ومن الأمور التي أثرت في الشعوب المبادئ التي أعلنها الرئيس ويلسون، والذي أكد فيها الإلتزام بحرية الشعوب والعدالة للعدو والصديق، والسلام الدولي عبر عصبة الأمم، وهذه الأمور عبر عنها في إحدى خطبه الشهيرة حيث دعا إلى:

«تعاون عالمي لإحقاق الحق، تقوم به شعوب حرة، لجلب السلام والأمن لجميع الأمم، والتي تجعل من العالم ـ أخيراً ـ عالماً حراً»[٢].

---

(١) العولمة من منظور إسلامي، مقالة.
(٢) المصدر السابق.

كل هذه الأمور التي وعد بها هؤلاء لم تكن سوى أضغاث أحلام لم ينتج عنها سوى أن وقعت الأمم التي اعتمدت على الولايات المتحدة الأميركية في الوصول إلى هذه الأهداف بخيبة أمل كبيرة، ولم يجدوا من هذه الدولة سوى إرادة التحكم والسيطرة والوقوع تحت هيمنة الشركات الصناعية الكبرى والتأثير الكبير للوبي الصهيوني في عالم المال والإعلام.

لقد عملت الولايات المتحدة الأميركية ضمن خطة يظهر من بين ثناياها دور اللوبي الصهيوني، فقد دعمت بريطانيا في حرب الألمان عليها، ولم يكن ذلك خوفاً على مصالحها أو دفاعاً عن النفس وإنما كان من أجل نجدة الأسرة الواحدة كما قال رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل في إحدى خطبه:

«كثيرا ما تنسى حقيقة أن الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا تتحدثان لغة واحدة هي الإنجليزية»[١].

يظهر مما تقدم أن السبب المباشر لدخول الولايات المتحدة الأميركية الحرب إلى جانب الحلفاء لم يكن بسبب الهجوم الياباني على بيرل هاربور في ٧/ كانون الأول/ ١٩٤١م، بل إنما كان من أجل البداية بمشروع الهيمنة على العالم، وما الهجوم الياباني إلا حجة في سبيل تحقيق هذا الهدف، فمن المعروف أن الرئيس الأميركي روزفلت كان يحاول إقناع الشعب الأميركي للانضمام إلى جانب الحلفاء، وكان هناك معارضة قوية في وجهه فقام باستفزاز اليابان بعدة وسائل واستدرجها إلى الحرب، خاصة عندما قام بإرسال الخبراء والأسلحة لدعم الصين في حربها ضد اليابان، ولذلك ابتهج روزفلت أيما ابتهاج بالهجوم الياباني الذي وفر له السبب المباشر لدخوله الحرب.

وبعد دخول الولايات المتحدة الأميركية الحرب إلى جانب الحلفاء

---

(١) المصدر السابق.

والذي كان سبباً أساسياً لانتصارهم فيها، ومن ثم قيامها بدعم الاتحاد السوفياتي لإيقاف التقدم الألماني، وبعد النصر، ساهمت في تنظيم مؤتمر يالطا الذي قسم العالم بين الدول المنتصرة في الحرب بإشرافها، ما جعلها تتزعم المعسكر الغربي بعد ذلك. ثم أدى تضارب المصالح بينها وبين الإتحاد السوفياتي إلى بدء حلقة صراع جديدة كانت الولايات المتحدة الأميركية تتزعم فيه حلفاً اسمه حلف الناتو في حين كان الاتحاد السوفياتي يتزعم حلف وارسو وكانت الغلبة بالنهاية لحلف الناتو والولايات المتحدة الأميركية.

إن الذي حصل هو أن الولايات المتحدة الأميركية بعد أن بدأت مع الأوربيين على أساس الشراكة انتهى الأمر حتى مع هؤلاء ليكونوا أتباعاً وتنفرد الولايات المتحدة الأميركية بالزعامة المطلقة.

وللتدليل على المعنى الذي أشرنا إليه وهو انتقال الإستراتيجية الأمريكية بين الحربين من دور الشريك في التحالف الغربي، إلى مقعد الزعامة العالمية المنفردة، حيث اعتبر أن الولايات المتحدة قد استفادت من دروس التاريخ، وانتهت إلى نمط جديد من القوة الإمبراطورية أطلق عليها القوة الناعمة (Soft power)، نورد مقاطع مما كتبه الكاتب يوسف غوف في عدد خاص أصدرته مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية «سبتمبر/ أكتوبر ١٩٩٧ عن عالم المستقبل ما نصه:

«لا يجب أن نقع في التقدير الخاطئ فإن القوة الضاربة (Hard power) لا يزال لها مكان في السياسة الأمريكية، لأنها المحصلة النهائية في منطق القوة، ولكن في منطقة التعامل اليومي فإن القوة الناعمة (Soft power)، هي العملة الناجحة، لأنها الأقل إكراهاً، والأقل ظهوراً». ومضى الكاتب قائلاً: «لقد كان الأسلوب التقليدي أن نرغم الدول الأخرى لأن يفعلوا ما نريد ولو باستخدام القوة المسلحة، ولكن اليوم فإن الفائدة الأكبر تتحقق حين تجعل الآخرين يريدون ما تريده، وذلك يتوقف على مقدار الإغراء الذي

تحمله الأفكار، والبرامج والعقائد، والمؤسسات ونوع الجوائز التي تقدم ثمناً للتعاون»[١].

لقد اعتمدت الولايات المتحدة الأميركية وسائل متعددة للسيطرة الأحادية من خلال العولمة، ومن هذه الوسائل إنشاء منظمة الأمم المتحدة، واليونسكو، وحقوق الإنسان وغيرها من تلك المؤسسات ذات الطابع الدولي والتي تسير بالإملاءات الأميركية. إن الذي ينظر اليوم لما فعلته أميركا في أفغانستان، وكوسوفو، والعراق، وفلسطين، تحت راية الأمم المتحدة يتأكد من أن منظمة الأمم المتحدة التي أنشئت من أجل السلام والأمن العالميين إنما كانت من أجل منع قيام محاور إقليمية دولية أو إقليمية تقف في وجه هيمنة الولايات المتحدة الأميركية، ولو رجعنا إلى التاريخ لتأكد لنا ذلك؛ حيث إنه لم يمض على تأسيس هذه المنظمة بضع سنين حتى صدر قرار تقسيم فلسطين في العام ١٩٤٧م الذي أخذ الأرض من أهلها وأعطاها لشذاذ آفاق لا حق لهم في هذه الأرض ولا هم ولدوا فيها. ثم جاء الهجوم على كوريا الشمالية في العام ١٩٥٠م وتحت أعلام الأمم المتحدة أيضاً. وهذه السياسة كما قدمنا سابقاً لم تتوقف حتى أيامنا هذه. وإذا ما فكرت أية دولة في الاعتراض وطرح الأمر على مجلس الأمن كان مصير القرار الذي توافق عليه جميع الدول ما عدا الولايات المتحدة الأميركية عدم التنفيذ بسبب الفيتو الأميركي. وأكثر قرارات الفيتو المتخذة إنما كانت بتلك المتعلقة بالكيان الصهيوني.

وما يؤكد هيمنة الولايات المتحدة الأميركية على المنظمة الدولية أن هذه المنظمة تحتاج دائماً إلى الدعم المالي الأميركي، وقد سجل أخيراً أنه عندما حصل خلاف معها أن أوقفت اشتراكاتها المالية ما جعل المنظمة تذعن من جديد للإرادة الأميركية. وما الضغوط التي مارستها لعدم ترشيح

---

(١) مجلة شؤون خارجية، مقالة يوسف غوف، كيف فعلتها أميركا؟

الأمين العام السابق للأمم المتحدة بطرس غالي إلا دليلاً على التسلط الأميركي على هذه المنظمة الدولية، ومن خلالها على العالم.

ولم يقتصر التدخل الأميركي العولمي على المؤسسة السياسية، بل تعداه إلى المؤسسات الثقافية كاليونسكو التي أرادتها الولايات المتحدة الأميركية أن تغطي الجانب الثقافي من المخطط الأمريكي، وحين حاول مديرها العام السنغالي أحمد مختار أمبو أن يسلك طريقاً محايداً في مسألة (إسرائيل) والقدس أوقفت دفع اشتراكاتها السنوية لإحراج المدير العام، ثم عملت على إخراجه من المنظمة. إن الولايات المتحدة الأميركية عملت على عقد مؤتمرات تدعو لأفكارها باعتبارها صاحبة الحق الوحيد في تحديد الصواب والخطأ في كل ما تريده في السياسة والفكر، فعقدت مؤتمرات حول الإرهاب، وحقوق الإنسان، بل جعلت نفسها صاحبة الحق الوحيد في تصنيف الدول في موقفها من التمييز الديني عبر قانون أصدرته تحت اسم: (قانون مكافحة التمييز الديني)، والذي من خلاله صارت توقع عقوبات على الدول التي تتهمها بالتمييز الديني، وذلك من خلال حصارها من خلال الأمم المتحدة والبنك الدولي وما شابهها من المؤسسات الدولية التي تسير في فلكها وتأتمر بأمرها.

لقد ظهر التصرف المتوحش للولايات المتحدة الأميركية بعد أحداث ١١/ أيلول/ ٢٠٠١م، فإذا بها تجوب الأرض طولاً وعرضاً بحروب تحت عنوان استئصال الإرهاب، ولكنها في الواقع قتلت أطفالاً ونساء وشيوخاً، ودمرت مدناً على رؤوس أهلها، وأدخلت الناس على الشبهة في السجون، وما سجن غوانتانامو عنا ببعيد. إن كل ذلك يظهر الوجه المقيت للعولمة التي تستعمل وسائل الدمار الشامل لفرض هيمنتها وسلطتها.

إن الولايات المتحدة الأميركية هي اليوم المثال الصارخ للعولمة الوحشية، والتي لا مجال معها إلا أن نواجهها أو تغير هي سياستها تجاه الشعوب المستضعفة.

٨ ـ دور الصهيونية في العولمة

عندما نتحدث عن الولايات المتحدة الأميركية ودورها في العولمة نجد أن الشركات العملاقة التي كانت وراء نشوء هذه الدولة بعد أن لم تحقق غاياتها في بريطانيا العظمى، وإن توسلت لذلك الانقسام الذي أحدثته في الكنيسة الكاثوليكية هناك عبر ظهور البروتستانتية، ثم عملت على إنشاء الكنيسة الإنجيلية في داخل الدولة الجديدة، نستنتج أن للصهيونية دوراً بارزاً في نشوء هذا النظام الجديد، ولم يقتصر الأمر على المسألة الدينية وإن كانت الأساس، بل تعداه إلى عدة أمور من أهمها العامل الاقتصادي، حيث سعى الصهاينة للاستحواذ على المال والموارد الاقتصادية من نفط ومواد خام وغيرها من الثروات الطبيعية، وكانوا يسعون للسيطرة الاقتصادية من خلال النظرية الصهيونية التي تقول: لا بد من جعل الغني أغنى والفقير أفقر. ولكي لا نطلق اتهامات بلا أدلة نشير إلى الأمور التالية: لقد أكد الباحث «بات روبرتسون» أن النظام العالمي الجديد هو نظام ماسوني عالمي واستدل لذلك بحسب قوله:

«لو نظرنا إلى وجهي الدولار لوجدنا أنه مطبوع علامة الولايات المتحدة، وهي عبارة عن النسر الأمريكي ممسكاً بغصن الزيتون رمز السلام بأحد مخالبه، وفي المخلب الآخر يوجد ١٣ سهماً رمز الحرب. وعلى الوجه الآخر هرم غير كامل، فوقه عين لها بريق المجد، وتحت الهرم كلمات لاتينيه (Novus Ordo Seclorum) وهي شطر من شعر فرجيل الشاعر الروماني القديم معناها «نظام جديد لكل العصور». إن الذي صمم علامة الولايات المتحدة هذه هو تشارلز طومسون، وهو عضو في النظام الماسوني وكان يعمل سكرتيراً للكونغرس. وهذا الهرم الناقص له معنى خاص بالنسبة للماسونيين، وهو اليوم العلامة المميزة لأتباع حركة العصر الجديد. وبعد

تحليل ليس بطويل يصل المؤلف إلى وجود علاقة واضحة تربط بين النظام الماسوني والنظام العالمي الجديد»[١].

وقد جاء في مجلة المجتمع بحث عن منظمة «بلدربرج»، والتي أسسها رجل الأعمال السويدي «جوزيف هـ. ريتنجر» الذي سعى لتحقيق الوحدة الأوروبية، وتكوين المجتمع الأطلسي ما مؤداه:

«إن منظمة «بلدربرج» وهي منظمة سرية تختار أعضاءها بدقة متناهية من رجال السياسة والمال، وتعقد اجتماعاتها في داخل ستار حديدي من السرية، وفي حراسة المخابرات المركزية الأمريكية وبعض الدول الأوروبية، ولا تسمح لأي عضو بالبوح بكلمة واحدة عن مناقشاتها، ولا يحق للأعضاء الاعتراض أو تقديم أي اقتراح حول مواضيع الجلسات، ويمول هذه المنظمة مؤسسة روكفلر اليهودية وبنك الملياردير اليهودي روتشيلد، ومعظم الشخصيات في هذه المنظمة هم من الماسونيين الكبار، وكثير من رؤساء الولايات المتحدة نجحوا في الانتخابات بعد عضويتهم في هذه المنظمة مثل: ريغان، وكارتر، وبوش، وكلينتون، وبعد اشتراك تاتشر في المنظمة بسنتين أصبحت رئيسة وزراء إنجلترا، وكذلك طوني بلير أصبح رئيساً للوزراء بعد مضي أربع سنوات من اشتراكه في المنظمة، وهي تسعى للسيطرة على العالم وإدارته وفق رؤيتها، فقراراتها تؤثر على التجارة الدولية وعلى كثير من الحكومات»[٢].

يجب أن لا نقلل من تأثير الصهيونية العالمية والماسونية في تشكيل النظام العالمي الجديد الذي يتوسلون من خلاله السيطرة على الكون كما هي خططهم منذ أن وجدوا، وفي نفس الوقت يجب أن لا نؤخذ بهذه

---

(١) مقالة العولمة والاقتصاد والتنمية العربية من مجلة «فكر ونقد»، العدد السابع.

(٢) مفهوم العولمة ونشأتها، مقالة.

السيطرة ونضعف أمامها ونعتبرها قدراً غير أبيٍ عن التغيير، بل لعل الشائعات الكبيرة عن قوتهم الخارقة هي واحدة من أساليبهم الدعائية التي يحاولون من خلالها الضغط على الشعوب المستضعفة كي تبقى أسيرة لهيمنتهم ولا تفكر في الثورة على هذا الواقع.

ونحن في نفس الوقت الذي لا نريد أن نضخم من حجم الخطر الصهيوني الماسوني إلا أننا نريد أن نؤكد على خطره وضرورة التنبه له لمواجهته بالوسائل المناسبة من خلال التعرف إلى مكامن الخطر في مشروعه الفاسد.

٩ ـ أقوال علماء الغرب في العولمة

لعل تحليلنا نحن كمسلمين لموضوع العلمنة يمكن أن يُطعن فيه بأنه ينطلق من خلفية فكرية معينة تحمل رأياً مسبقاً في هذا الموضوع، ولكن انتقاد العولمة لم ينطلق من المسلمين وحدهم، بل شاركهم في ذلك عدد من الفلاسفة والمفكرين الغربيين نورد بعضهم على سبيل المثال لتأكيد أن العولمة المتوحشة لم يستشعر خطرها المسلمون فقط، بل تعداهم إلى مفكرين غربيين قد لا يؤمنوا بما نؤمن به نحن ولكنهم استشعروا نفس الخطر. من هؤلاء نورد ما قاله الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي عن العولمة في كتابه العولمة المزعومة حيث قال:

«نظام يُمكّن الأقوياء من فرض الدكتاتوريات اللاإنسانية التي تسمح بافتراس المستضعفين بذريعة التبادل الحر وحرية السوق»[١].

فروجيه غارودي الفيلسوف الذي قيل إنه اتجه إلى الإسلام أخيراً إلا أن ذلك لا يُلغي كونه فيلسوفاً غربياً عاصر وخبر عن قرب أفكاراً مختلفة

(١) العولمة المزعومة ـ الواقع ـ الجذور ـ البدائل، الصفحة ١٧.

يُحذر من خطر العولمة باعتبارها أداة تمكن المستكبرين الأقوياء من فرض دكتاتورياتهم ذات الطابع اللاإنساني على المستضعفين بذرائع مختلفة، أهمها ما كان مرتبطاً بالسلع والسوق وهو الأمر ذو التأثير الأبلغ على هؤلاء المستضعفين. أما هانس بيتر مارتن وهارولد شومان، فقد ذكرا في بحثهما فخ العولمة ما نصه:

«إن العولمة هي عملية الوصول بالبشرية إلى نمط واحد في التعبير والأكل والملبس والعادات والتقاليد»[١].

إن هذان العالمان عبرا عن العولمة بأنها فخ ينصبه المستكبر للمستضعفين، والهدف هو أن تفرض على البشرية نمطاً واحداً من الأكل والملبس والعادات والتقاليد، فضلاً عن الأمور الأخرى المتعلقة بالسياسات والعلاقات الاجتماعية. وفي كتابهما عن العولمة بعنوان (ما العولمة؟) ينقل كلّ من محمد جلال العظم وحسن حنفي عن أحد الكتاب الفرنسيين قوله عن النظام الرأسمالي الأمريكي:

«فكلما ازداد هذا النظام الرأسمالي الجشع إمعاناً وانتشاراً بالعولمة، ازدادت الانتفاضات والحروب العرقية والقبلية والعنصرية والدينية للتفتيش عن الهوية القومية في المستقبل. وكلما تَفَشَّت المعلوماتية والأجهزة التلفزيونية والسلكية واللاسلكية، تكبلت الأيدي بقيود العبودية، وازدادت مظاهر الوحدة والانعزال والخوف والهلع دون عائلة ولا قبيلة ولا وطن. وكلما ازداد معدل الحياة سوف تزداد وسائل القتل، وكلما ازدادت وسائل الرفاهية سوف تزداد أكثر فأكثر جرائم البربرية والعبودية»[٢].

---

(١) مجلة عالم المعرفة، العدد ٢٣٨، مقالة فخ العولمة: هانس بيتر مارتين ـ هارولد شومان، الصفحتان ٥٥ ـ ٥٨، تشرين الأول ١٩٩٨.

(٢) ما العولمة ـ محمد جلال العظم ـ وحسن حنفي، ص٢٠.

يعبّر هذا النص بدقة عن وحشية نظام العولمة الجديد الذي تقوده في هذه الأيام الولايات المتحدة الأميركية، فهو نظام سيستدعي انتفاضات عارمة من الشعوب المستضعفة للوقوف بوجهه ولن تكون المواجهة على مستوى واحد، بل ستكون على مستويات مختلفة تشعل حروباً متعددة الأسباب فتارة تكون الحرب ذات طابع اقتصادي، وأخرى ذات طابع ديني، وثالثة ذات طابع عرقي، ورابعة ذات طابع قومي أو قبلي، وهكذا تتسع مستويات المواجهة باتساع أوجه العولمة التي لا تنحصر في مجال معين، يساعدها في ذلك ظاهرة تفشي المعلوماتية عبر أجهزة الاتصال المتقدمة والتي تنتشر بشكل سريع جداً في كل أنحاء العالم. ويشير هذا الكاتب الفرنسي إلى مسألة مهمة جداً وهي وسائل الرفاهية التي تنتشر بشكل كبير من دون التفات إلى تأثيرها المدمر والذي لا ينحصر في قتل الوقت، بل يتعداه إلى تفشي الجرائم في المجتمع. وفي هذا المجال أيضاً نأخذ شهادة حاكم عاش المعاناة من وراء العولمة وتأثيرها المدمر على شعبه فقام بالاعتراف أخيراً بأثرها المدمر بعد أن كان في بدايات حكمه مروجاً لها في بلاده، هذا الحاكم هو رئيس وزراء ماليزيا الأسبق مهاتير محمد الذي قال في محاضرة ألقاها في كوالالامبور، في ٢٤ يوليو ١٩٩٦م:

«إن العالم المعولم لن يكون أكثر عدلاً ومساواة، وإنما سيخضع للدول القوية المهيمنة. وكما أدى انهيار الحرب الباردة إلى موت وتدمير كثير من الناس، فإن العولمة يمكن أن تفعل الشيء نفسه، ربما أكثر من ذلك، في عالم معولم سيصبح بإمكان الدول الغنية المهيمنة فرض إرادتها على الباقين الذين لن تكون حالهم أفضل مما كانت عليه عندما كانوا مستعمرين من قبل أولئك الأغنياء»[١].

(١) نقلاً عن (الدين والعولمة) للدكتور أحمد بن عثمان التويجري، الصفحة١٩، من مجلة الإسلام اليوم، من عدد ١٦، ١٧، السنة ١٧ ـ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

إن قائداً بهذا المستوى خبِر السياسات المتحكمة بالعالم، خاصة سياسة الولايات المتحدة الأميركية التي كان يظن أنها صديقة له وتسعى لصالح دولته، فإذا بها دولة تسعى لمصالحها فقط ولو على حساب آلام الشعوب المستضعفة، يقول هذا القول لخير دليل على أن العولمة لها أثر مدمر على دولنا إن لم نسارع إلى مناهضتها والوقوف بوجهها. من خلال ما تقدم يتبين لنا أن العولمة لا يناهضها فئة محددة كالمسلمين مثلاً، بل إنها أصبحت قضية رأي عام عالمي. فبنظرة بسيطة لما قدمنا وبالرجوع إلى المسيرات الحاشدة التي انطلقت في العالم ضد العولمة يتأكد لنا أن معاداة العولمة مسألة كونية وهي واضحة لدرجة أن هناك شبه إجماع حول مناهضتها من مستضعفي العالم.

١٠ ـ عقبات تواجه العولمة

لن تستطيع العولمة أن تحقق مرادها بسهولة، إذ إن دون ذلك عوائق كثيرة تمنعها حتى من تحقيق بعض غاياتها، بل يمكن لنا أن نؤكد أن الإرادة الإلهية من خلال السنن التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الكون استدعت أن يكون هناك تمايزاً بين الأمم والشعوب، ولن يتمكن أي نظام من فرض إرادته في اللغة والعادات والتقاليد على المجتمعات الأخرى. فالعالم مكون من مجتمعات لديها لغات متعددة وأديان متباينة وثقافات متنوعة. وهذا ما أكده الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(١).

(١) سورة هود، الآيتان: ١١٨ ـ ١١٩.

وقال الله سبحانه وتعالى في هذا المعنى أيضاً:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾(١).

فقد اعتبر الله عز وجل اختلاف الألسنة والألوان آية من آياته التي أودعها في الكون والتي لن يستطيع أي من البشر تغييرها، ولذلك لن تستطيع العولمة تحقيق أهدافها في السيطرة التامة على الكون في كل المجالات وإن استطاعت ذلك لبعض الوقت أو مع بعض الشعوب، إلا أنها لن تستطيع ذلك كل الوقت مع كل الأمم والشعوب. وبالرجوع إلى التجربة الإنسانية من خلال استطلاع تاريخ الأمم والشعوب، نجد أن كل الطواغيت الذين سعوا لذلك فشلوا في تحقيق مرادهم فلم يستطع أي منهم إخضاع البشرية لطريق واحد وحضارة واحدة، بل إن هؤلاء الطواغيت بدأوا بالسيطرة على أرض وشعوب لفترة محدودة، فإذا بهذه الشعوب تنتفض وتقاوم ومن ثم تهزم هذا الإمبراطور أو يهزمه إمبراطور آخر لتقوم على أنقاض إمبراطوريته إمبراطورية أخرى، وقد أكد الله عز وجل هذه السنة بقوله:

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

فالله عز وجل لم يجعل لبشري أن يسيطر على البشر الآخرين ليكون هو العلي وهو المتسلط، فإذا به يصل كما عند فرعون مثلاً ليدعي أنه هو الله ـ والعياذ بالله ـ فقال كما في القرآن الكريم:

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(٣).

ولكن ما الذي حصل لمن أدعى نتيجة لجبروته أنه الرب الأعلى، لقد

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.
(٣) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

فشل مشروعه وانتهى ولم يحقق ولو جزءاً بسيطاً منه. هذا في التاريخ، أما في عصرنا الحالي فلم تستطع العولمة التي بدأت منذ أمد قريب لا يتجاوز عدة عقود أن تصل إلى ما تريد، بل ظهرت في الساحة معارضة لها لا بأس بها وفي كل أنحاء العالم، وهي وإن لم تكن وصلت إلى الحد الذي تستطيع معه التغيير أو إيقاف عجلة العولمة، إلا أن هناك بشائر لتطور هذه الحركة إلى الحد الذي تستطيع معه أن تشكل عائقاً مهماً أمام تحقيق العولمة لمرادها. والمتضررون من العولمة لم يقفوا عند حدود الدول المستضعفة والفقيرة، أو ما اصطلح على تسميته بدول العالم الثالث أو الدول النامية أو التي هي في طريق النمو، فهذه فرنسا التي تعتبر من الدول الكبرى والتي كانت في أوائل القرن الماضي واحدة من دولتين عظمتين، تشكو من طغيان الولايات المتحدة الأميركية من خلال الإعلام والثقافة الأمريكيتين في القنوات الفضائية ما دفع وزير العدل الفرنسي جاك كوبون ليقول:

«إن الإنترنت بالوضع الحالي شكل جديد من أشكال الاستعمار، وإذا لم نتحرك فأسلوب حياتنا في خطر، وهناك إجماع فرنسي على اتخاذ كل الإجراءات الكفيلة لحماية اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية من التأثير الأمريكي»[١].

إن وحشية العولمة التي وصلت إلى حد أن يفرضوا علينا طريقة أكلهم التي ثبت أنها مضرة، ما دفع الرئيس الفرنسي جاك شيراك أن يعارض إنشاء مطعم ماكدونالد الذي يقدم الوجبات الأمريكية في فرنسا، مسوغاً ذلك بأن يبقى برج إيفل منفرداً بنمط العيش الفرنسي. ولم يقتصر خوف فرنسا على مجالات الإعلام والاتصالات والطعام، بل تعداه إلى ما هو أخطر من ذلك ألا وهو الثقافة التي تريد الولايات المتحدة الأميركية من خلال العولمة فرضها

(١) مستقبل العولمة بين منظورين، مجلة المستقبل العربي، الصفحة ٢١.

على العالم حتى الرأسمالي القريب منها، وهي ثقافة شمولية لا تراعي الخصوصية القومية للبلاد الأخرى، وهذا ما دفع وزير الثقافة الفرنسي لشن هجومٍ قويٍ على أمريكا في اجتماع اليونسكو بالمكسيك، فقال:

«إني أستغرب أن تكون الدول التي علّمت الشعوب قدراً كبيراً من الحرية، ودعت إلى الثورة على الطغيان، هي التي تحاول أن تفرض ثقافة شمولية وحيدة على العالم أجمع. ثم قال: إن هذا شكل من أشكال الإمبريالية المالية والفكرية، لا يحتل الأراضي، ولكن يصادر الضمائر ومناهج التفكير واختلاف أنماط العيش»(١).

ودفاعاً عن الشخصية الثقافية لفرنسا ولتدعيمها في مواجهة الحملة الكاسحة للولايات المتحدة الأميركية، قررت فرنسا أن تكون نسبة الأفلام الفرنسية المعروضة باللغة الفرنسية من التلفزيون ستين بالمائة.

وقد استشعرت كندا أيضاً هذا الخطر، حيث بلغت الهيمنة الأمريكية في المقاطعات الكندية في مجال تدفق البرامج الإعلامية والتلفاز حداً دعا جمعاً من الخبراء إلى التنبيه إلى أن الأطفال الكنديين أصبحوا لا يدركون أنهم كنديون لكثرة ما يشاهدون من برامج أمريكية(٢).

كما أن النرويج عارضت اتفاقية ماستريخت؛ لأنها ترفض الاندماج بالهوية الأوروبية، وتحفظت سنغافورة على شبكة الإنترنت خشية على القيم الكونفوشيوسية(٣).

إن المواجهة الحتمية بين قيادة العولمة الحديثة برئاسة الولايات المتحدة الأميركية وبين القوى المناهضة تعتبر لدى كثير من المفكرين أمراً

---

(١) العولمة أمام عالمية الشريعة الإسلامية، الصفحة٥٠.
(٢) مستقبل العولمة بين منظورين، مجلة المستقبل العربي، الصفحة ٢١.
(٣) العولمة الخطر على الهوية والكيان، الصفحة ٤٦.

حتمياً، وإن النصر في هذه المواجهة سيكون حتماً كما هي السنة الكونية لصالح المستضعفين، وها هو المفكر الغربي جون غراي يقول في كتابه: (الفجر الكاذب ـ أوهام الرأسمالية العالمية) ما نصه:

«إن الظروف الحالية في العالم تنذر بكارثة محققة، لأن فرض السوق الحرة الأنجلوسكسونية على العالم يمكن أن يؤدي إلى انهيار شبيه بانهيار الشيوعية العالمية، وأن الاتجاه نحو فرض الأسواق الحرة سيفجر الحروب ويعمق الصراعات العرقية ويفقر الملايين. وقد تحول بالفعل الملايين من الفلاحين الصينيين إلى لاجئين. كما سيؤدي إلى استبعاد عشرات الملايين عن العمل والمشاركة في المجتمع حتى في الدول المتقدمة. وقد تفاقمت الأوضاع في بعض الدول الشيوعية السابقة لتصل إلى الفوضى العامة وشيوع الجريمة المنظمة، كما أدت إلى تزايد تدمير البيئة»(١).

أما في الإسلام، فإن الوعد الإلهي بنصر المستضعفين أمر حتمي مَنّ الله عز وجل به عليهم إذا ما توافر فيهم الشرط الأساسي الذي هو إيمانهم الحقيقي بالله ووعده، فقال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾(٢).

وبالعودة إلى ما نحن فيه اليوم نقول إنه في سياتل في الولايات المتحدة الأميركية حيث عُقد المؤتمر الوزاري الثالث لمنظمة التجارة العالمية، ثار المؤتمرون ضد انفراد أمريكا بزعامة العالم، حيث أصرت الدول النامية ودول الاتحاد الأوربي واليابان وكوريا الجنوبية على رفض

---

(١) العولمة بين القبول والرفض، ثناء عبد الله، الصفحة١٠٦، مجلة المستقبل العربي العدد ٢٥٦ في ٦/ ٢٠٠٠م.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥.

الخضوع لقاعدة الرضا الأمريكي باعتبارها القاعدة الحاكمة ـ من الناحية الفعلية ـ لصدور القرارات في نطاق منظمة التجارة العالمية. هذا في داخل المؤتمر، أما في خارجه فقد جابت المظاهرات أرجاء المدينة ولم يقتصر صداها على داخل الولايات المتحدة الأميركية بل تعداه إلى كل بلاد العالم وكان من أبرز الشعارات التي رفعت في هذه المظاهرات هي التالية:

١ ـ العالم لن يتحول إلى سلعة يتداولها الأقوياء.

٢ ـ الناس والشعوب قبل الأرباح.

٣ ـ لا نريد تجارة حرة بل نريد تجارة عادلة.

ومن العقبات التي تواجه العولمة في تنفيذ مشروعها أن المنطلقات التي تنطلق منها الولايات المتحدة الأميركية في فرض هيمنتها على العالم هي منطلقات رأسمالية، ولكنها ليست واحدة في كل الدول الرأسمالية. فالرأسمالية الأمريكية والبريطانية لا ترى أي دور للدولة، بينما الرأسمالية اليابانية والآسيوية تلعب السياسة الصناعية وتوجهات الدولة دوراً كبيراً فيها، أما الرأسمالية الفرنسية فتخطيط الدولة يضع مؤشرات للقطاع الخاص، بل تدخل بنفسها منتجاً. أما رأسمالية الدول الاشتراكية السابقة، فما زالت في طور التحول، هذه التباينات تخلق صراعات بين الدول الرأسمالية ما يعيق المشروع الأميركي عن التقدم بنفس الوتيرة فيما لو كان هناك توافق بين هذه الدول، ولعل ما نراه اليوم من تقارب بين بريطانيا والولايات المتحدة إلى حد محو شخصية الأولى لمصلحة الثانية، في حين نرى تباعداً واضحاً بين الولايات المتحدة الأميركية وفرنسا، لهو دليل على هذه التباينات على مستوى منطلقات هذه الدول. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذه الدول ترى في الولايات المتحدة الأميركية دولة تسعى لإلغاء كيانهم وشخصيتهم الوطنية وقدرتهم على التطور، بل حتى انتشارهم في العالم، فلا يستطيع أن ينكر أحد أن الفرانكوفونية ما زالت تصارع لإثبات وجودها

وبقائها في مواجهة الهيمنة الأميركية، إن هذه التباينات هي معوقات أساسية في مواجهة مشروع العولمة الذي تقوده الولايات المتحدة الأميركية اليوم. وفي هذا المجال أيضاً لا نستطيع أن نلغي إمكانية أن تصارع بقايا الشيوعية، أو ما اصطلح على تسميته بالمعسكر الشيوعي أو ما تبقى منه، من أجل إما إعادة كيانها السابق أو على الأقل إعاقة المشروع الأميركي المتوحش، وما يحصل اليوم من عودة الشيوعية في دول أميركا الجنوبية لهو دليل على ما نقول، أضف إلى أنه ما زالت هناك دول تسير على المنهج الشيوعي وما زالت قوية وتستطيع المنافسة، أو على الأقل الإعاقة مثل الصين التي هي دولة عظمى، أو كوبا أو كوريا الشمالية وغيرهم من البلدان التي تسير على المنهج الشيوعي أو الاشتراكي. وهنا لا بد أن نتحدث عن الاشتراكية الديمقراطية التي ورثت الشيوعية القديمة فهي قد تستعيد تجميع قواها وتأتي بأفكار جديدة لمحاربة الرأسمالية أو لتقليل شرورها أو مساوئها. ولا شك في أن السبب في ذلك أن هذه الدكتاتورية الدولية تتناقض ومصالح الأغلبية العظمى من دول العالم، بما في ذلك الدول الكبيرة والمتوسطة، وهو ما يفرض صياغة الإجراءات المضادة للخروج من هذه الدكتاتورية. إن المصير الحتمي وبمقتضى سنة الدفع التي تحدث عنها القرآن الكريم ستؤدي إلى مواجهة تنهي الغطرسة الأميركية وتستعيد بعدها الشعوب المستضعفة كينونتهم ودورهم بما يحفظ مصالحهم ويحمي معتقداتهم وأفكارهم ووجودهم.

١١ ـ النتائج المدمرة للعولمة

لو أردنا أن نعدد نتائج العولمة المدمرة والسيئة على مستوى العالم لوجدناها كثيرة جداً لا يسعها المقام، ولكنني سوف أحاول أن أعدد بعض هذه النتائج مما كان تأثيره فاقعاً على الناس والكون والدول والمجتمعات والأديان:

١ ـ سياسة القطب الواحد:

في الماضي القريب كان العالم يتقاسمه قطبان أحدهما الولايات المتحدة الأميركية والآخر هو الاتحاد السوفياتي، وكان هذا التقاسم يؤمن نوعاً من التوازن شكل نوعاً من الحماية للمستضعفين من هيمنة القوى العظمى على قاعدة الدفع التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى:

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[١].

أما اليوم وبعد انهيار الإتحاد السوفياتي أصبحت الولايات المتحدة الأميركية هي القوة العظمى الوحيدة وصار العالم المستضعف تحت رحمتها، تتصرف في مصيره كيفما شاءت، فعاد الاستعمار الاقتصادي والسياسي والثقافي والاجتماعي من جديد في صورة العولمة من خلال نظريات الاقتصاد الحر واتفاقيات الغات، وسيادة القيم الاستهلاكية على القيم الإنسانية، مع تنامي جرائم الجنس وانتشار العنف والجريمة المنظمة.

٢ ـ سحق الشعوب المستضعفة:

لقد عادت إلى الواجهة الجاهلية القديمة بكل مظاهرها وإن بوسائل متطورة، وعادت نظريات المجتمعات الحيوانية التي يأكل فيها الكبيرُ الصغيرَ والتي لا مجال فيها لعيش الضعفاء، فمن وجهة نظر مُنظري العولمة: أن المجتمعات الضعيفة غير القادرة على الإنتاج سواء زراعياً أم صناعياً، هي مجتمعات لا تستحق البقاء، بل هي عبء على البشرية أو على الاقتصاد العالمي يمكن أن يعرقل نموها الذي يحكمه قانون البقاء للأصلح. ولذلك فإنه يجب إسقاطها من الحساب. ولا ضرورة لمساعدتها أو نجدتها مهما

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠.

كانت تُعاني من آثار مدمرة على صعيد اقتصادها أو علاقاتها الاجتماعية، وحتى لو كان ما تعانيه ناتج عن سياسات هذه الدول العظمى في مختلف المجالات. في حين أنها لو كانت تمتلك ثروات طبيعية لا تقدر على استثمارها فإنها ـ أي الدول العظمى ـ مستعدة لمساعدتها من أجل النهوض ظاهراً، وإن كان المقصود الأساسي لها هو الهيمنة عليها وسلب قرارها وإرادتها مقدمة لسلب خيراتها، وذلك من خلال فرض الانتداب عليها بوسائل متعددة ولو من خلال الحروب، وبذلك تسيطر على هذه الثروات وتستغلها لمصلحتها لا لمصلحة أصحابها الشرعيين.

٣ ـ فرض أنظمة الحكم على الشعوب المستضعفة:

لقد كانت الشعوب المستضعفة خاصة شعوب عالمنا الإسلامي بشكل عام والعربي بشكل خاص تحكم نفسها من خلال أنظمة مختلفة خاصة بعد انهيار السلطنة العثمانية أو ما تبقى من دولة الخلافة، وجاء النظام الجديد ليفرض على الناس أنظمة حكم جديدة تحت عنوان الديمقراطية باعتبار أنهم لا يصلحون للقيادة، وهذا ما عبر عنه اللورد بلفور في مجلس العموم البريطاني عندما أثنى على اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني وسياسته في قمع المصريين فقال عنهم:

«إنهم فقدوا كل حس بالنظام، وإن الفوضى هي قاعدة حضارتهم»[١].

وأبهرت هذه الطريقة الجديدة عقول الناس خاصة بعد يأسهم من واقعهم المعاش، فإذا بهم يفاجأون بعد تركهم لنظامهم وسيرهم في النظام الجديد أن الدول المستكبرة إنما تسعى لفرض الديمقراطية لا حباً بالوصول إلى رأي الشعب أو أن يحكم الشعب نفسه بنفسه، بل إنها تتوسل من خلالها إبعاد الإسلام عن الحياة والإتيان بأنظمة موالية للمستكبر، فإذا ما كانت نتيجة الانتخابات وصول من لا ترضى عنهم الولايات المتحدة

---

(١) الاستشراق ـ ادوارد سعيد.

الأميركية فإنها سوف تدعم انقلاباً عسكرياً أو نظاماً ديكتاتورياً يُجهض العملية الديمقراطية ويُبعد أعداءها عن الحكم، وما حصل مع جبهة الإنقاذ في الجزائر، أو مع حركة حماس في فلسطين، وكذا ما حصل في تركيا دليل على أن هدف الولايات المتحدة الأميركية ليس إقناع الناس بنظام جيد بقدر ما هو السيطرة على مواردهم وتسخيرها لمصلحتها.

٤ ـ القضاء على حوار الشمال والجنوب:

لقد كان هناك حوار بين القوى الغنية والقوى الضعيفة فيما اصطلح عليه بحوار الشمال والجنوب، وقد كانت الشعوب الفقيرة تعول كثيراً على هذا الحوار باعتبار إمكانية تحسين المستوى المعيشي لهم، ولكن اليوم وبعد سريان العولمة مع قوانينها المجحفة فإن هذا الحوار لم يعد ذا جدوى ويمكن أن ننعيه ونعلن وفاته، وفكرة التطور الاقتصادي أصبحت حلماً بعيد المنال عن الفقراء، فلم تعد هنالك لغة مشتركة بين الفئتين، بل لم يعد هناك قاموس مشترك لتسمية المشكلات، ومرجعية موحدة لحل هذه المشكلات. فالمصطلحات من قبيل الجنوب والشمال، والعالم الثالث، والتحرر أصبحت بلا معنى.

٥ ـ عودة الاستعمار باشكاله كافة:

في أوائل القرن العشرين قامت القوى العظمى وخاصة بريطانيا وفرنسا باستعمار الشعوب وفرضت عليها أن تدير هي شؤونهم باعتبار أنهم غير قادرين على ذلك، وهو ما اصطلح على تسميته وقتذاك بالانتداب، وتحت هذه الحجة استُعْمِرت هذه الشعوب ودولها وكان مصير من حاول الوقوف في وجه هذا الاستعمار السجن، أو القتل، أو النفي، وهذا النوع من الاستعمار هو الاستعمار المباشر الذي تقوم به الدولة المستعمِرة ومن خلال جيوشها باحتلال وإدارة شؤون الدولة المستعمَرة، أما اليوم وبفضل العولمة صار عندنا نوع آخر من الاستعمار ولكنه ليس من خلال الاحتلال المباشر بل من خلال ربط منظومات الحياة لدى الشعوب المستضعفة بعجلة تديرها

القوة العظمى، وفي حال انتفضت الشعوب على هذا الواقع كان مصيرها حرمانها من التكنولوجيا الحديثة مما بات من الأمور الأساسية لدى هذه الشعوب، بل حتى من القمح والدقيق الذي يعتبر من الضروريات، وقد يتفاقم الأمر لدى هذه القوة المتغطرسة فتصل إلى حد استعمال القوة العسكرية والاحتلال المباشر كما حصل في أفغانستان والعراق.

٦ ـ ضياع الدولة كقوة مسيرة:

نتيجة لسيطرة المؤسسات والشبكات التي باتت تدير شؤون الناس من دون أخذ إذن من أحد حتى من الدولة التي يتفيأ بفيئها هذا الشعب المسكين، فإن هذا العالم الذي نعيش فيه أصبح خاضعاً للعولمة، فلا رابط بين أبنائه سواء أكان هذا الرابط أمة أو دولة أو وطناً، فبات هذا العالم ينقسم إلى عالمين هما: عالم الفاعلين والمسيرين، وعالم آخر، هو عالم المستهلكين للمأكولات التي يعدها لهم العالم الأول والمعلبات التي لا يُعرف ماذا يضعون لهم فيها، والمشروبات التي باتت بألف لون ولون وكذا بألف طعم وطعم، إضافة إلى الأزياء التي يعدونها لهم، بل إن الإنسان المستضعف أصبح صفحة خالية لا معلومات لديه، وكل ما يريده منها يحصل عليه من خلال ما يُقدم له من خلال وسائل الاتصال وشبكات الإنترنت. إن ما فاقم المشكلة هو عدم قيام الحكومات بواجبها في مواجهة هذا الواقع؛ فلم تعد كثير من الدول تتدخل في النشاط الاقتصادي واقتصر دورها على حماية نظامها ومنع أية إمكانية لإطلاق قوى تحرر فيها تسعى لإخراج الناس من واقعها الذي تعيشه. ومن نتائج هذه المشكلة الخطيرة إنهاء دور القطاع العام وإبعاد الدولة عن إدارة الاقتصاد الوطني.

٧ ـ تفكيك الضوابط وغزو البيوت:

قديماً لم يكن أحد يستطيع أن يخترق بيوتنا من دون استئذان منا وبذلك كان هناك ضوابط لمنع إفساد الناشئة، أما اليوم فمع وسائل الاتصال

الحديثة، إن من خلال السواتل أو من خلال الإنترنت، لم يعد هناك ضوابط يمكن اللجوء إليها لمنع غزو بيوتنا من أدوات الفساد هذه.

٨ ـ تدمير منظومة القيم:

إن المطّلع على الانتهاكات المستمرة والمتنوعة لقيمنا وأخلاقنا في كل مجالات الحياة سواء السياسية أم الاقتصادية يجد أن هذه العولمة المتوحشة لم تبق لنا من قيمنا هذه شيئاً، بل باتت القيم الأخلاقية المتعارف عليها أموراً ينكرها هذا المجتمع فتحول المعروف كما في الحديث الشريف منكراً والمنكر معروفاً. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«قال النبي صلى الله عليه وآله: كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر، فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله؟ فقال: نعم، وشر من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف، فقيل له: يا رسول الله ويكون ذلك؟ قال: نعم، وشر من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً»[١]

نعم إن هذا الزمان هو الزمان الذي حذرنا منه رسول الله صلى الله عليه وآله حيث تحول المنكر وبسبب هذا الكم الهائل من ضخ الفساد معروفاً، وبات المؤمن غريباً لا يعرف كيف يعيش مع أهله الذين هم أقرب الناس إليه ولكنهم ونتيجة لتغير منظومة القيم لديهم باتوا غرباء عنه لا يعرف كيف يفكرون وبأي قيم يلتزمون.

٩ ـ تدهور مستوى المعيشة:

نتيجة لاقتصاد السوق وعدم بذل السلع بشكل يتناسب مع حاجات الناس، ونتيجة تحول المجتمع إلى مجتمع استهلاكي غير منتج، وجدنا أن

---

(١) الكافي، الجزء ٥، الصفحة ٥٩.

فرص العمل باتت معدومة ما أدى إلى زيادة البطالة، وصار الإنسان المستضعف يبحث عن أي عمل يتوافر له حتى لو لم يتناسب مع قدراته العلمية والفكرية. ونتيجة لكثرة الطلب في سوق العمل وقلة العرض باتت الأجور متدنية لا تكفي حاجات الناس ولا تقدم لهم حلولاً لحاجاتهم المادية. وزاد من تفاقم المشكلة تقلص الخدمات الاجتماعية التي تقدمها الدولة، فهي كما قلنا لم يعد يهمها أن تقدم حلولاً لمشاكل الناس الاجتماعية، بل اكتفت بحماية نظامها من خلال أجهزة الأمن والقمع. الواقع العملي يقول إنه أمام كل مطعم أو مقهى أو متجر من الماركات الغربية المشهورة يقام في بلادنا ينهار أمامه عشرات المؤسسات الوطنية الوليدة، التي لا تستطيع المنافسة، مما يزيد من معدلات الفقر والبطالة، ويهز أركان الاستقرار الاجتماعي، ناهيك عن النزيف الدائم الذي يمثله هروب رؤوس الأموال الوطنية. ومن أسوء ما أثرت فيه هذه العولمة المقيتة هو التفاقم الكبير للتفاوت في توزيع الثروة بين المواطنين، فبت تجد في نفس المجتمع أغنياء يمتلكون ثروات طائلة، وفي نفس الوقت تجد فقراء وصل فقرهم إلى حد عدم امتلاكهم لأدنى مقومات العيش العادي لهم ولعائلاتهم.

١٠ ـ احتكار امتلاك التكنولوجيا:

لأن القوى العظمى لا تريد أن يشاركها أحد بالنعم التي تتمتع بها قامت باحتكار التكنولوجيا المتقدمة التي توصلت إليها ومنعت الشعوب المستضعفة من الوصول إليها، ولم تتخلَ لهم عن هذه التكنولوجيا إلا بعد أن يكونوا قد استهلكوها وأمنوا تكنولوجيا متطورة أكثر، بل إنهم على استعداد لخوض حروب ضد هذه الشعوب فيما لو أرادت أن تمتلك تكنولوجيا متطورة اعتماداً على قدراتها الذاتية. فالمطلوب أن نكون شعوباً مستهلكة لا شعوباً منتجة ومتطورة، وما حصل مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية في السنوات الأخيرة عندما فكرت في امتلاك التكنولوجيا النووية وإنتاج اليورانيوم من دون حاجة

إلى شرائه من الدول العظمى، أدى إلى قيام الولايات المتحدة الأميركية باستغلال نفوذها وقوتها والضغط على المجتمع الدولي وما يسمى بمجلس الأمن لفرض عقوبات على الجمهورية الإسلامية وصلت إلى حد التهديد بحرب مدمرة عليها. إن هذا الأمر يشكل أكبر تهديدٍ للإنسانية مع ما يجر عليها من ويلات من خلال الحروب والمعارك.

١٢ ـ خطر العولمة على المسلمين

لو أردنا عرض كل مخاطر العولمة على المسلمين لما وسع المجال في هذا البحث، ولكني سأحاول أن أعرض لأهم الأخطار التي تواجه المسلمين من خلال العولمة على أن نتعرض لاحقاً لكيفية المواجهة، وهذه الأخطار هي:

أ ـ الخطر على العقيدة:

إن العولمة تنطلق من دولة لا تؤمن بالقيم الدينية، بل إنها دولة مادية بكل معنى الكلمة لا قيمة عندها للدين على الإطلاق، وهي وإن راعت في بعض المجالات الديانة اليهودية لما للصهيونية العالمية من أثر بالغ في هذا المجال، أو للديانة المسيحية كون غالبية الشعب الأميركي من المسيحيين، إلا أن هذه العولمة لا تقيم وزناً أبداً للديانة الإسلامية، فالعولمة في الأساس ترتكز إلى المبادئ اللادينية الوضعية التي لا تؤمن بوجود الله، أو لا تعتني بهذه القضية أساساً، فلا قيمة لقرآن أو نبي اسمه محمد عندهم ولا لأي مفهوم نؤمن به كمسلمين، وعليه، فإن ما تساهم هذه العولمة بنشره من خلال الإنترنت هي أمور تتناقض مع مبادئنا وما نؤمن به، وبالتالي فإنها تنشر بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر ما يبعد أولادنا والنشء الجديد عن حقائق إيماننا، وتنشر بينهم مفاهيم الحياة المادية والإلحادية معتمدة في ذلك أساليب غير شريفة على قاعدة أن الغاية تبرر

الوسيلة؛ فتستعمل الجنس والخلاعة والربط بمفاهيم مادية مع التوهين بالقدرات الإلهية، وهذا لا يتحدد بعدد بسيط من المسلمين، بل ومن خلال الانتشار الواسع للإنترنت تصل هذه الأفكار الهدامة إلى مئات الملايين من المسلمين، ومن خلال ذلك ينتشر الإنكار أو على الأقل التشكيك بالعقيدة التي نؤمن بها، ما يجعل كثيراً من المسلمين خارج حظيرة الإيمان وقد يؤدي ذلك إلى إلحادهم، وقد يتعدى الأمر إلى حد أن يتحولوا إلى دعاة للكفر فيعملون على نشر الإلحاد في صفوف المسلمين الآخرين. لقد زاد في الفترة الأخيرة السعي الأميركي للتأثير على الثقافة الإسلامية فقامت بإعداد البرامج العملية وتأسيس المؤسسات الثقافية لتحقيق هذا الهدف، فعلى سبيل المثال، أنشأت الإدارة الأمريكية مكتباً خاصاً في وزارة الخارجية للعلاقات مع العالم الإسلامي، وأنشأت محطة إذاعة وتلفزيون باسم «سوا»، الغرض منها بث برامج معينة وإعطاء اهتمام خاص للشباب يكون الهدف من ورائها إنشاء جيل منحرف متحلل يشن الحرب على تقاليد قومه وثقافتهم.

ب ـ بث الفرقة في العالم الإسلامي:

لعل أهم مشكلة يواجهها العالم الإسلامي، في القرنين الماضيين خاصة، هي تقسيم بلاده بين قوميات ودول مختلفة، فباتت الحدود الجغرافية لكل دولة كأنها ركن من أركان الدين، وإن أية دعوة لوحدة العالم الإسلامي اليوم تواجه بهجمة عنيفة على مطلقها أقلها أنه غير وطني، ومن المعروف أن قيام العالم الإسلامي لن يكون إلا بإعادة العالم الإسلامي أمة واحدة كما أرادها الله عز وجل، كذلك عندما قال في كتابه الكريم:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[1].

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

إن العولمة الأمريكية لم يرضها ما عليه حال الأمة من تجزؤ، بل سعت إلى زيادة وتعميق الخلافات بين الدول الإسلامية والعربية من خلال إيقاع الفتنة بين أبناء البلد الواحد منعاً لهم من أن يفكروا في الوحدة من جديد، كل ذلك لأنها أدركت كما ورد في كثير من بحوثهم الاستراتيجية أن أعظم الأخطار التي تواجههم في إكمال سيطرتهم على العالم هو وحدة هذه الأمة، بل أية وحدة من أي نوع آخر تشكل تهديداً لمشروعهم. فالعبرة عندهم هي التفتيت لا التجميع على القاعدة الذهبية المشهورة للإنكليز والتي تقول: (فرق تسد).

ج ـ نشر الفاحشة والرذيلة:

استطاعت العولمة من خلال أجهزة الاتصال والفضائيات نشر مواقع إباحية تشجع على الرذيلة والشذوذ الجنسي، فبات الشباب مسمّراً لوقتٍ طويل أمام شاشات الكومبيوتر أو التلفاز يشاهدون هذه المواقع والأفلام، فإذا بهم ينتقلون من عبادة الله عز وجل إلى عبادة الشهوات والغوص في الملذات، ثم بعد ذلك تنفيذ هذه الموبقات في المجتمع ما يجعله مجتمعاً موبوءاً يتجه نحو الدمار الذاتي. وهذا ما يتناقض بشكل واضح مع النظام الإسلامي الاجتماعي والأخلاقي الذي أراد الإسلام في ظله أن يبني أُسراً مؤمنة عفيفة فاضلة ملتزمة.

د ـ إنحطاط الأمة:

إن النتيجة الطبيعية لما تقدم من تضييع العقيدة، إلى التفرقة في الأمة، إلى نشر الرذائل، هي أن تتحول هذه الأمة من أمة مجاهدة عاملة في سبيل الله وإعلاء كلمة الإنسانية إلى أمة لا هدف لها، مائعة، تسير عمياء وراء ما يحقق لها شهواتها، وهذا ما لا يتحقق إلا من خلال السير في ركب القوى الاستعمارية الكبرى، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية؛ ما يؤدي إلى

استعمارها والسيطرة عليها لتصبح أمة ملحقة مستعبدة بعد أن كانت أمة رائدة وقائدة. إن اليأس والحيرة هما الصفتان الأساسيتان اللتان تتمتع بهما أمة من هذا النوع لا تملك شخصية مستقلة تنتظر ما تهيئ لها القوى العظمى من فتات يُشبع شهواتها وغرائزها، لا ما يبني شخصيتها الرائدة التي أرادها لها الله عز وجل.

هـ ـ إلغاء الشخصية الإسلامية:

عندما تسعى العولمة لفرض الثقافة الغربية على الشعوب المسلمة، بل أكثر من ذلك فرض العادات والتقاليد وطريقة اللباس والهندام، فإن معنى ذلك إلغاء الشخصية الإسلامية لا إلى شخصية الآخرين، بل إلى شخصية مشوهة لا تنتمي لا إلى الإسلام ولا تنجح في إدراك الشخصية الغربية، وهذا هو الخسران المبين. وتأثير ذلك لا ينحصر في فقدان الشخصية الإسلامية على المستوى الفردي، بل يتعداه إلى تقاعس الأفراد عن القيام بدورهم بصفتهم خلائف لله في الأرض، فلا يسعون إلى بناء أمتهم الإسلامية والارتفاع بها إلى المستوى العالي الذي أراده الله عز وجل لها، إلى أن تصبح أمة مشتتة مستضعفة فقيرة لا مقومات حضارية لها، في حين أرادها الله عز وجل أن تكون خير أمة حيث قال في كتابه الكريم:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١).

و ـ التهديد بالحروب العسكرية:

تتوسل الإدارة الأميركية لتحقيق هيمنتها العالمية من خلال استعمال القوة العسكرية، وكل دولة تفكر في الخروج عن الهيمنة الأميركية يكون

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

مصيرها التعرض لحرب قاسية تهدد كيانها واستمرارها. فما حصل في يوغسلافيا وكوسوفو إلى ما حصل في العراق أخيراً، لخير دليل على أن الهدف من وراء هذه الهجمات والحملات العسكرية هو فرض الإرادة السياسية على الشعوب المستضعفة، وفي هذا السياق تأتي التهديدات الأخيرة للجمهورية الإسلامية الإيرانية لمنعها من امتلاك التكنولوجيا النووية السلمية. إن التهديد باستعمال الآلة العسكرية الكبرى التي تمتلكها الولايات المتحدة الأميركية يشكل خطراً على الأمة الإسلامية مانعاً لها من إعادة تكوين شخصيتها الذاتية التي يسعى لها أبناؤها نتيجة الصحوة التي حصلت في النصف الثاني من القرن العشرين. لذلك تُعتبر العولمة من المخاطر الكبرى على المسلمين والأمة الإسلامية، وهي خطر وجودي أكثر مما هي خطر على الهوية فقط.

ز ـ الخطر على الإمكانات الاقتصادية للأمة:

إن قادة العولمة يريدون من ورائها السيطرة على موارد الأمة الإسلامية الغنية بالثروات الطبيعية وخاصة الثروة النفطية، ويتوسلون لذلك زعماء باعوا أنفسهم بشكل كامل للإرادة الأميركية وسط غفلة ملحوظة من الناس ومن بعض العلماء، خاصة أولئك الذين يسيرون في ركب السلطان. إن نظرة متفحصة للواقع الاقتصادي للأمة الإسلامية اليوم تجعلنا نوقن أن قادة العالم الإسلامي يتنازلون عن ثروات بلادهم لصالح الشركات الرأسمالية العملاقة التي تتحكم بمصير أرزاق كل فرد منا، وتأكل من خيراتنا لصالح اقتصاد الدول الكبرى. كل هذه الأمور أدت إلى انتشار الفقر وتفشي البطالة مع ما في ذلك من انتشار الأمراض والأوبئة والمجاعة، وهاتان الظاهرتان تشكلان سبباً أساسياً للظواهر الاجتماعية الفاسدة من جرائم القتل والاغتصاب والسرقة، ما يؤدي إلى تخلف الأمة وتراجعها على المستويات

المختلفة، ما يحول أمتنا إلى أمة ضعيفة ذليلة بدلاً من أن تكون كما أرادها الله عز وجل أمة قوية عزيزة، فقد قال الله عز وجل عن ذلك:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

١٣ ـ الإسلام في مواجهة العولمة

إن أمتنا الإسلامية تتعرض منذ أكثر من قرن لهجمة استعمارية كبرى بدءاً من الاحتلالات العسكرية إلى الوصاية السياسية إلى الغزو الفكري من خلال التبشير والاستشراق والتغريب، وما كانت هذه الهجمات لتؤدي دورها إلا بعد أن تراجعنا على مستوى إيماننا والتزامنا أولاً بعقيدتنا وثانياً بمنظومة قيمنا، إن السعي لمواجهة العولمة يتوقف أساساً على الرجوع إلى هذا الدين والالتزام بتعاليمه ومفاهيمه، فلا يمكن، خاصة على الصعيد الفكري، أن تواجه فكراً بفكرٍ آخر معتمداً تارة على ما فيه وأخرى على ما في غيره. إن العولمة ليست ظاهرة مؤقتة، ولا هي قضية بسيطة أو جزئية، وإنما هي مؤامرة عالمية كبرى على البشرية، تقف وراءها دول قوية، وأموال جبارة وخبرة علمية وقدرات تقنية عالية ومخططات رهيبة للسيطرة. وعليه، لا يمكن لنا أن ندافع عن أنفسنا أمامها ونحمي أنفسنا وأمتنا منها إلا من خلال التعامل معها بقوة وحكمة واستقلالية واستناداً إلى العلم والمنطق السليم، وهذا لا يكون إلا من خلال تغير نمط حياتنا بالإسلام اعتماداً على قول الله سبحانه تعالى:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾(٢).

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ٨.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.

وتغيير حياتنا بالإسلام يكون من خلال معرفته معرفة حقيقية وتلقيه من منابعه الأصيلة، فهو الدين الذي أخرج الناس من ظلمة الجاهلية إلى نور الإسلام، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد القهار. وهو الدين الذي أخرج الناس من الظلم إلى العدل، ومن الباطل إلى الحق، ومن نظام القبيلة إلى نظام الدولة العادلة. وهو الدين الذي أعطى للعقل دوره وقضى على الخرافة والجهل. إن العودة إلى الإسلام لا تكون في جانب دون آخر، بل لا بد من أخذ هذا الدين في كل تعاليمه وأفكاره وبشكل كامل، أما أخذ البعض وترك البعض الآخر لن يؤدي إلى أية نتيجة عملية، لأن ما يميز هذا الدين هو أنه منظومة كاملة لا يمكن أن ننتقي منه بعضاً ثم بعد الفشل نُعيد الأمر إلى الدين، في حين أن الحل لا يكون إلا من خلال الإلتزام الكامل به في كل مضامينه، وهذا ما أراده الله عز وجل عندما قال في كتابه الكريم:

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(١).

إن التعبير بأن مصير من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض هو الخزي في الحياة الدنيا لهو خير دليل على ما قدمناه في هذا الموضوع، لذلك، وكي لا نكون ممن مصيرهم الخزي في الدنيا وأشد العذاب في الآخرة يجب أن تكون مواجهتنا للعولمة على جبهات المواجهة كافة والتي نختصر أهمها فيما يلي:

١ ـ على الصعيد الفكري:

يجب أن نؤمن بالله الواحد الأحد القادر على كل شيء وأن القوة له

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٥.

وحده، فالله هو الأكبر وبالتالي يجب أن لا ترهبنا قوة العدو مهما بلغت؛ فالله أرادنا أن نكون أقوياء لا نخاف من حشد الكفار، وعندما تسقط عقدة الخوف عندنا فإن إمكانية التطور ستكون كبيرة جداً، أما عندما ترهبك قوة العدو وحشده فإنك ستقع أسيراً له تسير تحت لوائه ولا تحرك ساكناً إلا بإرادته لذلك قال الله عز وجل في كتابه الكريم:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾(١).

عندما يكون الله حسبك فإن أية قوة في العالم لن تستطيع معك شيئاً، وما النصر الذي حققته المقاومة الإسلامية في لبنان خلال حرب تموز العام ٢٠٠٠م على العدو الصهيوني، والصمود الأسطوري الذي أدى إلى هزيمة المشروع الصهيوني والنصر الإلهي للمقاومة في تموز من العام ٢٠٠٦م، إلا دليلاً واضحاً على أن المقاومة البسيطة في العدة والعدد يمكن أن تنتصر على جيش جرار من خلال التوكل على الله، ومقاييس القوة والضعف هي مقاييس معنوية إضافة للمقاييس المادية. الأمر الآخر الذي لا بد من التنبه له هو موضوع أن تكون هذه الأمة أمة واحدة لا يفرقها عرق ولا وطن ولا لغة ولا لون ولا مذهب؛ لأن الله عز وجل أرادها أمة واحدة كما قال في كتابه الكريم:

﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾(٢).

إن أول طريق لنبذ الخلاف يكون من خلال الاجتماع على موقف سياسي واحد في مواجهة الموقف السياسي الواحد لقوى الاستكبار العالمي، أما من الناحية الفكرية فيجب أن نؤكد على الأصول التي نجتمع عليها ونترك الفروع التي هي مجال للاختلاف، ليس فقط بين المذاهب

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

المختلفة بل بين أتباع المذهب الواحد. وبنفس الوقت يجب أن نعترف فيما بيننا أنه لا توجد مدرسة واحدة مجمع عليها بين أبناء الأمة الإسلامية ومفكريها، وبالتالي فإن أية أفكار ـ حتى لو لم تعجبني ـ هي تفسير للإسلام ينطلق من نصوصه وقد يحتمل الصواب والخطأ، وبالتالي لا داع لأن يكون سبباً لاختلافنا كمسلمين. ويجب التأكيد على أن الإسلام دين ينفتح على الواقع وقابل للتجدد والتناغم مع تطور الحياة، وبالتالي لا مشكلة في الاجتهادات التي تحاول أن تقدم إجابات عن كل ما يطرح حديثاً في مجتمعاتنا من قضايا فكرية وفقهية وطبية وعلمية وخلافه. ولا بد من اعتماد أساليب حديثة في التعامل مع مشكلات العصر، فمن المعروف أن العصر قد تقدم وهناك وسائل حديثة يتبعها الغرب في نشر مفاهيمه، فيجب أن نكون على أتم الاستعداد لخطاب أهلنا بلغة العصر كي يكونوا قادرين على مواجهة الحملات المضادة. ولا بد من اعتماد اللغة المقارنة بموضوعية بين ما عندنا وما عند المستكبر، فلا يجوز الهروب من ذلك بالقول بأن كل ما عند المستكبر حرام وكفر، بل لا بد من التمييز بين ما يجوز الاستفادة منه بحسب الشرع الإسلامي وبين ما يجب المنع عنه من أفكارهم. إن كثيراً من الأفكار التي يتعامل معها عامة الناس من المسلمين لا تمت للإسلام بصلة، بل إن بعضها بعيد كل البعد عن الإسلام، ومن ذلك الخرافات والبدع التي انتشرت بين الناس بحيث بات البعض يظن خاصة من هم خارج الدائرة الإسلامية، أن هذه البدع والخرافات هي من الإسلام، وقد استغل الاستعمار هذه الأمور لتشويه صورة الإسلام، وجعل الناس خاصة الجيل الشاب والواعي تلجأ إلى الأفكار الغربية لما وجدته عندها من إجابات على أسئلتها. إن ظاهرة الوعي الإسلامي في هذه الفترة تعود إلى التركيز على تقديم إجابات موضوعية لجيل الشباب الذين كان لهم الأثر البالغ في عملية التغيير في أواخر القرن العشرين.

٢ ـ على الصعيد السياسي:

من المعروف أن التاريخ الإسلامي حافل بأنظمة حكم مختلفة ابتدأت مع رسول الله ﷺ، ثم كان الخلاف على خلافة الرسول ،ومن بعد ذلك وبالتحديد بعد معركة صفين كانت أنظمة البيوت الحاكمة من البيت الأموي إلى أن انتهينا مع السلطنة العثمانية التي تفككت إلى قوميات ودويلات بحسب العرق واللغة وما إلى هنالك من تقسيمات لأمتنا الإسلامية الواحدة. هذا هو تاريخنا الذي يجب أن لا نخجل به، بل علينا أن نستفيد منه من خلال التركيز على الإيجابيات وترك السلبيات، ولن تقوم للإسلام قائمة إلا بعد أن نترك كل بواعث الفرقة، ونمسك بالقيادة الإسلامية الواحدة الساعية لأمة إسلامية واحدة. إن مآسينا أن هذه الدول التي حكمت باسم الإسلام كانت أبعد ما تكون عن الإسلام على صعيد الممارسة الفردية والعامة، فلا ينسجم أن يكون الحكم إسلامياً والحاكم ظالماً ومستبيحاً لحرمات الله، ولن تكون حكومة إسلامية تلك التي تورث الحكم للابن حتى لو لم يكن يمتلك أدنى مقومات الإنسان المسلم الذي يستأهل أن يكون حاكماً للمسلمين. لذلك، يجب السعي لإعطاء الراية لحاكم عادل فقيه تجتمع فيه عناصر القيادة الإسلامية كي نسير وراءه لنبني من جديد الدولة الإسلامية، ونمنع العولمة العالمية من تحقيق أهدافها. هذه القيادة هي التي تحدث عنها الإمام الصادق عليه السلام بقوله:

«فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه»[1].

إننا نعتبر أن نظام ولاية الفقيه المنطلق من هذا الحديث الشريف هو الحل الذي يعيد للدولة الإسلامية حضورها بين الدول في عصرنا الحاضر،

(١) مستدرك سفينة البحار، الجزء ٨، الصفحة ٢٨٦.

وقد أثبتت هذه النظرية نجاحها من خلال ما حققه الإمام الخميني (قدس سره) من بناء دولة عصرية صمدت في وجه كل المؤامرات التي حيكت ضدها. إن الأنظمة التي تحكم مجتمعاتنا الإسلامية اليوم حتى تلك التي تقول إن دستورها القرآن الكريم هي أنظمة استبدادية، يعمل الحكام فيها للبقاء على كرسيهم حتى لو كلف ذلك بيع البلد للمستكبر. إن الدفاع المستميت للولايات المتحدة الأميركية عن هذه الأنظمة إنما كان بسبب أن هؤلاء الحكام باعوا بلادهم ومواردهم لأميركا فقط من أجل الحكم والتحكم، فهناك بينهم وبين الولايات المتحدة الأميركية عقد تضمن لهم فيه الأخيرة بقاءهم على كراسيهم في مقابل تسليمهم لها في كل ما تطلبه من تبعية سياسية واقتصادية. ولكي تستمر عمالتهم لأميركا وتتأكد حاجتهم لها عملت الأخيرة على إيقاع الفتنة بين هؤلاء الحكام وتأزيم المشاكل بينهم، حتى وصلت إلى حد القطيعة التامة بين بلد إسلامي وآخر، وبات كل حكم يخاف من الآخر ويستقوي عليه بالولايات المتحدة الأميركية، والعكس صحيح. إن الحل في عصرنا الحديث اليوم هو بأن لا يكون هناك خلاف بين دولنا وبين من يتربع منهم على سدة القيادة، بل بالحث على وحدة العالم الإسلامي ضمن دولة واحدة يحكمها إمام وقائد واحد بغض النظر عن اسمه ولونه وموطنه ومذهبه وقوميته. إن النتيجة المأساوية للسياسات التي اتبعها الحكام في عصرنا الحاضر هي طغيان الصهيونية واستيلاؤها على أرض فلسطين، وهي التي تؤدي اليوم إلى خطر طغيان العولمة الشرسة علينا. يجب علينا أن نعرف أنه لن يتغير واقعنا اليوم إلا من خلال اعتماد حرية الرأي والسماح للشعوب في العالم الإسلامي أن تقرر مصيرها، وهي ستختار حتماً الإسلام؛ لأنهم يعتبرونه المنقذ لهم مما يعانوا منه اليوم.

٣ ـ على الصعيد الاقتصادي:

يُشكِل البعض على الإسلام أنه لم يبلور نظرية اقتصادية متكاملة، وأن

الدولة الإسلامية مضطرة للتعامل مع النظام الاقتصادي العالمي الذي تديره الولايات المتحدة الأميركية، وبالتالي لا يمكن مواجهة العولمة الاقتصادية. والصحيح، أن النظرية الاقتصادية الإسلامية موجودة ضمن أحكام الشريعة سواء في حرمة الربا أم في تشريع الخمس والزكاة، أو من خلال تحريم الاحتكار، وبالتالي، فإن عدم قوننتها ضمن مواد لا يلغي وجودها. فلا بد من بذل الجهد في إنتاج هذه النظرية في الواقع العملي، وهناك محاولات جيدة من علماء الشريعة وعلى رأسهم سماحة المرجع آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر (قدس سره) من خلال كتابيه اقتصادنا والبنك اللاربوي في الإسلام، ما يؤكد أن مواجهة العولمة تفرض على علماء الأمة سواء علماء الشريعة أم علماء الاقتصاد أن يبلوروا هذه النظرية. إن النظام الاقتصادي العالمي بني منذ فترة طويلة على أسس غير إسلامية تعتمد أساساً على ما أنتجه اليهود تحديداً من نظم تبتني أساساً على الربا والاحتكار والأسس غير الإنسانية، وعليه، وللخروج من هذه الهيمنة نحتاج إلى فترة نكوّن فيها المجتمع الإسلامي القوي الذي يستطيع أن يواجه النظام الاقتصادي للقوى العظمى؛ ولو من خلال فترة مسايرة تتعامل مع الأمر الواقع حتى التخلص منه تدريجياً. إن النظام الاقتصادي الإسلامي هو الوحيد القادر على القضاء على ما خلفه النظام الاقتصادي الرأسمالي للإمبريالية الأميركية من تفاوت ظالم في الثروات، ما يعيد للمجتمع الإسلامي التوازن، ويستطيع الفقير أن يعيش من خلال التكامل الاجتماعي حياة كريمة، لا أن يموت من الجوع وتتفشى في مجتمعه المجاعات والأمراض، كما يحصل مع الدول الفقيرة في أيامنا هذه نتيجة للنظام العالمي الجديد الذي لا يعتني بأية قيمة. وما يحصل في أفريقيا في هذا المجال خير دليل على ذلك. إن الذي يساعد على نجاح النظام الاقتصادي الإسلامي عدة أمور تتضمنها الأحكام التفصيلية الإسلامية نحددها باختصار ضمن العناوين التالية:

١ ـ النظام الإسلامي وضع أسساً للحد من تعاظم الثروات، وذلك من خلال تقسيمها عبر نظام الإرث كي لا تكون دولة بين الأغنياء.

٢ ـ وضع الاقتصاد الإسلامي حلاً لمشكلة الفقراء فجعل هناك في ضمن أموال الأغنياء حقاً محدداً للفقراء والمحتاجين، لذلك قال الله عز وجل في كتابه الكريم:

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[١].

٣ ـ إن النظام التجاري الإسلامي مرن بشكل يستطيع معه التاجر المسلم أن يُبدع في عملياته التجارية ما يوفر إمكانية قيام نظام اقتصادي قوي ومنتج، فكانت القاعدة المعتمدة هي أن العقد شريعة المتعاقدين انطلاقاً من قوله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[٢].

فبحسب هذه الآية الكريمة أمرنا الله عز وجل بأن نفي بالعقود من تحديد صيغة معينة للعقد، المهم أن لا نشترط شرطاً يحلل ما حرم الله أو يخالف كتاب الله؛ لأن هذا الشرط لا قيمة له شرعاً، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«المسلمون عند شروطهم إلا كل شرط خالف كتاب الله عز وجل؛ فلا يجوز»[٣].

وعليه، نجد أن العقود التجارية يمكن إبرامها بسهولة شرط أن لا نضع فيها من الشروط ما خالف كتاب الله، كالربا وغيره.

---

(١) سورة المعارج، الآيتان: ٢٤ ـ ٢٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١.
(٣) وسائل الشيعة، الجزء ١٢ الصفحة ٣٥٢.

٤ ـ النظام الاقتصادي الإسلامي ليس نظاماً مركزياً تفرض فيه الدولة التدخل في كل شيء، وليس نظاماً حراً يأكل فيه القوي الضعيف، بل هو نظام متوازن تتدخل فيه الدولة عندما ترى أن هناك ضرورة لذلك، كما لو وجدت أن هناك تعدياً على حقوق المواطنين عند الاحتكار أو رفع الأسعار بلا مبرر، من أجل الحفاظ على مصالح العباد، وإذا لم يكن هناك خطر على الناس فالتجارة حرة ضمن آداب تدعو للرحمة والعطف على الناس في التجارة معهم.

٥ ـ لا يوجد في النظام الإسلامي مقاييس تختلف باختلاف الشخص بحسب قربه من النظام الحاكم، فيكون الأقوى الذي لديه نفوذ وصاحب امتيازات وفرص أكثر من الضعيف، بل إن النظام الإسلامي يضمن تكافؤ الفرص بين جميع المواطنين على قاعدة أن الأكفأ هو الذي يصل حتى لو كان فقيراً، في حين لن يصل الغني أو صاحب السلطة ما لم يتمتع بالكفاءة، وهذا ما أكده أمير المؤمنين علي عليه السلام عندما قال:

«الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه»(١).

وما دام أن قائد الأمة وإمامها يضمن هذا الأمر فلن يكون هناك تمييز بين الناس إلا على أساس الكفاءة والتقوى، وبذلك يضمن النظام الإسلامي إطلاق الطاقات الإنسانية لتفيد الأمة في طريق تطورها ورقيها.

٦ ـ تعتبر الملكية، وخاصة الملكية الفردية، واحدة من المشكلات الأساسية التي عانت منها الأنظمة المادية، وكانت سبباً من أسباب سقوط النظام الشيوعي وعدم تقدم النظام الاشتراكي بأشكاله كافة، في حين أن إطلاق الملكية الفردية إلى الحد الذي وصلت إليه في الأنظمة الرأسمالية سيكون سبباً في سقوط هذا النظام الجشع، في حين أن الإسلام سمح

(١) نهج البلاغة، الجزء ١ الصفحة ٨٩.

بالملكية الفردية لكن عمل على تهذيبها وفرض حقوقاً للفقراء فيها، وسمح أيضاً بالملكية العامة وملكية الدولة، ضمن توازن يسمح بإطلاق المبادرة الفردية ولكنه يضع لها حدوداً كي لا تؤذي الفقراء والمستضعفين.

٧ ـ أعطى الإسلام قيمة مهمة للعمل والعمال؛ فشجع على الإنتاج، وأن يكون كل عنصر في الدولة مفيداً منتجاً على قاعدة أن الله عز وجل عندما استخلفنا على هذه الأرض إنما فعل ذلك كي نعمرها ونبنيها، ويلتزم المجتمع بإيجاد عمل لكل قادر، والرجل بلا عمل لا قيمة له في المجتمع، وهو غير محترم كما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ فيما رواه عنه ابن عباس رضي الله تعالى عنه:

«كان رسول الله ﷺ إذا نظر إلى الرجل فأعجبه قال: له حرفة؟ فإن قالوا: لا، قال: سقط من عيني، قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: لأن المؤمن إذا لم يكن له حرفة يعيش بدينه»[١].

٨ ـ صحيح أن الإسلام أطلق الملكية الفردية وسمح بأن يكون للفرد المسلم شخصية مالية مستقلة، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يغلب التشريع الجماعي على الصعيد الاقتصادي؛ وذلك لأن الأولوية لديه إنما هي لصالح الجماعة أكثر مما هي لصالح الفرد، خاصة أنه غالباً ما تكون الجماعة مستضعفة وفقيرة.

٩ ـ لقد حث الشرع الإسلامي الأغنياء على بذل أموالهم لصالح الفقراء، ونهاهم عن أن يكنزوا أموالهم ويكوّنوا ثروات طائلة لا يلتفتون أثناء تجميعها إلى كيفية ذلك، حتى لو أدى إلى قهر الفقراء والمستضعفين، لذلك قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ

---

(١) مستدرك الوسائل، الجزء ١٣، الصفحة ١١.

بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[(١)].

فنرى أن الله بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا يقومون بإنفاقها بعذاب أليم، ما يعني أن الإسلام يدعو إلى أن نقوم باستعمال هذه الثروات في خدمة الفقراء والمستضعفين.

١٠ ـ اعتبر الإسلام أن المال الذي بين أيدينا ليس ملكاً لنا في حقيقة الأمر، ولكنه ملك الله ونحن مستخلفون عليه يجب أن ننفقه كما أراد الله سبحانه وتعالى منا، كما قال الله في كتابه الكريم:

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[(٢)].

وبالتالي، فإن المال الذي بين أيدينا بما أنه ملك الله فلا يجوز لنا أن نفرط به، وهذا من شأنه أن يساعد على بقاء الثروة القومية بين أيدي الناس والمجتمع وتفيدهم وتنمي قدراتهم، ولذلك وجدنا أن الإسلام شرع أن من يقوم بتبديد هذه الثروة بأن كان سفيهاً يتعرض للحجر عليه ومنعه من التصرف بماله وإعطاء هذا المال لوليه أو للحاكم الشرعي كي يديره له، كما قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[(٣)].

فالمال كما في الآية الكريمة جعله الله سبحانه وتعالى لنا قياماً، بمعنى أن به يقوم أمر مجتمعنا وأمتنا، ومن خلاله يكون الرقي والتقدم الذي وعدنا الله عز وجل به وبالتالي لا يجوز لنا التفريط فيه.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥.

١١ ـ النظام الإسلامي يركز على الأساسيات والضروريات وينهى عن التبذير، ويربي المؤمن على الاكتفاء من الدنيا بالقليل، ووبخ الله عز وجل المبذرين بقوله في كتابه الكريم:

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾[١].

وبالتالي، فإن الإلتزام بما ورد في الآية الكريمة بعدم التبذير يؤدي للحفاظ على الثروة الاقتصادية في المجتمع الإسلامي، وتصبح الموارد كافية لا حاجة معها للاستيراد من الغرب مع ما في ذلك من رهن لإرادتنا السياسية في كثير من المجالات. هذه صورة مقتضبة عن النظام الاقتصادي الإسلامي الذي يمكن لنا أن نقدمه كبديل عن النظام العالمي الجديد على المستوى الاقتصادي، وهو يقدم إجابات عن كثير من الأسئلة التي يسألها الشباب اليوم حول الحل المرتجى لواقعنا الاقتصادي. إن النظام الإسلامي يشكل بديلاً وحلاً لواقعنا اليوم، ويجب عدم الاقتصار على النظامين أو الأنظمة المتداولة، وطرح الإسلام كبديل على الصعيد الاقتصادي لم يقتصر على علماء المسلمين، بل طرحه الاقتصادي الفرنسي جاك أوستروي عندما قال:

«إن طريق الإنماء الاقتصادي ليس مقصوراً على المذهبين المعروفين، الرأسمالي والاشتراكي، بل هنالك مذهب اقتصادي ثالث راجح، هو المذهب الاقتصادي الإسلامي، إلى أن يقول: «إن هذا المذهب سيسود عالم المستقبل؛ لأنه أسلوب كامل للحياة»[٢].

إن على المسلمين أن يثقوا بمذهبهم الاقتصادي ويعملوا على تطبيق مبادئه، وأن يخططوا لتنمية مواردهم بعد أن يسحبوا أموالهم من بنوك العالم التي يستفيد منها الصهاينة أكثر مما يستفيد منها المسلمون. يمكن لهم تحقيق المجتمع الإسلامي المنافس بل والبديل الذي يمكن أن يدخل الناس

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٧.

(٢) النظام الاقتصادي الإسلامي ـ مبادئه وأهدافه، الصفحتان ١٣ ـ ١٤.

من خلاله إلى الإسلام ويؤمنوا به كدين إلهي يتجاوز الأنظمة الوضعية. خاصة مع ظهور التباشير الأولى لسقوط النظام الاقتصادي الرأسمالي مع الأزمة الاقتصادية العالمية وخاصة في الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا.

٤ ـ على الصعيد الاجتماعي:

إن الإسلام دين يكفل العيش الكريم لكل طبقات المجتمع فهو بحق دين التكامل والتكافل الاجتماعي، لقد بنى الإسلام مجتمعاً اعتمد في نظامه على الشريعة الإسلامية التي أمرت بالمعروف والعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهت عن الفحشاء والمنكر والبغي. كما قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١).

وهذا ما أدى إلى قيام أعظم تنمية حضارية في المجتمع قامت على التجربة والعلم، فأنشأت المدارس والجامعات والمستشفيات. وحكم القضاء الإسلامي بالعدل بين الناس، وأدَّب نوازع نفس الإنسان الأمارة بالسوء، فكان أن تشكل مجتمع إسلامي متقدم بنى دولة متقدمة سعت إلى نشر الإسلام فوصل إلى الصين وإلى أبواب فيينا، وهدى الله عز وجل به قلوب الكثير ممن أراد فتحها على الحق ومعرفة الله. ولو أردنا أن نعدد المفردات الاجتماعية التي ذخر بها الإسلام لما اتسع المقام لذكرها، حيث إنها شملت كل ما له علاقة في مجال العلاقات الاجتماعية والإنسانية، ولكن سأكتفي هنا ببعضها نظراً لأهميتها ولمن أراد التوسع فعليه الرجوع إلى المطولات:

أ ـ نظرة الإسلام للمرأة:

الإسلام هو الدين الذي أعاد للمرأة كرامتها بعد أن كانت تقتل في

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.

الجاهلية لمجرد أنها أنثى، وقد استنكر الإسلام ذلك عبر قوله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾(١).

فالمرأة كائن اجتماعي مستقل له ماليته الخاصة وشخصيته المستقلة، فهي تشارك في اختيار قادتها من خلال ما ورد من مبايعة المرأة لرسول الله ﷺ، ولها أن تقوم بالأعمال كافة التي تتناسب مع طاقاتها وإمكاناتها ولا يمنعها حجابها من القيام بمهامها هذه. أما في مجتمعاتنا اليوم فقد تحولت المرأة وبسبب الأفكار الوافدة بسبب العولمة إلى هذه المجتمعات إلى سلعة تباع وتشترى وتستغل من ناحية أنثوية شهوانية لترويج البضائع من خلال الإغراءات الجنسية، حتى بات ترويج إطار السيارة يحتاج أن تقف إلى جانبه امرأة شبه عارية، فعادت الجاهلية الأولى ولكن بوسائل حديثة تختلف في الشكل ولكنها تحمل ذات المضمون. وقد فرض الإسلام على كلٍ من المرأة والرجل بلا تمييز أن يتعلما ويوسعا من إدراكهما فكان طلب العلم فريضة على كل منهما بلا تمييز بينهما فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»(٢).

وهذا ما يفرض علينا أن نرفض كل العادات الطارئة علينا من مجتمعات الجاهلية والتي لا تمت للإسلام بصلة، كالعادة التي تقول: إن مكان المرأة المطبخ، ولا مجال لها أن تتعلم أو أن تكون عنصراً مفيداً في المجتمع في حركته الاجتماعية والسياسية.

ب ـ المجتمع الإسلامي مجتمع مؤاخاة:

الإسلام هو الدين الذي بنى المجتمع الذي يتآخى فيه أبناؤه بعضهم

---

(١) سورة التكوير، الآيتان: ٨ ـ ٩.

(٢) بحار الأنوار، الجزء ١، الصفحة ١٧٧.

مع بعض، فأول ما فعله رسول الله ﷺ في المدينة المنورة أنه آخى بين المهاجرين والأنصار. أما في مجتمعاتنا اليوم فإننا نجد أن الناس يعيش كل واحد منهم ذاتية مفرطة، فلم يعد للأسرة كيان، وضاعت مفاهيم الإسلام الأصيلة من صلة الرحم، وبر الوالدين، والتصدق على الفقراء والمساكين والمحتاجين.

ج ـ الإسلام دين المساواة:

الإسلام هو الدين الذي لم يفرق بين أتباعه لا على أساس اللون ولا اللغة ولا القومية ولا القبيلة التي ينتمون إليها، بل ساوى بينهم وجعل مقياس التفاضل هو التقوى، أي المميزات الداخلية الأساسية لا المميزات القشرية الخارجية، فقال الله سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١).

فالمجتمع الإسلامي مهما اتسع فلن يكون ذلك سبباً للفرقة، بل للتنافس على خدمة البشرية وإحراز التقوى. في حين أننا نرى في مجتمعاتنا اليوم أنه في نفس الدولة يتم التمييز بين المواطنين فيها، فالأسود لا مكان له في مجتمعات البيض، وهكذا.

د ـ حفظ أهل الأديان:

الإسلام ليس ديناً إقصائياً بمعنى أنه يسعى للقضاء على الأديان الأخرى، بل طالما أن أهل الأديان الأخرى يؤمنون بالله فإنهم على قاسم مشترك معنا، وبالتالي فإن الإسلام وضع تشريعات للحفاظ عليهم وعدم التعدي عليهم، بل إنه دعا للحوار معهم على كلمة سواء هي أن لا نعبد إلا الله، فقال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

---

(١) سورة الحجرات، الآية١٣.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

فعندما نتفق على عبادة الله الواحد الذي لا إله إلا هو فساعتئذٍ يمكن الاتفاق على القضايا الأخرى باعتبارها قضايا تتفرع عن القضية الأساس التي هي الإيمان بالله، وعليه، فإن أهل الكتاب طالما أنهم لا يقومون بما يؤدي إلى إضعاف الدولة الإسلامية أو التآمر عليها مع أعداء الداخل أو الخارج، فإنهم سيكونون محفوظين بأنفسهم وعيالهم وتعاليمهم التي يؤمنون بها.

هـ ـ حفظ الكرامة الإنسانية للمواطنين:

من الطبيعي أن تحفظ كرامة المسلم في مجتمعه، وبيّنا أن الإسلام يحفظ كرامة أهل الكتاب، فما حال غير هؤلاء من المواطنين؟ إن الإسلام دعا لحفظ الكرامة الإنسانية بغض النظر عن إيمان هذا الشخص بالإسلام وعدم إيمانه به، فكل مواطني الدولة الإسلامية محفوظون لا يُتعرض لهم بسوء طالما أنهم لا يتعرضون للدولة الإسلامية بما يُشكل خطراً عليها، وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله في عهده لمالك الأشتر (رضوان الله تعالى عليه) عندما أوفده ليكون والياً على مصر:

«وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه»[2].

إن روعة هذا الكلام أنه يؤسس لعلاقة الحاكم بالمحكوم من دون

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) نهج البلاغة، الجزء ٣، الصفحة ٨٤.

الالتفات إلى دينه، فإنه حتى لو كان خارج الإسلام فإنه يبقى والحال هذه نظير لنا في الخلق.

و ـ العناية بالأسرة:

لقد اهتم الإسلام بالأسرة بصفتها اللبنة الأساسية في تكوين المجتمع وبصلاحها يكون صلاح المجتمع وبفسادها يكون فساده، لذلك ركز الإسلام من خلال القرآن الكريم على أن يقوم الأهل برعاية أولادهم كي لا ينحرفوا عن جادة الصراط المستقيم، فقال الله سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1].

فأمر الله سبحانه وتعالى لنا بوقاية الأهل لأولادهم من الانحراف هو للتدليل على أهمية أن لا يقتصر عملهم على وقاية أنفسهم، بل إن هناك مسؤولية عليهم تجاه أولادهم تستتبع مسؤولية تجاه المجتمع.

٥ ـ على الصعيد التربوي:

لن يستطيع المسلمون مواجهة الهجمة الشرسة للعولمة والتي غزت بيوتهم ودخلت فيها من دون استئذان فساهمت في حرف بعضهم عن جادة الصراط المستقيم إلا من خلال عملية تربوية مركزة ومكثفة ونوعية، تستهدف نشر الوعي الإسلامي، وذلك من خلال استخدام وسائل وتقنيات العصر الحديث لتقديم أجوبة شافية للجيل الصاعد عن أسئلته التي تحيره، وهذا يتم من خلال الوسائل التالية:

١ ـ يجب أن نستخدم وسائل العصر الحديث من تلفزيون، وإذاعة، ومسرح، وسينما، وانترنت، وخلاف ذلك من وسائل الإعلام المرئية

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

والمسموعة كي نكون قادرين على المواجهة، ومن خلال هذه الوسائل نعلم أولادنا أن ديننا هو دين التوحيد والأخلاق الحميدة، ونبين لهم كيفية ذلك، ونمكنهم من الميزان الذي به يعرفون الحق من الباطل فيكتشفوا الزيف الذي تحاول العولمة أن تصوره لهم على أنه الأفضل لهم ولصالحهم.

٢ ـ يجب أن لا ننسى دور المسجد في تربية الناشئة المسلمة، فمن خلال الدروس التي تتلى في المسجد، وصلاة الجمعة والجماعة، ودورات تحفيظ وتجويد القرآن الكريم يمكن أن نشكل عملية تربوية شاملة تساهم في مواجهة العولمة وآثارها البغيضة.

٣ ـ يجب أن لا نلغي دور المدرسة في ذلك، فلا بد من تأسيس مدارس تعلم العلم العصري وتكون مناهجها متوافقة مع المقررات الرسمية، ولكنها في نفس الوقت تحتوي برامج تربية دينية تهذب الطلاب أخلاقياً ودينياً، بل لا بد من كتابة الكتب المقررة بروح الدين الإسلامي فلا نكون أسرى للتوجيه المبطن والسيئ لبعض الكتب خاصة كتب اللغات والتاريخ والجغرافية. بل حتى الكتب العلمية الصرفة ككتب الفيزياء والكيمياء يجب أن نتدخل في إفهام التلاميذ ما يرد في بعض الأحيان من أفكار تتناقض مع عقيدتنا، كما كنا ندرس في كتب الكيمياء أن المادة لا تخلق ولا تدمر، وهذا ما يتعارض مع عقيدتنا في خلق الله للمادة من العدم وقدرته على إفنائها لأنه يقول سبحانه وتعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1].

٤ ـ يجب أن لا ننسى أيضاً دور الكتب والنشرات المقروءة كالمجلات والجرائد والدوريات الخاصة والعامة، فإنها تساهم في نشر توعية عامة مفيدة للمواجهة والتحصين.

---

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.

٥ ـ هناك فكرة خاطئة عن الإسلام من أنه دين حزن وتزمت ولا مكان فيه للفرح والترويح عن النفس، وهذا تفكير خاطئ بالمطلق، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«روحوا القلوب ساعة فساعة»[١].

لذلك يجب أن نستفيد من وسائل الترفيه في عملية التربية والتوجيه، وذلك من خلال المخيمات الشبابية الصيفية والرحلات الترفيهية التي يكون من ضمن برنامجها إضافة إلى الترفيه، برامج وعظ وإرشاد، أو أن ننهي دورات المساجد برحلات ترفيهية يتم فيها الترويح عن النفس بأسلوب لا يغضب الله عز وجل، فإن ذلك لوحده كافٍ كهدف لهذه الرحلات.

٦ ـ لا بد من أن تتضافر الجهود لعملية تربوية سليمة وذلك من خلال الاستفادة من تجارب الآخرين من العاملين في الحقل التربوي وذلك من خلال إقامة المؤتمرات المتخصصة في كل بلد من بلاد المسلمين.

وحدة الأمة هي الحل:

إن نجاح الاستعمار في السيطرة على بلاد المسلمين انطلق من مبدأ أساسي ابتدعه الإنكليز من خلال فكرة: «فرق تسد» كما قلنا سابقاً، فعملت بريطانيا وفرنسا على تقسيم بلاد المسلمين عبر فصل التركي، عن الفارسي، عن العربي، وعن الكردي، ثم بعد ذلك أتوا للعرق الواحد فقسموا بلاد العرب إلى دويلات فكان العراق، وفلسطين، ولبنان، وهكذا حتى باتت بلاد المسلمين أشلاء ممزقة، وهذا ما سيسهل، فيما لو استمر، على الولايات المتحدة الأميركية أن تفرض سيطرتها على عالمنا الإسلامي من خلال العولمة، لذلك فإن الحل في مواجهة هذه الهجمة يكون من خلال إعادة الوحدة لبلاد المسلمين من خلال نشر الوعي السياسي الإسلامي في صفوف

(١) كنز العمال الجزء ٣ الصفحة ٣٧.

الأمة وتحذير المسلمين من خطر الفرقة والتفرقة. ومن المؤسف أن بعض المسلمين اتجهوا في مواجهة ذلك اتجاهات خاطئة فتحول بعضهم إلى الشيوعية، وبعضهم الآخر إلى القومية أو الاشتراكية وما هنالك من أفكار ليست من أفكارنا بشيء، وهي بعيدة كل البعد عن ملامسة الحل الوحيد لهذه الأزمة ألا وهو الإسلام. وهذا الكلام لا يعني أن نصارع هؤلاء فيضيع بأسنا بيننا، بل أن نتعاون معهم على الأقل لمواجهة هذا الخطر، إذ إننا بذلك نحقق أحد أهم أهداف الاستعمار في تفريقنا وتصارعنا بين بعضنا البعض لتكريس العولمة والهيمنة الأميركية. إن توجه بعض المسلمين في هذا الاتجاه لا يمكن أن نلقي بتبعاته أو منطلقاته على الغرب والاستعمار فقط، بل إن عدم قيام العلماء والمفكرين بواجبهم تجاه الأمة في إفهامها مشاكلها وكيفية حلها جعل هؤلاء يلجأون إلى الأفكار الغربية التي وجدوا فيها ضالتهم وهذا ما يفرض على أئمة المسلمين وعلمائهم القيام بواجبهم في هذا المجال. إن سيطرة القوى الفكرية الشيوعية أو القومية أو تلك التقسيمية على الحكم في بلاد المسلمين دامت لفترة عدة عقود ولكن الوضع اليوم اختلف بعد الصحوة التي انطلقت من ثورة الإمام الخميني (قدس سره) إذ عاد الإسلام ليقود الحياة من جديد ولكن هذا لم يثنِ الاستكبار وخاصة الولايات المتحدة الأميركية من تحريك المؤامرات في وجه الصحوة الإسلامية، وابتدأت من جديد محاولات الفرقة بين البلاد الإسلامية ما يفرض علينا من جديد التأكيد على أهمية الوحدة الإسلامية.

إن من يسمون بقادة العالم الإسلامي يتحملون اليوم مسؤولية كبرى عن تردي حال الأمة وكذلك عن تشرذمها بل تقاتلها في بعض الأحيان، فهم سبب التخلف يوم أن لم يساهموا في دعم أبناء أوطانهم باتجاه التقدم العلمي بل وفروا لهم كل ما يساهم بالتخلف. إن الفساد ينمو في كل زاوية من زوايا دولنا بسبب هؤلاء الحكام، فالقضاء فاسد، ولا تنمية اقتصادية، ولا مجال للحرية الإعلامية، والسجون ملأى بالصحافيين والأدباء وأهل الرأي والفكر، ومع ذلك لا كرامة لمواطن، والتمييز بينهم كبير والفقر

مستشرٍ، وليس لهم من الديمقراطية سوى اسمها أما الانتخابات فإن سمحت القوانين بانتخابات تعطي تمثيلاً حقيقياً فإن تدخل السلطة يمنع من وصول النائب الحقيقي، وغاية ما يسعى إليه الحكام هو بناء القصور الطاغوتية، واقتناء السيارات الفخمة، وصرف الأموال الكثيرة في المنتجعات الأميركية والأوروبية حتى باتوا محط سخرية لدى شعوب تلك الدول. لقد عمل هؤلاء الحكام على ربط دولهم بعجلة الدول العظمى، ورهنوا مصيرهم بمصير هذه الدول التي تنهب ثرواتهم وتفرض عليهم قراراتها. إن الحل الذي يعيد للأمة قدرتها وقوتها يكون من خلال تربية الأجيال على قواعد الدين الإسلامي، وأن يطبقوا هم قبل غيرهم الشريعة الإسلامية، غير أن هذا دونه عقبات وعقبات أهمها أن هؤلاء لن يكونوا سوى أدوات بيد أميركا ينفذون سياستها ويتبعون شهواتهم وغرائزهم، ولن يقدموا للأمة أي حل يساهم في تقدمها، لذلك، فإننا يجب أن لا نعول على هؤلاء كثيراً ونلتفت إلى مجال آخر. إن العبء ملقى اليوم على عاتق الإسلاميين والحركات الإسلامية، وبالأخص علماء الدين الذين فرض الله عليهم أن لا يسكتوا على ظلم الظالمين ولا على جوع الفقراء وتراجع الأمة وتخلفها، وفي هذا المعنى يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ولولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها»[١].

إذن هذه مسؤولية العلماء ويجب أن يقوموا بهذا الواجب حتى يغيروا الواقع المأساوي الذي تمر فيه الأمة اليوم. وهم إن لم يفعلوا ذلك سيتعرضون لغضب الله وسيكون حسابهم عسيراً، وأكثر من ذلك فإنهم

---

(١) نهج البلاغة، الجزء ١، الصفحة ٣٦.

سيحاسبون حساب الظالمين الذين لم يغيروا عليهم كما قال الإمام الحسين عليه السلام:

«أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله»[(١)].

والمشكلة الأكبر اليوم هي أن بعض العلماء لا يكتفون بالسكوت على الظالمين، بل يمدحونهم ويروجون لأفكارهم ومواقفهم المخالفة لصريح الكتاب والسنة، فأصبحوا وعاظاً للسلاطين فاستحقوا أن يكونوا معهم في جهنم كما قال الإمام الصادق عليه السلام:

«من مدح سلطاناً جائراً وتخفف وتضعضع له طمعاً فيه كان قرينه في النار»[(٢)].

ولن يقف الأمر عند العلماء بل يتعداه إلى الإسلاميين الذين يجب أن يقوموا أيضاً بواجبهم في التغيير كون هذه مسؤولية المسلمين بشكل عام وليس العلماء فقط. يجب أيضاً على الحركات الإسلامية الفقهية أن تتآلف فيما بينها وتخرج من صراعاتها الفقهية أو العقائدية، واعتبار أن الاختلاف رحمة حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«اختلاف أمتي رحمة»[(٣)].

فالشافعية والحنبلية والمالكية والحنفية والإمامية فرق فقهية تغني التجربة العلمية وتوسع من مدارك الفقهاء والمتفقهين، وبالتالي لا يجب أن تكون سبباً في خلافنا ووقوع الفتنة بيننا طالما أننا كلنا نسعى كما ندعي

---

(١) تحف العقول، الصفحة ٥٠٥.

(٢) وسائل الشيعة، الجزء ١٢، الصفحة ١٣٣.

(٣) كنز العمال، الجزء ١٠، الصفحة ١٣٦.

لرضوان الله عز وجل، والذي لن يكون حتماً في فرقة الأمة وتقاتلها بين بعضها البعض.

يجب أن لا يكون ما يستبطنه التاريخ من خلافات بين المسلمين سبباً لخلافنا من جديد، ومن حق أي منا أن يكون له رأي في ذلك ويكون مع هذا الفريق وضد الآخر، ولكن يجب أن لا ينتقل الخلاف التاريخي إلى خلاف حالي، بل أن ننتبه إلى أن هناك عدواً أكبر يواجهنا ويريد رأس الإسلام لا فئة محددة منهم. إن هناك اليوم صحوة في العالم الإسلامي، وكثير من العلمانيين وجدوا أن مواجهة الهجمة الغربية لا ينفع معها عزل الإسلاميين عن هذه المواجهة، لذلك قامت محاولات مشكورة للتلاقي والتفاهم بين التيارات العلمانية والتيارات الإسلامية من خلال المؤتمر القومي الإسلامي، أو مؤتمر الأحزاب القومية والإسلامية، كل هذه اللقاءات تصب في خير الأمة وتوحيد طاقاتها لمواجهة الخطر الداهم عليها المتمثل بالعولمة.

١٤ ـ معوقات المواجهة

تبين لنا أن المواجهة بين العالم المستكبر الذي يسعى للسيطرة على العالم الإسلامي من خلال العولمة تعتبر أمراً حتمياً وبالتالي فلا بد من تجهيز كل المقدمات الضرورية لإنجاح هذه المواجهة، غير أن هناك معوقات لا بد من الالتفات إليها نختصر بعضها من خلال النقاط التالية:

١ ـ مجرد كوننا مسلمين أو حتى إسلاميين لن يحقق لنا النصر، بل لا بد من العمل في سبيل تحقيق هذا النصر ضمن القاعدة الإلهية التي تفترض أن ننصر الله كي ينصرنا، وهذا ما أكده من خلال قوله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[1].

(١) سورة محمد، الآية: ٧.

فيجب علينا أن ننصر الله من خلال العمل الدءوب لتحقيق إرادته في الكون، وأن لا نكتفي بمجرد الإلتزام بالطقوس الإسلامية التي لن يكون لها أي مضمون إن لم يطبق هذا الدين الذي أمرنا الله بتطبيقه. والمشكلة أننا تجاهلنا ذلك عن عمد أو عن غير عمد لا فرق.

٢ ـ نشكو من ضعف الإيمان، وقلة المعرفة بأحكام الشريعة والعقيدة الإسلامية الصحيحة، إضافة إلى تشتتنا بين فرق ومذاهب مختلفة صارت هي الهدف بالنسبة إلينا بدل أن يكون الإسلام وتطبيقه هو الهدف.

٣ ـ نتعامل مع العولمة على أساس أنها قدر لا يمكن مقاومته وهذا غير صحيح، بل إنهم قبل وصولهم إلى هذا الحال الذي هم عليه اليوم لم يكونوا شيئاً، وبالتالي فإن قدرتنا على استعادة دورنا وتشكيل مقاومة معتبرة لها أمر متيسر وممكن ولا يجوز لنا إغفاله.

٤ ـ يتذرع البعض بأن هناك إيجابيات للعولمة لا نستطيع إنكارها مما يضعف المواجهة، والصحيح أنه يمكن لنا أن نستمر في المواجهة مستفيدين من حسنات هذا النظام والابتعاد عن سلبياته.

٥ ـ مشكلة عدم وضوح الأهداف مشكلة معيقة في المواجهة، وكذا الفوضى في العمل التي تساهم في عدم تحديد أهدافنا بدقة، وكذا فإن هذين الأمرين يساهمان في إضافة مشكلة أخرى وهي عدم ترتيب الأولويات بالشكل الصحيح.

٦ ـ إن التخلف الذي نعاني منه أدى إلى تأخرنا عن مواكبة التقدم التقني في العالم من حولنا وهذا ما جعل أبناءنا يُبهرون بهذا التقدم، ما أدى إلى أن يأخذوا منه كل شيء فاختلط ما هو تقدم تقني بما هو تخلف حضاري، إضافة إلى أن الشعور بالدونية أدى إلى أن ييأس الشباب من التأثير على الآخرين أو إمكانية حصول تقدم في المجتمع.

٧ ـ إن بعدنا عن الشريعة وأحكامها هو معوق أساسي في طريق تقدمنا، وإن الحل يكون بالالتزام بأحكام ديننا والتمسك بمفاهيمه.

٨ ـ تفشت في مجتمعاتنا الموبقات الأخلاقية وسرت كل تعاليم الغرب الموبوءة ما أدى إلى انتشار الرذيلة والنفاق والأنانية، وهكذا مجتمع بهكذا مواصفات لا يمكن له مواجهة أخطار العولمة.

٩ ـ لقد بات المغني الفلاني أو البطل التلفزيوني الفلاني قدوتنا التي نطمح لأن نكون مثلها حتى لو كانت هذه الشخصيات لا تمثل قيماً أخلاقية، بل تمارس أعمالاً غير مقبولة كاللصوصية، أو الزنى أو الاغتصاب، فالمشكلة أن ما يمثله فلان من خلال الفيلم السينمائي يصبح، بسبب أنه هو الذي يمثله، عملاً مرغوباً حتى لو كان عملاً مرفوضاً أخلاقياً وشرعاً بل حتى قانوناً. إن الحل هو في عودتنا إلى أصولنا الإسلامية التي طلب منا الله عز وجل أن نتمسك بها، وإلى القدوات الصالحة في تاريخنا وعلى رأسها رسول الله ﷺ كما طلب منا الله ذلك بقوله:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].

من سيرة الرسول ﷺ بما تحفل به من تضحيات وممارسات أخلاقية تشكل مدرسة نتعلم منها كيف نحول المجتمع الفقير الضعيف إلى أمة كبيرة يحسب لها كل حساب.

١٠ ـ عدم الاستفادة من ثرواتنا هي عقبة أخرى في طريق التقدم. لذا، لا بد من حساب قدراتنا والاستفادة منها إلى الحد الأقصى، لا أن تكون في خدمة الغرب وأطماعه.

١١ ـ لم نعطِ أهمية للصناعة وقدمنا المواد الخام التي تذخر بها تربتنا

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

وثرواتنا الطبيعية للغرب، واعتمدنا عليه في كل شيء من الدبوس حتى الطائرة الحربية، وإذا ما كان لدينا صناعة أو سمح لنا بذلك، فإن هذه الصناعة غاية ما تكون بسيطة أو تجميعية لا ترقى إلى مصاف الصناعات الكبرى. ومن الطبيعي أن هكذا أمة لا تستطيع أن تصنع حاجاتها وهي في حاجة إلى الآخرين في كثير من ضروريات حياتها لن تستطيع المواجهة ولن ترتقي سلم التقدم.

١٢ ـ مع أننا أمة غنية ومع أننا نمتلك ثروات طبيعية كالبترول نبيعها للغرب، غير أننا ما زلنا في طور التخلف، أو في أحسن الأحوال في بدايات النمو، ومن المفجع أننا نمتلك مليارات الدولارات في بنوك الغرب، إلا أننا مع ذلك نقترض منهم فيصدق علينا المثل القائل: «من دهنه سقي له».

١٣ ـ لم ترتقِ الأنظمة السياسية في أمتنا العربية والإسلامية لتكون أنظمة يمكن فيها للمواطنين المشاركة في العملية السياسية؛ فالبرلمانات ومجالس الشورى في عالمنا الإسلامي غالبيتها استشارية لا قيمة لقراراتها لدى الحكام، أو أنها محكومة بأجهزة المخابرات، وكيف يمكن أن يحصل تقدم مع هكذا أنظمة؟ إن أنظمة الحكم في بلادنا إما ديكتاتورية واضحة مباشرة، أو ديكتاتورية مقنعة بشكل من أشكال الديمقراطية لا يتعدى المظهر دون أن يكون لها دخالة في تغيير الواقع السياسي أو حتى الإشراف عليه.

١٤ ـ لا يوجد في مجتمعاتنا نظام اقتصادي ينبع من الحاجات الحقيقية لأمتنا، بل إن الأنظمة الاقتصادية هي أنظمة مستوردة تراعي شروط البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، لذلك فشلت هذه الأنظمة في تأمين الرخاء الاقتصادي في مجتمعاتنا، والتنمية لم تكن تنمية حقيقية تحتاجها مجتمعاتنا، بل جرت مشاكل وويلات ومجاعات وفقر لم يسبق لها مثيل في تاريخنا القريب والبعيد.

١٥ ـ تعتبر مشكلة الأمية أو عدم الثقافة واحدة من المشكلات التي تعوق التقدم في مجتمعاتنا والتي يجب أن نواجهها بكل ما أوتينا من قوة إذا أردنا أن نتقدم ونتطور.

١٦ ـ تعتبر البيروقراطية والروتين الإداري واحدة من المشكلات التي تعاني منها مجتمعاتنا أضف إلى عدم إعطاء القضايا التي تواجهنا حقها من الوقت، بل إن الوقت نفسه لا قيمة له عندنا وهذا ما يعوق عملية التقدم والمواجهة مع العولمة.

١٥ ـ هل نرفض العولمة رفضاً مطلقاً؟

بعد كل الذي سبق، هل يجب علينا أن نرفض العولمة مطلقاً ونحاربها بكل أدواتها فنُحرّم على المؤمنين التعاطي مع كل وسائلها كالإنترنت والستالايت وما إلى هنالك، أم أن هناك فرقاً بين وسائل العولمة وبين مضمون العولمة باعتبار نتائجها؟ فالعولمة ليست فكراً سياسياً، أو فلسفياً، أو اقتصادياً، وليست مرتبطة بمذهب سياسي أو ديني أو اقتصادي محدد، بل هي ظاهرة كونية شاملة يمكن أن تكون أداة بيد كل من يستفيد منها، فاليوم تعمل الولايات المتحدة الأميركية من خلال العولمة للسيطرة على العالم، وقد تأتي مستقبلاً قوة أخرى تسعى لاستغلال العولمة للوصول إلى السيطرة، وعليه، يجب أن لا تنصب اهتماماتنا على محاربة الظاهرة من خلال محاربة وسائلها، بل علينا أن نستفيد من هذه الوسائل كما بينا سابقاً، أولاً لنشر أفكارنا، وثانياً لمحاربة الظلم الناتج عن استخدام العولمة لتحقيق استعمار الكون. إن العولمة تعتبر أكبر ظاهرة في عصرنا الحاضر استطاعت أن تحول الكرة الأرضية إلى قرية صغيرة ومجتمع معلومات موحد، فحققت ثورة كبيرة تعتبر من أهم الثورات التكنولوجية في العالم وفي جميع

المجالات: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والتربوية، والتعليمية، والثقافية، والإعلامية، والعسكرية، وبالتالي وبعد أن غزت العولمة الكون فإننا لا نستطيع تجاهلها أو عدم التعامل معها، بل علينا الاستفادة منها إلى أقصى حد ممكن بما يخدم أهدافنا النبيلة. إننا لن نستطيع أن نغلق أمتنا الإسلامية عن هجمة العولمة، فالأقمار الصناعية تستطيع أن تنقل لكل بيت من بيوت المسلمين ما شاءت مما هو مفيد أو مضر، وبالتالي فإن الحل ليس بمنع الناس من وضع الصحون اللاقطة على سطوحهم لاستقبال ما يعج به الأثير من أقنية فضائية، بل بالسماح لهم بذلك وإرسال قنوات في هذا الأثير تعلم أحكام الدين الإسلامي وتدعو إلى الفضيلة وتنهى عن الرذيلة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يقوم العلماء بإرشاد الناس عامة والمؤمنين خاصة بما يجوز مشاهدته وما لا يجوز مما هو منتشر في الفضاء، ومن خلال الوازع الديني يمتنع هذا الشخص عن الحرام ويركز على الحلال، أما المنع المطلق فلن يجدي نفعاً، بل على قاعدة أن كل ممنوع مرغوب يمكن أن يكون له آثار سلبية أكثر من السماح باقتناء هكذا وسائل. ونحن حتى لو استطعنا أن نمنع بسبب السلطة مثلاً، إلا أن ذلك ليس في صالحنا، ولا صالح أجيالنا القادمة، ولا في صالح إعادة بناء حضارتنا الإسلامية من جديد، ولا في صالح البشرية الضائعة الضالة الباحثة عن الحقيقة وعن المنقذ الذي سيقدم لها الإجابات عن كل أسئلتها وشكوكها وماهية المجتمع الذي يؤمن لها السعادة والخير من خلال القيم الفاضلة، والأخلاق النبيلة، والأخوة الإنسانية الحقيقية، التي تربط بين البشر جميعاً. ولفتني في هذا المجال ما قاله أحد الباحثين من المسلمين حول خطر العولمة المسببة عن سلبية المتلقي عندما قال:

«والخطر لا يكمن في العولمة ذاتها بقدر ما يكمن في سلبية المتلقي،

وفي التوظيف الأيديولوجي للعولمة، ونجاح العولمة في الهيمنة والاختراق والتأثير لا يتعلق بإمكانيات وقدرات الدول المتقدمة الفاعلة المصدرة للعولمة بقدر ما يتعلق بقوة وضعف الدول الأخرى المتلقية»[١].

لذلك يجب أن نؤمن لأمتنا القدرة على امتلاك أسباب القوة وساعتئذٍ لن نخاف من انفتاح أولادنا على تقنيات العصر الحديث، بل أكثر من ذلك يمكن لنا استخدام هذه التقنيات في نشر فكرنا وغزو المجتمعات الغربية وإقناعهم بدين الحق الإسلام. إن الولايات المتحدة الأميركية ومن خلال العولمة تضع على رأس اهتماماتها الدين الإسلامي، بل وبنظرة متفحصة فيما يدور حولنا نجد أن كل البرامج التي تعمل عليها الولايات المتحدة الأميركية ومن خلال العولمة تستهدف الإسلام وقيمه. ولذلك، فإن المسؤولية على عاتقنا كبيرة في هذا المجال ويجب أن لا ترهبنا الوسائل التي تعتمدها العولمة، فإن باستطاعتنا الاستفادة مما يجوز استخدامه منها. وهذه الفكرة ليست وليدة مرض نفسي عندنا وهو (فوبيا) الخوف الدائم من الآخر خاصة إن كان قوياً أو اعتبار أنفسنا أننا مستهدفين دائماً، بل إن هذا الرأي أكده عدد كبير من الباحثين حتى أولئك الذين يعيشون في الغرب. فها هو المفكر الفرنسي المسلم روجيه غارودي يتحدث عن هذه العولمة الأمريكية الصهيونية فيقول:

«هذه الوحدة التي أسسها الحكام الأمريكان، واللوبي الصهيوني (الآيباك) «AIPAC» وساسة دولة إسرائيل، تقوم اليوم ـ أكثر من أي وقت مضى ـ على وحدة الهدف الذي هو محاربة الإسلام وآسيا اللذين يعدان أهم عقبتين في وجه الهيمنة العالمية الأمريكية والصهيونية»[٢].

نعم الإسلام هو المستهدف فهو الوحيد الذي يمتلك الثقافة القادرة

---

(١) العولمة بين منظورين، الصفحة ٢١.
(٢) العولمة والمستقبل ـ إستراتيجية تفكير، الصفحة ٢٢.

على المواجهة، وهو حضارة لها عقيدتها الصلبة وشريعتها السمحاء ونظامها الأخلاقي المتكامل ويمتلك الفلسفة القادرة على المواجهة والتي تشكل نقيضاً كاملاً لثقافة العولمة وفلسفتها. ومن جهة أخرى، فإن بلاد المسلمين غنية بالمواد الخام وبشكل هائل خاصة تلك المستخدمة في الطاقة كالنفط والغاز، ولما عرفوه عن الإسلام من أنه دين لا يمكن هزيمته إلا من خلال إبعاد المسلمين عن دينهم فتوجهت كل وسائلهم لتحقيق هذا الهدف. والأهم من ذلك كله، أنه لا يمكن الحفاظ على بقاء الكيان الصهيوني وأمنه في وسط هذا العالم الإسلامي إلا من خلال هذا الهدف. ويجب أن نعرف أن الغرب الآن ليس بحاجة إلينا في التقنيات المتقدمة، بل نحن نحتاجه في ذلك، ولكن الغرب يحتاج إلى قيمنا كما نحتاج إليه في تقنياته. ولو أخذنا بوسائل العولمة الحديثة التي يستعملها للتدمير، ووجهناها من خلال قيمنا وأخلاقنا إلى التعمير، لخدمناه وخدمنا البشرية جميعاً، وخدمنا ـ قبل ذلك ـ أجيالنا، وحصنّاهم؛ كي لا يقعوا فريسة سهلة أمام مغريات العولمة الأمريكية الصهيونية اللادينية الإباحية.

١٦ ـ ثوابت إسلامية في مواجهة العولمة

بعد كل الذي تقدم نتوصل إلى النتيجة التالية وهي أنه لا يمكن أن نواجه العولمة إلا بالحفاظ على الثوابت الإسلامية التالية:

١ ـ المشكلة الأساسية التي نعاني منها في أمتنا اليوم هي الحكام الفاسدين، أو المتآمرين، أو العملاء، أو الجبناء، لذا، لا بد من الوقوف في وجههم والسعي لمنعهم من الانفراد والظلم والتجاوز، ونصحهم الدائم عبر كل الوسائل المتاحة من إعلامية وغيرها، للعمل على الوقوف في وجه العولمة وإعطائها الدور الذي من أجله جعلها الله خير أمة. إن ممارسة الضغط الجماهيري المستمر على الحكام سيؤثر إيجاباً في إعادتهم إلى

صوابهم أو على الأقل تخفيف الآثار السلبية لمواقفهم المرتبطة بالغرب، ويمكن لهم أن يستفيدوا من ذلك في تقوية مواقفهم التفاوضية مع هذه القوى المستكبرة.

٢ ـ في نفس الوقت الذي يجب فيه الوقوف في وجه الحكام في طغيانهم، فإنه وفي حال حصول خطر يداهم الأمة لا بد من الوقوف إلى جانبهم مهما كانوا ظالمين، عندما يُداهم البلد غزو أجنبي، وتأجيل أي خلاف معهم. فبمقياس الأولويات الإسلامية فإن الأولوية للحفاظ على استقلال الأمة وقوتها، وهذا الأمر مقدّم على كل اختلاف داخلي مهما بلغ، ولنا في موقف الإمام زين العابدين عليه السلام عندما علم بخبر مداهمة الروم لبلاد المسلمين فكان له ذلك الدعاء الشهير دعاء أهل الثغور، واضعاً ما فعله بنو أمية بأهل البيت عليهم السلام على فداحة ما فعلوه جانباً، خير دليل على ذلك.

٣ ـ إن هدف العولمة هو استعباد الأمة، وبالتالي فإن المحافظة على استقلالها السياسي والاقتصادي، وعدم السماح للقوى المستكبرة والغاشمة بالسيطرة عليها أمر لا يجوز التساهل فيه.

٤ ـ كل ما كان من أصول ديننا أو فروعه الثابتة بالدليل القطعي يعتبر من الثوابت التي لا يجوز التنازل عنها والتهاون فيها، ولا يجوز تحت أي عنوان من العناوين سواء الانفتاح أو التقدم، أو العصرنة، أو الحداثة أن تكون هذه الأمور مجالاً للمساومة والتفاوض، لأن المسلم من دون هذه الأمور لا يعتبر مسلماً موحداً حقيقياً، وعليه لا بد من مراعاتها في مجالات عملنا المختلفة سواء في الثقافة أم في التربية أو الإعلام.

٥ ـ الكيان الصهيوني كيان مصطنع مغروس في وسط أمتنا وهو ليس منها بل هو من قبيل الغدة السرطانية التي يجب اقتلاعها كي يسلم الجسد.

وعليه، لا بد من مواجهة كل المخططات الصهيونية، وعدم الاعتراف بأية تسوية معها على حساب أرض فلسطين المقدسة، ولا بد من السعي وبقوة لإعداد الأمة للجهاد ضدها، ولا بد من الإيمان بأن الطريق الوحيد لاستعادة حقنا في فلسطين هو بالجهاد والمقاومة مهما طال الزمن، وإن التنازل عن هذه القضية يعني التنازل عن الشخصية الإسلامية والتي من دونها لن نقوى على مواجهة العولمة وآثارها.

٦ ـ أمتنا الإسلامية أمة غنية بمواردها وهي محل أطماع الغرب، لذا لا بد من المحافظة على ثروات الأمة من الضياع والهدر والسرقة، لأننا من دونها ستضعف قدرتنا على المواجهة بل ستكون هذه الثروات والموارد عنصر قوة لخصمنا بدل أن تكون عنصر قوة لنا.

٧ ـ إن الشورى واحدة من المبادئ الأساسية التي بُني عليها الإسلام، وبالتالي لا يجب ولا يجوز أن يكون هناك رأي واحد خاصة في القضايا الخطيرة التي تمس كيان الأمة أو الأمور التي تتعلق بالمسلمين لجهة مصالحهم في عيش كريم. لذا، لا بد من اعتماد لغة الحوار والشورى في معالجة قضايانا المصيرية على المستوى الداخلي والخارجي.

٨ ـ إن أمتنا الإسلامية أمة واحدة وإضعافها يكون من خلال تفرقتها إلى أمم مختلفة، لذا لا بد من الدعوة مجدداً لأن نشكل أمة واحدة، ولا مانع من التدرج في الوحدة؛ فنبتدئ بوحدة عربية، ثم وحدة أسيوية، وإلى ما هنالك من إمكانيات التوحد، وهذه الوحدة هي ثابتة أساسية لا يجوز التعرض لها والنقاش فيها.

٩ ـ التنبه للحركات السياسية التي تعمل في مجال التوهين من المقدسات وخاصة تلك التي ترتبط بالحركة الصهيونية العالمية أم الماسونية أم المخابرات الأجنبية التي تريد شراً بأمتنا، وبالتالي لا بد من مواجهة هذه

الحركات وفضحها أمام الرأي العام، وخاصة فضح أن بعض الأهداف التي تعلنها هذه الحركات ذات البريق الأخلاقي أو الوطني أو الإنساني ما هي إلا تمويه لذر الرماد في العيون وتمرير المخطط الأساسي وهو القضاء على ديننا الإسلامي أو منعه من أن يقود الحياة.

١٠ ـ إن ميزة ديننا أنه دين الأخلاق، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(١).

وبالتالي يجب العمل على المحافظة على القيم الأخلاقية التي يتميز بها ديننا، والتركيز على تربية الأجيال الصاعدة على هذه الأخلاق الحميدة، خاصة أن هذه الأخلاق نحن أحوج ما نكون إليها في مواجهة الأخطار التي تحوق بأمتنا كي نواجهها صفاً واحداً كأننا بنيان مرصوص.

١١ ـ مواجهة الخطر الذي يتعرض للتماسك الاجتماعي في أمتنا والذي من وسائله نشر التحلل الخلقي والرذيلة في أوساط مجتمعنا الإسلامي، خاصة في أوساط الشباب والأجيال الصاعدة من خلال إباحة مواضيع الشذوذ الجنسي، ونشر الرذيلة، وفتح القنوات الإباحية، وتشجيع الزنى والتهتك في الأمة.

١٢ ـ مقدسات ديننا هي التي تؤمن التماسك في هذا الدين الذي يضم شخصيات وقيماً لها طابع قدسي، لذلك علينا مواجهة كل من يسعى لتحطيم هذه المقدسات، فقد برزت في الآونة الأخيرة بعض التحركات التي تسعى لإهانة هذه المقدسات كما حصل من المرتد سلمان رشدي في كتابه آيات شيطانية، أو ما حصل في موضوع الرسوم الكاريكاتورية التي تنال من نبينا محمد ﷺ. إن هذه الحركات والتحركات لا بد من الوقوف بوجهها

(١) كنز العمال، الجزء ٣، الصفحة ١٦.

لأنها جزء من المؤامرة التي تستهدفنا من خلال العولمة، وهنا لا بد من الالتفات إلى ظاهرة الردة التي تتم بتشجيع من بعض المؤسسات الدولية وخاصة الأميركية تحت عنوان حرية الرأي، ولا بد من مواجهتها والتنبه لخطرها.

١٣ ـ لقد تقدمت أمتنا فكانت أقوى الأمم عندما تمسكت بأهداب العلم والفضيلة، والتزمت أحكام الشريعة، وصارت هذه الأمة أمة هادية ومرشدة استفاد منها الغرب فتقدم وتراجعت هي بعد أن انغمست بالملذات والشهوات وابتعدت عن العلم وأبعدت العلماء. وكي نخرج من واقعنا الذي نعيش فيه لا بد من وضع خطط للقضاء على الجهل والأمية، والسعي لفتح مجال العلم والحصول على الشهادات المتقدمة لأبنائنا فنعود بأذن الله لما كنا عليه.

١٤ ـ يجب أن لا يكون لليأس مكان في قاموس تحركنا، لأنه إذا وجد في أي عمل أحبطه وكان الفشل مصيره، ويجب أن لا يوقعنا بذلك واقعنا المزري، بل علينا أن نتعلم من تاريخنا ومن تاريخ أعدائنا كيف نحول الضعف إلى قوة، والفشل إلى نجاح، فهذا مجتمع الجزيرة العربية الذي كان متخلفاً ومتقاتلاً فيما بينه ولا يوجد لديه أي اعتبار للقيم الأخلاقية، بل الاعتبار للأقوياء وما يقررون، هذا المجتمع تحول بفضل الله وبقيادة النبي محمد ﷺ إلى أمة قوية حكمت مناطق مترامية الأطراف. ولم تعترف اليابان بالهزيمة بل انتفضت من بين ركام هيروشيما لتبني دولة عصرية تنافس الدول العظمى، ولم تستسلم ألمانيا للفشل بعد الحرب العالمية الثانية والهزيمة النكراء التي منيت بها، بل انتفضت لتصبح قوة صناعية عظمى، حتى عدونا الأكبر الصهاينة استطاعوا بتكاتفهم أن يبنوا حلمهم بأن يكون لهم دولة، فتحقق لهم نتيجة لإصرارهم ووحدتهم ما

أرادوا، ونحن سيكون لنا في النهاية الفوز والنصر إن تركنا اليأس وتحملنا مسؤوليتنا ووقفنا بوجه الأخطار التي تحدق بنا، وقد وعدنا الله عز وجل أن الأرض لنا سنرثها في نهاية الزمان فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[1].

البحث الثاني

الحداثة من منظور إسلامي

٢ ـ الحداثة من منظور إسلامي

مقدمة لا بد منها

لا شك أن لكل عصر مميزات يتميز بها، فقد كانت ميزة عصر سيدنا المسيح عليه السلام أن اشتهر أهله بالطب، وحيث أن المعضلة الكبرى التي يبحث عنها الطب في كل عصر إلى زماننا هذا كانت الخلود وعدم موت الإنسان أو إنقاذه من موت محتوم، جاءت معجزة السيد المسيح عليه السلام بأنه استطاع أن يحي الموتى بأذن الله عز وجل كما ورد في قوله سبحانه وتعالى:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[١].

وكان السحر ميزة من ميزات عصر نبينا موسى عليه السلام فجاءت معجزته أن حول عصاه إلى حية حقيقية لا بخداع البصر فأكلت ما حاول السحرة خداع أبصار الناس عبر حبالهم وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم من خلال قوله سبحانه وتعالى:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾(١).

وكانت البلاغة ميزة عصر نبينا محمد ﷺ فجاء بالمعجزة الكبرى قرآناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتحدى به كل الأمم أن تأتي بسورة من مثله أو حتى بآية من مثله فما استطاعوا ذلك، وقد عبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٢).

انطلاقاً مما تقدم، نجد أنه لا بد للدعاة من التمكن من لغة العصر وأن يستطيعوا التكيف معها حتى يواجهوا الانحراف الذي قد يأتي في طياتها أو يستغلها، وبالتالي فإن التمكن من فهم العصر بهذا المعنى يعتبر ضرورة لا بد منها، أما أن نواكب العصر من خلال التنازل عن القيم والمبادئ التي نؤمن بها فهذا ما لا يجوز أبداً ولا يمكن القبول به على الصعيد الإسلامي.

إن الحداثة واحدة من الأمور المعاصرة التي كثر الأخذ والرد فيها بين المفكرين ومنهم المسلمين، بشكل طرح إشكاليات متعددة لا بد من عرضها وإعطاء رأي الإسلام بها. فالبعض اعتبر أن الحداثة تعني ترك كل ما هو قديم، وبالتالي حيث إن الإسلام دين جاء منذ أكثر من خمسة عشر قرناً فهو وبموازين الحداثة غير قادر على التعامل مع روح العصر. في حين أن البعض يقول إن الإسلام قادر على مواكبة كل العصور، حيث إنه يحتوي منظومة قيم لا تتغير بتغير الأزمنة، في حين أن الوسائل يمكن التعامل معها بروح العصر من دون حاجة لترك المبادئ والقيم من أجلها، فالصدق مثلاً ما زال هو هو منذ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

بداية الخلق إلى اليوم فضيلة محبوبة يجب أن يتحلى بها كل مؤمن بالله، والكذب ما زال منذ البداية رذيلة يجب الاجتناب عنها لمن أراد أن يسير على الصراط المستقيم. ولكن الذي تغير هو الوسائل التي نصدق فيها أو نكذب، وعلى سبيل المثال، قتل نفس بغير حق هو أمر محرم ولم يتغير قبح هذا العمل منذ بداية البشرية، ولكن الذي تغير هو أنك تقتل في مرحلة بالحجر ثم بعدها بالسكين ثم بعدها بالمسدس إلى أن تصل لتقتل بالقنبلة الذرية، فالقتل هو القتل في كل هذه الجرائم ولكن الذي تغير هو الوسيلة التي تقتل بها.

موضوع الحداثة والفكر الوافد لدينا كمسلمين ليست أمراً نعايشه اليوم أو من خمسين أو مائة سنة، بل إن هذا الأمر ابتدأ عندما ابتدأت تأتينا الأفكار الوافدة الناتجة عن توسع الدولة الإسلامية ودخولها على حضارات متعددة كالرومية والفارسية، ولكي نكون أكثر دقة نقول إن هذه الأفكار ابتدأت تأتينا عندما ازدهرت الترجمة لكتب الفلاسفة الإغريق والهنود والفرس في ذروة العصر العباسي، وبدلاً من أن يوائم بعض الفلاسفة المسلمين بين الأفكار الوافدة والفكر الإسلامي فإذا بهم يدخلون الفلسفة الجديدة إلى الفكر الإسلامي فيحرفونه عن توجهه الأساسي، وما لبث أن تحول الأمر إلى حركات زندقة وإلحاد في داخل الدولة الإسلامية. فالترجمة غير الواعية هي التي أساءت إلى الفكر الإسلامي ولم تستفد بما يمكن الاستفادة منه من الفكر الوافد بشكل يصب في خدمة الإسلام والمسلمين.

وما نشهده اليوم لا يختلف كثيراً عما حصل في العصر العباسي وما تلاه إن لم يكن أشد خطورة، حتى بات بإمكاننا أن نصف عصرنا الحالي بـ: «عصر الاستغراب الثقافي» لكثرة الأفكار التي دخلت علينا وعمق تأثرنا

بها، حتى بات الإنسان في عصرنا لا يعتبر مثقفاً إلا بمقدار ما يحفظ من أسماء مفكري الغرب أو ما يعرف من مصطلحاتهم خاصة تلك التي ننطق بها بلغتهم هم لا لغتنا.

إن علماء الكلام والفلاسفة في العصر العباسي حاولوا الموافقة بين الإسلام كدين وبين الأفكار الوافدة، وهي وإن كانت في كثير من جوانبها احتوت ما يمكن أن نعتبره موافقة لهذه الأفكار على ضلالها، إلا أنها تبقى أهون مما يحصل اليوم حيث يسعى المستغربون من أمتنا لترويج الأفكار الغربية بين أبنائنا ومحاربة من يعارضها حتى لو كان الدين الإسلامي نفسه، ولذلك وجدناهم يهاجمون الإسلام كلاً أو بعضاً ويشككون في مفاهيمه وأركانه وأسسه.

إن الحداثة في عالمنا الإسلامي ليست إلا نتيجة من نتائج هذا الاستغراب الفكري المحموم المصحوب بحالة من الإندهاش والإعجاب، الذي حجب الأبصار عن رؤية مساوئ الحداثة وعيوبها. مفهوم الحداثة كما هو مطروح اليوم ورأي الإسلام به هو ما سنعرض له في البحث التالي بشيء من التفصيل.

١ ـ معنى الحداثة

الحداثة لغة: مصدر من الفعل «حَدَثَ»، ومعناه المستجد من الأمور، أي الذي كان بعد أن لم يكن وهو ضد القديم، والحداثة هي أول الأمر وابتداؤه وفي اللغة أيضاً الحداثة الشباب وأول العمر. وحيث إن الإنسان بطبعه يسعى نحو كل ما هو جديد أو حديث كان التقدم المذهل للحداثة في زماننا لأن كل واحد من هؤلاء لديه طمع في أن يكون من الحداثويين، لذلك وجدت الشباب تحديداً يقبلون على كل ما هو جديد من أفكار وصرعات في اللباس والهندام انطلاقاً من المعنى الذي تحدثنا به سابقاً.

والحداثة بالمعنى الاصطلاحي هي الثورة على كل ما هو قديم ورفضه، بغض النظر عما هو هذا القديم هل هو فكر ديني، أم فكر مطلق أم فكر سياسي، أو طريقة في كتابة الشعر، أم النثر أم الأدب أم الفن؟ باختصار الحداثة محاولة انقلابية على كل ما هو قديم لصالح ما هو حديث.

لذلك، فإن تعريف الحداثة ليس بالأمر السهل وحتى رواد هذا التيار يقولون عنه إنه مصطلح هلامي بل يترقون أكثر من ذلك للقول بأنه ليس مصطلحاً أصلاً. ونتيجة لتعدد التيارات التي تؤمن بالحداثة مع تنوع مشاربها كان تحديدها بتعريف واحد ضرباً من المستحيل، إلا أن هناك جامعاً مشتركاً بينها جميعاً وهو الانقطاع عن الماضي بأي شكل كان هذا الانقطاع.

والخطورة في الحداثة بهذا المعنى تكمن في أنه لا يوجد فيها مذهب فكري محدد، بل العبرة هي الإلتزام بالجديد مهما كان حتى لو كان الجديد كفراً وإلحاداً.

إن الداعين للحداثة يسعون لتغيير الحياة بأرجائها كافة، لذلك لا يجوز أن ننظر إليهم نظرة سطحية، فهم يسعون لانقلاب شامل يغير مبادئنا وأهدافنا وأفكارنا بل ومعتقداتنا، فعلى سبيل المثال باتت الحداثة في الأدب هي أن يتفلت الكاتب من منظومة القيم التي تذخر بها مجتمعاتنا، وبذلك يعتبر النص الذي يكتبه نصاً رائعاً طالما أن صياغته جميلة حتى لو كان هذا النص يدعو للكفر بالله العظيم، أو للزنى، أو للإلحاد، أو اللواط، أو السكر والعربدة، ألم يأخذ سلمان رشدي جائزة على كتابه الذي يسخر من ديننا وقيمنا ونبينا لمجرد أنه نظم جميل؟ أو لعله ليس كذلك، بل الجائزة كانت لإهانة الإسلام والنبي محمد ﷺ؟!.

الحقيقة أن الحداثة أصبحت لا تعبر بالمطلق عن المعنى اللغوي، بل

أصبحت تدل على معنى آخر كلياً، لقد أصبح معناها يدل على فكرٍ جديد يسعى لفرض تغيير كامل لأفكارنا ونمط حياتنا، ما يعني أن الحداثة أصبحت تساوق التخلي عن كل ما فرضه الله علينا من أحكام وتكاليف، وبهذا المعنى يقول الدكتور عدنان النحوي في كتابه الحداثة من منظور إسلامي:

«لم تعد لفظة الحداثة في واقعنا اليوم تدل على المعنى اللغوي لها، ولم تعد تحمل في حقيقتها طلاوة التجديد، ولا سلامة الرغبة، إنها أصبحت رمزاً لفكر جديد، نجد تعريفة في كتابات دعاتها وكتبهم، فالحداثة تدل اليوم على مذهب فكري جديد يحمل جذوره وأصوله من الغرب، بعيداً عن حياة المسلمين وعن حقيقة دينهم، ونهج حياتهم، وظلال الإيمان والخشوع للخالق الرحمن»(١).

فالحداثة بهذا المعنى ليست سوى أداة لهدم معالم ديننا تحت ستار فكرة كبيرة ومهمة وهي أن نواكب العصر ونماشيه، وبهذا المعنى الحداثة تتنافى مع ديننا وأخلاقنا الإسلامية، ولو وقف الأمر عند حدود التخلي عن بعض مبادئ من ديننا فلعل الأمر كان هيناً، أما أن يصل الأمر إلى حدود أن تكون الحداثة طريقاً لترويج أفكار ومذاهب تناقض ديننا وتهدم مجتمعاتنا فهنا يصبح الأمر فادح الخطورة على كيان أمتنا الإسلامية.

وأكثر من ذلك، فإننا يمكن لنا أن نعتبر أن نفس الحداثة أصبحت فكراً خطيراً يشكل أداة هدامة لقيم مجتمعنا الإسلامية ليحل محلها قيم المجتمع الغربي الملحد أو المادي الغارق بماديته، أضف إلى ذلك أن نفس هذه المجتمعات التي تروج لنا الأفكار الهدامة هي مجتمعات تكن لنا حقداً أعمى ويريدون الانتقام من الفترة التي كنا فيها أمة متقدمة متطورة تقود

(١) الحداثة من منظور إسلامي، الصفحة ١٣.

العالم وتقدم له ما يؤدي إلى ازدهاره ونمائه. ولم يقتصر الأمر على الأفكار والمبادئ، بل إنه تعداه إلى الأدب والشعر والفنون، لذلك فإنك تجد في الشعر العربي المعاصر ثورة وتمرداً على كل ما هو ديني، أو إسلامي، أو حتى أخلاقي، إن بعض الشعر المعاصر يحتوي لوحات فيها كثير من الفحش والبذاءة، أضف إلى أنه من ناحية ثانية تجد في هذا الشعر تنكراً للمبادئ الإسلامية وتهكماً عليها بصورة تصل إلى حد الإلحاد. وبنفس هذا الجو يقول الدكتور محمد خضر عريف في كتابه الحداثة مناقشة هادئة لقضية ساخنة:

«إننا بصدد فكر هدام يتهدد أمتنا وتراثنا وعقيدتنا وعلمنا وعلومنا وقيمنا، وكل شيء في حاضرنا وماضينا ومستقبلنا»(١).

ومما لا جدال فيه أن الحداثة كمذهب أدبي تجديدي قامت في أساسها الأول على الغموض وتغيير اللغة، واستعمال أساليب جديدة في التعبير كالرمزية، والتخلص من الموروث بكل أشكاله، وأجناسه، وتجاوزهم للسائد والنمطي.

٢ ـ ركائز الحداثة والرد عليها

تبتني الحداثة على ركائز أهمها:

١ ـ الحداثة تعني سيادة العقل:

لا يؤمن الحداثويون إلا بما هو واقع تحت سيطرة العقل، فلا مجال عندهم للقبول بالغيبيات التي قد لا تكون تحت السلطة المباشرة للعقل كونها خارج إدراكاته، وقد يصل إليها الإنسان بالفطرة والوجدان، ولذلك

---

(١) الحداثة مناقشة هادئة لقضية ساخنة، الصفحة ١١ ـ ١٢.

شنوا حرباً لا هوادة فيها على الأديان، وحطموا كل القيم الغيبية التي يؤمن بها الناس لأنها لا ترتبط بالإدراكات العقلية المباشرة بحسب ما يفهمون هم.

٢ ـ الحداثة والموروث التقليدي:

تعارض الحداثة كل ما هو تقليدي، وتعتبر نفسها أنها في ثورة دائمة على الموروث بغض النظر عن صوابيته وعدمها، ونتيجة لذلك أنكرت الحداثة وواجهت كل الثقافات السابقة عليها، بل يمكن أكثر من ذلك أن ترى الحداثويين الجدد يهاجمون ما توصل إليه حداثويون سابقون عليهم.

٣ ـ الحداثة تعني التغيير المستمر:

حيث إنها ثورة دائمة على الموروث يسعى الحداثويون إلى التغيير المستمر للأفكار التي تبنوها في الماضي، ثم ما يلبثوا أن يعملوا على تغييرها ثانية وهكذا، وهذا التغيير المستمر يؤدي إلى مشكلات داخل المجتمعات التي ينتمي إليها هؤلاء، حيث إنهم يعملون على مراجعة القديم على أساس العقلانية بما أن العقلانية هي التي تؤدي إلى الحداثة وليس العكس. وبنظرة متفحصة إلى تاريخ أوروبا نجد أنه حافل بتغيرات من هذا النوع كما سنبين لاحقاً.

٤ ـ عبادة العلم لا الرب:

الحداثويون يؤمنون أن الحقائق تكون كذلك عندما تنطلق من العقل البشري ولا قيمة عندهم لما يأتي من غير هذه الطريق، وبالتالي، فالإنسان الذي يؤمن بالحداثة غير ملزم بالقيم الثابتة في مجتمعه، بل هو حر في اختيار القيم التي سيلتزمها، إما من خلال الانتقاء أو من خلال الابتداع، المهم أن كل ما يدل عليه عقله أو علمه يؤمن ويلتزم به، وفي النتيجة يحل العقل محل الإله.

مناقشة ركائز الحداثة:

بالرجوع إلى الركائز السابقة يتبين لنا أن الحداثة لا تبتني على أسس سليمة وهذا هو السبب الرئيسي في فشل كل النظريات التي انطلقت من الحداثة في الاستمرار، وقد لا يحتاج الأمر إلى كل هذا الاعتناء في الرد على هؤلاء وركائزهم، ولكن لا مانع بشيء من الاختصار في الرد على هذه الركائز، على أن نتولى لاحقاً الرد على المذاهب المنتجة كلاً على حدا.

١ ـ في موضوع سيادة العقل:

الحداثة تدعو للإيمان بكل ما هو من نتاج العقل، لذلك فإنهم لا يؤمنون بالغيب والغيبيات، في حين أن الإسلام دين يدعو للإيمان بالغيب، فقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم في وصف المتقين:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾[١].

وكي لا يظنن أحد أن الإسلام لا يعطي قيمة للعقل، نقول إن الإسلام هو الدين الذي دعا لسيادة العقل ولكن ليس أي عقل، بل العقل الحقيقي الذي يؤدي للإيمان بكل ما هو موجود سواء أكان موجوداً مادياً أم روحياً، ظاهرياً أم غيبياً، وقد قال الإمام الباقر عليه السلام عن العقل ما نصه:

«لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك، ولا أكملتك إلا فيمن أحب، أما إني إياك آمر وإياك أنهى، وإياك أعاقب وإياك أثيب»[٢].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣.

(٢) الكافي، الجزء ١، الصفحة ١٠.

إن هذه القيمة للعقل لا أظن أنها موجودة بهذا التوصيف الرائع إلا في الإسلام، لذلك كانت التكاليف كما في الحديث متوجهة إلى العقل لأننا به ندركها وندرك الواجب علينا من المحرم، وبالتالي فالعقل هو المخاطب وهو الذي يعي أو يرفض وبذلك يتوجه الحساب إليه. وعلى هذا الأساس كان العقل أيضاً مورداً مقرراً من موارد الأحكام الشرعية، ولكن العقل نفسه يدرك أن هناك أموراً غيبية اقتضت الحكمة الإلهية إخفاءها لمصلحة للبشر في ذلك.

وعليه، نحن نؤمن بسيادة العقل لكن لا على أساس أن يكون هو الأصل في كل شيء، بل على أساس أن يكون هو الأصل فيما هو واقع تحت إدراكه، ولأنه أدرك أن الله موجود فإنه يعلم بالضرورة أن كل ما يصح وروده عنه ملزم لنا بغض النظر عن إدراكنا له بعقولنا القاصرة أم لا.

٢ ـ في موضوع الموروث التقليدي:

في موضوع الموروث تارة يكون هذا الموروث له علاقة بالعقيدة والإيمان فهذا لا مجال للعبث فيه والتراجع عنه، وتارة يتعرض لتقاليد بالية لا قيمة لها بل تؤخرنا من السير في ركب التقدم، فهذا يجب علينا رفضه والتحول إلى ما في صالحنا وصالح تقدم أمتنا.

لقد ذم الإسلام التقليد للآباء من دون إمعان نظر وتفكير، فقال عن هؤلاء في كتابه الكريم:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1].

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

وعليه، فإننا لا نرفض الموروث على إطلاقه ولكننا نرفض ما لا يوافق الشرع منه ونوافق على ما وافق الشرع. والموروث تارة يكون في أصل من أصول الدين أو فرع من فروعه، فهذا لا مجال للتغيير فيه أو تركه، وتارة يكون في وسائل نعتمدها أو تقاليد بالية فيها شيء من الخرافة أو كل الخرافة كما كانوا يداوون المريض بالحمى بالضرب لإخراج العفريت منه، فهذا لا مجال للقبول به والإيمان به.

٣ ـ في موضوع التغيير المستمر:

لعل هذه المسألة من السلبيات الأساسية التي تعاني منها الحداثة ذلك أنك لا تراهم يرتكزون إلى مبدأ واحد مدة معتبرة من الزمن، وترى أن الحداثويين الذين هم على مذهب واحد اليوم تراهم غداً فرقاً مختلفة. إن حالة الثورة المستمرة على الأفكار تؤدي إلى عدم الثبات وبالتالي الضياع الذي يؤدي إلى صراعات مستمرة تؤدي إلى تفسخ المجتمع وضياع الوحدة بين أبنائه.

بينما نرى أن الإسلام دعا إلى الوحدة والانسجام بين أبناء المجتمع الإسلامي، وهو وإن سمح بالاجتهاد من أجل مواكبة الطوارئ التي تستجد في الأمة، إلا أنه عندما سمح بذلك فإنما سمح به في إطار عدم تعدي النص، إذ لا اجتهاد في مورد النص، إلا إذا كان النص مجملاً أو عاماً أو مطلقاً يحتاج إلى تفسير فإن ذلك يمكن أن يكون مورداً للاجتهاد كي يفسر النص بناء لقواعد سليمة.

أما الانقلاب على أصل الفكرة الدينية فهذا غير مسموح به على الإطلاق، وهو بالنسبة للإسلام ردة يعاقب عليها على قاعدة أنه يمكن أن تعدل أو تغير أو تستغني كلياً عن المذهب الذي ابتدعه الإنسان، أما النص الإلهي القرآني الوارد عن الله أو رسوله فإنه مما لا مجال فيه للتعديل أو الاستغناء أو التغيير.

ويرد هنا إشكال يطرحه البعض على قاعدة أن النص القرآني بما هو نص إلهي لا يمكن التعرض له والتعديل فيه، أما النص النبوي باعتباره نصاً بشرياً ومحدوداً في إطار الإدراك والقدرة البشرية القاصرة فهذا قابل للأخذ والرد.

والحقيقة أن هذا الكلام غير صحيح أيضاً؛ لأن النص النبوي بالنسبة إلينا هو نص إلهي لا يجوز نقضه ورفضه لأن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾(١).

إذاً، النص النبوي هو نص إلهي وهو وحي غير قابل للجدال، ولكن النقاش إنما يكون في ثبوت صدور هذا النص عن النبي ﷺ، ولذلك وسائل إثبات تدرس في محلها.

٤ ـ في موضوع عبادة العلم لا الرب:

العلم بالنسبة للإسلام هو وسيلة التعرف إلى الحقائق وبالتالي وسيلة لمعرفة الله سبحانه وتعالى، ولذلك لا يصلح العلم كي يكون إلهاً يُعبد بل هو كما قلنا وسيلة التعرف على الإله. ومن الطبيعي أن يُبهر الناس بالعلم ومنجزاته ولكن يجب أن يبقى حاضراً في ذهنهم أن العلم هو نتيجة جهد العلماء وليس العلماء نتيجة لهذا العلم.

أما موضوع القيم فليست هي نتيجة لإبداعات الفكر البشري بقدر ما هي منظومة دلنا عليها الله سبحانه وتعالى من خلال الرسل الذين أوفدهم إلينا، أما العقل البشري فهو غالباً ما يتعرض لطغيان المصالح الشخصية فتتحول القيم من مبادئ لحماية المجتمع الإنساني إلى مبادئ لترسيخ زعامة هذا الزعيم أو سلطة ذلك الحاكم.

---

(١) سورة النجم، الآيات: ٣ ـ ٤ ـ ٥.

بين الحداثة والتجديد:

هناك خلط كبير يحصل بين الحداثة (modernism) والمعاصرة (modernity) والتجديد أو التحديث (modernization)، فالبعض يعتبر هذه الأمور مترادفات لمعنى واحد في حين أن الحقيقة غير ذلك. فهذه المصطلحات تختلف اختلافاً كلياً في الشكل والمضمون، بل والفلسفة التي تنطلق منها هذه المصطلحات إلى الاختلاف في الممارسة، فالحداثة تعني التخلي عن الأفكار القديمة لصالح أفكار جديدة، في حين أن المعاصرة تعني مواكبة التطورات التي تحصل في المجتمع من دون التأثر بها، أما التجديد أو التحديث فإنه يعني تحديث وسائلنا وتجديدها من دون التخلي عن المبادئ التي نؤمن بها.

وانطلاقاً مما تقدم لا مانع من التحديث والتجديد فهذا أمر ينسجم مع المنطق والفكر السليمين، أما المعاصرة فهي أمر طبيعي وتوصيف لحالة ولا مشكلة فيها، وهي من جهة أخرى تنسجم مع التجديد وتأخذ نفس المعنى الذي يعني التغيير في الشكل من دون التأثير على الأفكار والمبادئ، أما الذي لا يمكن أن يقبل به، فهو الحداثة بالمعنى الأول التي تعني التخلي عن إيماننا وديننا.

٣ ـ الحداثة من وجهة نظر أصحابها

لقد قلنا ما قلناه عن الحداثة وقد يقول البعض إن في هذا نوعاً من افتراء وتجني، أو أخذ وجهة نظر أحادية انطلاقاً من موقف مسبق أخذناه ونريد تمريره من خلال أحكام مسبقة لا تراعي الموضوعية. وللرد على هذا الكلام سأفرد في هذا البحث نقلاً موضوعياً عن بعض الحداثويين فيما قالوه

عنها كي نتأكد من أن ما قلناه عن الحداثة هو وجهة نظرهم هم من دون تعديل، وبشكل واضح.

يعتبر أدونيس من رواد الحداثة العربية ومفكريها والذي اسمه الحقيقي هو علي أحمد سعيد إسبر الذي تخلى عنه لصالح اسم أحد أبطال الأساطير الفينيقية متعيباً من أسم أمير المؤمنين علي عليه السلام، يقول أدونيس هذا في محاولة للربط بين الحداثة والحرية الماسونية ما نصه:

«إن الإنسان حين يحرق المحرم يتساوى بالله ـ إلى أن يقول ـ: إن التساوي بالله يقود إلى نفيه وقتله، فهذا التساوي يتضمن رفض العالم كما هو، أو كما نظمه الله والرفض هنا يقف عند حدود هدمه، ولا يتجاوزها إلى إعادة بنائه، ومن هنا كان بناء عالم جديد يقتضي قتل الله نفسه مبدأ العالم القديم، وبتعبير آخر لا يمكن الارتفاع إلى مستوى الله إلا بأن يهدم صورة العالم الراهن وقتل الله نفسه»(١).

إن هذا النص يتحدث عن نفسه، فهذا الشخص يريد أن تكون الحداثة طريقاً للقضاء على كل إيمان بالله، حيث إن طريق بناء عالم جديد بالنسبة إليه لا تكون إلا من خلال قتل الله ـ والعياذ بالله ـ فنتخلص بذلك من العالم القديم لصالح العالم الجديد، وهو عين ما قلناه عن الحداثة كفكر هدام يريد أن يصل في النهاية ليس فقط إلى تغيير أفكارنا حول الله عز وجل بل إلى إلغاء أصل الفكرة من أذهاننا.

أما رولان بارت فإنه يعتبر الحداثة انفجاراً معرفياً لا يمكن للإنسان المعاصر السيطرة عليه فيقول:

«في الحداثة تنفجر الطاقات الكامنة، وتتحرر شهوات الإبداع في

(١) نقلاً عن الحداثة مقالة للدكتور مسعد محمد زياد.

الثورة المعرفية مولدة في سرعة مذهلة، وكثافة مدهشة، أفكاراً جديدة، وأشكالاً غير مألوفة، وتكوينات غريبة، وأقنعة عجيبة، فيقف بعض الناس منبهراً بها، ويقف بعضهم الآخر خائفاً منها، هذا الطوفان المعرفي يولد خصوبة لا مثيل لها، ولكنه يغرق أيضاً»[١].

إن قراءة هذا النص تعطينا صورة واضحة عن ما يقصده الحداثويين من ورائها، فإنها بالنسبة إليهم تهتك وانحراف وخروج عن القيم والمبادئ لإنتاج أفكار جديدة بعيدة كل البعد عن القيم الأخلاقية التي يدعو إليها الإسلام بل كل الأديان السماوية.

٤ ـ جذور الحداثة في المجتمع الغربي

بالرجوع إلى التاريخ يمكن لنا أن نستنتج أن الحداثة في الغرب ليست أمراً طارئاً أو جديداً بل هي ممتدة على مدى العصور، فمنذ العصور الوثنية أيام الرومان واليونانيين، كان هناك العديد من المبادئ الفكرية والفلسفية بحيث ما إن ينتهي عصر فلسفة ما حتى يأتي على أنقاضها فلسفة جديدة تدعي أنها أفضل من الأولى وتقدم إجابات لإنقاذ البشرية وتأمين السعادة والعيش الكريم والمطمئن لهم. بحيث يمكن لك أن تقول إن المذهب الجديد هو رد فعل لفشل المذهب السابق، ولكن الذي كان يحصل هو أنهم كانوا ينتقلون من فشل إلى فشل أكبر، ولم تستطع كل المبادئ التي ظهرت أن تشكل ديناً يسير عليه الناس أو عقيدة توفر لهم الإجابات الشافية وتقدم لهم الحلول لمشاكلهم الشخصية والعائلية والمجتمعية.

ثم ما لبث أن انتقل المجتمع الغربي والأوروبي تحديداً للإيمان

---

(١) نقلاً عن الحداثة مقالة للدكتور مسعد محمد زياد.

بالمسيحية ردحاً طويلاً من الزمن إلى أن حصل الإشكال مع الكنيسة نتيجة ممارسات الإكليروس والظلم الذي حل عليهم منها فأطلت في هذا الوقت الحداثة التي نعرفها اليوم.

وعليه، يتبين لنا أن الحداثة في العالم الغربي وبمظهرها الجديد ابتدأت أول ما ابتدأت في أوروبا، وبالتحديد بعد ما سمي عصر التقدم العلمي، حيث وقفت الكنيسة في وجه بعض الاكتشافات الحديثة من قبيل ما توصل إليه غاليلو حول كروية الأرض، ما أدى إلى أن يكون مصيره الاتهام بالإلحاد والتعرض لحكم الإعدام نتيجة لما توصل إليه بعد إِعْمال فكره، وقد استُغل هذا الأمر أيما استغلال خاصة من قبل من يريد السوء بالكنيسة، وبالأخص الحركة الماسونية التي عملت على إبعاد الناس عن الدين تحت عنوان الحداثة، لا من أجل تصحيح خطأ قامت به الكنيسة بل من أجل نشر فكرة الإلحاد ليتم القضاء من ورائها على الكنيسة وكل ما هو ديني. إذن، فالحداثة نبتة غربية خبيثة، وهي مذهب فكري لم يكن وليد لحظة أو مصادفة، وإنما مذهب أنتجته تحولات فكرية متعاقبة، وقد نشأت في الغرب بعد هذه الحوادث مذاهب إلحادية تحاول أن تفسر الكون والإنسان والحياة تفسيراً مادياً بعيداً عن تفسير الدين وأطروحات الكنيسة، وكلما فشل مذهب انتقل الناس إلى غيره. وسأعرض لهذه المذاهب بشيء من التفصيل وهي على الشكل التالي:

١ ـ المذهب الكلاسيكي:

فمن تلك المذاهب التي ظهرت مبكراً المذهب الكلاسيكي، والذي كان امتداداً طبيعياً لنظرية المحاكاة والتقليد التي أطلقها أرسطو، ومعناها: أن الإنسان محدود الطاقات، متمسك بالتقاليد، يميل في أغلب الأحيان إلى التحفظ واللياقة ومراعاة المقام الذي هو فيه، وخياله الخصب الذي يملكه

يجنده دائماً في خدمة الواقع، وبالنتيجة فإن هذا المذهب دعا إلى تأليه العقل والطبيعة.

فالكلاسيكية مذهب أدبي ويطلق عليه أيضاً المذهب الاتباعي أو المدرسي، وقد كان يقصد به في القرن الثاني الميلادي الكتابة الأرستقراطية الرفيعة الموجهة للصفوة المثقفة الموسرة من المجتمع الأوروبي.

أما في عصر النهضة الأوروبية، وكذلك في العصر الحديث، فكان يُقصد به كل أدب يبلور المُثل الإنسانية المتمثلة في الخير والحق والجمال (وهي المُثل التي لا تتغير باختلاف المكان والزمان والطبقة الاجتماعية)، ولهذا المذهب خصائص مهمة تُمَكّنه من البقاء وإثارة اهتمام الأجيال المتعاقبة. ومن خصائصه كذلك عنايته الكبرى بالأسلوب، والحرص على فصاحة اللغة وأناقة العبارة، ومخاطبة جمهور مثقف غالباً، والتعبير عن العواطف الإنسانية العامة، وربط الأدب بالمبادئ الأخلاقية وتوظيفه لخدمة الغايات التعليمية واحترام التقاليد الاجتماعية السائدة.

ويُعد الكاتب اللاتيني أولوس جيليوس أول من استعمل لفظ الكلاسيكية على أنه اصطلاح مضاد للكتابة الشعبية، في القرن الثاني الميلادي. وتعد مدرسة الإسكندرية القديمة أصدق مثال على الكلاسيكية التقليدية، التي تنحصر في تقليد وبلورة ما أنجزه القدماء وخاصة الإغريق دون محاولة الابتكار والإبداع. وأول من طوّر الكلاسيكية هو الكاتب الإيطالي بوكاتشيو الذي ألغى الهوة بين الكتابة الأرستقراطية والكتابة الشعبية، وتعود له أصول اللغة الإيطالية المعاصرة. كما أن رائد المدرسة الإنكليزية شكسبير طوّر الكلاسيكية في عصره، ووجه الأذهان إلى الأدب الإيطالي في العصور الوسطى ومطالع عصر النهضة، أما المذهب الكلاسيكي الحديث في الغرب، فإن المدرسة الفرنسية هي التي أسسته على

يد الناقد الفرنسي نيكولا بوالو في كتابه الشهير (فن الأدب) الذي ألفه عام ١٦٧٤م، حيث قنن قواعد الكلاسيكية وأبرزها للوجود من جديد، ولذا يعد مُنظر المذهب الكلاسيكي الفرنسي الذي يحظى باعتراف الجميع.

ومن أبرز شخصيات المذهب الكلاسيكي في أوروبا بعد بوالو: الشاعر الإنكليزي جون أولدهام، الناقد الألماني جوتشهيد، الأديب الفرنسي راسين، والأديب كورني، والأديب موليير، والأديب لافونتين.

ارتبط المذهب الكلاسيكي بالنظرة اليونانية الوثنية، وحمل كل تصوراتها وأفكارها وأخلاقها وعاداتها وتقاليدها. والأدب اليوناني ارتبط بالوثنية في جميع الأجناس الأدبية من نقد أدبي وأسطورة إلى شعر ومسرح. ثم جاء الرومان واقتبسوا جميع القيم الأدبية اليونانية وما تحويه من عقائد وأفكار وثنية. وجاءت النصرانية وحاربت هذه القيم باعتبارها قيماً وثنية، وحاولت أن تصبغ الأدب في عصرها بالطابع النصراني، وتستمد قيمها من الإنجيل إلا أنها فشلت، وذلك لقوة الأصول اليونانية وعدم نهوض المسيحية في الوقوف بوجهها بالشكل المطلوب.

ومن أهم الجوانب التي تستحق التعليق في الكلاسيكية أنها تعطي الأدبين اليوناني والروماني أهمية قصوى مع ارتباطهما بالتصورات الوثنية، ورغم ما فيهما من تصوير بارع للعواطف الإنسانية، فإن اهتماماتهما توجه بالدرجة الأولى إلى الطبقات العليا من المجتمع وربما استتبع ذلك الانصراف عن الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية والسياسية.

ومن ناحية إسلامية فإننا وإن كنا نحبذ الإلتزام الكلاسيكي بكل ما هو مبادئ وقيم إنسانية وأخلاقية، إلا أننا، وفي نفس الوقت، لا يمكن أن نعطي قدراً وقيمة لأدب أو شعر أو فن يبتني على مبادئ وثنية تجعل من الإنسان بعيداً عن المنطق والعقل السليمين من خلال عبادة صنم لا يقوى على حماية نفسه كي يحمي الآخرين.

٢ ـ المذهب الرومانسي:

لم يمرَّ على الكلاسيكية إلا وقت يسير حتى أدرك الناس أن العقل بمفرده عاجز عن تفسير الكون والإنسان، وبالتالي سعوا إلى مذهب ثوري متمرد على كل أشكال القديم وآثاره، فكان المذهب الرومانسي الذي دعا إلى الاعتماد على الشعور والخيال في تفسير الحياة والإنسان، فقدست الرومانسية الذات، ورفضت الواقع وثارت على التقاليد الموروثة، وادعت أن الشرائع والعادات والتقاليد هي التي أفسدت المجتمع، لذلك لا بد من العمل على تحطيمها والتخلص منها إذا أردنا التقدم. فادعت الرومانسية أنها قدمت الإجابة الشافية على الأسئلة المصيرية حول الحياة والإنسان، أو بمعنى آخر فقد دعا هذا المذهب إلى تأليه الطبيعة والشعور. غير أن ما دعت إليه الرومانسية فشلت به فشلاً ذريعاً في تغيير الواقع، فأوغل دعاتها في الخيال والأحلام وحلقوا نحو المجهول.

فالرومانسية أو الرومانتيكية مذهب أدبي يهتم بالنفس الإنسانية وما تزخر به من عواطف ومشاعر وخيال خصب أياً كانت طبيعة صاحبها مؤمناً أو ملحداً، مع فصل الأدب عن الأخلاق. ولذا يتصف هذا المذهب بالسهولة في التعبير والتفكير، وإطلاق النفس على سجيتها، والاستجابة لأهوائها. وهو مذهب متحرر من قيود العقل والواقعية اللذين نجدهما لدى المذهب الكلاسيكي الأدبي، وقد زخرت بتيارات لا دينية وغير أخلاقية.

وأصل كلمة الرومانسية من: «Romance» باللغة الإنكليزية، ومعناها قصة أو رواية تتضمن مغامرات عاطفية وخيالية ولا تخضع للرغبة العقلية المتجردة، ولا تعتمد الأسلوب الكلاسيكي المتأنق، وتعظم الخيال المجنح وتسعى للانطلاق والهروب من الواقع المرير، ولهذا يقول بول فاليري: «لا بد أن يكون المرء غير متزن العقل إذا حاول تعريف الرومانسية».

يعد الناقد الألماني فريدريك شليجل أول من وضع الرومانسية كنقيض للكلاسيكية. ثم تبلورت الرومانسية كمذهب أدبي، وبدأ الناس يدركون معناها الحقيقي التجديدي وثورتها ضد الكلاسيكية. ولا شك أن الثورة الفرنسية ١٧٩٨م هي أحد العوامل الكبرى التي كانت باعثاً ونتيجة في آن واحد للفكر الرومانسي المتحرر والمتمرد على أوضاع كثيرة، أهمها الكنيسة وسطوتها، والواقع الفرنسي وما فيه.

ومن أبرز المفكرين والأدباء الذين اعتنقوا الرومانسية: المفكر والأديب الفرنسي جان جاك روسو، الكاتب الفرنسي شاتوبريان، الشاعر الألماني غوته، مجموعة من الشعراء الإنكليز أمثال: توماس غراي، ووليم بليك، وبايرون، والشاعر الفرنسي بودلير.

ومن أهم المعتقدات التي تؤمن بها الرومانسية: الثورة على المجتمع، والتحرر من قيود العقل وإعطاء الخيال مجاله الرحب. والكاتب الرومانسي تلقائي وعفوي لا يعطي اهتماماً للشكل وأسلوب التعبير، والرومانسية تتوق دائماً إلى الثورة، وتعتبر الحرية الفردية أمراً مقدساً عند الرومانسيين، فمنهم شديد التدين أمثال شاتوبريان، ومنهم الإلحادي مثل شيلي، ولكن معظمهم يتعالى على الدين ويعتبره قيداً يكبل انطلاق الفرد. يهتم الرومانسي بالطبيعة ويدعو للرجوع إليها لما تجلبه له من أجواء الصفاء والفطرة السليمة التي دعا لها روسو، في حين تفصل الرومانسية بين الأدب والأخلاق؛ فليس من الضروري لكي تكون أديباً فذاً أن تتمتع بأخلاق حميدة، فالأدب لا يخضع للمبادئ الأخلاقية.

باختصار، اتضح لنا أن الرومانسية هي ثورة على الكلاسيكية المتشددة في قواعدها العقلية والأدبية، وكذلك ثورة ضد العقائد اليونانية المبنية على تعدد الآلهة. ومن جذور هذه الثورة ظهور التيارات الفلسفية التي تدعو إلى التحرر من القيود العقلية والدينية والاجتماعية.

وقد ساهم في تبلور الرومانسية اضطراب الأحوال السياسية في أوروبا بعد الثورة الفرنسية الداعية إلى الحرية والمساواة، وما يتبع ذلك من صراع على المستعمرات، وحروب داخلية. كل هذه الأمور تركت الإنسان الأوروبي قلقاً حزيناً متشائماً، فانتشر فيه مرض العصر، وهو الإحساس بالكآبة والإحباط ومحاولة الهروب من الواقع، وكان من نتيجة ذلك ظهور اتجاهات متعددة في الرومانسية، إذ توغلت في العقيدة، والأخلاق، والفلسفة، والتاريخ، والفنون الجميلة. ودخلت الرومانسية في الفلسفة وتجلت في نظرية الإنسان الأعلى (Super man) عند نيتشه، ونظرية الوثبة الحيوية عند برغسون.

وبكلام آخر، يمكن لنا أن نقول إن الرومانسية مذهب أدبي يهدف إلى سبر أغوار النفس البشرية واستظهار ما تزخر به من عواطف ومشاعر وأحاسيس وتخيلات، للتعبير من خلال الذاتية عن عواطف الحزن والأسى والكآبة والألم والأمل، ومن خلال العفوية الخالية من تأنق الأسلوب وجزالة اللفظ ودقة التراكيب اللغوية، مع الاهتمام بالطبيعة وضرورة الرجوع إليها، وفصل الأخلاق عن الأدب، والاهتمام بالآداب الشعبية. وقد اعتنق كثير من الحداثيويين الرومانسية، بل عدها بعضهم أحد اتجاهات الحداثة.

وبرأي الإسلام فإن أي تيار أدبي لا بد أن يكون ملتزماً بالدين والأخلاق كجزء من العقيدة، وإذا كان مضطراً لإظهار شعوره بالحزن والتعبير عن عواطفه الجياشة، فهذا وإن كان لا مانع منه في ذاته إلا إنه يجب عليه أن يلتزم في هذا التعبير الأصول الإسلامية التي تفرض عليه مواجهة الظروف التي يتعرض لها بشجاعة وتسليم بقضاء الله وقدره والبحث عن رحمة الله سبحانه وتعالى التي ستخرجه حتماً من الأزمات دون يأس أو إحباط، والإسلام يعتبر أن كل إنسان مسؤول عن تصرفاته ومحاسب عليها

بين يدي الله، طالما كان يملك أهلية التصرف، أما المكره فهو معذور وتسقط عنه الأوزار فيما يرتكبه قسراً، ولكنه لا يعذر في التعبير الحر عما ينافي العقيدة ويتعارض معها.

٣ ـ المذهب البرناسي:

وهو مذهب أدبي فلسفي لا ديني، قام على معارضة الرومانسية التي اعتمدت مذهب الذاتية في الشعر وعرض عواطف الفرد الخاصة على الناس شعراً واتخاذه وسيلة للتعبير عن الذات، بينما تقوم البرناسية على اعتبار الفن غاية في ذاته لا وسيلة للتعبير عن الذات، على قاعدة (الفن للفن)، وهي تهدف إلى جعل الشعر فناً موضوعيّاً همه استخراج الجمال من مظاهر الطبيعة أو إضفاؤه على تلك المظاهر، وترفض البرناسية التقيد سلفاً بأية عقيدة أو فكر أو أخلاق سابقة. واسم البرناس هو لجبل شهير في اليونان تسكنه آلهة الشعر كما كان يعتقد قدماء اليونان، فقام أحد الناشرين الفرنسيين بإطلاق اسم «البرناس المعاصر» على مجموعة من القصائد لبعض الشعراء الناشئين وقتها، فذاع الاسم وأصبح تعبيراً عن اتجاه أدبي جديد.

ومن أشهر شخصيات هذا المذهب:

ـ شارل بودلير ١٨٢١ ـ ١٨٦٧م وهو شاعر فرنسي، نادى بالفوضى الجنسية، ووصف بـ «السادية» أي التلذذ بتعذيب الآخرين.

ـ تيوفيل غوتييه ١٨١١ ـ ١٨٧٢م وهو من أكبر طلائع البرناسية.

ـ لو كونت دي ليل ويعد رئيس هذا المذهب، وقد تبلورت مبادئه بعد منتصف القرن التاسع عشر، وانتهى به الأمر إلى أن ترك النصرانية إلى البوذية.

ـ ومالا راميه ١٨٤٢ ـ ١٨٩٨م وهو شاعر فرنسي، ويعد من أشد المدافعين عن هذا المذهب. ومن أعمدة المذهب الرمزي أيضاً.

وأهم الأفكار التي يؤمن بها هذا المذهب اعتبار أن الأدب والفن غاية في ذاتيهما ومهمتهما الإمتاع وإثارة المشاعر وإلهاب الإحساس. ويؤمن أيضاً بتحطيم القديم وتدميره لبناء العالم الجديد الخالي من الضياع، ويؤمن أيضاً بحق الإنسان بالسعادة عن طريق الفن لا عن طريق العلم، ويؤمن أن الحياة تقليد للفن وليس العكس.

ويتبين لنا مما تقدم أن البرناسية تعزل الأدب عن قضايا الحياة الاجتماعية والسياسية وتجعله غاية في حد ذاته، والإسلام يحدد غايات الإنسان في الحياة، ولا يقبل أن يكون الأدب غاية في ذاته، كما يرفض الإسلام الأدب المتفلت عن الضوابط الذي يستخدم كأداة للانحراف ويقيس قيمته بموازين الخير والشر، وإذا صدر الأدب عن تصور يرفض القيم الدينية فهو مرفوض شكلاً وموضوعاً مهما سمت قيمته الأدبية وفقاً لمقاييس الصياغة أو حسن التعبير.

وبالخلاصة، إن الأدب والفن في الإسلام يجب أن يكونا ملتزمين بالقيم الإسلامية، وبمراعاة مبدأ التوحيد الخالص، وبمراعاة نهي الإسلام عن بعض أنواع الفنون التي لا تتناسب مع قيمه، خاصة تلك التي تدعو إلى الميوعة أو تلك التي يحس معها الفنان على أنه خرج من كونه إنساناً ليدّعي الإلوهية أو ما شابه، أما الفن فإننا نعتبره في الإسلام وسيلة للتعبير عن الآراء الإسلامية وتقريب الناس منها عبر تجسيدها وتبسيطها وتقديمها بأسلوب مُرغب، أما الفن للفن فهو اتباع للهوى قد يؤدي بالفنان إلى تصوير ما يثير الشهوات ويفسد الأخلاق، وهذا ما لا يجوز في الإسلام بل في كل عقيدة إلهية. ولذلك ذم الله بعض أنواع الشعراء واستثنى بعضاً عندما قال في كتابه الكريم:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ

يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

فالله عز وجل ذم من الشعراء قوماً يقولون ما لا يفعلون، ويتبعهم أصحاب غواية وضلالة ويهيمون على وجههم لا يدرون ما يفعلون أو لا هدف لهم في الحياة، واستثنى منهم بدلالة أداة الاستثناء (إلا) قوماً آمنوا وعملوا الصالحات وكان دأبهم حتى في شعرهم ذكر الله سبحانه وتعالى، أو الانتصار للقضايا المحقة كنصرة المظلومين. وبالنتيجة، فإن الشعر في نفسه ليس حراماً ولكنه مرتبط بالهدف الذي من أجله يقول الشاعر شعره فإن كان لقضية حق وكلام حق فلا إشكال فيه، وإن كان خوضاً في الباطل فهذا مما ذم الله قائله ومستمعه ومروِّجه.

٤ ـ المذهب الواقعي:

بعد فشل الرومانسية والبرناسية في تقديم تفسيرات معقولة لما يشغل بال الناس خاصة في شأن الخالق والخلق، ابتدعت فكرة «الواقعية» كردة فعل عكسية على المغالاة في اعتماد الشعور والخيال والإحساس، وأيضاً لم يقدم هذا المذهب الحلول المقبولة، فابتدع هؤلاء مذهب اللامعقول وهو مذهب حوَّل الإنسان إلى حيوان لا همَّ له إلا إرواء غرائزه وشهواته، وأما الحياة في نظر أصحاب هذا المذهب فهي حقيرة تافهة لا غاية منها.

إذاً، فالواقعية مذهب أدبي فكري مادي ملحد، لأنه يقتصر في تصويره الحياة والتعبير عنها على عالم المادة، ويرفض عالم الغيب والإيمان بالله، ويصور الإنسان بالحيوان الذي تسيره غرائزه لا عقله.

أما عن التاريخ الدقيق للواقعية فنقول إن نشأتها ارتبطت بالفلسفات

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

الوضعية والتجريبية والمادية الجدلية التي ظهرت في النصف الأول من القرن التاسع عشر وما بعده، وسارت الواقعية في ثلاثة اتجاهات: الواقعية النقدية، والواقعية الطبيعية، والواقعية الاشتراكية. ولكل اتجاه من هذه الاتجاهات أعلام هم على الشكل التالي:

أما أهم أعلام الواقعية النقدية فهم: القصّاص الفرنسي أنوريه دي بلزاك صاحب الرواية المشهورة (الملهاة الإنسانية)، والكاتب الإنكليزي شارل ديكنز صاحب الرواية المشهورة (قصة مدينتين)، والأديب الروسي تولستوي صاحب القصة المشهورة (الحرب والسلام)، والأديب الروسي دستوفسكي مؤلف (الجريمة والعقاب)، والأديب الأمريكي (أرنست همنغواي) صاحب القصة المشهورة (العجوز والبحر).

أما أهم أعلام الواقعية الطبيعية فهم: الأديب الفرنسي إميل زولا مؤلف قصة (الحيوان البشري)، وفيها يطبق نظريات داروين في التطور، ونظريات منديل في الوراثة، وكلود برنار في الطب. والأديب الفرنسي غوستاف فلوبير مؤلف القصة المشهورة (مدام بوفاري).

أما أهم أعلام الواقعية الاشتراكية فهم:

الكاتب الروسي مكسيم جوركي ، عاصر الثورة الروسية الشيوعية، ومؤلف قصة (الأم). والشاعر ماياكوفسكي وهو شاعر الثورة الروسية الشيوعية، ومن أعلامها أيضاً: روجيه غارودي وهو مفكر فرنسي اهتدى إلى الإسلام وسمى نفسه رجاء غارودي.

وأهم الأفكار التي يتبناها المذهب الواقعي هي على الشكل التالي:

الواقعية استندت في أفكارها إلى المذاهب الفلسفية المادية، مثل الفلسفة الوضعية التي انتشرت في فرنسا في النصف الأول من القرن التاسع

عشر ورائدها الفيلسوف الفرنسي كانط التي ترفض كل ما هو غيبي، وتقتصر على عالم المادة والحس. ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل للفلسفة التجريبية التي تلتقي مع الوضعية في رفض الغيبيات دور في تكون الواقعية. ومن الجذور الفكرية العميقة للواقعية الاشتراكية: الفلسفة المادية الجدلية التي نادى بها ماركس وأنغلز التي تعد العقيدة الرسمية للشيوعية الدولية والتي من مفاهيمها أن المادة هي الوجود الحقيقي، وأن القيم العقلية انبثقت من العلاقات المادية بين الناس.

وتستند الواقعية في مجال آخر إلى النظرية الفلسفية التي ترى أن الحياة تنبت على الشر، وأن ما يبدو من مظاهر الخير ليس إلا طلاءً زائفاً يموه واقع الحياة الفكرية ويخفي طبيعة الإنسان الحقيقية. وقد عبر الفيلسوف الإنكليزي هوبز عن هذا الاتجاه بقوله: «إن الإنسان ذئب لا هم له إلا الفتك بالإنسان».

وبنظرة تاريخية للمذهب الواقعي في تعامله مع أتباعه نراهم يسعون بجد لربط الإنسان الغربي بغرائزه وحيوانيته، وتوجيه نظره إلى الدنيا بمباهجها إذ لا قيمة عندهم لقيم السماء، لذلك ركزوا على إمعانه في ماديته، وساعدوه في تلبية غرائزه وشهواته.

أما المفكرون الذين دعوا للواقعية الاشتراكية أو الشيوعية، فإنهم سطروا الكتب والمقالات والقصص والمسرحيات والأشعار في تمجيد الشيوعية، والزعم أنها الحقيقة للسعادة البشرية، بينما هم في الواقع حولوا الحياة البشرية إلى شقاء وتعاسة دائمين. لذلك لم تستطع فلسفتهم الصمود طويلاً بل تحطمت بسرعة وانهار المعسكر الاشتراكي بسرعة قياسية وتساقطت دوله وبالتالي نظرياته الواحدة تلو الأخرى. وهذا ما نعاينه بأم أعيننا في الواقع السياسي المعاصر، إن دولة عظمى منافسة للولايات

المتحدة الأميركية ومدعمة بنظرية فكرية وعقائدية وفلسفية ثم تنهار بسرعة مهولة لدليل واضح على عقم هذه النظرية.

بينما الإسلام يدعو إلى الاهتمام بالدنيا لا على قاعدة أنها النهاية، بل على قاعدة الاستفادة بشكل كامل من الدنيا، ولكن لا على أساس أن ننسى الآخرة إذ يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»[1].

فعلى الإنسان المؤمن أن يعيش حياته بكل قوة وكأنه يعيش إلى الأبد، ولكن في نفس الوقت علينا أن نتوقع أننا نموت في الغد. فالهدف في سعي المؤمن في هذه الحالة يجب أن يكون رضا الله سبحانه وتعالى ولكن على لا على قاعدة التنسك والزهد كما يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[2].

وعليه، فإن الإنسان المؤمن يرفض النظر بتشاؤم إلى الحياة، وليس ثمة ما يمنعه من التأثير والتغيير في حياته والمجتمع الذي يعيش فيه. وقد كرم الإسلام الإنسان ولم يضعه في مصاف القرود كما يريد داروين، بل اهتم بجانبه الروحي باعتباره جسداً وروحاً.

والمسلم من جهة أخرى يرفض النظرية الفلسفية التي تقول: «إن

(١) من لا يحضره الفقيه، الجزء ٣، الصفحة ١٥٦.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧٧.

الحياة قد بنيت على الشر»، والأديان عموماً جاءت للقضاء على الشر والنهوض بالنفس البشرية.

ويتضح مما سبق، أن الواقعية مذهب أدبي فكري مادي ملحد، فكل شيء مرجعه المادة ولا قيمة لأي شيء روحي أو مرتبط بعالم الغيب. وهذا الفكر يرى أن الإنسان عبارة عن مجموعة من الغرائز الحيوانية، ويتخذ كل ذلك أساساً لأفكاره التي تقوم على الاهتمام بنقد المجتمع وبحث مشكلاته مع التركيز على جوانب الشر والجريمة، والميل إلى النزعات التشاؤمية وجعل مهمة النقد مركزة في الكشف عن حقيقة الطبيعة كطبيعة بلا روح أو قيم. لذلك، فإن الإسلام لا ينهى عن الواقعية في فهم الأمور انطلاقاً من بحث دقيق لمشاكل الحياة ووضع الحلول الواقعية لها، ولكنه في نفس الوقت ينهى عن المبادئ الهدامة التي دعا إليها أصحاب المذهب الواقعي ويدعو لمواجهتها، ويؤكد على دور العلماء في تمكين الأجيال الشابة خاصة من القدرة الفكرية على المواجهة كي لا يقعوا في حبائل هذه الأفكار الهدامة.

٥ ـ المذهب الرمزي:

الرمزية مذهب أدبي فلسفي ملحد، يعبر عن التجارب الأدبية والفلسفية المختلفة بواسطة الرمز أو الإشارة أو التلميح. والرمز معناه الإيحاء، أي التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوى اللغة على أدائها أو لإيراد التعبير عنها مباشرة. ولا تخلو الرمزية من مضامين فكرية واجتماعية، تدعو إلى التحلل من القيم الدينية والخلقية، بل تتمرد عليها، متسترة بالرمز والإشارة. وتعد الرمزية الأساس المؤثر في مذهب الحداثة الفكري والأدبي الذي خلفه.

رغم أن استعمال الرمز قديم جداً، كما هو عند الفراعنة واليونانيين

القدماء، إلا أن المذهب الرمزي بخصائصه المتميزة لم يعرف إلا عام ١٨٨٦م حيث أصدر عشرون كاتباً فرنسياً بياناً نشر في إحدى الصحف يعلن ميلاد المذهب الرمزي، وعرف هؤلاء الكتّاب حتى مطلع القرن العشرين بالأدباء الغامضين. وقد جاء في البيان:

«أن هدفهم تقديم نوع من التجربة الأدبية تستخدم فيها الكلمات لاستحضار حالات وجدانية، سواء كانت شعورية أو لا شعورية، بصرف النظر عن الماديات المحسوسة التي ترمز إلى هذه الكلمات، وبصرف النظر عن المحتوى العقلي الذي تتضمنه، لأن التجربة الأدبية تجربة وجدانية في المقام الأول».

كان على رأس المذهب الرمزي الكاتب والأديب الأميركي المشهور «إدغار آلان بو» والذي تأثر به رموز الحداثة وروادها في الغرب أمثال مالارميه، وفاليري، وموبسان، كما كان المؤثر الأول والمباشر في فكر وشعر عميد الحداثويين في الغرب والشرق على حد سواء الشاعر الفرنسي المشهور «بودلير» كما ذكرنا آنفاً.

وقد نادى إدغار بأن يكون الأدب كاشفاً عن الجمال، ولا علاقة له بالحق والأخلاق، وهذا ما انعكس على حياته بشكل عام، حيث كان موزعاً بين القمار والخمر، والفشل الدراسي، والعلاقات الفاسدة، ومحاولة الانتحار. وعلى خطا إدغار سار تلميذه بودلير ممعناً في الضلال ومجانباً للحق والفضيلة.

من أهم أفكار هذه المدرسة الابتعاد عن عالم الواقع وما فيه من مشكلات اجتماعية وسياسية، والجنوح إلى عالم الخيال بحيث يكون الرمز هو المعبر عن المعاني العقلية والمشاعر العاطفية.

ولذلك، حاولوا البحث عن عالم مثالي مجهول يسد الفراغ الروحي ويعوضهم عن غياب العقيدة الدينية، وقد وجدوه في عالم اللاشعور والأشباح والأرواح. وقد دعا الرمزيون إلى تحرير الشعر من الأوزان التقليدية، لذلك دعوا إلى الشعر المطلق مع التزام القافية أو الشعر الحر، وذلك لتساير الموسيقى فيه دفعات الشعور.

وما يميز هذه المدرسة على الصعيد العقائدي أنها انغمست في النزعة المادية وابتعدت عن الروح، ولكنها فشلت في ملء الفراغ الذي تركه عدم الإيمان بالله سبحانه وتعالى. وعلى الصعيد الاجتماعي وقع صراع حاد بين ما يدعو إليه الرمزيون من حرية مطلقة وإباحية أخلاقية، وبين ما يمارسه المجتمع من ضغط وكبح لجماحهم. وعلى صعيد الفن اعتبروا أن اللغة عاجزة عن التعبير عن مشاعرهم العميقة فاستعانوا بالرمز ليعبروا من خلاله عن مكنونات صدورهم. ويتضح مما سبق أن الرمزية مذهب أدبي يتحلل من القيم الدينية، ويعبر عن التجارب الأدبية الفلسفية من خلال الرمز والتلميح، فيبتعد عن عالم الواقع ويجنح نحو عالم الخيال، ويحاول هذا المذهب البحث عن مثالية مجهولة تعوض الشباب عن غياب العقيدة الدينية، من خلال استخدام الأساليب التعبيرية الجديدة، والألفاظ الموحية، وتحرير الشعر من قيود الوزن التقليدية كافة. ولاشك في خطورة هذا المذهب على الشباب المسلم إن درسه دون أن يكون ملماً سلفاً بأسسه المتقدمة والتي تهدر القيم الدينية.

الحداثة أخيراً:

بعد هذه التغيرات المتعاقبة والتي كانت تتراكم فشلاً فوق آخر؛ أسلمت تلك المذاهب والاتجاهات القياد أخيراً إلى الحداثة التي تعني الثورة على الماضي بكل ما فيه، والدعوة إلى التجديد والتغيير المستمر، وتأليه العقل، وأن لا حقيقة إلا ما كان من نتاج العقل. لقد أدى إرجاع كل

شيء إلى العقل إلى الابتعاد عن القيم الروحية والإيمان بالله الذي هو في طبعه أمراً غيبياً، فإذا به يتحول إلى مذهب إلحادي يرفض الإيمان بالله عز وجل. هذا الأمر أرهقهم فحاولوا البحث عن الخلاص الذي ينتشلهم من غرقهم الإلحادي ليجدوا أنفسهم يغوصون في وحول المادية التاريخية، والجدلية السفسطائية، وهنا أيضاً لم يجدوا ضالتهم فيما بحثوا عنه فارتدوا هاربين ليلقوا بأنفسهم في أحضان الفن للفن، ولكنهم لم تستقر لهم حال فتخبطوا خبط عشواء حتى استقر بهم السبيل إلى مهاوي الوجودية التي كشفت عن كل شيء فجعلت الحرية فوضى، والالتزام تفلتاً، والإيمان بالأشياء كفراً، وهذا ما عبر عنه الدكتور عدنان النحوي بقوله:

«فلم يعد في حياة الغربي إلا أن تنفجر هذه المذاهب انفجاراً رهيباً يحطم كل شيء، يحطم كل قيمة، لتعلن يأس الإنسان الغربي وفشله في أن يجد أمناً أو أماناً»(١).

فالحداثة ليست إلا مرحلة من مراحل التفكير الغربي وليست نهايته، وهذا التحول ليس تحولاً مبرمجاً ومقصوداً، وإنما هو دليل على مدى التخبط والحيرة التي يعيشها الغرب، فمع غياب المرجعية الدينية الحقة لا يدري هؤلاء أي المذاهب هو الحق وأيها هو الباطل، وإذا دلّهم فكرهم على صحة مذهب ما في عصر ما، لم يلبث الزمان إلا ويكشف لهم سوءات المذهب السابق فيبطلونه وينتقلون إلى غيره وهكذا دواليك. ونتيجة لهذا التشتت استغلت الحركة الماسونية هذا الأمر وعاثت فساداً في كل فكر إلهي ووجهت الأمور نحو الأفكار المادية الإلحادية. لقد اختلف المؤرخون للحداثة وعلماء الاجتماع حول التأريخ الأدق لبدايات الحداثة التي نعايشها اليوم ومن هم الذين نظّروا لها وحركوها في المجتمع، وبرغم هذا

---

(١) الحداثة من منظور إيماني، الصفحة ١٧.

الاختلاف، فإنك يمكن أن تجد قاسماً مشتركاً بين جميع هذه الأقوال، هذا القاسم هو أن البدايات الأولى لفكرة الحداثة تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وكان أشهر من نظّر أو عمل لها الشاعر الفرنسي بودلير صاحب ديوان «أزهار الشر» الذي سنتحدث عنه لاحقاً. ولكن مع ذلك لا يمكن لنا أن نقول من هنا كانت البداية ولم يكن هناك محاولات قبلها، بل إن ما حصل في هذا الوقت إنما هو امتداد لإفرازات المذاهب والتيارات الفكرية والاتجاهات الأدبية والأيديولوجية المتعاقبة التي عاشتها أوروبا في القرون الخوالي، والتي قطعت فيها صلتها بالدين والكنيسة وتمردت عليهما، وقد ظهر ذلك جلياً فيما عرف بعصر النهضة في القرن الخامس عشر الميلادي، عندما انسلخ المجتمع الغربي عن الكنيسة وثار علي سلطاتها الروحية، التي كانت بالنسبة لهم كابوساً مخيفاً، وسيفاً مسلطاً على رقابهم محارباً لكل دعوة للعلم الصحيح، والاحترام لعقل الإنسان وتفكيره.

إن هذه الحالة من التخبط التي عاشها الغرب، والثورات المتعاقبة، ورفض ما هو قديم والسعي لما هو جديد وحديث ولو أدى إلى نسف كل ما آمنوا به وعملوا له قبل ذلك، تعتبر طبيعية لأن الغربيين لم يكونوا ينطلقون فيما يؤمنون به من أرضية صلبة تحمل في طياتها تصوراً مقبولاً ومنطقياً للإنسان والكون وسبب الوجود والمآل الذي سنغدو إليه وما هي حقيقة هذا الوجود وسببه، إن عدم وجود هذه الأرضية وعدم وجود الثوابت القوية أدى إلى أنه وفي نفس الوقت الذي كانوا يتقدمون على الصعيد المادي لم يستطيعوا مواكبته بتقدم روحي إيماني، فخلق هذا الأمر تناقضاً وشرخاً في داخلهم ما أدى إلى ظهور ثورات وحركات تمرد تؤدي إلى هدم ما بنوه في الأمس ليبنوا على أنقاضه فكراً جديداً، ولكن ما يلبثون أن

يجدوا أنهم لم يحققوا شيئاً بل لعلهم تراجعوا، فيعودون للبحث عن أفكارٍ جديدة ولا يلتفتون أن كل هذه الأفكار هي محاولات بشرية لا تستطيع أن تقدم الفكرة الأمثل للحل، بينما الدين الذي هو برنامج حلٍ للإنسانية جمعاء من الله سبحانه وتعالى هو الحل الأمثل. في حين أن الجامع لكل الأفكار التي قدموها هو المادية الملحدة التي لا تعترف بالله وبسيادته المطلقة على الكون.

٥ ـ أقطاب ومروجو الحداثة الغربية

للتعرف على الحداثة كفكر وأسلوب حياة نورد بعضاً من سيرة حياة بعض مفكريها ومروجيها فنأخذ فكرة عنها لأن الفكرة تتضح من خلال ممارسات معتنقيها. فعلى سبيل المثال، يعتبر الأمريكي «إدغار ألن بو» من رموز المدرسة الرمزية التي تمخضت عنها الحداثة في الجانب الأدبي على الأقل، وقد تأثر به كثير من الرموز التاريخية للحداثة مثل: «مالارميه و«فاليري، وموباسان»، وقد كانت حياة إدغار حياة عربدة وسكر لا علاقة لها بالأخلاق والحق، فقد كانت حياته موزعة بين القمار والخمور، والفشل الدراسي والعلاقات الفاسدة، ومحاولة الانتحار بالأفيون، حتى قيل عنه عند موته في إحدى الصحف الأمريكية:

«ومما يبعث الأسى لموته، هو ـ قبل كل شيء ـ الاعتراف بأن الفن الأدبي قد فقد نجماً من أسطع نجومه ولكن من أمعنهم في الضلال».

فيما يعتبر بودلير تلميذ إدغار كما قلنا سابقاً من أهم الداعين للحداثة في القرن التاسع عشر، بل هو يعتبر أستاذ الحداثويين، فبودلير الذي عمل للحداثة وأسس لها يعتبر من أسوأ ما عرفت الآداب العالمية خُلقاً وإمعاناً في الرذيلة، وممارسة لكل ما يتنافي مع الأخلاق والعقيدة. وقد نادى

بودلير هذا بالفوضى في الحس والفكر والأخلاق، ويقول عنه مصطفى السحرتي في مقدمة ترجمة ديوان أزهار الشر لبودلير:

«لقد كانت مراحل حياته منذ الطفولة نموذجاً للضياع والشذوذ، ثم بعد نيل الشهادة الثانوية قضى فترة في الحي اللاتيني، حيث عاش عيشة فسوق وانحلال، وهناك أصيب بداء الزهري، وعاش في شبابه عيشة تبذل، وعلاقات شاذة مع مومسات باريس، ولاذ في المرحلة الأخيرة من حياته بالمخدرات والشراب»[١].

ويقول عنه الشاعر إبراهيم ناجي مترجم ديوان أزهار الشر:

«. . . . لأن بودلير كان يحب تعذيب الآخرين ويتلذذ به، وكان يعيش مصاباً بمرض انفصام الشخصية، ولم يقتصر الطعن في شخصية بودلير على العلماء والشعراء العرب، بل تعداه إلى من هم من أبناء جلدته حيث قالوا فيه الكثير ويظهر مدى السوء الذي وصل إليه هذا الشخص من خلال ما قاله عنه أحد كتاب الغرب: (إن بودلير شيطان من طراز خاص). ويقول عنه آخر: (إنك لا تشم في شعره الأدب والفن، وإنما تشم منه رائحة الأفيون)»[٢].

ولم يقتصر الأمر عند بودلير على التهتك على المستوى الشخصي والأخلاقي والسلوكي والاجتماعي، بل تعداه إلى أكثر من ذلك إلى التزام مبادئ لا تنسجم مع المبادئ التي ينادي بها عصره، فقد عرف عنه نزعته الماركسية الثورية الفردية آنذاك. فيقول عنه محمد برادة في مجلة فصول:

«إن الخيبة التي انتهى إليها بودلير من مراهنته على حداثته، ليس فقط

(١) الحداثة مقالة.

(٢) الحداثة في ميزان الإسلام، الصفحة ٢٣.

أنه يعاني موت الجمال ويبكيه، بل يعاني كذلك غياباً، لا غياب الله، أو موته، بل أكثر من ذلك، فالحداثة تغلف، وتقنّع غياب البراكسيس وإخفاقه بمعناه الماركسي، الباركسيسي الثوري الشامل، وأنها تكشف هذا الغياب، وستكون الحداثة داخل المجتمع البرجوازي هي ظل الثورة الممكنة»[١].

والبراكسيس لفظة إغريقية تعني الفعل والممارسة. وهي تتعارض في الفلسفة اليونانيّة مع النّظريّة التي تعني بالأساس التّأمّل والتّفكير النّظري الخالص. إنّه، كما يعرّفه ماركس النّشاط الإنساني المحسوس. وليس لهذا النّشاط من معنى إلا في فترة تاريخيّة ومجتمع محدّدين.

ويقول غالي شكري عن بودلير في كتابه شعرنا الحديث إلى أين:

«وقديماً كان بودلير نبياً للشعر الحديث، حيث تبلور إحساسه المفاجئ العليل بحياة فردية لا تنسجم مع المثل التي ينادي بها العصر الذي يعيش فيه»[٢].

وبعد بودلير جاء رائد آخر من رواد الحداثة في الغرب وهو رامبوا الذي لا يقل شأناً عنه في المناداة إلى الهدم العقلاني لكل الحواس، وأشكال الحب والعذاب والجنون، ودعا، كما يقول الدكتور عبد الحميد جيدة في كتابه الاتجاهات الحديثة في الشعر العربي المعاصر إلى:

«أن يكون الشعر رؤية ما لا يرى، وسماع ما لا يسمع، وفي رأيه أن الشاعر لا بد أن يتمرد على التراث وعلى الماضي، ويقطع أي صلة مع المبادئ الأخلاقية والدينية، وتميز شعره بغموضه، وتغييره لبنية التراكيب، والصياغة اللغوية عما وضعت عليه، وتميز أيضاً بالصور المتباعدة المتناقضة الممزقة»[٣].

---

(١) مجلة فصول، العدد الثالث، الصفحتان ١٣، ١٤.
(٢) شعرنا الحديث إلى أين، الصفحة ١٦.
(٣) الاتجاهات الحديثة في الشعر العربي المعاصر، الصفحة ١٤٨.

وبعد بودلير ورامبوا قام أكثر من عالم من علماء الغرب بالسير في ركب الحداثة ومن هؤلاء مالارميه، وبول فاليري، حتى وصلت الحداثة الغربية إلى شكلها المتكامل النهائي على يد الأمريكي اليهودي عزرا باوند، والإنجليزي توماس إليوت.

وتعتبر قصيدة «الأرض الخراب» لتوماس أليوت معلقة الحداثويين العرب بما حوته من غموض ورمزية، حولت الأدب إلى كيان مغلق، تتبدى في ثناياه الرموز والأساطير، واللغة الركيكة العامية، إلى آخر ما نراه اليوم من مظاهر أدب الحداثويين.

وبذلك، تكون الحداثة الغربية سلسلة متصلة الحلقات يتناقلها اللاحقون عن السابقين، وهي إلى جانب ذلك متصلة شديدة الاتصال بما سبقها من أفكار كانت حداثية في وقتها كالوجودية، والرمزية، والسريالية، والمادية، الجدلية، والمادية التاريخية، والواقعية، والاشتراكية العلمية، والبرناسية، والرومانسية، وغيرها الكثير من الأفكار والمبادئ والتيارات التي كانت الحداثة قاعدة لها، ومنطلقاً فكرياً مدًّها بكل ما حملته تلك المذاهب من فكر وأيديولوجيات، وتمردت على كل ما هو سائد وموروث، وتجاوزت حدود الأدب واللغة لتطال الدين والأخلاق والقيم والعلم. ثم بعد ذلك تحولت هذه الأفكار الحداثية في وقتها إلى أفكار بالية قديمة لا قيمة لها، فالحداثة تعتبر في الحقيقة أفكاراً تسعى لتحطيم الماضي والحاضر والمستقبل.

وهكذا نمت الحداثة الغربية وترعرعت في أوحال الرذيلة، ومستنقعات اللاأخلاق، وأينعت ثمارها الخبيثة على أيدي الشيوعيين من أمثال نيرودا، ولوركا، وناظم حكمت، وفتشنكو، والوجوديين أمثال سارتر، وسيمون دي بوفوار، وألبير كامو، وآتت أكلها على أيدي الجيل

المنظر والداعم لها والمحفز على السير في ركابها من أمثال ألوي أراجون، وهنري لوفيفر، وأوجين جراندال، ورولان بارت، ورومان ياكوبسون، وليفي شترواس، وبياجيه، وغيرهم كثير.

٦ ـ الحداثة العربية وأقطابها

ليست الحداثة في عالمنا العربي وليدة حركة داخلية ناتجة عن تطور معين أدى إلى اتخاذ قرار ذاتي للتغيير على أسس فكرية معينة، بل إنها كانت تقليداً لما حصل في الغرب وتأثراً به وانبهاراً بالتقدم العلمي الذي حصل عندهم، فظن من عندنا أن سبب ذلك هو المنظومة الفكرية المنطلقة من الحداثة فأرادوا أن يقلدوهم في ذلك.

لذلك نجد أن كثيراً من الشعراء والأدباء العرب الحداثويين ساروا على درب أمثالهم الغربيين أمثال بودلير ورامبوا، وهذا ما يؤكده إحسان عباس في كتابه فن الشعر حيث يقول:

«ومشى على آثار «بودلير» «رامبوا» وتبعه من بعده «مالارميه» و«بول فاليري»، ووصلت الحداثة في الغرب إلى شكلها النهائي على يدي الأمريكي اليهودي «عزرا باوند»، والإنجليزي «توماس أليوت»، وقد تأثرت بهم الموجات الأولى من الحداثيين العرب مثل: «السيَّاب» و«نازك» و«البياتي» و«حاوي» و«أدونيس» وغيره»[١].

ولو اقتصر الأمر على مجرد التقليد لهان الخطب، غير أن الذي حصل أن مخططاً كبيراً عملت له الصهيونية والماسونية العالمية لإدخال هذه الأفكار إلى مجتمعاتنا بأساليب خبيثة تستخدم التمويه من خلال تغطية هذه

---

(١) فن الشعر، الصفحة ٧٢.

الأفكار بشعارات التطور والتقدم ومسايرة الركب الحضاري للعالم، ومن خلال ذلك يقدمون لنا الأفكار السامة والهدامة لتحطيم كل ما هو جيد وأخلاقي وشريف لصالح التهتك والإنحلال.

وبذلك، تسللت الحداثة الغربية إلى مجتمعاتنا فغزت فكرنا ولغتنا ومعتقداتنا وكل ما هو حضاري وجيد. فيؤدي الإنحلال إلى تفكيك أمتنا لتستسلم لهم فيفعلون بها ما يريدون ويوجهونها إلى الطريق التي حفروا لنا فيها حبائل مكرهم.

وهكذا وبعد عدة سنوات وجدنا أنفسنا أمة مهزومة لا شخصية لديها، ميتة لا حراك فيها، وحتى صح أن يقال عن السلطنة العثمانية في أواخر وقتها الرجل المريض، ذلك أن المرض الذي نخر في جسم أمتنا أدى إلى تفككها وانحلالها ثم بعد ذلك انهيارها وموتها التام.

والغريب أن هذه الأفكار وجدت لها في بيئتنا العربية أرضاً خصبة سرعان ما نمت وترعرعت فيها وساعدها على ذلك رواد لها أمثال غالي شكري، والمنظر الأول لها علي أحمد سعيد المعروف بـ«أدونيس»، وزوجته خالدة سعيد من سوريا، وعبد الله العروي من المغرب، وكمال أبو ديب من فلسطين، وصلاح فضل، وصلاح عبد الصبور من مصر، وعبد الوهاب البياتي من العراق، وعبد العزيز المقالح من اليمن، وحسين مروة من لبنان، ومحمود درويش وسميح القاسم من فلسطين، ومحمد عفيفي مطر، وأمل دنقل من مصر، وعبد الله القذامي، وسعيد السريحي من السعودية، وغيرهم الكثير.

وللتعرف على هؤلاء نأخذ بعضاً مما قاله بعضهم لتتضح لنا صورتهم الحقيقية المعادية لأمتنا الإسلامية وفكرها ودينها وعقيدتها وأصالتها وأخلاقها وتراثها وقيمها التي تأصلت فيها عبر التاريخ، فمثلاً يقول غالي شكري في كتابه الشعر الحديث إلى أين متحدثاً عن الروافد التي غذت بذرة الحداثة العربية فيقول:

«كانت هذه المجموعة من الكشوف تفصح عن نظرة تاريخية تستضيء بالماضي لتفسر الحاضر، وتنبئ بالمستقبل. فالمنهج الجدلي، والمادية التاريخية يتعرفان على أصل المجتمع، ثم يفسران أزمة العصر، أو النظام الرأسمالي، ثم يتنبآن بالمجتمع الاشتراكي الذي ينعدم فيه الصراع الطبقي»(١).

أما أدونيس فيقول في كتابه الثابت والمتحول:

«لا يمكن أن تنهض الحياة العربية، ويبدع الإنسان العربي إذا لم تنهدم البنية التقليدية السائدة للفكر العربي، ويتخلص من المبنى الديني التقليدي الإتباعي»(٢).

إنها دعوة صريحة لا لبس فيها للتخلص من الإسلام في كل شؤون حياتنا وعدم الإلتزام بقيمه والأخلاق التي يريدنا أن نعتمدها في حياتنا، بل أكثر من ذلك التخلص منها والقضاء عليها لأن ذلك هو السبيل الوحيد كما يقول لنهضة الحياة العربية. وأدونيس هذا يقول في مقابلة أجرتها معه مجلة (فكر وفن) عام ١٩٨٧م:

«إن القرآن هو خلاصة ثقافية لثقافات قديمة ظهرت قبله.... وأنا أتبنى التمييز بين الشريعة والحقيقة، إن الشريعة هي التي تتناول شؤون الظاهر، والحقيقة هي التي يعبرون عنها بالخفي، والمجهول، والباطن، ولذلك فإن اهتمامي بالمجهول ربما يأتي، ويتغير باستمرار، وهذا ما يتناقض مع الدين»(٣).

---

(١) الحداثة في ميزان الإسلام.

(٢) الحداثة، مقالة للدكتور مسعد محمد زياد.

(٣) الحداثة، مقالة للدكتور مسعد محمد زياد.

إن أدونيس يحدد وبشكل واضح كيفية التوصل إلى العالم الذي يصبو إليه والذي يريده عالماً لا دينياً من خلال هدم كل ما هو كذلك، فتراه يقول في العدد السادس من مجلته ولسان حاله مجلة مواقف:

«ما نطمح إليه ونعمل له كثوريين عرب هو تأسيس عصر عربي جديد. نعرف أن تأسيس عصر جديد يفترض بادئ ذي بدء الانفصال كلياً عن الماضي، نعرف كذلك أن نقطة البداية في هذا الانفصال ـ التأسيس هي النقد: نقد الموروث ونقد ما هو سائد شائع (. . .) إن ماضينا عالم من الضياع في مختلف الأشكال الدينية والسياسية والثقافية والاقتصادية، إنه مملكة من الوهم والغيب تتطاول وتستمر، وهي مملكة لا تمنع الإنسان العربي من أن يجد نفسه وحسب، وإنما تمنعه كذلك من أن يصنعها»[١].

هذا الكلام يدل على أن هؤلاء الذين سموهم زوراً وبهتاناً بالرواد لم يكونوا يدعون من خلال الحداثة إلى التجديد في اللغة أو الأدب والشعر، بل كانوا في حقيقة الأمر دعاة هدم وتخريب، فالحداثة عندهم هي السبيل للوصول إلى القضاء على المعتقدات والأفكار التي تؤمن بها الأمة، ولذلك وقع الخلط بين الناس بين الحداثة التي هي تمرد على الموروث والسائد، وبين التجديد الذي يعني تطوير ما هو موجود لجعله يتواءم مع التطور، وذلك بالإضافة عليه من ما توصل إليه العصر من تطورات في التكنولوجيا ولكن مع شرط أساسي هو المحافظة على الجوهر والمبادئ الأساسية لمعتقداتنا، فالمسلم المؤمن لا يتنكر للتقدم وما يتوصل إليه الإنسان من خلال العلم والتفكير، بل هو يعتمد على هذه الوسائل في نقل فكره للناس وتقديمه لهم بأسلوب حديث ومتطور.

---

(١) مجلة مواقف، العدد السادس.

والمشكلة الأساسية هي تسلل الحداثة بمفهومها الغربي إلى مجتمعاتنا ومحاولة إسقاطها على واقعنا من دون ملاحظة الفرق الشاسع بين ما يميز مجتمعاتنا عن ما يميز المجتمعات الغربية. ففي مجتمعاتنا ما زال الناس يؤمنون بالإسلام كدين مخلص للبشرية، وبالتالي ليس من السهل فرض الحداثة على واقع متدين متمسك بأهداب الفضيلة وتعاليم الدين وأحكامه، هذا المجتمع وإن سقط للحظة أمام واقع مستجد، لا يمكن أن نحمله للإسلام إلا أن ذلك لا يعني أنه أصبح مجتمعاً سهل اختراقه وتشتيت أبنائه ضمن تيارات وأديان مختلفة، لذلك كنت تجد في كل مرحلة من مراحل التاريخ من يتمسك بهذا الدين ويرفض التعرض له.

أسلوب الحداثويين العرب:

لقد حاول دعاة الحداثة تمرير فكرتهم من خلال القول إنهم يسعون للتجديد كي تنطلق الأمة والمجتمعات في ركب التقدم، وجانبوا إلى حد كبير أن يعلنوا أو أن يوحوا أنهم يسعون إلى تدمير المعتقدات التي يؤمنون بها لمعرفتهم عمق الإيمان الذي يتمتع به المسلمون، لذلك أخذ دعاة الحداثة على عواتقهم تمرير هذه البدعة الجديدة، وجاهدوا في سبيل الوصول إلى أغراضهم الزائفة حتى استطاعوا أن يقنعوا الكثيرين بها باعتبارها دعوة إلى التجديد والمعاصرة تهدف إلى الانتقال بالأدب العربي المتوارث نقلة نوعية جديدة تخلصه مما علق به من سمات الجمود والتخلف ليواكب التطور الحضاري الذي يفرضه واقع العصر الذي نعيشه، والذي تفرضه سنن الحياة. لذلك نجد أدونيس يقول في كتابه الثابت والمتحول:

«ومبدأ الحداثة هو الصراع القائم بين السلفية والرغبة العاملة لتغيير هذا النظام، وقد تأسس هذا الصراع في أثناء العهدين الأموي والعباسي،

حيث نرى تيارين للحداثة: الأول سياسي فكري، ويتمثل من جهة في الحركات الثورية ضد النظام القائم، بدءاً من الخوارج، وانتهاء بثورة الزنج، مروراً بالقرامطة، والحركات الثورية المتطرفة، ويتمثل من جهة ثانية في الاعتزال والعقلانية الإلحادية وفي الصوفية على الأخص»[١].

ثم يواصل أدونيس حديثة قائلاً:

«هكذا تولدت الحداثة تاريخياً من التفاعل والتصادم بين موقفين وعقليتين في مناخ متغير، ونشأت ظروف وأوضاع جديدة، ومن هنا وصف عدد من مؤسسي الحداثة الشعرية بالخروج عن الدين»[٢].

لقد عمل أدونيس على نبش كتب التراث ليستخرج منها كل شاذ ومنحرف من الشعراء والأدباء والمفكرين من أمثال بشار بن برد وأبي نواس وغيرهما، لأن في شعرهم كثيراً من المروق على الإسلام، والتشكيك في العقائد، والسخرية منها، والدعوة للإنحلال الجنسي والتهتك الأخلاقي كما يذكر عوض القرني في كتابه الحداثة في ميزان الإسلام. ويواصل القرني حديثه:

«وهكذا بعد أن حاول الحداثيون العرب أن يوجدوا لهم جذوراً تاريخية عند فساق وزنادقة، وملاحدة العرب في الجاهلية والإسلام، انطلقت سفينتهم غير الموفقة في العصر الحديث تنتقل من طور إلى آخر متجاوزة كل شيء إلى ما هو أسوء منه، فكان أول ملامح انطلاقتهم الحديثة هو استبعاد الدين تماماً من معاييرهم وموازينهم بل مصادرهم، إلا أن يكون ضمن ما يسمونه بالخرافة، أو الأسطورة»[٣].

(١) الثابت والمتحول، الجزء ٣، الصفحة ٩.
(٢) الثابت والمتحول، الجزء٣، الصفحة ١١.
(٣) الحداثة في ميزان الإسلام، الصفحة ٢٨.

ويستشهد على صحة قوله هذا بما نقله عن الكاتبة الحداثية خالدة سعيد في مجلة فصول بعنوان الملامح الفكرية للحداثة حيث تقول:

«إن التوجهات الأساسية لمفكري العشرينات تقدم خطوطاً عريضة تسمح بالقول إن البداية الحقيقية للحداثة من حيث هي حركة فكرية شاملة، قد انطلقت يوم ذاك، فقد مثل فكر الرواد الأوائل قطيعة مع المرجعية الدينية والتراثية كمعيار ومصدر وحيد للحقيقة، وأقام مرجعين بديلين: العقل والواقع التاريخي، وكلاهما إنساني، ومن ثم تطوري، فالحقيقة عن رائد كجبران خليل جبران، أو طه حسين لا تلمس بالعقل، بل تلمس بالاستبصار عند جبران، والبحث المنهجي العقلاني عند طه حسين»[١].

إن سعي الحداثويين العرب لنبش التاريخ العربي ليجدوا أسلافاً لهم إنما كان من أجل استغلالهم كجواز مرور لهم إلى عقول الأمة، وهم عندما اختاروا أمثال أبي نواس وعمر ابن ربيعة إنما فعلوا ذلك لاستغلال الانتهاكات التي ارتكبوها في شعرهم وهذا ما يعبر عنه أدونيس بوضوح عندما يقول:

«إن الانتهاك هو ما يجذبنا في شعرهما (أبو نواس وعمر ابن ربيعة)، والعلة في هذا الجذب أننا لا شعورياً نحارب كل ما يحول دون تفتح الإنسان، فالإنسان من هذه الزاوية ثوري بالفطرة، الإنسان حيوان ثوري»[٢].

---

(١) الحداثة في ميزان الإسلام، الصفحتان ٢٩، ٣٠.
(٢) الثابت والمتحول، الجزء ١، الصفحة ٢١٦.

٧ ـ رأي الإسلام بين التجديد والحداثة

لا إشكال في أن الإسلام ذم التقليد الأعمى للآباء والأجداد وأخذ ما يؤمنون به على عواهنه من دون تفكير وتدقيق، فقال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۞ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[١].

فالله عز وجل عندما نهى عن أن يتمسك الإنسان بما وجد عليه آباءه وأجداده من عقائد وتقاليد وأفكار، إنما يدعو بطريق وآخر إلى أن لا يكون إيماننا تقليدياً، بل أن يكون هذا الإيمان مستنداً إلى عقيدة صلبة وفهم وعلم، لذلك نجد أن كثيراً من الآيات والروايات تدعو إلى التفكر الذي هو أساس الوصول إلى الحقيقة، فقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[٢].

فالقرآن الكريم يدعونا إلى أن نتفكر في خلق السماوات والأرض حيث نستطيع من خلال هذا التفكر ـ إن كنا عقلاء أصحاب عقول راجحة عبر عنها الله سبحانه وتعالى بقوله أولو الألباب ـ أن نصل حتماً إلى الله عز

---

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠ ـ ١٩١.

وجل كون هذا الخلق لا يمكن أن يكون عبثياً أو وليد الصدفة، بل لا بد من أن يكون وراء كل ذلك خالق حكيم هو الله سبحانه وتعالى.

وجاءت الأحاديث الشريفة لتؤكد على أن موضوع التفكر ليس أمراً عادياً، بل هو عبادة كسائر العبادات بل أفضل منها وأهم، فقد ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«تفكر ساعة خير من عبادة سنة قال الله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾»[١].

وورد في نفس المعنى عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه قال:

«ليست العبادة كثرة الصيام والصلاة، وإنما العبادة كثرة التفكر في أمر الله»[٢].

وهناك الكثير من الأحاديث الداعية للتفكر واعتبارها عبادة بل من أفضل العبادات، مما يعني أن الإسلام لا يدعو إلى أن يكون إيماننا تقليدياً بل أن يكون منطلقاً من قناعة فكرية وعلم وعقيدة. أما أهمية العلم فإن الآيات والروايات الكثيرة تذخر بها، والحث على العلم والتعلم، وقد ميز الله بين العالم والجاهل فلم يعتبرهما بمنزلة سواء فقال في كتابه الكريم:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٣].

ولذلك، لا يمكن أن نقبل أن نصف الجاهل بأنه المسلم المقرب من الله سبحانه وتعالى، بل إن الذي يحظى بالقرب الحقيقي هو المسلم العالم

(١) مستدرك الوسائل، الجزء ١١، الصفحة ١٨٣.
(٢) مستدرك الوسائل، الجزء ١١، الصفحة ١٨٤.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٩.

الذي لا يقارن به من كان إيمانه تقليدياً ليس ناتجاً عن قناعة واعتقاد حقيقيين، بل إن الله عز وجل يعتبر أن العالم الذي يعبده انطلاقاً من علم وفهم هو أفضل بكثير من الذي يشغل وقته بالعبادة الجافة البعيدة عن العلم والفهم السليمين، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر»(١).

إذاً، ومن خلال المكانة التي أعطاها الله سبحانه وتعالى للعلم والعلماء نستطيع التأكد أنه لا مجال للإيمان السطحي في الإسلام، بل لا بد من كونه منطلقاً من دراسة ووعي وفهم، وهذا الإيمان لا يمكن أن يكون مرتبطاً بالظروف يتغير بتغيرها أو يكون مرتبطاً بالتقدم العلمي في مجالات التكنولوجيا ووسائل الحياة، بل إن هذا الإيمان راسخ يرتبط بالقيم التي لا تتغير بتغير الظروف والإمكانات والوسائل، إن الصدق هو قيمة أخلاقية لا تتغير مع الزمن، وكذلك الكذب فهو أمر سيء لا يتغير ويصبح قيمة مع تغير الوسائل والظروف.

لذلك، فإننا نعتبر أن التطور التقني أمر نؤمن به وهو حقيقة لا لبس فيها، ولكن الأمور المرتبطة بالعقيدة والإيمان هي مسائل لا ترتبط بتقدم وتطور في التقنيات والوسائل. إذ يمكن أن يتطور الاستدلال على وجود الله من خلال اكتشاف أدلة علمية وفلسفية ولكن الإيمان يبقى كما هو لا يتغير، فالبدوي الذي آمن بالله عز وجل لأنه عرف من سيرته اليومية أنه إذا وجد آثار بعير على الأرض فإن ذلك يعني أن بعيراً مر من هنا من دون أن يكون قد رآها، فكذلك هذا الكون الرحب لا يمكن أن يكون ناتجاً عن الصدفة بل إن هناك إلهاً خلقه وكان سبباً في وجوده.

---

(١) بحار الأنوار، الجزء ٢، الصفحة ١٨.

ومع تطور الحياة العلمية اكتشفوا أدلة جديدة على وجود الله سموها دليل العلة والمعلول، أو قانون السببية، واكتشفوا اكتشافات علمية دلت على وجود الخالق ولكن مع ذلك كله فإن الإيمان بوجود الله هو نفسه في الحالتين.

من خلال ما تقدم فإن الحداثة بمعنى نسف كل ما هو قديم أمر لا يمكن القبول به إذا لم يكن هناك ما يدعو إليه واستند إلى منطق عقلي مقبول متوافق مع ما ثبت من الشرع، وهذا لا يمكن أن يشمل عقائدنا الأساسية التي ثبتت في أصل الشرع.

هذا لجهة الحداثة بالمعنى المتعلق بنسف كل ما هو قديم بغض النظر عن صحته وعدمها، أما التجديد فلا مانع منه ما دام تجديداً بالوسائل التي لا تتناقض مع ما ثبت من الشرع، فعلى سبيل المثال ليس من الضروري أنه إذا كان المسلمون الأوائل يحجون على الجمال أن نحج نحن كذلك ولا نستخدم الطائرات كوسيلة للوصول إلى الحج.

وفي مسألة ثبوت الهلال مثلاً للعيد والحج وصوم شهر رمضان فإنه لا مانع من اعتماد وسائل لإثبات الهلال غير الرؤية العينية المباشرة، من خلال التلسكوب المكبر أو من خلال الحسابات إذا وصلت إلى حد القطع على اختلاف في ذلك بين الفقهاء، غير أن المهم هو أنه لا مانع من التجديد في الإسلام شرط عدم المس بالأصول الأساسية للإسلام أو بالمفاهيم الثابتة بالدليل الشرعي القطعي، وبمعنى آخر فإن التجديد في الوسائل أمر ممكن ومطلوب وهو ليس الحداثة التي نرفضها.

لقد مر الخطاب الإسلامي بفترة صعبة كان فيها متراجعاً أمام الخطاب الغربي المدعم بالتقدم العلمي والحافل بالإنجازات التقنية التي أبهرت جيل الشباب خاصة، فشعر بأن خطاب الإسلاميين قاصر عن الرد عما يقدمه الغرب من إجابات في مسيرة التطور الإنساني.

لقد أحس العلماء أنفسهم يعيشون حالة إفلاس أمام التحول الكبير الذي تشهده الأمة في بدايات القرن العشرين، وقد وجدنا عدداً من العلماء لا تقتصر معاناتهم على ما يحصل في المجتمع خارجاً، بل إن الأمر دخل إلى بيوتهم فرأيت أن بعض أولادهم صاروا من أنصار الأفكار الحداثية وينتمون إلى تيارات ملحدة، وهذا ما ساهم أيضاً في ضعف تأثيرهم على المجتمع الخارجي على أساس أنهم قالوا لو أن منطق هذا العالم مقنع لأثر في أولاده فكيف سيكون الأمر مع عامة الناس؟.

أمام الهجمة الشرسة لتيار الحداثة وأمام الإحساس بالعجز الذي شعر به العلماء كان لا بد من تطوير الخطاب الديني الإسلامي وهذا ما فرض عليهم صياغة خطاب جديد يتناسب مع التطور الذي يشهده العصر، وكان لا بد من وضع أسس لمقدار التلاقي والتباعد مع هذا الغرب. هذه الأسس كانت محوراً أساسياً ومهماً في الصياغة الفكرية للخطاب الإسلامي الجديد، لقد أثر التجديد في خلق مذهب إصلاحي يحاول تطهير الدين من الغبار المتراكم عليه على أساس توصلهم إلى قناعة مفادها:

«أن الإسلام الحقيقي هو غير ما يظهر على ألسن المتعصبين والسلفيين الذين يرفضون التجديد بما يتناسب مع روح العصر، طبعاً من دون مس بالأسس والأصول الأساسية، ولذلك كان لا بد من تخليص الدين من الانحرافات والبدع التي طرأت عليه ولم تكن فيه إذ انطلقت من فهم خاطئ للإسلام خلط بين ما ثبت بالنص الصحيح وما دخل إليه من خلال الأعراف البالية».

إن هذا الخطاب التجديدي سعى ولعله نجح إلى حد كبير في الدعوة إلى إسلام بعيد عن الخرافات والانحرافات مما جعله قادراً على مواجهة الحداثة من خلال فكر إسلامي نيِّر أصيل ومتناسب مع النص الإسلامي غير المحرَّف.

إن التجديد الإسلامي استطاع أن ينتج جيلاً جديداً من المفكرين المسلمين الذين دعوا إلى تطوير المناهج الحوزوية والشرعية كالأصول والفقه والتفسير، ودعا إلى الاجتهاد المفتوح للوصول إلى فكر إسلامي نيّر يمكن أن يطرح على الكون بأكمله ما يؤكد نظرية عالمية الإسلام كما أراد ذلك الله ورسوله، وهو ما ظهر بقوله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

فالإسلام دين عالمي يشمل كل المخلوقات بل يتعدى عالم الأنس إلى عالم الجن، وعليه يجب وفي كل العصور أن يتناسب الخطاب الإسلامي مع هذه المهمة والغاية.

والمسلمون اليوم أمام الهجمة الغربية عليهم بين تيارين: تيار سلفي متشدد أظهر وبشكل واضح عدائيته لكل ما يمت بصلة للحداثة وتمسك بالتراث والتاريخ باعتبارهما مرجعية لهم يعتمدونها في شرعنة موقفهم؛ وتيار إصلاحي انفتح على مستجدات العصر محاولاً إيجاد صيغة يبرر بها علاقته مع الغرب من جهة ويثبت في نفس الوقت قدرة الإسلام على مواكبة التطور.

لقد حاول التيار الإصلاحي المحافظة على الخصوصية الإسلامية ولعل المفكر الإسلامي مالك بن نبي كان أول من طرح مفهوم الخصوصية الإسلامية.

وهنا أريد أن أنبه لمسألة مهمة وهي أن السلفي لا أقصد به التيار السلفي على اختلاف مذاهبه بقدر ما أقصد به التمسك بالسلف الصالح والسير على آثارهم. أما السلفية كتيار متعدد التوجهات يمكن لك أن تجد من بين أقطابه من سعى للتطوير وهو ما أسميه المتنورين من السلفيين.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

ومن جهة ثانية، فإننا نجد في التيار الإصلاحي من اعتمد الإصلاح وذلك من طريق حدثنة الإسلام، في حين أن التيار التجديدي طرح فكرة الاستفادة من الحداثة من خلال أسلمتها، فهو يقبل الحداثة ولكن مع إدخال بعض التعديلات عليها.

وهنا يطرح سؤال مهم هو: هل يمكننا ومن خلال الاعتماد على أنفسنا أن نصل إلى حلول منطقية تخرجنا من الواقع الذي نتخبط فيه؟

من الطبيعي أن لا تكون الإجابة عن هذا السؤال واحدة خاصة وأننا أمام اتجاهات متباينة في مرجعياتها وأصولها، فبينما يؤمن المتنور أنه لا يمكن لنا تجاوز التركة الثقيلة الناتجة عن تراث عمره مئات السنين، فإنك ستصل إلى نتيجة مفادها أن الحداثة هي السبيل الوحيد المتاح أمام أمتنا الغارقة في الماضي والتاريخ. ولذلك لا تجد هذه الفئة استحالة في تغيير الواقع نحو الأفضل بينما نجد أن الاتجاهات الإسلامية تراهن على أن ذلك ممكن وإن كان بصيغ متباينة، ثم جاء العلماني فيما بعد ليتابع المسيرة، محاولاً الاستفادة من هذا المصطلح لعلمنة الإسلام من جهة، ومن جهة أخرى، سعى لتغيير المفاهيم الإسلامية في غمرة انشغال التجديديون في تغيير الواقع نحو الأفضل.

والذي يميز الخطاب الإسلامي الجديد أنه لم يعد منبهراً ومأخوذاً بسحر الغرب والتراث معاً، وهذا ما كانت تفتقد إليه أجيال الإصلاح والمجددون الأوائل. ومعرفة الإسلامي اليوم بالحداثة أدت إلى تكوين معرفة سوية، ورصيد تجربة تاريخية امتدت لأكثر من قرن، بحيث أصبح على معرفة بمشكلات التجديد وإشكالياته ليحاول حلها وتقديم بعض الاقتراحات كالانتقال من مقاربات التجديد الفردية إلى العمل المؤسسي ومن التنظير إلى التطبيق، والدعوة إلى فهم الذات والآخر لمحاولة معرفة الأسس النفسية والأيديولوجية التي تحكم العلاقة بينهما.

٨ ـ كيف نواجه خطر الحداثة؟

إن خطر الحداثة لم يستشعره المسلمون فقط، بل استشعره حتى الغربيون ممن عرفوا الآثار السلبية السيئة للحداثة على مجتمعاتهم، سواء أكان هؤلاء متدينون أم كانوا من العلمانيين، وها هو وزير الثقافة الفرنسي يحذر منذ سنوات الشعب الفرنسي من خطر السيطرة الأميركية فيقول:

«إن الذوق الفرنسي أصبح أمريكياً والهدف الفرنسي أصبح أمريكياً والأفلام تأثرت بأفلام هوليود»[١].

فهذا رجل مسؤول في فرنسا وهو وزير للثقافة وجد من خلال ممارسته العملية أن هناك خطراً كبيراً من الأفكار الواردة من المجتمع الأميركي ذات الطابع الحداثي.

وإذا كانت هذه الأمم تسعى للحفاظ على أصالتها من خلال حماية نفسها من خطر الغزو الفكري القادم إليها من أمم غربية مثلها لا تختلف عنها من حيث المادية وعدم الإيمان بالله وإنكار الدين ومن حيث الإباحية والانحلال، فما بالكم بالمسلم الذي يؤمن بالله، والذي يستمد إيمانه وعلمه وفكره وثقافته من كتاب الله، ومن سنة رسوله ﷺ، والعلم الشرعي الصحيح؟!.

كيف يمكن لنا مقاومة تيار الحداثة؟ وكيف يمكن لنا أن نُشعر أمتنا هذا الخطر؟ خاصة وأن هذا التيار يعتمد على إثارة الغرائز الجنسية والحيوانية في شباب اليوم فتسري أفكارهم بين هؤلاء سريان النار في الهشيم.

---

(١) من محاضرة للشيخ الدكتور سفر الحوالي حول منشأ الحداثة.

إن الحداثة تعتبر اليوم وبعد عدة عقود من تطورها الأخير واحدة من أهم وأفتك موجات الغزو الفكري والثقافي الوافد إلينا من الغرب، وخاصة الغرب الأميركي المدعوم من وسائل إعلامية متطورة باتت أمام تطور وسائل الاتصالات قادرة على دخول كل بيت من بيوتنا من دون أي استئذان. إن الإسلام يمتلك في منظومته الفكرية والأخلاقية إمكانية حماية المسلم والمجتمع من هكذا أخطار، ولذلك فإن مصير هذه الأفكار في النهاية الانحسار ورجوع الناس كما نشهد اليوم إلى دينهم ومبادئهم الأخلاقية والإيمانية، ولكننا لا نستطيع أن نركن إلى ذلك ونترك الأمر للزمان، بل لا بد من تنبيه الأمة إلى الخطر المحدق بها وبذلك نقلل المسافة الزمنية التي يسيطر فيها هذا الفكر على عقول شبابنا.

إن العلاج للمشاكل الناتجة عن الحداثة تبدأ من الثقة بأنفسنا وبديننا ومعتقدنا، وأن ما يحصل في الغرب لا يعبر عن حالة رقي حضاري بقدر ما يعبر عن حالة ضياع وتفلت أخلاقي. إن الحداثة لم تقدم للمجتمع الغربي حلولاً سحرية بل أردته في مهاوي التيه والضلالة. لقد ظن هؤلاء أن الإنسان بفهمه القاصر يمكن أن يقدم للبشرية علاجاً لمعاناته في حين أن الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على تقديم العلاج لما تعاني منه الأمة، وما زال الإسلام صالحاً لمعالجة مشاكل البشرية التي لن يستطيع أحد من بني البشر علاجها، والدليل هو حالة التخبط التي مر بها المجتمع الأوروبي في القرنين الماضيين فأنتج العديد من المذاهب الفكرية التي كانت تتهاوى الواحدة تلو الأخرى، أما التصور الأنجح للمواجهة فإنه يتم من خلال النقاط التالية:

١ ـ نشر العقيدة الإسلامية الصحيحة بين أبناء الأمة من خلال المساجد والمدارس ووسائل الإعلام وكل وسيلة متاحة حتى الفن كالرسم

والمسرح والتلفزيون والإذاعة والسينما. فلا يوجد في هذا المجال مقاطعة بيننا وبين هذه الوسائل إن استخدمناها ضمن الأصول الشرعية وهذا ما يوفر لنا وقاية داخلية من خطر الانحراف الفكري والعقائدي، واعتماداً على نفس الوسائل التي يستخدمها الحداثيون.

٢ ـ إعادة الاعتبار لعملية الدعوة إلى الله عز وجل بكل وسائل الدعوة المتاحة ولنبدأ بالدائرة الأقرب فالأقرب في هذه العملية، وأهم دائرة لا بد من العناية بها هي الدائرة الألصق عنيت بها العائلة التي نحن مسؤولون عنها كما أمر الله سبحانه وتعالى بقوله في كتابه الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[١].

٣ ـ إستعمال الحكمة في عملية الدعوة التي تقتضي وضع الأمور في نصابها، ومخاطبة الناس على حسب عقولها، وعدم الدعوة بأسلوب جاف وقاسٍ، والتدرج في عملية الدعوة، وكل ما تفرضه الحكمة في هذا المجال لا بد من مراعاته كما أمرنا الله عز وجل في كتابه الكريم بقوله:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[٢].

٤ ـ إعادة الأمر لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي بها قوام المجتمع وضمان عدم انحرافه، وسبب الفساد الذي عانت وتعاني منه أمتنا اليوم كائن في تركها لهذه الفريضة، وهذا ما حذر منه الإمام الرضا عليه السلام بقوله:

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

«لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»(١).

إن هذا التحذير يستند إلى قاعدة جوهرية مفادها أن الله سبحانه وتعالى حصن الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتركه يؤدي لتركها عرضة للأمراض والأوبئة النفسية والفكرية كما يحصل عندما يترك الناس تلقيح أولادهم ضد الأمراض، فإن ذلك يؤدي بهم للوقوع فريسة الأمراض والأوبئة.

٥ ـ تمتين الإيمان بالله عز وجل من خلال العلم كي يكون إيماننا منطلقاً من بصيرة، وهذا ما دعانا إليه الله عز وجل بقوله في كتابه الكريم:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٢).

إن الإيمان الواعي هو السبيل الوحيد لمواجهة أية موجة انحراف وافدة وبالأخص موجات الحداثة التي وردت إلينا أخيراً في القرنين الماضيين.

٦ ـ التركيز على جيل الشباب كونه مجال التسرب الأكبر للأفكار الخبيثة والهدامة من خلال بناء الشخصية الإسلامية الفاعلة والمؤثرة لا الهامشية والمتأثرة.

٧ ـ التركيز على بناء الروح وذلك من خلال صوغ شخصية إيمانية تتمسك بأهداب الفضيلة والأخلاق الإسلامية، هكذا شخصية تكون قادرة على المواجهة أكثر من الشخصية المتهتكة أو حتى الشخصية المسلمة

---

(١) وسائل الشيعة، الجزء ١١، الصفحة ٣٩٤.
(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

الجافة التي لا تركز على بناء الروح، ويكون ذلك من خلال التركيز على أهمية الدعاء وقراءة القرآن والصوم المندوب وحلقات الذكر.

٨ ـ تكليف علماء واعين يتفرغون لدراسة الأفكار الهدامة لهؤلاء ووضع الأجوبة عليها كي يستطيع الشباب اللجوء إليها في معرض مواجهة الإشكالات التي قد تعرض لهم في جامعاتهم ومدارسهم، إن الفهم الصحيح المنطلق من دراسات علمية هو السبيل الوحيد للمواجهة، ولكن ليس كلنا سيتوجه هذا التوجه بل على فئة منا القيام بذلك على نحو الاختصاص، ثم يقوموا بعد انتهائهم بعرض ما توصلوا إليه على الجميع على قاعدة النفر للعلم التي أمرنا بها الله عز وجل في كتابه الكريم بقوله:

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(١).

لذلك يجب من الناحية الشرعية وجوباً كفائياً على كل مسلم أن يتفرغ لطلب العلم في كل مجال يبتلى به المؤمنون ومجتمعهم، وبما أن مفاهيم الحداثة من الأمور التي تؤثر في مجتمعنا وتضر به لو تركناها، فإننا ملزمون بتعلم كل ما يساهم في الدفاع عن الإسلام في وجه هذا الخطر المحدق، وترك الجميع موجب لأن يعاقبوا جميعاً وقيام من يُكتفى به بذلك يُسقط الواجب عن الآخرين.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

البحث الثالث

بينَ الحضاراتِ حوارٌ أم صراع؟

٣ ـ بين الحضارات حوار أم صراع؟

١ ـ مقدمة

ليست فكرة العلاقة بين الحضارات بالفكرة الجديدة، بل ومنذ بداية تشكل الحضارة طُرحت فكرة التعامل مع المجتمع الإنساني وكانت المشكلة الأولى الصراع بين الحضارة والبداوة، ثم ما لبثت أن تشكلت حضارات مختلفة في مناطق متقاربة أو متباعدة، ونتيجة للصراع السياسي بين قادة الحضارات المختلفة تشكل خلاف من نوع جديد بين نفس هذه الحضارات. ونحن عندما نتكلم عن الصراع لا نقصد فيه الصراع الفكري فقط ولكن الصراع العسكري الناتج عن الخلافات في المصالح السياسية أكثر مما هو خلاف فكري وعقائدي.

وتعتبر لفظة (حضارة) مثيرة للجدل وقابلة للتأويل، واستخدامها يستحضر قيماً (سلبية أو ايجابية) كالتفوق والإنسانية والرفعة، وفي الواقع رأى ويرى العديد من أفراد الحضارات المختلفة أنفسهم على أنهم متفوقون ومتميزون عن أفراد الحضارات الأخرى، ويعتبرون أفراد الحضارات الأخرى همجيين ودونيين. وهذا ما يسبب في أكثر الأحيان ما اصطلح على تسميته بصراع الحضارات.

إن العنوان الأساسي لكثير من الخلافات السياسية الحاصلة في القرنين

الماضيين هو إدعاء كل طرف وخاصة الطرف الأقوى مادياً أنه يسعى لسيادة الحضارة على التخلف والرجعية، في حين أن الحضارة بمعناها الحقيقي قد تكون عند الطرف الأضعف وليس عند القوي المتجبر والمتسلط.

ومن ناحية أخرى، فإن الحضارة هي تجربة إنسانية يظهر فيها إبداع المجتمع في مجال الوصول إلى الحقيقة والإجابة عن كل التساؤلات التي تشغل بال الإنسان، ما يوصله إلى راحة البال والاطمئنان وتجعل المجتمع الذي يعيش فيه مجتمعاً مستقراً وهادئاً يمكن أن يقدم للبشرية إنجازات في المجال العلمي والتقني، فالحضارة تؤدي إلى ذلك وليست نتيجة عنه كما سيظهر معنا في طيات البحث.

والإسلام دعانا للنظر في تجارب الأمم السابقة والتعلم منها والاستفادة من الإيجابي لتطويره وترك السلبي منها، فقال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾(١).

إن التدبر في مسيرة البشرية والأمم السابقة يؤدي بنا إلى معرفة كيفية التصرف مع مجتمعنا على قاعدة أن ما أخطأوا به هم يجب أن لا نقع فيه نحن، ذلك أن التجربة البشرية السابقة أوقعتها أخطاؤها بويلات ومصائب حذرنا الله سبحانه وتعالى من الوقوع فيها عبر عرض تجاربهم أو الدعوة لدراسة هذه التجارب والمصير الذي آلت إليه هذه الأمم، وعلى سبيل المثال يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤٢.

مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾(١).

إن الله عز وجل يدعونا للتفكر في حال قرية توفرت لها كل سبل العيش الكريم والرزق الرغيد فإذا بها تبطر ولا تشكر الله على نعمته، بل كفرت بهذه النعمة ولعلها اعتبرت أنها نفسها كانت سبباً لحصولها على هذه النعمة، وأن لا دور لله في ذلك فأراد الله من خلال السنن التي أودعها في الكون أنه كلما نزلت النعمة ولم يقم الإنسان بشكر مانحها والذي هو الله فإن المصير سيكون ذهابها وترك الناس في هذا المجتمع الجاحد لمصيرهم الذي نالوه بشر أعمالهم، فإن كان لهم الفضل في كل ما حصلوا عليه فإنه يتركهم يواجهون الواقع لوحدهم من دون تدخل منه.

ومما حذرنا الله سبحانه وتعالى أيضاً الظلم باعتباره أكثر ما يغضب له منا فدعانا للاستفادة من تجارب الأمم التي مارست الظلم ومصير حضارتها نتيجة لذلك، فقال سبحانه وتعالى:

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾(٢).

لقد كانت نتيجة الظلم أن بادت هذه الحضارة وأصبحت البلاد خاوية على عروشها، وانتهت من بعد الرقي والتطور إلى الاضمحلال والاندثار، فعليكم أنتم أيها المؤمنون الانتباه إلى ذلك وعدم الوقوع فيه.

وفي مجال آخر دعانا الله سبحانه وتعالى للاستفادة من تجارب الحضارات السابقة عبر عدم الوقوع في كفران النعم عبر البطر والتبذير

---

(١) سورة النحل، الآية: ١١٢.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤٥.

وعدم إعطاء كل من له حق بهذه النعم من الفقراء والمساكين فكانت النتيجة كما قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾(١).

لقد كانت النتيجة كما في الآية الكريمة أن بادت هذه الحضارة بعد فترة قصيرة، إذ إن مساكنهم لم تسكن بعد فعلتهم هذه إلا قليلاً وعادت كل إمكاناتهم لله عز وجل، فهو خير الوارثين وعلى المؤمنين الاستفادة من هذه التجربة فلا يقعوا في مثلها.

إن ما نحاول أن نبرزه من خلال هذا البحث هو إجابة عن أسئلة استراتيجية وهي على الشكل التالي:

١ ـ هل يمكن أن تكون الحضارة حضارة بالمعنى الحقيقي للكلمة إن خاضت صراعاً عسكرياً دامياً أم هي عودة للبداوة؟

٢ ـ هل الأصل في الحضارات هو الحوار أم الصراع؟

٣ ـ ما هو المفهوم الحقيقي للحضارة وكيف يمكن أن نصف مجموعة بشرية بأنها مجموعة حضارية أو حتى مجموعة من الأفكار بأنها أفكار حضارية؟

٤ ـ هل أن الحضارة تعرف من خلال التقدم التكنولوجي ومظاهر القوة أو أنها في مجموعة القيم الأخلاقية؟ أم هي الاثنان معاً؟

٥ ـ ما هي العلاقة بين الدين والحضارة؟ وهل يمكن أن نصف مجتمع غير متدين أو يعبد الأصنام بأنه مجتمع حضاري إن توفر له مقومات تطور علمي أو تقني؟

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٨.

هذا ما سنجيب عنه في طيات البحث التالي بإذن الله سبحانه وتعالى.

٢ ـ تعريف الحضارة

الحضارة لغة كما في لسان العرب:

«والحضر خلاف البدو والحاضر خلاف البادي وفي الحديث الشريف: «لا بيع حاضر لباد، الحاضر المقيم في المدن والقرى والبادي المقيم في البادية.... والحضارة الإقامة في الحضر... والحضر والحضرة والحاضرة: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار..»[١].

وذهب البعض إلى تفسيرها لغة على أنها:

«مرحلة من مراحل التطور الفعلي والإنساني والاجتماعي ورقيها».

يظهر من خلال المعنى اللغوي المتقدم أن كلمة الحضارة مشتقة من الحضر في مقابل البداوة، وأن الحضارة هي نفس الإقامة في الحضر، وعليه يكون تعريف الحضارة هي الإقامة في الحضر في حين أن البداوة هي الإقامة في البادية.

أما اصطلاحاً فذهب البعض لاعتبارها:

«ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة، أي: ثمرة الجهود المبذولة من قبل الفكر الإنساني للاستفادة من الأجهزة الكونية المتناثرة حولنا»[٢].

---

(١) لسان العرب، الجزء ٤، الصفحة ١٩٧.

(٢) منهج الحضارة الإسلامية في القرآن، الصفحة ١٩.

وذهب أبو الأعلى المودودي إلى أن الحضارة هي:

«مجموعة المبادئ والأفكار والأصول والتربية التي تثمر لوناً من ألوان الحياة الاجتماعية بمقوماتها المختلفة»(١).

وتستخدم اللفظة في الدلالة على المجتمع المعقد الذي يعيش أكثر أفراده في المدن ويمارسون الزراعة، على خلاف المجتمعات البدوية ذات البنية القبلية التي تتنقل بطبيعتها وتعتاش بأساليب لا تربطها ببقعة جغرافية محددة ، كالصيد مثلاً، ويعتبر المجتمع الصناعي الحديث شكلاً من أشكال الحضارة. ويذهب البعض إلى اعتبار الحضارة أسلوباً معيشياً يعتاد عليه الفرد من تفاصيل صغيرة إلى تفاصيل أكبر يعيشها في مجتمعه، ولا يقصد من هذا استخدامه أحدث وسائل المعيشة بل تعامله هو كإنسان مع الأشياء المادية والمعنوية التي تدور حوله وشعوره الإنساني تجاهها. ومن الممكن تعريف الحضارة على أنها الفنون والتقاليد والميراث الثقافي والتاريخي ومقدار التقدم العلمي والتقني الذي تمتع به شعب معين في حقبة من التاريخ. إن الحضارة بمفهوم شامل تعني كل ما يميز أمة عن أمة من حيث العادات والتقاليد وأسلوب المعيشة والملابس والتمسك بالقيم الدينية والأخلاقية ومقدرة الإنسان في كل حضارة على الإبداع في الفنون والآداب والعلوم.

والحضارة عند الغربيين هي التقدم العلمي والتقني، والرقي الذي وصلت إليه المجتمعات، والاختراعات، وطريقة التفكير وتنظيم المجتمع، والاستفادة من الموارد الطبيعية للوصول إلى مستويات أفضل للحياة. ومن ناحية أخرى اعتبروا أن الحضارة هي حصيلة ما توصلت إليه الأمم السابقة والبناء عليها للتقدم نحو الأفضل.

---

(١) المسلم بين الأصالة والحداثة (محاضرة).

وقد وجدت في كتابات المفكرين الغربيين أو العرب الكثير من الاختلاف حول تعريف الحضارة ما يوقعك في الحيرة لتعيين ضابطة لتعريف يمكن أن يُقال عنه إنه التعريف الجامع المانع، وللتأكيد على هذا المعنى أنقل لكم هذه التعريفات مع تصرف بسيط يحافظ على الجوهر المقصود من المفكر وهي على الشكل التالي: خرج (أرنولد توينبي) الذي تكلم عن نشوء الحضارة بنظرية أن الحضارة تقوم على أساس التحدي والاستجابة، وأن الحضارة تنمو إذا استجابت للتحديات الصادرة من وسط بشري أو بيئي أو كلاهما، واعتبر أن الحضارة الأوروبية عاجزة الآن عن مواجهة التحديات التي تعترض سبيلها لأنها بالغت في تمجيد العقل. فكان تعريف الحضارة عنده بأنها استجابات لتحدي صادر نتيجة أعمال إنسانية كالحروب والاضطرابات أو أعمال بيئية كالجفاف والطوفان وشح الموارد.

في حين أن (فيكو) وضع نظرية (الدورات التاريخية) في كتابه (العلم الجديد ومبادئ فلسفة التاريخ) والذي تحدث فيه عن أن الحضارة ما هي إلا عملية دورات تنتج في نهايتها الحضارة. وهذه الدورات تبدأ بمرحلة عصر الآلهة ثم الدور البطولي وفي النهاية الدور الإنساني وهو دور الحضارة الحقيقية. وبعد مرور تلك الدورات تُصاب الحضارة بالانتكاس وتعود مرحلة أخرى للأدوار وهكذا. فكانت الحضارة في رأيه عبارة عن دورات تاريخية.

بينما عرف (داوسن) الحضارة بأنها عملية أصيلة خاصة من الإبداع الثقافي والتي هي من صنع شعب ما.

أما الحضارة عند «غوستاف لوبون» فهي:

«إن الحضارة تشمل العقائد كما تشمل المنجزات العلمية والمادية»[1].

---

(١) حضارة العرب.

أما العلامة العربي ابن خلدون فقد قال في كتابه (المقدمة) ما ملخصه:

«الحضارة نمط الحياة المستقرة، يُنشىء القرى والأمصار، ويُضفي على حياة أصحابه فنوناً منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة والحكم وترتيب وسائل الراحة وأسباب الرفاهية»[١].

بينما ذهب (شبنغلر) صاحب (مورفولوجيا الحضارة) إلى أن الحضارة مثل أي كائن حي يولد وينمو ويموت. وأن الحضارة تمر كما يمر ذلك الكائن العضوي من ولادة ومن ثم مرحلة الشباب وفي النهاية مرحلة الشيخوخة، وهكذا تمر الحضارة من شتاء وصيف وربيع ومن ثم خريف. وأن لكل دور من تلك الأدوار خصائصه ومميزاته.

أما هنتنغتون فقد قال في كتابه (صدام الحضارات) ما معناه:

«إن الحضارة هي الكيان الثقافي الأوسع، القرى والمناطق والجماعات العرقية والقوميات والجماعات الدينية»[٢].

أما مفهوم الحضارة عند المفكر الإسلامي صاحب النظرة المعرفية مالك بن نبي فهي:

«توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه»[٣].

ومن هنا نعرف أن مفهوم الحضارة عند ابن نبي مرتبط ارتباطاً وثيقاً

---

(١) مقدمة ابن خلدون، الصفحة ٢٢.

(٢) انسلاخ التاريخ ومواجهة الحضارات ـ محمد عودة سبتي ـ مقالة.

(٣) آفاق جزائرية، الصفحة ٣٨.

بفاعلية المجتمع في مواكبة حاجات أبنائه، وبمعنى آخر فإن فاعلية أية حضارة وعدمها مرتبطة بالديناميكية التي تتمتع بها هذه الحضارة في وضع الحلول لمشاكل ومتطلبات أبنائها.

وفي نفس الوقت يعتبر ابن نبي أن الحضارة كما غيرها من الظواهر الإنسانية مرتبطة بقوانين اجتماعية وتاريخية ثابتة لا بد من معرفتها حتى نبني حضارة عظيمة، تماماً كما لو أردت التوصل لتركيب أي منتج كيماوي فإنك يجب أن تعرف العناصر التي يتكون منها حتى تستطيع تصنيعه وإنتاج آخر مثله، أما الجاهل بالعناصر الأولية فهو لن يستطيع مهما حاول الوصول إلى تركيب هذا المنتج. لقد توصل ابن نبي إلى أن العناصر الأساسية التي تتكون منها أية حضارة هي ثلاثة: الإنسان، التراب، والزمن.

وبرأيي فإن التعريف الأفضل للحضارة هو:

«الحضارة هي محاولات الإنسان الاستكشافية والاختراع والتفكر والتنظيم والعمل على استغلال الطبيعة، للوصول إلى مستوى حياة أفضل، وهي حصيلة جهود الأمم كلها».

هذا هو تعريف الحضارة بشكل عام، أما تعريف الحضارة الإسلامية فهو:

«مجموع الأفكار والمفاهيم الإسلامية التي أنزلها الله على النبي محمد ﷺ عن الإنسان والحياة والكون».

وعليه، يمكن إطلاق الحضارة من داخل المجتمع عبر جهود أبنائها، في حين يمكن أيضاً أن ينطلقوا مما توصلت إليه حضارات أخرى فيبنى عليها وتطور نحو الأفضل. وعليه، يمكن التوصل إلى ذلك من خلال التواصل معها إما عن طريق الهجرة للتعلم أو للعمل أو من خلال التجارة أو السياحة.

ويمكن لنا في هذا المجال أن نقول: إنه لا يوجد طريقة محددة لانطلاق الحضارات وتأسسها بل يمكن أن يكون ذلك من خلال أية وسيلة ممكنة.

٣ ـ بين الحضارة والمدنية

وقع خلاف كبير بين الفلاسفة والمتكلمين حول مصطلح الحضارة والمدنية بحيث خلط البعض بينهما واعتبرهما تعبيراً عن معنى واحد، وذهب آخرون إلى اعتبارهما مصطلحين لمعنيين مختلفين تماماً، وبالنظر إلى التعريفات السابقة نجد أن بعض المفكرين ذهب لتعريف الحضارة على أساس أنها تماماً كأي كائن حي يموت ويمرض يضعف ويقوى، يمر بفترة شباب ويصل إلى فترة شيخوخة، وكذلك أرجع البعض الآخر كل حضارة إلى شعب خاص، في حين ذهب آخرون إلى أنها التمدن والاستقرار وبالتالي اختلط عليهم التفريق في معنى الحضارة ومعنى المدنية.

وهذا الخلط إن دل على شيء فإنه يدل على الخلط بين مفهومي المدنية والحضارة وعدم الوصول كما قلنا سابقاً إلى التعريف الجامع المانع للحضارة والناتج عن عدم التدقيق في واقع الشعوب والأمم، فهم لم ينطلقوا من نظرة متمعنة عميقة بل من نظرة سطحية.

وهذه المشكلة ناتجة عن فكرة أساسية وهي أن هؤلاء المفكرين حاولوا نسبة الحضارة إلى شعوب، في حين أن الصحيح هو أن الحضارات لا تنسب إلى شعوب بل إلى أمم، فالأمة التي يمكن أن ينتمي إليها العديد من الشعوب التي قد تصل إلى المئات هي التي تُكَوِّن الحضارة وليس الشعب الفلاني منها، فالأمة الإسلامية مثلاً يوجد بين أكنافها مئات الشعوب، فليس الشعب المصري، أو الليبي، أو السوري وغيرهم من المسلمين هم كلٌ على حدا يكونون الأمة الإسلامية، بل هم بجميعهم يكونونها فلا تنسب إليهم بل هم ينسبون إليها.

ومن الخطأ أن نقول الحضارة المصرية مثلاً؛ لأن الحضارة تنسب إلى مفاهيم وأفكار خاصة ولا تنسب كما قلنا إلى شعوب، فيمكن لك أن تقول الحضارة الإسلامية المبنية على الفكر الإسلامي كدين من الله يدعو للتوحيد والإيمان بالله والغيب والرسول والقرآن، في حين أن الحضارة الاشتراكية مثلاً هي حضارة قائمة على مفاهيم الإلحاد والإنكار وتطور المادة والاشتراك في الثروة وغيرها من المفاهيم الخاصة بالحضارة الاشتراكية. أما الحضارة الرأسمالية فمبتنية على الحرية الفردية والاقتصاد الحر سواء أكان موجهاً أم لا.

وهكذا كل حضارة أخرى فإنها تنطلق من المفاهيم التي تستند إليها بغض النظر عن صحتها وعدم صحتها.

والحضارة تختلف بالمعنى عن المدنية، وما ذهب إليه مؤلف كتاب (قصة الحضارة) وول ديوارنت من الخلط بين الحضارة والمدنية غير صحيح، وما نشهده في أيامنا هذه من وحشية المقيمين في حضارات كبيرة خير دليل على الفرق بين الحضارة والمدنية.

وهنا يطرح السؤال التالي: أليس كل هذا التقدم العلمي الذي نشهده في المجتمعات الغربية وخاصة المجتمع الرأسمالي دليل على الحضارة والتقدم؟ وإلا ماذا تقول عن الصواريخ التي أوصلتهم للسير على سطح القمر، والأقمار الاصطناعية، والتقدم المحرز في عالم الاتصالات كالإنترنت والهاتف الخلوي والطائرات التي تفوق سرعتها سرعة الصوت، وحاملات الطائرات، وتوليد الطاقة من الذرة، والبوارج والقطارات وناطحات السحاب والغواصات والجسور والأنفاق أليست كلها من الحضارة؟. أليست تلك الإنجازات تدل على تفوق الحضارة الغربية الرأسمالية على الحضارات الأخرى الموجودة في العالم؟.

والجواب هو أن تلك الاختراعات ليست من الحضارة، لأن الحضارة هي مجموعة المفاهيم التي لها وجهة نظر للحياة المنبثقة من المبدأ كما بينا آنفا. وتلك الأشياء لا تنسب للحضارة وإنما تنسب للمدنية. والمدنية هي الأشياء المادية المحسوسة التي تصبح ملكاً للبشرية يجوز لها الاستفادة منها والانتفاع بها، لأن كل هذه الأشياء تعتبر من المدنية العامة المباحة للجميع ومن ضمنهم نحن كأمة إسلامية، وهناك من المخترعات المدنية ما لا يجوز لنا الاستفادة منها لأن لنا رأياً خاصاً بها انطلاقاً من أحكامنا الشرعية وهي ما تسمى بالمدنية الخاصة، فمثلاً التقدم المحرز في مجال إنتاج الخمر أو المخدرات أو أي شيء متعلق بأمر محرم علينا، فهذه لا يجوز لنا الانتفاع منها لأنها تتعلق بأمر محرم علينا.

فالمدنية عندنا قسمان مدنية عامة لا شيء فيها مثل تعلم صناعة الصواريخ النووية أو الجسور أو الطائرات النفاثة أو غير ذلك، ومدنية خاصة متعلقة بوجهة النظر، وهذه لا ننتفع بها.

أما عن قولكم أليس ذلك دليل على تقدم هذه الحضارات على غيرها؟ فإن الجواب هو أن التقدم بالمدنية ليس دليلاً على التقدم بالحضارة فصحيح أن الغرب متقدم على الأمم الأخرى بشكل كبير يفوق الوصف في مجال التكنولوجيا، ولكن في نفس الوقت نجد أن حضارته تعاني من انحطاط وتخبط وتردي وانهيار؛ لأن حضارته لم تعطِ للعقل قناعة وللقلب طمأنينة وسكينة. في حين أننا نرى أن الإسلام وعلى الرغم من التخلف المادي والتقني إلا أنك ترى حضارة تذخر بالقيم والمفاهيم الإنسانية ويعيش فيها الفرد طمأنينة وقناعة وراحة بال وضمير؛ ذلك أنها حضارة ربانية من رب العالمين.

من هنا، يتبين لنا الفرق بين المدنية والحضارة وأنه ليس من الضروري أن تكون المدنية متطورة حتى تكون الحضارة كذلك، والعكس صحيح.

٤ ـ مظاهر الحضارة بشكل عام

تُعرف الحضارة من خلال تجلياتها في مختلف شؤون الحياة، فليست الحضارة مقتصرة على مجال دون آخر، بل لا بد من شمولها لمختلف شؤون الحياة، وبالتالي فإن الحضارة ملكة في المجتمع تظهر في كل جوانبه. وهي تتجلى من خلال مظاهر مختلفة على الشكل التالي:

١ ـ المظهر السياسي: ويتجلى من خلال هيكل الحكم، ونوع الحكومة، هل هي ملكية أم جمهورية، ديكتاتورية أم ديمقراطية، دينية أم علمانية، دستورية أم مطلقة؟

٢ ـ المظهر الاقتصادي: ويتجلى من خلال نوع النظام الاقتصادي الذي يسير عليه المجتمع، ومن أين وكيف هي موارد الثروة ووسائل الإنتاج الزراعي والصناعي، وتبادل المنتجات؟

٣ ـ المظهر الاجتماعي: ويتجلى من خلال كيفية تكون المجتمع ونظمه، وحياة الأسرة، والمرأة، وطبقات المجتمع، واتساع الهوة بين هذه الطبقات.

٤ ـ المظهر الفكري: ويظهر من خلال نوع النتاج الفكري الذي قدمه مفكرو هذا المجتمع من فلسفة وعلم وأدب.

٥ ـ المظهر الديني: ويظهر من خلال المعتقدات الدينية، ومدى تمسك أبناء المجتمع بها أو الابتعاد عنها، والعبادات التي يمارسونها هل هي ناتجة عن تقليد أم عن قناعة فكرية إيمانية؟ وعلاقة الإنسان بربه ونظرية الكون والحياة.

٥ ـ المظهر الفني: ويتجلى من خلال الفن المعماري والنحت

والرسم والموسيقى. بل إننا تعرفنا على كثير من الحضارات من خلال ما تركه أبناؤها من آثار كما الأهرامات التي دلتنا على الحضارة الفرعونية، أو قلعة بعلبك التي دلتنا على الحضارة الرومانية، وغيرها من الآثار التي ما زالت شاهدة على حضارات الأمم السالفة كما ستكون آثارنا شاهدة علينا لدى الأمم اللاحقة.

تواصل الحضارات وتفاعلها:

بالرجوع إلى التاريخ شهدنا تلاقح الحضارات فيما بينها وانتقالها من أمة إلى أمة ومن شعب إلى شعب، وكيف أن أمة كانت وثنية فصارت بعد مدة أمة متدينة، وكيف أن طريقة من البناء كانت معتمدة لدى شعب من الشعوب أصبحت معتمدة لدى الشعب الآخر، وكان ذلك يتم من خلال الاتصال بين الحضارات، وبالتالي انتقالها من خلال عدة طرق: كالغزو، أو الفتح، أو الحكم الأجنبي، أو الهجرة والسياحة والتجارة والجوار.

وحيث أنه تبين لنا مما سبق بأن الحضارة هي محاولات الإنسان الاستكشافية من خلال الاختراع والتفكير والتنظيم والعمل على الاستفادة من الموارد الطبيعية، للوصول إلى مستوى حياة أفضل، وهي حصيلة جهود الأمم كلها. فلا بد من الاستفادة من تجارب الأمم السابقة عبر التواصل معها، هذا من جهة التواصل الفكري، أما التواصل من خلال الغزو العسكري ففي هذه الحالة فإن الذي يحصل هو أن قيام حضارة جديدة في مكان بنتيجة الحرب يعني زوال حضارة أخرى من مكان آخر. وصدق من قال:

«إن الحضارة بساط تنسجه أيدي أمم كثيرة».

وقد حدد العلامة ابن خلدون أسباب أفول حضارة ما، وبالتالي قيام أخرى في مكان أخر، إلي عوامل منها:

١ ـ عوامل مادية: كاتساع رقعة الملك، وعدم خضوع الأطراف النائية للسلطة المركزية.

٢ ـ عوامل اقتصادية: ويعنى بها حالة الترف والدعة بعد فترة الاستقرار.

٣ ـ عوامل اجتماعية: فالمجتمع خاضع للتطور المحتوم، وللدول أعمار كأعمار الأفراد.

مراحل بناء الحضارة:

وتمر الحضارة في عملية بنائها في خمسة أطوار هي على الشكل التالي:

الطور الأول: هو الفتح والاستيلاء واكتساب المجد.

الطور الثاني: هو استبداد صاحب الدولة على قومه، وكبح جماحهم عن التطاول.

الطور الثالث: وهو الفراغ والدعة، فيميل صاحب الدولة إلى تحصيل المال، وتخليد ذكراه بالآثار مع تمجيد شخصه.

الطور الرابع: طور القنوع والمسالمة، يقنع الحاكم بما بناه أسلافه، ويسالم غيره من الحكام وأصحاب السلطات.

الطور الخامس: هو الإسراف والتبذير، حيث يصبح صاحب الدولة وبطانته أسير الملذات والشهوات. فتصبح الدولة في حالة هرم، وتسير بخطوات سريعة إلى الأفول.

والحضارة مع ذلك في نمو مستمر، فهي متواصلة العطاء، وقيمة أية أمة في ميزان بناء الحضارة يساوي ما قدمته مطروحاً منه ما أخذته تطبيقاً للقاعدة:

قيمة كل أمة في ميزان بناء الحضارة = ما أعطت وقدمت ـ ما أخذت واقتبست.

وبدراسة متأنية لهذه القاعدة نرى أنه كلما كان ما تقدمه الأمة أكثر مما أخذت واقتبست كانت أمة فاعلة ومؤثرة إيجاباً، في حين أنه لو كان الأمر معكوساً بأن كان ما أخذته الأمة أكثر مما قدمته فإن النتيجة ستكون أن هذه الأمة سلبية لم تقدم فائدة للبشرية وتسهم في تطورها.

الكتابة وأثرها في الحضارة:

تعتبر الكتابة من أهم مصادر الحضارة وهي في نفس الوقت أهم وسيلة لتدوين حضارة الإنسان، لقد أصبحت اللغة المكتوبة وسيلة الحضارة والعلم والتربية لأنها تعطي المعرفة البشرية صفة الدوام. إن الوثائق المكتوبة بالإضافة للآثار المادية والمخلفات المادية تعتبر مصادر للحضارة. ويزداد شأن الآثار المادية كلما أوغلنا رجوعاً إلى الزمن، فمعظم الحضارات السالفة سجلت على آثارها ما تريد قوله بكتابات شتى. وعندما فك شامبيروف رموز الكتابة الهيروغليفية قدم للتاريخ معلومات إضافية عن ثلاثة آلاف سنه، فالكتابة تروي لنا التاريخ السياسي والاجتماعي والفكري والاقتصادي. والحضارة في نمو مستمر، إنها متواصلة العطاء، وكما قلنا سابقاً فإن قيمة أية أمة في ميزان الحضارة يساوي ما قدمته مطروحاً منه ما أخذته.

الحضارة إبداع وتميز وليست تقليداً وتبعية:

المشكلة التي يعاني منها جيل اليوم أنه ينظر إلى الحضارات الغربية نظرة انبهار ويضيع كما قلنا سابقاً في التمييز بين المدنية وتقدمها وبين الحضارة وأفولها في المجتمع الغربي، فيظن أن هذا التطور العلمي الذي هو دليل مدنية أنه دليل على حضارة متفوقة، وعليه فإنه يتجه نحو التقليد والتبعية على قاعدة أنه لن يستطيع أن يصل وهو في قعر التخلف إلى مصاف هذه الدولة العظيمة بما وصلت إليه من رقي، إلا من خلال التقليد الأعمى والتبعية غير الواعية لهذه الدول، وأنه كما وصلت هي فإنه سيصل ولو بعد

زمن، غير أنه لا يدرك ولا يفهم الضرورات التاريخية التي يستنتجها الدارس للتاريخ من أن أية أمة لم تصل إلى ما وصلت إليه من خلال التقليد والتبعية، إنما وصلت إلى ذلك من خلال الاعتماد على النفس والإبداع في كل مجالات الحياة. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الحاجة إلى الوسائل التقنية التي تنتجها المجتمعات الغربية أمر لا بد منه بل هو ضروري في عملية التطور والتقدم، إذ إن الأمم لم تنطلق عندما بنت حضاراتها من الصفر، بل إنها أخذت عمن سبقها ما وصلت إليه وأسست عليه لتطويره وتركيز الإيجابي منه ومعالجة السلبي. لقد استفاد المجتمع الأوروبي من العلوم التي طورها العرب في الطب والهندسة والفلك وغيرها، وتابعوا تطويرها حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه، ونحن يجب أن نستفيد مما طوروه ونبني عليه لإعادة إنتاج حضارتنا ومدنيتنا على أساس الإسلام وأحكامه. لا بد من التفكير في إنتاج وسائل علمية مستقلة تتناسب مع البيئة والأحكام الإسلامية التي نؤمن بها، ولا يغني عن ذلك استيرادها من الغرب؛ لأنها تصبح كمن يشتري دواء لمرض يتشابه بالعوارض مع مرض آخر ويتناسب مع جسم وبيئة مختلفة، فلن يجدي هذا الدواء نفعاً، بل ربما سيزيد من المرض الذي نعاني منه. انطلاقاً مما تقدم، فإنك لن تستطيع استيراد حضارة ما من بلد منشئها إلى بلد آخر؛ لأن الحضارة كما قلنا إبداع وليست تقليداً وتبعية، أو سلعة يمكن نقلها من مكان إلى آخر.

٥ ـ المعالم الأساسية للحضارة الإسلامية

قبل الحديث عن العلاقة التي تربط الحضارات بعضها ببعض هل هي علاقة حوار أم علاقة صراع، لا بد من تحديد معالم كلٍ من الحضارتين الأساسيتين اللتين يُتحدث اليوم عن صراعهما، وهما الحضارة الإسلامية

والحضارة المادية، ثم بعد ذلك نجد ما هي طبيعة العلاقة التي تحكمهما. إن أهم ما يميز حضارتنا الإسلامية أن نشوءها سببه الوحي الرباني، مما جعلها حضارة خالدة خلود المبادئ والتعاليم التي تحملها وتدعو إليها، في حين أن الحضارات الأخرى التي أنتجها الإنسان بقيت غير قادرة على مواكبة التطورات، بل هي نسخة عنه تهرم وتشيخ ثم تموت بعد أن كانت فتية شابة لترثها حضارة ثانية مصيرها الموت إن كانت من نتاج الإنسان كما سالفتها. ونبدأ بطرح المعالم الأساسية للحضارة الإسلامية وهي على الشكل التالي:

١ ـ الحضارة الإسلامية حضارة إيمانية:

يدعو الدين الإسلامي للإيمان بالله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له والإيمان بالغيب، قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾(١).

هذا الإيمان يجب أن ينعكس على سلوك المؤمنين فيقومون بترجمته من خلال أخلاقيات في التعامل وردت ضمن التشريعات التي نزلت على النبي محمد ﷺ. وكذلك القيام بأداء الواجبات الشرعية كالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، والخمس، والالتزام بالأحكام الشرعية في المأكل والملبس والمشرب، وبنفس الوقت يؤمن المسلم بعالم الغيب كالملائكة والجنة والنار وكل غيب ورد في القرآن الكريم.

٢ ـ الحضارة الإسلامية حضارة إنسانية:

يعطي الدين الإسلامي قيمة للإنسان فيرفع من شأنه ولا يسمح له حتى بإهانة نفسه، ويخرجه من إطار الحيوانية في العلاقات إلى الإنسانية في التعامل، يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢٢.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(١).

ولقد فرض الله سبحانه وتعالى على المؤمن أن يقوم بأداء تكليف إلهي؛ فيشعر مع الفقير فلا يتركه عُرضة لغدر الزمن ولا يسمح له بتركه وحده يواجه مصيره، بل فرض الإسلام تشريعات تؤدي إلى التكامل الاجتماعي.

٣ ـ الحضارة الإسلامية حضارة عالمية:

إن الدين الإسلامي نزل على نبينا محمد ﷺ لا ليكون ديناً لقريش فقط بل ولا لأهل الجزيرة العربية أو حتى لكل العرب، بل ليكون ديناً عالمياً، بل أكثر من ذلك فهو ليس ديناً لعالم الإنس فقط بل هو كذلك لعالمي الإنس والجن، فقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(٢).

٤ ـ الحضارة الإسلامية يحكمها القانون:

لا يقتصر الدين الإسلامي على الإيمان بالله عز وجل ورسوله ومنظومة القيم والأخلاق، ولا على ممارسة الطقوس العبادية من صلاة وصيام، بل إنه تشريع كامل شامل لجميع جوانب الحياة من المعاملات المالية كالتجارة وغيرها، وأحكام الأحوال الشخصية المتعلقة بالزواج والطلاق، وأحكام الأسرة كالحضانة والنفقة والميراث وغيرها، والعلاقات مع الدول والجماعات، والجهاد بأنواعه، فالدين الإسلامي يبني حضارة كاملة تشمل جميع جوانب الحياة.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

٥ ـ الحضارة الإسلامية تعطي العقل دوره:

ليس معنى أن نؤمن بالغيب أن نتنازل عن دور العقل، بل إن العقل هو المرشد للإيمان بالله وبالرسالة التي أنزلها على رسوله ﷺ، فلذلك فإن الدين الإسلامي يرفض جميع الأوهام والخرافات.

٦ ـ الحضارة الإسلامية حضارة منتجة:

لقد كلف الله سبحانه وتعالى المؤمنين بإحياء الأرض وعمرانها وترك بصمات جهدهم فيها وتطوير الحياة نحو الأفضل، فلم يعتبرهم مجرد بشر يمرون في لحظة من الزمن ثم يغادرون من دون تقديم شيء للأمة ولله وللإسلام، ولذلك أعطى الله سبحانه وتعالى هذا الإنسان صفة كبيرة تنسجم مع هذا الدور فاعتبره خليفته على الأرض، فقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

٧ ـ الحضارة الإسلامية حضارة يسر لا عسر:

لقد كلفنا الله عز وجل بأحكام وتشريعات، لكنه لم يفرض علينا أن ننفذها حتى في فرض عدم قدرتنا عليها، بل إن التكليف مرتبط بالقدرة فلا يجوز أن يفرض الله علينا ما لا نطيق، لذلك قال في كتابه الكريم: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾(١).

٨ ـ الحضارة الإسلامية حضارة الأمة الوسط:

الإسلام دين الوسطية في كل شيء، فلا مجال للتطرف فيه أبداً، فلا هو دينٌ يدعو للزهد في الحياة والبعد المطلق عن زينتها والتنسك في كل شيء، ولا هو دين يدعو للمبالغة والإغراق في ملذات الحياة الدنيا وشهواتها والانغماس في زخارفها. وهذا الدين ليس ديناً الروح فيه هي المسيطرة وفي نفس الوقت المادة ليست مستبعدة، بل هناك نوع من التوازن بين المادة والروح في كل تشريعات هذا الدين، وهذه الوسطية تتجلى في كل تعاليم هذا الدين حتى باتت هذه الأمة تسمى أمة وسطاً تصلح لأن تكون شاهدة على الناس، لذلك قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

٦ ـ المعالم الأساسية للحضارة المادية

الحضارة المادية هي تلك الحضارة التي تؤمن بأن المادة هي الأصل في كل شيء في المجتمع ومن خلالها يتم تفسير كل ما يتعلق بالحياة، والمعالم الأساسية لهذه الحضارة هي على الشكل التالي:

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

١ ـ النزعة المادية:

فالحضارة الغربية المادية تفسر الكون على أساس مادي لا مجال فيه لحركة الروح، وتنكر كل ما هو غيبي ولا تؤمن إلا بما كان محسوساً ومنظوراً.

٢ ـ فصل الدين عن الحياة:

لا مجال لتدخل الدين في أي مجال من مجالات الحياة سواء أكانت سياسية، أم فكرية، أم تنظيمية، فالدين لا دخل له في الحياة، حتى النصارى فهم مسموح لهم بممارسة طقوسهم في الكنيسة شرط عدم تطوير ذلك إلى تدخل الدين في الدولة، وهذا وإن كان ممكناً في المسيحية كونها تترك ما لقيصر لقيصر وما لله فإنه لن ينفع مع الإسلام الذي هو دين يحتوي في تشريعاته أحكاماً تنظم الحياة في كل شؤونها.

٣ ـ الحضارة الغربية ذات نزعة علمانية:

نتيجة للنزعة المادية الداعية لفصل الدين عن كل شيء كانت دعوة الحضارة المادية إلى العلمانية من خلال فصل الدين عن الدولة كما فصلها عن كل شيء حتى ما هو غير سياسي، وهذا معنى العلمانية كما في تعريفها وهو: «إقامة الحياة على غير الدين». والعلمانية هنا على قسمين: واحدة تسمح بممارسة الطقوس ولكن تمنع تدخل الدين ورجال الدين في شؤون الحياة وخاصة السياسية، والقسم الثاني يمنعهم حتى من ممارسة طقوسهم الدينية.

٤ ـ الحضارة المادية حضارة الصراع الدائم:

حيث إن هم الحضارة المادية حضارة تعتمد على أن هذه الحياة هي كل شيء، فهي تسعى للسيطرة على كل شيء، فالهدف هو الاستفادة من الحياة الدنيا بأقصى ما يمكن وهذا يعارضه سعي حضارة أخرى لنفس هذه

الأهداف، فيقع الصراع وتحصل الحروب وتستمر الخلافات على استثمار وامتلاك المواد الخام والسيطرة السياسية ما يؤدي إلى الحروب الدامية التي تجر على الشعوب الويلات والآلام.

٥ ـ التحلل من كل شيء:

بما أن هذه الحضارة لا تؤمن بدين ولا مرجعية أخلاقية لها، وحيث إنها حضارة لا تؤمن بمعاد وحساب فإنها لا ترتبط بضوابط أخلاقية وقِيَميّة، وبالتالي، فإن الإنسان في هذا المجتمع متحلل من كل شيء ديني أو أخلاقي بل إنهم يطلقون على المؤمنين بالله والقيم بأنهم رجعيون متخلفون.

٦ ـ الشعب أو الحزب هو مصدر التشريع في الحضارة الغربية:

على عكس الحضارة الإلهية التي يعتبر فيها التشريع إلهياً، بمعنى أن مصدره الله سبحانه وتعالى، فإنه فيها يتم من خلال مصدرين، ففي المجتمعات الديمقراطية فإن مصدر التشريع هو الشعب، في حين أنه في المجتمعات الديكتاتورية مصدره إما الحاكم أو الحزب من خلال هيئاته. إن ترك التشريع للبشر أوقع هذه المجتمعات بمآسٍ وويلات وحروب ومجاعات وهوة كبيرة بين طبقات الشعب التي يأكل فيها القوي الضعيف، ولا حياة في هذه المجتمعات للفقراء والمستضعفين، فتم تشريع الانحراف والشذوذ الجنسي، وساد تعاطي المخدرات، وتفشت الجريمة، وعانى الناس من مشاكل نفسية وروحية أدت إلى انتشار الانتحار نتيجة اليأس من الوصول إلى السعادة في الحياة الدنيا.

٧ ـ موارد التباين بين الحضارتين

إن الاختلاف بين الحضارتين بيِّنٌ وهو لا يحتاج إلى كثير عناية لتوضيحه، ومن أهم موارد هذا الاختلاف هو أن الحضارة الإسلامية تركز

على البناء الروحي للإنسان والذي لا يتعارض مع العيش الكريم البعيد عن الغرق في مجاهل الغريزة والشهوة، في حين أن الحضارة المادية مجدت المادة فسعت نحو الاستفادة من كل متع الحياة من الجنس والمال والسيطرة والتسلط، فسلبت الإنسان إنسانيته فإذا به لعبة بين يدي الشيطان، وحوّل المجتمع إلى مجتمع تكثر فيه حالات الفقر والبطالة والطغيان، مجتمع حيواني بكل معنى الكلمة يسيطر فيه القوي على الضعيف ويأكل الكبير الصغير. والدول في هذه المجتمعات الغربية تسعى دائماً للسيطرة على جيرانها واحتلال أراضيها، وهي خاضت حتى الآن حربين عالميتين كبيرتين جرتا مآسٍ لا طاقة للإنسان على تحملها، واحتلوا بلاداً سيطروا عليها بالقوة وحكموها بالحديد والنار فكان الاستعمار والانتداب والوصاية، وفي بلادنا الإسلامية شهدنا كل هذه الأنواع من المآسي التي أنتجتها هذه الحضارة المادية، فقد أقاموا في أرضنا كياناً مسخاً أسموه إسرائيل، وقسموا عالمنا إلى دول متناحرة فيما بينها متقاتلة يقدس كل منها حدوده وكأنها جزء من الدين، فأصبح عالمنا الإسلامي مُسَخراً بكامله لصالح الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة الأميركية. إننا لن نستطيع أن نسمي هذه المجتمعات المادية بأنها مجتمعات حضارية حتى لو انطلقت من منطلقات حضارية، فليس من الحضارة في شيء أن يكون الإنسان عبداً لغرائزه واهتمامه يقتصر على الطعام والملبس والمشرب، فإن هذه أمور يشترك فيها الإنسان والحيوان، وقد وصف الله سبحانه وتعالى ذلك في كتابه الكريم بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[1].

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٢.

إن هذه المجتمعات الغربية التي تتفاخر اليوم بأسلحتها الفتاكة والنووية خاصة، هذه المجتمعات التي لم تتورع أن تقصف بقنابل نووية مدينتي هيروشيما وناكازاكي لا يمكن أن نسميها مجتمعات حضارية، بل هي مجتمعات حيوانية تسعى للسيطرة ضمن شريعة الغاب لا شريعة الإنسان. فكيف يمكن أن نصف ما يفعله الكيان الصهيوني مع الفلسطينيين، أو ما يفعله الأميركي في العراق بأنه حضارة؟ وقد قال الله سبحانه وتعالى عن ذلك في كتابه الكريم:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[1].

٨ ـ كيف نعالج مشكلة الحضارة لدينا؟

في زحمة الصراع الحضاري العالمي يقف المسلمون عاجزين لا يقومون بأية حركة؛ فلا هم ينشرون حضارتهم وثقافتهم إلاّ على استحياء، ولا يعملون على تثبيتها وبيانها إلاّ في المناسبات، وفي مؤتمرات قليلة تعقد هنا وهناك من باب رفع العتب أو على هامش احتفال ما، والذي يقوم بهذا العمل عادة هم أفراد أو جمعيات إسلامية، أما الحكومات فلا تحرك ساكناً وليس هذا الأمر من صلب اهتماماتها، إلاّ في حدود ضيقة، أو حين تُدعى من جهات غربية. أما سفاراتها فهي سفارات للأنظمة والحكام وليست مهتمة في بيان حضارة الإسلام ونشرها حتى لو كان دستور هذه الدولة يقول إن مصدره هو القرآن الكريم، أو إن رئيس الدولة نصّب نفسه أميراً للمؤمنين، ولهذا أسباب مختلفة مرجعها الخمول الذي أصابها، والتفرق على أساس العنصرية الضيقة أو الإقليمية المفرّقة، والتعصب لهما على

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٢٨ ـ ١٢٩ ـ ١٣٠.

أساس التجزئة التي أصيب بها العالم الإسلامي، فأصبح ولاء كل دولة ليس للإسلام بل للقطر والتقديس ليس للقرآن بل للحاكم، وانتماؤها لبلدها دون الانتماء للحضارة الإسلاميّة الواسعة وثقافتها. لقد كانت رسالتنا الإسلامية رسالة رائدة وسبباً في ازدهار وتقدم ليس العرب والجزيرة العربية فحسب، بل انتشرت هذه الرسالة لتكون مصدر إشعاع ونور لأوروبا التي كانت في ذلك الوقت تعيش حالة من الجهل والظلامية لا نحتاج إلى بيانها الآن، ولكن الذي حصل هو أن هذه الأمة تراجعت لتصبح أمة متخلفة تعيش على هامش الحياة تتأثر ببهارج الغرب بدلاً من أن تؤثر فيهم أو أن تتأثر بما هو مفيد عندهم، ولعل ما قاله المستشرق اليهودي برنارد لويس وإن كان فيه شيء من الشماتة إلا أنه يعبر عن واقعنا بشكل واضح حيث يقول: «ظل الإسلام لقرون طويلة أعظم حضارة على وجه الأرض وأغنى حضارة، وأقواها، وأكثرها إبداعاً في كل حقل ذي بال من حقول الجهد البشري. عسكرها، أساتذتها وتجارها كانوا يتقدمون في موقع أمامي في آسيا وأفريقيا وأوروبا، ليحملوا ما رأوه الحضارة والدين للكفار البرابرة الذين كانوا يعيشون خارج حدود العالم الإسلامي». ثم يمضي ليقول: «ثم تغير كل شيء، فالمسلمون بدلاً من أن يغزوا الدول المسيحية ويسيطروا عليها، صاروا هم الذين تغزوهم القوى المسيحية وتسيطر عليهم. مشاعر الإحباط والغضب لما عدوه مخالفاً للقانون الطبيعي والشرعي ظلت تتنامى لمدة قرون، ووصلا قمتهما في أيامنا». المشكلة هي أن بعض المسلمين في مواجهة الهجمة الظالمة على حضارتهم اتجهوا نحو التزمت أكثر حتى وصل الأمر بهم إلى التمسك بالهيئة واللباس وكل ما هو شكلي أكثر من التطرق إلى الأمور الجوهرية، وساعد في ذلك أن الغرب قام بالتركيز على هذه الظاهرة دون التعرض للظواهر الأخرى التي اعتمدت وسائل فكرية وموضوعية في مواجهة الانحراف الذي يدعو له أصحاب الأفكار الغربية. لقد صارت ونتيجة الترويج الإعلامي الكبير عبر الوسائل التقنية الكبرى

والدعاية المنظمة التي تقف وراءها عقول خبيثة، مسألة الإسلام تعني عدم الموضوعية والتزمت والتخلف، في حين أن أفكارهم التي يدعون إليها هي العقلانية والتنوير والحداثة والموضوعية، وهذا خداع كبير لا يمر على من كان عاقلاً مطلعاً. وقد وقعت الحركة الإسلامية في فترة المد الشيوعي والاحتلال السوفياتي لأفغانستان في شبهة كبيرة، إذ أصبح لديها أن المعسكر الغربي الذي تقوده الولايات المتحدة الأميركية هو معسكر إيماني يقف في وجه معسكر الإلحاد المتمثل بالشيوعية. وذلك نتيجة للدعم المادي والمعنوي الذي وفرته الولايات المتحدة الأميركية للمجاهدين ضد الغزو السوفياتي لأفغانستان. لكنهم ما لبثوا أن اكتشفوا أن كلا المعسكرين يضمر للإسلام الشر، فظهرت بعدها صحوة إسلامية أعادت للحضارة الإسلامية حضورها في الساحة العالمية وخاصة على المستويين السياسي والفكري.

لقد صدق قادة الحضارة الغربية عندما قالوا إن للإسلام مقدرة عجيبة على العودة كلما هزم، وهذا صحيح، ويمكن لنا أن نعيده إلى الواجهة من جديد، لذلك فإنهم يبذلون أقصى جهدهم لمنعنا من تحقيق هذا الهدف كي لا نعود لقيادة الحياة. وهذه الحقيقة اعترف بها علماء النصارى كونهم الأقدر على فهم الظاهرة الإيمانية، فقد دعا بيتر كريفت أستاذ الفلسفة بكلية بوسطن هو وبعض النصارى إلى أن يتفقوا مع المسلمين لتنسيق الجهود في مواجهة العلمانية التي اعتبروها العدو اللدود على الحياة الإيمانية، فقال: «لماذا ينتشر الإسلام بهذه السرعة المذهلة؟ سيسارع علماء الاجتماع وعلماء النفس والمؤرخون والاقتصاديون والديموغرافيون والسياسيون إلى تفسير ذلك النمو تفسيراً دنيوياً كل بحسب تخصصه. لكن الإجابة بديهية لكل مسيحي ذي صلة بالكتاب المقدس: إن الله تعالى يفي بوعده، ويبارك أولئك الذين يطيعون أوامره ويخشونه، ويعاقب الذين لا يفعلون ذلك. إن الأمر في غاية من البساطة التي يعسر على الأساتذة الأكاديميين رؤيتها:

قارن بين كميات الإجهاض، وزنا المحصنين وغير المحصنين، والشذوذ بين المسلمين والنصارى. ثم قارن بين كمية العبادة»[١].

فإذا كان علماء النصارى يؤمنون بهذا الأمر ويسعون لتكتيل الجهود معنا لمواجهة من يريد سيادة الكفر وإبعاد الإيمان عن ساحة الحياة، فبطريق أولى أن نؤمن نحن أكثر منهم بذلك ونسعى لتطبيق معالم ديننا. وانطلاقاً مما تقدم، فإن هناك عدة طرقٍ لمعالجة الأزمة الحضارية والناتجة أساساً عن ترك الدين والتمسك بقيمه والتي يعاني منها مجتمعنا الإسلامي اليوم ويمكن اختصارها بما يلي:

١ ـ الرجوع إلى الإسلام:

إن الإسلام كدين إلهي يستبطن في داخله كل المقومات الذاتية التي تمكننا من إيجاد المعالجات الناجعة للأمراض التي يعاني منها مجتمعنا، والإيمان بذلك هو جزء من الدين بحيث أن من يعتقد أن هذا الدين قاصر عن إيجاد الحلول فهو بين أمرين لا مجال فيها لاعتباره مؤمناً حقيقة: فهو إما أنه يعتقد بأن هذا الدين ليس ديناً إلهياً وهذا عين الكفر بالإسلام، وإما بأن هذا الدين هو كذلك ولكنه لا يمتلك القدرة على إيجاد الحلول وهذا يعني العجز الذي لا يمكن نسبته للدين الإلهي الذي أرسل الله عز وجل به رسول الله ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

٢ ـ الاعتماد على النفس:

إن أية عملية تغيير لا بد وأن تستند إلى نفس الذي يريد التغيير، لأنه ليس عملية فرضية على الآخرين، بل هو عملية اختيارية ناتجة عن قرار ذاتي بالتغيير، لذلك قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

---

(١) الجهاد الاقتصادي، الصفحة ٣٨.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[١]

فعملية التغيير سواء أكانت على صعيد الفرد أم الأمة هي عملية ذاتية تنطلق من الفرد لتؤثر في الأمة تغييراً نحو الأفضل أو الأسوأ.

٣ ـ الإيمان بان هناك مدداً إلهياً:

إن إمكانية التغيير بالإسلام ليست ممكنة فحسب، بل إن هناك وعداً إلهياً لنا بأن الله عز وجل سيتدخل معنا في حفظ هذا الدين من مؤامرات الذين يريدون تحريفه وإبعاده عن قيادة الحياة، فقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٢].

فقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ كتابه الكريم عن التحريف وعن الإقصاء عن الحياة، فعلى الأقل سيحافظ عليه إلى أن يقيد الله عز وجل لهذه الأمة من يقوم بالدور المطلوب منها ويعيدها إلى المكانة التي تستحقها. فلذلك يجب أن لا نيأس من عودة الإسلام إلى سابق عهده، بل أفضل من ذلك، سيعم الإسلام الكون ويرث الأرض عباد الله الصالحون. وصون هذا الدين عن التحريف وحفظه هو دليل على أنه خاتم الرسالات التي أرسلها الله سبحانه وتعالى للبشر وبالتالي صلاحيته لكل زمان ومكان.

٤ ـ إيجاد البدائل الفكرية والمنهجية:

لا بد في سعينا لمعالجة مشكلتنا الحضارية من الاجتهاد في إيجاد البدائل الفكرية والمنهجية لما نعاني منه من نقص على أن تكون هذه

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

البدائل منسجمة مع عقيدتنا وواقعنا الإسلاميين. إذ لا يصلح في علاج مرضنا الاستعانة بدواء غيرنا، كما أن استيراد الحلول يعني أننا مجتمع مقلد وتابعي، وهكذا مجتمع لا يمكن اعتباره مجتمعاً حضارياً. كما أنه لا بد من الإشارة إلى أن المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الأساسية ومناهج عمله لن يقوى على إنتاج مواده الاستهلاكية ومنتجاته الضرورية.

٥ ـ إقناع المجتمع بان في الإسلام خلاصهم:

لقد ثبت أن الناس في أيامنا هذه يعانون من مشكلة نفسية وروحية. فرغم كل التقدم العلمي الذي أحرز ترى أن المجتمعات لا تزال تعاني من خواء روحي يصل عند بعضهم إلى حد الانتحار، ذلك أنهم وبعد الوصول إلى كل ما يتمنون يشعرون أن ليس هناك ما يريدون الحصول عليه أزيد مما حصّلوه، ولذلك وحيث إنه لا حياة عندهم بعد الموت، وحيث إنه لا مجال لتحقيق الراحة النفسية فيما يحصلون عليه فإنهم يلجأون إلى إنهاء حياتهم لذا يجب أن نقدم الإسلام لهؤلاء وغيرهم باعتباره بديلاً حضارياً عما هم فيه فهو يؤمن لهم المبرر للعيش بأن يعمل الإنسان صالحاً يوصله إلى رضا الله عز وجل حيث الراحة الأبدية والسعادة المطلقة والتي لن يوفرها لهم أي معتقد آخر. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الإسلام باعتباره دين الفطرة فإنه ينسجم مع ما فطر عليه الإنسان، وبالتالي لا يعيش الإنسان شرخاً بين ما هو مفطور عليه ويحس به في وجدانه وبين ما يمارسه في حياته اليومية من أعمال عبادية كانت أم معاملاتية. وهو في نفس الوقت يدعو إلى الأخلاق الفاضلة وينظم حياتنا الاجتماعية على أسس سليمة تضمن مجتمعاً متماسكاً منسجماً مع بعضه البعض.

٦ ـ الاستفادة من التطور العلمي للآخرين:

نحن ندرك ونسلم بأن الغرب قطع عنا أشواطاً بعيدة في التطور

العلمي والتقني ما أخرج مدنية متطورة ومفيدة للناس وإن استغلها الغرب للسيطرة والاستعمار، وعليه فإنه يجب علينا أن لا نهمل هذا التقدم ونتجاهله ونعتبره كأنه لم يكن، بل علينا أن نستفيد منه خاصة تلك التي لها دخالة في عالم التواصل البشري كالانترنت، والتلفزيون، والأقمار الصناعية، فكل ذلك يُسهم في تطور الإسلام ورقيه، ونتحول من منفعلين بالآخرين إلى فاعلين نؤثر عليهم ونغيرهم بالإسلام. إن لنا في التجربة اليابانية مثالاً يجب أن يحتذى حيث إنها لم تتوقف بعد هزيمتها الكبرى في الحرب العالمية الثانية عن التفكير في الخروج من مأزقها ولم تعتبر ما حصل نهاية الدنيا، بل حافظت على كل قيم مجتمعها الفكرية والتقليدية والأخلاقية والدينية وأخذت من الغرب ما وصل إليه في الجانب التكنولوجي وطورته لتصبح اليوم من أهم القوى الاقتصادية في العالم، وهي تعتبر اليوم القوة الاقتصادية الثالثة في العالم والتي تنافس الولايات المتحدة الأميركية منافسة الند للند. إن الإسلام يمتلك في طيات أحكامه ومفاهيمه مسائل لو استفاد منها المسلم لاستطاع أن ينجز إنجازات أهم مما حصل مع اليابان، ولكن كيف بك بالطالب المسلم الذي يذهب للغرب من أجل السياحة وإشباع الشهوات، والطالب الياباني الذي يضع كل همه في التعلم ليعود إلى بلده مخترعاً مفيداً في تطوره ورقيه؟

٧ ـ الاستفادة من السنن الكونية:

إن الحضارات المتقدمة مدنياً والتي تحكم مجتمعات كثيرة ومن ضمنها مجتمعنا يجب أن لا ننظر إليها على أنها قدر لا مجال لتغييره، بل لا بد من الانتباه إلى أن السنن الكونية تثبت أن كثيراً إن لم نقل كل الحضارات التي كان مبدؤها الإنسان والتي سادت سنوات وقرون طويلة ما لبثت أن اضمحلت وانتهت، وبالتالي فإن ما هو مسيطر اليوم من دول ليس قدراً أبياً على التغيير،

بل لا بد من اضمحلاله وزواله في الزمن المقبل. ولكي يخرج المسلمون مما هم عليه الآن من سبات حضاري وخذلان لا بد أن يستوعبوا سنن الله الثابتة في الكون التي يخضع لها الأفراد والجماعات، لأنهم بهذا الاستيعاب فقط يمكن أن تكون حركتهم في التاريخ حركة ثابتة وهادفة بدل أن تبقى كما هي عليه الآن حركة عشوائية تحكمها الصدف، وتوجهها الأهواء الفردية والنزوات الشخصية. وبهذا المعنى يقول المفكر الإسلامي مالك بن نبي: «فإذا ما حددنا مكاننا من دورة التاريخ، سهل علينا أن نعرف عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا، ولعل أعظم زيفنا وتنكبنا عن طريق التاريخ أننا نجهل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا، ولعل أكبر أخطاء القادة أنهم يُسقِطون من حسابهم هذه الملاحظة الاجتماعية، ومن هنا تبدأ الكارثة، ويخرج قطارنا عن طريقه، حيث يسير خبط عشواء».

٩ ـ صراع الحضارات

لقد صار مصطلح (صراع الحضارات) عنواناً لهذه المرحلة من تاريخنا وبالأخص النصف الثاني من القرن العشرين، ولا يزال يفرض نفسه في سياق البحث في القضايا الدولية، سواء أكانت فكرية وثقافية، أم سياسية واجتماعية، أم اقتصادية وتنموية. معنى الصراع في اللغة كما ورد في لسان العرب:

«الصرع: الطرح بالأرض، وخصَّه في التهذيب بالإنسان، صَارَعَهُ فصرعه يصرعه صَرْعاً وصِرْعاً، فهو مصروع وصريع، والجمع صرعى، والمصارعة والصراع: معالجتهما أيهما يصرع صاحبَه»[1].

والصراع في الأساس ينطلق من تضارب المصالح بين جماعات متباينة

(١) لسان العرب، الجزء ٨، الصفحة ١٩٧.

فكرياً، وهذا الصراع قد يكون منحصراً في الجانب السياسي والفكري وقد يتعداه إلى حالة الحصار الاقتصادي إلى أن يصل إلى مرحلة العمل العسكري وهنا تصبح التسمية الأفضل هي صدام الحضارات، والصدام ينطلق أساساً من رغبة الدولة الأقوى في السيطرة على الأضعف لتفرض عليها ثقافتها وطريقة عيشها وعاداتها. فكرة الصراع وإن كانت كما قلنا سابقاً قد اشتهرت في النصف الثاني من القرن العشرين إلا أنها مع ذلك يمكن أن ترجعها إلى ما قبل ذلك بكثير، فيمكن أن تجد عنوان الصراع الإنساني فيما كتبه كل من ماركس وأنجلز وقد ضمناها بيانهما الشيوعي بقولهما:

«إن تاريخ المجتمع كلّه حتى اليوم هو تاريخ صراع الطبقات»(١).

وقد توقع ماركس أن يشتد الصراع بين الطبقتين المستقطبتين للسكان في أوروبا على عهده، طبقة الرأسماليين وطبقة العمال، لينتهي إلى انتصار الطبقة الأخيرة (البروليتاريا) وقيام مجتمع بدون طبقات. لكن أشهر من تحدثوا عن صراع الحضارات هما الباحثان صموئيل هنتنغتون وهو أمريكي الأصل، والثاني هو فرانسيس فوكوياما الياباني الأصل والأمريكي الجنسية، وهذا ما سنشير إليه فيما يأتي من البحث.

صراع الحضارات عند هنتنغتون:

نشرت مجلة (Foreign Affairs) لصموئيل هنتنغتون في صيف عام ١٩٩٣م مقالاً بعنوان «صدام الحضارات» أثار جدلاً استمر ما يقرب من ثلاث سنوات لأنه أثار حفيظة أتباع الكثير من الحضارات المتعارضة مع الحضارة الأميركية. بعد ذلك طور هنتنغتون فكرته وأخرجها في كتاب بعنوان «صراع الحضارات» والذي نظّر فيه لفكرته في أن الحضارات تتجه

(١) الموسوعة السياسية، الصفحة ٣٤٤.

حتماً نحو الصراع، لأنه يعتبر أن الثقافة والهوية التي تحكم كل حضارة تؤدي حتماً إلى الصراع فقد قال هنتنغتون:

«إن الثقافة أو الهويات الثقافية، والتي هي على المستوى العام هويات حضارية، هي التي تشكل أنماط التماسك والتفسخ والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة. . . وخلص إلى القول بأنه لكي نفهم النزاع في عصرنا وفي المستقبل، الخلافات الثقافية يجب أن تُفهم، والثقافة (بدلاً من الدولة) يجب أن يتم القبول بها كطرف وموقع للحروب. لذلك فقد حذر أن الأمم الغربية قد تفقد زعامتها إذا فشلت في فهم الطبيعة غير القابلة للتوفيق للاحتقانات المتنامية حالياً»[١].

وأخيراً توصل هنتنغتون في كتابه (من نحن؟) إلى التحذير من الهجرة المتنامية إلى الولايات المتحدة الأميركية والتي ستؤدي كما يقول إلى تقسيم الولايات المتحدة إلى شعبين، بثقافتين وبلغتين. وهذا تطور خطير لأنه يدعو بشكل أو بآخر إلى تصفية وجود مجتمعات بشرية بأكملها تعيش في نفس الولايات المتحدة الأميركية مع إنهم أصبحوا وبحسب القانون مواطنين يتمتعون بكل حقوق المواطنة. وفي مجال آخر يقول هنتنغتون:

«يعتبر التفاعل بين الإسلام والغرب صدام حضارات، إذ إن المواجهة التالية ستأتي حتما من العالم الإسلامي، وستبدأ الموجة الكاسحة التي تمتد عبر الأمم الإسلامية من المغرب إلى باكستان التي تناضل من أجل نظام عالمي جديد»[٢].

ويضيف في موقع آخر من مقالته الشهيرة «إن النزاع تفجر بصورة متزايدة على الحد الشمالي للإسلام بين الشعوب الأرثوذكسية والمسلمة، بما في ذلك مذبحة البوسنة وسراييفو، والعنف الجياش بين الصرب والألبان، والعلاقات

---

(١) ويكيبديا، الموسوعة الحرة، مادة «صراع الحضارات».
(٢) مقالة «نقد نموذج صراع الحضارات»، محمد براو، عن موقع إسلام أون لاين.

الحرجة بين البلغار والأقلية التركية». ويورد هنتنغتون كنماذج مباشرة على ما يقول بعض الحوادث المتعلقة بالمنطقة وهي على الشكل التالي:

١) العنف بين الأوستيين والأنغوش (داخل القوقاز الشمالي التابع لروسيا).

٢) المذبحة المتصلة المتبادلة بين الأرمن والأذربيجانيين، والعلاقات المتوترة بين الروس والمسلمين في آسيا الوسطى.

٣) نشر القوات الروسية في القوقاز وآسيا الوسطى.

٤) دور الدين في إحياء الهويات الإثنية وإعادة المخاوف الروسية بشأن أمن حدودها الجنوبية.

٥) مساندة تركيا وإيران للأذربيجانيين أشقائهما في الدين والعنصر واللغة، حتى أن الرئيس التركي السابق تورغوت أوزال صرح ـ حسبما أورد هنتنغتون ـ بأن (تركيا ستظهر أنيابها)، وحلقت الطائرات النفاثة للسلاح الجوي التركي في رحلات استطلاعية على امتداد الحدود الأرمينية، وعلقت شحنات الأغذية والرحلات الجوية إلى أرمينيا. وقد كانت الحكومة السوفياتية في سنواتها الأخيرة قد ساندت أذربيجان؛ لأن حكومتها كان يسيطر عليها الشيوعيون السابقون، بيد أنه مع انتهاء الاتحاد السوفياتي (أخلت الاعتبارات السياسية الساحة للاعتبارات الدينية) على حد زعم هنتنغتون، وحاربت القوات الروسية إلى جانب الأرمن المسيحيين[1].

الرد على هنتنغتون:

إن الردود على هنتنغتون كثيرة وستظهر في طيات بحثنا، ولكن نحب هنا أن نورد بعض الملاحظات العامة ثم بعد ذلك نفصل في رد واضح على ما طرح من أدلة على ما ذهب إليه.

---

(١) مقالة «نقد نموذج صراع الحضارات»، محمد براو، عن موقع إسلام أون لاين.

أولاً: إن النزاعات التي تحدث عنها هنتنغتون ليست نزاعات بين حضارات مختلفة، وإنما كانت نزاعات بين حضارة واحدة إذ وقعت جميعها في أوروبا وأميركا وبين أتباع نفس الديانة ونفس الحضارة والثقافة.

ثانياً: إننا نستطيع إعطاء نماذج عكسية لما أورده ما يعني أن النظرية التي يحاول إثباتها من وراء ما ساق من أمثلة هي نظرية غير صحيحة لعدم اتصافها بالشمولية وعدم الموضوعية والانتقائية. ولتوضيح ما نعرض نورد بعض النماذج العكسية التي تثبت عدم صحة أطروحة ونظرية هنتنغتون وهذه النماذج هي على الشكل التالي:

١ ـ يدعي هنتنغتون أن الهجمة تأتي من العالم الإسلامي في حين أن المتفحص الدقيق يرى من دون لبس أن الذي يتعرض للهجمة الظالمة هم الشعوب الإسلامية، وأكبر دليل على ذلك ما حصل في صربيا من مجازر للمسلمين، وفي البوسنة والهرسك.

٢ ـ إن المذابح المتبادلة بين الأذربيجانيين والأرمن أو بين مسلمي آسيا الوسطى والروس هي في حقيقة الأمر انتفاضة لمسلمين عانوا من سطوة احتلال لعقود طويلة من الزمن ثم جاءت الفرصة للتخلص من الاحتلال، وليس هم وحدهم من فعل ذلك، بل إن النصارى في كرواتيا وما حصل في بولونيا وغيرها من دول أوروبا الشرقية لدليل على ذلك، فهي حركة استقلال لا علاقة لها بصراع أو صدام حضاري كما يحاول هنتنغتون أن يثبت. أما المذبحة المتبادلة بين الأرمن والأذربيجانيين فهي في حقيقة الأمر ليست متبادلة لأن المعتدين هم الأرمن وليس المسلمون ولا يمكن أن نصف رد الفعل الدفاعي كأنه فعل ابتدائي.

٣ ـ يشير هنتنغتون إلى وقوف كل من تركيا والجمهورية الإسلامية إلى جانب أذربيجان، وهذا وإن كان صحيحاً بالنسبة إلى تركيا إلا أنه غير صحيح بالنسبة إلى الجمهورية الإسلامية التي ساهمت بكل قوتها لفك الحصار عن أرمينيا المسيحية، وهذا دليل من جهة أخرى على فساد

نظريته، لأنه هنا وقفت إيران الدولة الإسلامية مع أرمينيا المسيحية في وجه أذربيجان الإسلامية، كما يمكن لنا الاستدلال من خلال التحالف الاستراتيجي بين الجمهورية الإسلامية وروسيا المسيحية التي تقاتل المسلمين في الشيشان كدليل أيضاً على فساد نظرية هنتنغتون.

٤ ـ أما ما قاله عن نشر القوات الروسية في آسيا الوسطى والقوقاز فهو انتشار تقتضيه استراتيجية الدفاع لدى روسيا في وجه الأخطار المحدقة بها ولا علاقة للضرورات الدينية أو الحضارية. وللتدليل على ذلك، فإننا لو نظرنا إلى التموضع الجغرافي للقوات الروسية لوجدنا أنها تتموضع في جورجيا المسيحية في نفس الوقت الذي تتموضع في طاجكستان المسلمة، والعبرة هي في قرب هذه الدول من روسيا لا في نوعية ديانتها أو أصولها الحضارية.

٥ ـ أما في الرد على ما قاله من دور الدين في إحياء الهويات الإثنية فهو وإن كان صحيحاً إلا أن لهذه الهويات أبعاداً أخرى كالوطنية والقومية. ففي الشيشان مثلاً وإن كان الطابع الغالب هو الإسلام في المجاهدين إلا أن هناك قوى أخرى محلية تقاتل معهم للاستقلال المحلي وليسوا مسلمين وهذا لا علاقة له لا بصراع الحضارات ولا بصدامها.

٦ ـ أما قول هنتنغتون أن روسيا ساندت أرمينيا انطلاقاً من اعتبارات دينية وليست سياسية فهذا غير صحيح، وهو يعبر إما عن جهل بالتاريخ وهو غير متوقع منه، أو إنه يحاول إخفاء الوقائع لتمرير نظريته لتحقيق أهداف أخرى وهو الأصح، ذلك أن روسيا إنما ساندت الأرمن لمنع الميول الطورانية التركية لدى قادة أذربيجان من أخذ موقع لها ضمن الحكم والسعي لإقامة تركيا الكبرى التي تعتبرها روسيا تهديداً مباشراً لأمنها الاستراتيجي كما جاء في التقرير الأمني الاستراتيجي الذي أشرف على إعداده رئيس الوزراء الروسي السابق يفغيني بريماكوف ، وفي الرد النقضي على هذا الكلام، كيف

نفسر سعي روسيا لاستقلال أبخازيا المسلمة عن جورجيا المسيحية إن هي انطلقت من النزعة المسيحية، في حين أن المصالح الجيوسياسية هي التي تتحكم بتحركات هذه الدولة الكبرى لا الدين وصراعه ولا الحضارة وصدامها. باختصار إن ما يمكن الوصول إليه من خلال مناقشة نماذج هنتنغتون والرد عليه بنماذج عكسية هو أن النظرية التي قدمها هي نظرية خاطئة ولا تعتمد على نماذج واقعية تدعمها، إن إعادة نظرية هنتنغتون للأضواء في الفترة الأخيرة إنما كان بسبب الحملة الأميركية على أفغانستان وبعدها الحرب على العراق لإعطاء هذه الحرب بعداً إيديولوجياً يسوغ لهم القيام بهذه الحروب انطلاقاً من معطيات أخلاقية مبررة. إن الحقيقة التي يجب أن ندركها أن الذي حرك هنتنغتون لطرح هذه الفكرة هو خوفه من التحول الكبير الذي طرأ في بدايات القرن العشرين نحو الإسلام والذي أخافه من جهتين، الأولى هو دخول المسلمين إلى أوروبا واحتكاكهم بالمسيحيين هناك ما أدى إلى تحول عدد كبير منهم نحو الإسلام، والأمر الثاني هو التزايد السكاني الكبير للمسلمين وسط تراجع في النمو السكاني للمسيحيين، وهذا ليس تحليلاً مني بل إنه يعبر عنه بصراحة عندما يقول:

«إن أواخر القرن العشرين شهد انبعاثاً أو صحوة دينية في أنحاء العالم، وأدى ذلك إلى تقوية الاختلافات بين الأديان. ونظرته إلى المستقبل تُرجح انتصار الإسلام حيث على المدى الطويل سينتصر محمد ﷺ، فالمسيحية تنتشر أساساً عن طريق التحول، بينما الإسلام ينتشر عن طريق التحول والتناسل. ونسبة المسيحيين في العالم ارتفعت إلى ٣٠٪ في الثمانينات ثم استقرت وهي الآن تنخفض، وقد تصل إلى ٢٥٪ من سكان العالم بحلول عام ٢٠٢٥م، ونتيجة لمعدل الزيادة السكانية المرتفع جداً، فإن مسلمي العالم سيستمرون في الزيادة الكبيرة التي قد تصل إلى نسبة ٢٠٪ من سكان العالم مع

نهاية القرن الحالي، وتفوق عدد المسيحيين بعد سنوات قليلة وربما تصل إلى نسبة ٢٠٪ من سكان العالم بحدود سنة ٢٠٠٠»[١].

صراع الحضارات عند فوكوياما:

أما فرانسيس فوكوياما، فقد استند في نظريته إلى أن الصراع الذي دام أكثر من خمسة وسبعين عاماً بين الاتحاد السوفياتي وإيديولوجية الصمت الشيوعي والولايات المتحدة وفكرة الرأسمالية المتحررة من أي قيد والذي انتهى بفوز الرأسمالية، هو دليل على أن هذا هو قدر الصراع بين نفس الولايات المتحدة الأميركية وبقية الحضارات، وعلى العالم أن يتقبل في المستقبل أنها ستتحكم بالنظام الجديد بكل ما فيه من حرية، وأن الولايات المتحدة هي التي بدأت تسطر نهاية التاريخ بعد تبنيها للفكر المتحرر والديمقراطية والرأسمالية للعالم، وكل من يعارضها في ذلك سيتهم من قبل العالم بالتخلف والرجعية. ويقول فوكوياما: إن انهيار القطبية الثنائية بانهيار الاتحاد السوفياتي، كإطار للشيوعية، أدى إلى انفراد الرأسمالية والليبرالية الغربية بالعالم وهو ما يمثل نهاية التاريخ، أو بتعبيره حالياً نشهد نهاية التاريخ بما هو نقطة النهاية للتطور الأيديولوجي للبشرية وتعميم الليبرالية الديمقراطية الغربية على مستوى العالم كشكل نهائي للحكومة الإنسانية. مع أن هناك بوناً واسعاً وفرقاً شاسعاً بين نظرية صراع الطبقات التي ابتدعها كارل ماركس وفكرة صدام الحضارات التي جاء بها هنتنغتون وفوكوياما، حيث إن الأول جعل تحرير الإنسانية هدفاً إيديولوجياً له، بينما لم يتردد هنتنغتون في حصر هدفه في الدعوة إلى الحفاظ على مصالح الغرب، فإن النموذج المعرفي في كلتا النظرتين ما زال واحداً، وهو ما يسيطر على الفكر الغربي، ألا وهو نموذج «الأنا» التي لا تتعرف على

(١) من صدام الحضارات إلى حوار الحضارات مقالة.

نفسها إلا عبر «آخر»، تختاره أو تشكله وتصنعه بالصورة التي تجعله قابلاً لأن يقوم بالوظيفة التي تريدها منه، وظيفة تأكيد «الأنا» لنفسها. نحن لا نحتاج في الرد على فوكوياما إلى أحد بل إلى نفس نقده هو لنظريته حيث كتب في مجلة الدايلي تايمز الباكستانية ما يلي:

«عندما كتبت عن نهاية التاريخ قبل حوالي عشرين عاماً، كان الشيء الوحيد الذي لم أتوقعه هو المدى الذي يمكن أن تؤدي إليه تصرفات أميركا وسوء حكمها على الأمور إلى جعل العداء لأميركا واحداً من الخطوط الرئيسية في سياسة العالم. وقد حدث ذلك منذ هجمات ١١ أيلول، ويعود إلى أربعة أخطاء رئيسية ارتكبتها إدارة الرئيس الأميركي جورج بوش الابن. هذه الأخطاء الأربعة هي:

أولاً: (الضربة الإستباقية) والتي وضعت رداً على هجمات الحادي عشر من سبتمبر أيلول والتي توسعت بصورة غير مناسبة لتشمل العراق.

ثانياً: سوء التقدير لرد فعل العالم على ممارسة أميركا لقوتها المهيمنة، إذ إن العديدين في إدارة بوش اعتقدوا أن القوة الأميركية كانت ستكتسب الشرعية إذا استخدمت بنجاح، حتى من دون موافقة مجلس الأمن أو حلف شمال الأطلسي.

ثالثاً: تقديرها المبالغ فيه لمدى فعالية القوة العسكرية التقليدية في التعامل مع الدول الضعيفة وشبكة المنظمات التي تتجاوز الحدود الوطنية وتجسد السياسة الدولية على الأقل في الشرق الأوسط الكبير. إنه أمر يستحق التفكير كيف تعجز دولة تمتلك أكبر قوة عسكرية في التاريخ وتنفق على الجيش ما يعادل إنفاق دول العالم مجتمعة، عن إحلال الأمن في بلد صغير لا يزيد عدد سكانه على ٢٤ مليون نسمة بعد ما يزيد على أربع سنوات من الاحتلال.

رابعاً: إن استخدام إدارة الرئيس الأميركي جورج بوش للقوة لم يكن يفتقر لاستراتيجية ملزمة أو لمبدأ وحسب بل حتى للكفاءة البسيطة. لكن المشكلة الأساسية تظل في التوزيع غير المتوازن للقوة في النظام الدولي. إن أية دولة في موقع الولايات المتحدة، حتى لو كانت ديمقراطية، قد تتعرض لإغراء ممارسة سلطة الهيمنة لديها بضوابط أقل فأقل. لقد كان الآباء المؤسسون لأميركا يعتقدون أن السلطة من دون كوابح يمكن أن تكون خطرة، ولهذا السبب أنشأوا نظاماً دستورياً يفصل القوى الداخلية لكبح السلطة التنفيذية. مثل هذا النظام غير موجود على مستوى العالم اليوم، وهو ما يفسر لماذا وقعت أميركا في مثل هذه المشاكل. إن توزيعاً دولياً سلساً للسلطة، حتى في نظام عالمي لا يتمتع بديمقراطية تامة، قد يقلل إغراءات الابتعاد عن الممارسة الحكيمة للسلطة»[1].

إن فرانسيس فوكوياما نفسه وجد أنه كان مخطئاً في الفكرة التي دعا إليها، وبالتالي فإن هذه الفكرة التي عمل على تطبيقها فشلت ولكن لا بسبب سوء التطبيق كما يحاول أن يبرر في مقالته، بل بسبب أن هذه الفكرة في نفسها فكرة خاطئة.

جذور الصراع في الفكر الأوروبي:

بالرجوع إلى التاريخ الأوروبي نجد أن فكرة الصراع تتحكم بالعقل الأوربي منذ فجر تاريخه، وليست فكرة طارئة في القرنيين الأخيرين، فمنذ اليونان والعقل الأوروبي لا يعرف الإثبات إلا من خلال النفي، فبارمينيدس مثلاً لم يستطع الكلام عن «الوجود» إلا من خلال طرح «اللاوجود» ولا الحديث عن المتناهي إلا من خلال اللامتناهي. وعندما قام تلميذه زينون

(١) عن جريدة اللواء اللبنانية، بتصرف، عدد الاثنين ١٢/ ١١/ ٢٠٠٧.

الإيلي للدفاع عن أطروحات أستاذه بنى حججه على فكرة «أن كل سلب تَعَيُّن». وسيأتي سبينوزا في العصر الحديث ليؤكد العكس ويقول «إن كل تعيُّن سلب». ولم يفعل هيغل شيئاً آخر سوى أنه جمع بين فكرة زينون وفكرة سبينوزا ليؤسس الديالكتيك عليهما فيقرر: «كل تعين سلب وكل سلب تعين»!. وهذا النوع من الترابط بينهما هو الذي يصنع «التركيب» الذي يتحول بدوره إلى أطروحة تستدعي نقيضها، وهكذا دواليك... ومن هنا أهمية النفي عنده وفي التقليد الفلسفي الأوربي عموماً: فالإثبات لا يقوم إلا عبر النفي، والأنا لا تتحدد إلا عبر الآخر، وكما قال سارتر: «الآخر ضروري لوجودي». وإجمالاً فالعقل الأوروبي لا يرى العالم إلا من خلال تقابل الأطراف، كتقابل الأنا والآخر، تقابل تضاد وصراع. وهكذا فسواء تعلق الأمر بالمثالية كما عند (هيغل)، أو بالمادية كما عند (كارل ماركس) أو بالوجودية كما عند (سارتر)، أو بغيرها من مذاهب الفكر الأوروبي، فإن الوجود، ميتافيزيقياً كان أو سيكولوجياً أو اجتماعياً، يُنظر إليه على أنه صراع بين أضداد، بل إن اللاهوت المسيحي نفسه يحكمه التقابل والصراع بين ضدين أي بين «الخطيئة» و«الخلاص»، بين الابن والأب، الخ. ولو أردنا التدقيق أكثر فإننا إذا رجعنا إلى تاريخ أوروبا الحديث سنجد أن فكرة (الصراع للحياة) طرحت أول مرة في القرن التاسع عشر في أوروبا، والتي حلَّت في نظرية داروين في مسألة صراع البقاء وأن البقاء للأقوى مكان النظريات السالفة عن التوافق الطبيعي، وساد في الأوساط العلمية والفكرية الاعتقاد بوجود كثير من الصراع حتى في الطبيعة، وأن هذا الصراع هو سمة رئيسية من سمات الطبيعة. والفكرة الأساس التي تمركز حولها الفكر الأوروبي هي أنه لا وجود لتشابه كامل بين الطبيعة والمجتمع، فهناك الكثير من الصراع في المجتمع، ولكن

الصراع بين الناس ليس من أجل الوجود، ولكنه من أجل تحقيق فرص أفضل للاستمتاع والارتقاء. وجاء المفكرون والعلماء الأوروبيون في أواخر القرن التاسع عشر وفي النصف الأول من القرن العشرين، فبلوروا فكرة الصراع، وأقاموا نظرياتهم سواء في مجال العلوم البحتة أو في حقل العلوم الإنسانية، على قاعدة الصراع بين الإنسان والطبيعة، وبين الكائنات جميعاً، وكان حظ علوم الاجتماع والنفس والآداب والفنون من التأثر بفكرة الصراع في الحياة عظيماً. يقول المفكر و.ث. جونز ملخصاً في دقةٍ وتركيزٍ الوضعَ الفكري في أوروبا فيما يعرف بعصر النهضة فيقول:

«استحوذ الإنسان في عصر النهضة بأهمية أكبر من الله، وأصبح الاهتمام بارتباط الإنسان ببني جنسه أكبر من الاهتمام بارتباط روحه بالله، واتخذ الإنسان الطبيعة والإنسانية هدفاً، عوضاً عمّا فوق الطبيعة والكمال الإلهي، وبات الأمر الأهمّ ما يحققه الإنسان في دنياه، لا ما ينتظره في العالم الآخر. ومطالبُ الإنسان في هذه الدنيا إنما هي، عموماً، غنى شخصية الفرد، ونموُّ قواه العقلية، وقابلياته المعنوية، واستثمار مظاهر الجمال المتنوعة، والحياة المجللة بالنعم الدنيوية. وهكذا خرج الإنسان من كونه مرآة للمشيئة الإلهيّة، ومظهراً ثابتاً للإنسان، ليصبح ميداناً لتجاذب قوى الطبيعة وصراعها. فلا مفرّ إذاً للإنسان من الالتحاق بحلبة التنافس هذه»[١].

انتقادات وجهت لفكرة صراع الحضارات:

لقد انبرى الكثير من المفكرين سواء أكانوا إسلاميين أم غربيين لانتقاد الفكرة التي طرحها كل من هنتنغتون وفوكوياما محذرين من خطرها على المجتمع الإنساني وما ستجره عليه من ويلات ومصائب، وأهم هذه الانتقادات يمكن تلخيصها بما يلي:

(١) مدينة السياسة: فصول من تطور الفكر السياسي في الغرب، الصفحة ١٨٣ ـ ١٨٤.

١ ـ أن صراع الحضارات هو الأساس النظري لشرعنة عدوان الغرب بقيادة الولايات المتحدة على الإتحاد السوفياتي والصين والعالم الإسلامي.

٢ ـ لا يمكن لمن يفهم معنى الحضارة التي هي منظومة قيم أخلاقية وعقائد فكرية أن يؤمن بأنها تسعى للسيطرة العسكرية بدلاً من الحوار الفكري.

٣ ـ أن الفكر لا يمكن أن يفرض على الآخرين بالقوة، بل هو عملية إقناع من جهة وتبني من جهة أخرى، وهذا لا يحصل إلا من خلال الإقناع والهداية.

٤ ـ أن الويلات التي تحصل من خلال الحروب لا يمكن أن تكون ناتجة عن فكر حضاري وتنطلق من قيم أخلاقية، بل هي تعبير عن تخلف ورجعية وجاهلية وهذا ما لا ينسجم مع كلمة حضارة نصاً وروحاً.

٥ ـ لا يمكن أن نخفي وقوف الصهيونية العالمية وراء هذه الفكرة الهدامة، لذلك نجد أن من تبناها وعمل لتطبيقها هم أساساً المحافظون الجدد في الولايات المتحدة الأميركية الذين هم في غالبيتهم من اليهود وليس مجرد الانتماء الديني، بل هم من أركان الصهيونية العالمية أمثال أليوت أبرامز، وديك تشيني، وهنري كيسنجر، وغيرهم.

٦ ـ أن طرح صراع الحضارات جاء على خلفية اختراع عدو جديد للمجتمع الغربي على أسس حضارية وليست إيديولوجية، مما يوفر للغرب إمكانية بلورة رؤية مشتركة ما يؤدي للحفاظ على تماسكه وتحالفه السياسي والثقافي خوفاً من منافسات قد تستجد وتؤدي إلى ضرب صلابة التحالف الغربي.

كيف يتبلور الصراع في عصرنا الحاضر؟

إن الذي يقود فكرة الصراع في عصرنا الحاضر هي الولايات المتحدة الأميركية، وقد أعطت لهذا الصراع عناوين مختلفة تتناسب مع ظروف كل منطقة: السياسية، والاقتصادية، والدينية، والاجتماعية، والأخلاقية. وأبرز عنوان تتخذه فكرة الصراع في هذه الأيام هي عنوان مكافحة الإرهاب. فتحت هذا العنوان خاضت أميركا حرباً لا هوادة فيها على أفغانستان أدت إلى احتلالها، وتحت عنوان نصرة الفقراء والضعفاء في السودان تحاول الولايات المتحدة الأميركية اليوم التدخل في الشؤون الداخلية لدولة مستقلة ذات سيادة، على أساس أن هناك شعباً يتعرض للقهر في دارفور. ولكن كل هذه العناوين يجب أن لا تخدعنا، فهدف أميركا من وراء ذلك هو فرض هيمنتها وتسلطها على البلاد الخارجة عن هذه السيطرة، أو كما تسميها هي البلاد المارقة أو محور الشر، إن الهدف الأساسي للولايات المتحدة الأميركية هو فرض المفهوم الأميركي للديمقراطية والسيادة الوطنية والاستقلال. وعندما طرحت بعض الدول تحديد مفهوم موحد للإرهاب من خلال الأمم المتحدة رفضت الولايات المتحدة الأميركية ذلك لأنها اعتبرته أولاً يمنعها من استعمال هذا العنوان لافتة تستغل في قهر الشعوب المستضعفة، وثانياً لأن تحديد هكذا مفهوم سيخرج حركات التحرر الوطني من دائرة الضغط الأميركي، وكذا حركات المقاومة المناهضة للاحتلال الذي يقع على رأسه الاحتلال الصهيوني لفلسطين واحتلال الولايات المتحدة الأميركية للعراق وأفغانستان، وثالثاً فإن هكذا تعريف سيؤدي حتماً لجعلها رأس الإرهاب في العالم. وفي وسط الأجواء العالمية غير المستقرة، وفي ظل المتغيرات التي غيّرت موازين القوى في العالم، برزت في ثوب جديد، فكرة الصراع بين الحضارات، وتمّ تأصيلها في المختبرات الفكرية في الولايات المتحدة الأمريكية، مما يؤكد تأكيداً قوياً، ضلوع

القطب الأوحد المتربع على قمة هرم السياسة الدولية، في ما يمكن أن نصفه بأنه خطة محكمة ومدبرة للزجّ بالعالم كلّه في معارك فكرية، ونزاعات دينية وأزمات سياسية وصراعات ثقافية وحضارية، لتتعزز قواعد النظام الدولي الجديد الذي صاغته القوة الأكثر نفوذاً في العالم، ولتتمهد السبل أمام نظام العولمة الذي تتحكم فيه لبسط نفوذه على العالم أجمع، كل ذلك في سبيل تحقيق السيطرة المطلقة لهم على العالم ومقدراته. لقد أخذت فكرة صراع الحضارات في عصرنا الحديث بعداً جديداً فأصبحت ذات طابع دولي والهدف من ورائه السيطرة على العالم، وفي نفس الوقت الذي يأخذ فيه هذا الصراع بعداً سياسياً فإن البعد الفكري لا يقل أهمية، بل إن كلاً من هنتنغتون وفوكوياما جعلاه صراعاً ذا بعدٍ ثقافي أكاديمي وصار التنظير الفكري هو الطاغي على هذا الصراع، وقد تم تصنيف الحضارة الإسلامية ضمن الحضارات المعادية للحضارة الغربية والتي تدخل، أو ستدخل حتماً طبقاً لهذا التنظير، في صراع مع هذه الحضارة في المستقبل المنظور، مما يحملنا على التساؤل عن الدوافع وراء تفجير الصراع بين الحضارات واستهداف الحضارة الإسلامية والعالم الإسلامي به في هذه المرحلة بالذات؟. لقد سعى المحافظون الجدد في الولايات المتحدة الأميركية إلى توسيع دائرة الصراع الحاصلة بين إسرائيل والفلسطينيين لتصبح حالة صراع حضارات تبرر للولايات المتحدة الأميركية ومن ورائها ما يسمى بالعالم الحر التدخل لصالح إسرائيل للقضاء على حالة التطرف الإسلامي، مما يعيد لحلف الناتو سيطرته على الشؤون السياسية في العالم الذي لن يتم إذا ما بقي الصراع منحصراً بين إسرائيل والفلسطينيين، ومن أبرز المخططين الاستراتيجيين لهذه الأفكار مستشار الأمن القومي السابق «زبيجنيف بريجينسكي» صاحب نظرية «قوس الأزمات»، التي كانت تعني خلق طوق من الحروب الإقليمية والدينية وغيرها على طول حدود الاتحاد السوفياتي مع دول العالم الإسلامي من بنغلاديش وكشمير

وأفغانستان، مروراً بإيران والعراق ومنطقة الهلال الخصيب، نزولاً إلى السودان. إن الولايات المتحدة الأميركية تعتقد أو هي تروج بأنها صاحبة رسالة عالمية وتعطي لنفسها عناوين الخير والحرية، فهم ليسوا أقوى دولة فحسب بل هم خير دولة وخير أمة عرفها تاريخ البشرية، وأخيراً جاءنا جورج بوش الابن ليقول إنهم أكثر الأمم تديناً، وهو ينفذ فيما يرتكب من جرائم وفيما يخوض من حروب إرادة الله عز وجل، وعليه فإن كل ما يحصل من ويلات، على الشعوب المقهورة تحمله لأنه سيولد منه نظام جديد فيه خير البشرية وسعادته وعيشها الكريم، كما قالت وزيرة خارجية الولايات المتحدة الأميركية كوندليزا رايس للبنانيين وهم يتعرضون للقصف الهمجي والمجازر في شهر تموز من العام ٢٠٠٦م: بأن ما يحصل هو مخاض الشرق الأوسط الجديد الذي تعدنا بأنه سيكون نظام الخير والعيش الكريم لنا في كنف الإدارة الأميركية. وهذا ليس جديداً في التاريخ؛ فكل ظالم ومتجبر تحدث بنفس الأسلوب، فهذا فرعون يخاطب شعبه المقهور ليقول له كما ورد في القرآن الكريم:

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[(١)].

نعم هذا هو خطاب كل الطغاة المستكبرين على مر التاريخ حيث إنهم يريدون أخذ أممهم إلى الخير والرفاه والرشاد والسعادة في حين أن التاريخ أثبت أنهم لم يفعلوا ذلك بل كانوا يسومونهم سوء العذاب، وهذا ما أكده القرآن الكريم عن فرعون حيث قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾[(٢)].

(١) سورة غافر، الآية: ٢٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٩.

هذا فرعون نفسه الذي قال لشعبه إنه يريد له الخير والرشاد فإذا به يستغله في بناء قصوره وأهراماته ويسخره لخدمته ويخوض به الحروب ليوسع سلطته وما فرعون الأمس عن فراعنة اليوم ببعيد.

١٠ ـ حوار الحضارات

ذهب بعض آخر إلى أن الحضارات ستتجه حتماً إلى الحوار لا إلى الصراع وساقوا لذلك أدلة كثيرة نبين أهمها على الشكل التالي:

أ ـ حوار الأديان ضرورة إنسانية:

في فترة سيطرة الأفكار المنحرفة عن الدين المنطلقة من أوروبا والتي وصلت إلى حد نكران وجود الباري عز وجل والاتجاه إلى سيطرة الفكر المادي وتواري تأثير الدين في حياة الناس لا بسبب نفس الدين وقواعده ومفاهيمه وأحكامه بل لعدم قيام المؤمنين بواجباتهم وخاصة من قام بالتصدي للشأن الديني سواء الرهبان والقساوسة أو علماء الدين الإسلامي، أو لنكون أكثر دقة لعدم قيامهم بالدور المطلوب منهم بشكل كامل والاكتفاء بدور محدود، في حين أن المطلوب منهم صيانة المجتمع عن الانحراف ودلالة الناس لمنهج الحق والدعوة لسبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ونتيجة التقصير الفاضح نجح أعداء الدين في نشر فكرهم المنحرف فقام ماركس بترويج نظريته الخطيرة أن الدين أفيون الشعوب، في حين ذهب نيتشه إلى القول بموت الإله ومعنى ذلك انتفاء تأثيره أو تأثير هذه الفكرة في الحياة، في هذه الفترة عاش العالم مآسي وويلات بسبب حربين عالميتين أدت إلى ما أدت إليه من خراب ودمار، فإذا بالناس يعودون من جديد إلى الدين لأنهم وجدوا به خلاصهم وراحة نفسهم. وهذا الأمر دل على أن صدام الحضارات يؤدي إلى مآسي وويلات لا تتناسب مع حضارية الحضارة ما أكد ورسخ أن الحل هو بحوار هذه الحضارات للوصول نحو

الأفضل عبر مسيرة تكاملية. وسط هذه الأجواء جاءت الدعوة لحوار الحضارات كبديل موضوعي وإيجابي لفكرة صدامها، وهو جاء بمثابة رد فعل عاقل ومتوازن من قبل بعض العلماء والدعاة والقيادات المسلمين ما أدى إلى بروز صدى إيجابي لدى كثير من علماء الغرب ومفكريه وهذا ما شجعهم على تبني هذه الفكرة والدعوة إليها.

ب ـ الحوار جزء من التفكير الديني:

إن الدين عندما يدعو للحوار فإنه يدعو إلى ذلك انسجاماً مع العقيدة والمفاهيم التي يدعو إليها، وهو لا يتحرج من تبيان عقيدة الكفار في إطار المفاضلة بينها وبين ما يدعو إليه الدين وذلك كي يهتدي الباحث عن الحقيقة إليها، فعملية استكشاف الآخر يمكن أن تجدها في كل قصص الأنبياء الواردة في القرآن الكريم والتي يبين فيها القرآن ما ورد على لسان الكفار، وإن كان كلامهم يحتوي ما ينكر وجود الله عز وجل لكنه يوردها بلا حرج لأنه في الأساس يمتلك قناعة لا لبس فيها، وإذا رجعنا إلى ما نقل عن لسان النبي إبراهيم عليه السلام من بحث عن الله لخير دليل ،إذ يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾(١).

(١) سورة الأنعام، الآيات: ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩.

أن ينقل لنا القرآن سرداً فيه إمكانية أن يكون هناك ربٌ غير الله هو دليل على متانة هذا الدين من جهة، إضافة إلى ذلك هو دليل على الدعوة إلى الحوار من دون أن يكون هناك حواجز أمام هذا الحوار. هذا الحوار الذي يؤدي إلى إزالة سوء الفهم المتبادل من خلال التعرف على الآخر بشكل عميق وواعٍ والتخلص من الصور النمطية السلبية التي تروج لها أحياناً بعض وسائل الإعلام وبعض المنظمات السياسية والمدنية عن الآخر باعتباره الخطر والتهديد والعدو.

ج ـ حوار الأديان ليس جديداً في الإسلام:

بالرغم من أن فكرة حوار الحضارات قد تصاعدت في الآونة الأخيرة خاصة مع طرح فكرة نهاية العالم إلا أن ذلك ليس جديداً في الإسلام، وهي وإن تصاعدت لدى الإسلاميين في الفترة الأخيرة في مواجهة ما طرح من خلال صراع الحضارات، إلا أنه وبنظرة مدققة في التاريخ الإسلامي نجد أن أئمة المسلمين ومفكريهم واجهوا الأفكار الواردة على الأمة من خلال حركة الترجمة والتعريب والانفتاح على الحضارات الأخرى من خلال النقاش الفكري ما أثرى المكتبة الإسلامية بكتب فريدة في فهم أو نقض الأفكار الواردة انطلاقاً من وجهة نظر الإسلام، ما يؤكد أن موضوع حوار الحضارات لم يكن مجرد فكرة يتبناها المسلمون بل هي عملية طبقوها وأرخها لنا مؤرخوهم وتضمنتها كتبهم وأبحاثهم.

د ـ عالمية الإسلام وحوار الحضارات:

قد يطرح البعض أنه لا ينسجم ما تقولونه حول موضوع الحوار بين الحضارات وبين عقيدتكم التي تدعي عالمية الإسلام والذي يعني فيما يعني أن هذا الدين يسعى لإجبار العالم على التمسك بدين واحد هو الإسلام، ولكن هذا الكلام ليس دقيقاً، بل يجب أن نفرق بين الدعوة للدين بما هو

سعي لهداية الآخرين إلى الحق وبين النظرة إلى المعتقدات الأخرى التي اعتبرها الإسلام مسألة طبيعية وجزء من السنن الكونية التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الكون، ويدل على ذلك قول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(١).

فالإسلام يرى تعددية الشرائع الدينية وهو يعتبرها سنة ولذلك فهو يدعو إلى التفاعل بينه وبين باقي الديانات والحضارات، بل إن عقيدة المسلم لا تكتمل إلا إذا آمن بالرسل الذين جاءوا قبل نبينا محمد ﷺ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٢).

وهذه الدعوة يجب أن لا تفهم على أن الإسلام يتسامح إلى درجة الذوبان في أي كيان من الكيانات التي لا تتفق مع جوهر الدين. فهذا التسامح لا يلغي الفارق والاختلاف، ولكنه يؤسس للعلاقات الإنسانية التي يريد الإسلام أن تسود حياة الناس فالتأكيد على الخصوصيات العقائدية والحضارية والثقافية، لا سبيل إلى إلغائه، ولكن الإسلام لا يريد لهذه الخصوصيات أن تمنع التفاعل الحضاري بين الأمم والشعوب والتعاون فيما بينها.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

هـ ـ حوار الأديان في أوروبا:

مفهوم حوار الأديان كان له دور في أوروبا في مواجهة حالة الصراع المذهبي التي عاشتها وعانت بسببه عدد من المذاهب حالة اضطهاد ديني كما حصل مع البروتستانت الذين نادوا بفكرة حوار الأديان لضمان بقائهم كأقلية دينية كانت مهددة بالزوال بسبب الحملة التي شنت عليها؛ فطرحوا فكرة القبول بالآخر في مجتمع كانت الكاثوليكية هي صاحبة الانتشار الأوسع.

١١ ـ العلاقة بين الحضارات هل هي علاقة حوار أم صراع؟

لا يمكن أن تكون الحضارة حضارة بمعنى الكلمة إن هي سعت للسيطرة على غيرها وقهرها لفرض رأيها وسلوكها وعاداتها وتقاليدها ومنطقها وثقافتها، فالحضارات لا تتصارع بل تتكامل مع بعضها البعض ذلك أن الحضارة عبارة عن خلاصة الفكر البشري والإنساني أو هي ناتجة عن دين أرسله لنا الله عبر رسول من رسله، فالعلاقة يجب أن تكون علاقة المسار التاريخي الذي يتصاعد نحو الكمال الإنساني الذي سيصل إليه الإنسان إن هو قام بواجبه الذي فرضه الله سبحانه وتعالى عليه. لقد اعتبر عدد من المفكرين الغربيين، خاصة الأمريكيين منهم، أن صراع الحضارات أو صدامها أمر حتمي، وهم بذلك يقعون فيما انتقدوه من فكر الماركسيين الذين اخترعوا نظرية الحتمية التاريخية، هذه النظرية التي أصبحت وكما قال الإمام الخميني (قدس سره) من مخلفات التاريخ الفكري للبشرية في القرنين التاسع عشر والعشرين. إن السنن التاريخية تؤكد أن الحضارات لا يمكن أن تتصارع، ذلك أنها لا طابع عرقي لها، وهي لا ترتبط بجنس من الأجناس، ولا تنتمي إلى شعب من الشعوب، على الرغم من أن الحضارة قد تنسب إلى أمة من الأمم، أو إلى منطقة جغرافية من مناطق العالم على سبيل

التعريف ليس إلاَّ، بخلاف الثقافة التي هي رمزٌ للهوية، وعنوانٌ على الذاتية، وتعبيرٌ عن الخصوصيات التي تتميز بها أمة من الأمم، أو يتفرّدُ بها شعبٌ من الشعوب، ولذلك فإن ما يحصل بين الدول من صراعات ليس صراعاً حضارياً بقدر ما هو صراع سياسي وتنازع مصالح بين قوى متناحرة. والحقيقة كما قدمنا سابقاً أن الحضارة تعبر عن مجموعة أفكار ومبادئ عامة، تنبع من عقيدة دينية، أو من فلسفة وضعية، حتى وإن تعدّدت العقائد والفلسفات، فإنَّ الخصائص المميزة للحضارة، تُستمدّ من أقوى العقائد رسوخاً وأشدّها تمكّناً في القلوب والعقول ومن أكثرها تأثيراً في الحياة العامة، بحيث تصطبغ الحضارة بصبغة هذه العقيدة، وتنسب إليها، فتكون النسبة صحيحةً، لصحة المبادئ التي تستند إليها، ومثال ذلك الحضارةُ الإسلامية. وبالرجوع إلى الحضارات الكبرى التي عرفها تاريخ البشرية نجد أنها تَتَفَاوَتُ فيما بينها في موقفها من المادية والروحية، فمنها ما يغلب عليه الجانب المادي، ومنها ما يغلب عليه الجانب الروحي، ومنها ما يسوده التوازنُ بينهما. والحقيقة فإن هناك تعبيرين يختلفان اختلافاً كبيراً ومع ذلك يقع الخلط بينهما، وهما صراع المصالح من جهة وصدام الحضارات من جهة أخرى. فإن العبارة الأولى تعبير عن مسألة معقولة وممكنة وهي أن المصالح بين البشر تتضارب ويمكن أن ينتج عن هذا التضارب صراع أو صراعات ويمكن بعد ذلك الوصول إلى حل يؤدي إلى توازن المصالح من دون اللجوء إلى الحرب والصراع الدامي، ويمكن لنا بمراجعة الكثير من الاتفاقات الدولية التي توصلت إليها دول الغرب لحل خلافاتها أخذ أمثلة على ذلك، أما عبارة صدام الحضارات فهي أولاً عبارة خاطئة لما قلناه من أن الحضارات لا تتصارع، وثانياً فإنها إن حصلت فلا مجال فيها إلا للحسم وهي غير قابلة للحلول الوسط ما يؤدي إلى حروب طاحنة تودي بحياة الملايين، وهي وإن توقفت فإن توقفها سيكون ظرفياً

ينتهي بانتهاء فترة الراحة التي أخذتها الأمم المتحاربة بسبب الخسائر الكبيرة لتعود إلى حرب ثانية وهكذا، والصحيح أن العلاقات بين الحضارات هي علاقة تعارف وتداخل وليست علاقة تصادم. أما الحروب التي وقعت في أوروبا فهي حروب ناتجة عن تضارب مصالح فيما بينها وليست صراعاً بين حضارات مختلفة، فأوروبا في ذلك الوقت كانت تنتمي إلى المجتمع الغربي المسيحي دينياً والرأسمالي لجهة الفكر الاقتصادي. بل يمكن لك أن تجد أن لقاء المصالح أدى إلى تحالف روسيا الشيوعية مع أميركا الرأسمالية في محاربة سعي ألمانيا الهتلرية للسيطرة على العالم. فالحضارة إذن، سلسلة متعاقبة من الحضارات التي تخلي كلٌّ واحدة منها المجالَ لما سوف يتلوها من حضارة أخرى، مما جعل كثيراً من الباحثين في مجال دراسة الحضارات يذهبون إلى القول بوجود التماثُل والتطابُق بين الكثير من هذه الحضارات مما لا يدع مجالاً للصراع. وإذا سألت ما هو تفسير الحروب التي خيضت في التاريخ من حضارات مختلفة على حضارات أو شعوب أخرى؟ فالجواب، أن هذا سؤال مشروع غير أنه لا يغير من كلامنا في شيء ذلك أن الذي خاض هذه الحروب ليس أصحاب الحضارات، أو بمعنى آخر الحضارة لا علاقة لها بالحروب، بل إن الحكام وانطلاقاً من شهوة التسلط والسيطرة حاولوا توسيع حكمهم على بلدان أخرى، وهو ما فسره القرآن الكريم بالتدافع الحضاري الذي يؤكد بطلان نظرية صراع الحضارات فيقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

وحول الدفع يقول الله سبحانه وتعالى في آية أخرى:

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾(١).

والحياة الإنسانية قائمة على أساس ﴿دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، فهذا هو القانون الأزلي للبشر فوق الأرض، وهو سنة الله ولن تجد لسنة تبديلاً. وبذلك تتهاوى مزاعم الصراع، وتسقط افتراضاته، وتتهافت حتميته. فالذي حصل على مر التاريخ ليس في الحقيقة صراع حضارات، بل هو في جوهره تدافع، ذلك أن الصراع كما في الآية الكريمة يؤدي إلى الفساد في الأرض في حين أن التدافع يؤدي إلى تراكم التجربة الحضارية الموصلة إلى رقي المجتمع وعمارة الأرض. ونخلص مما تقدم إلى أن الصراع ليس حتمياً كما ذهبت إليه النظرية الماركسية أو ما ذهب إليه الثنائي هنتنغتون وفوكوياما بل تدافع يوصل إلى التكامل الإنساني ورقي الحضارات.

١٢ ـ إلى ماذا يدعو الإسلام؟

بالرجوع إلى الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والسيرة النبوية يتبين لنا بكل وضوح أن الإسلام يدعو إلى الحوار وينبذ الفرقة والصدام والاقتتال، والحوار مبدأ أساسي فيه ولا يمكن أن يقبل الإسلام فرض الرأي والعقيدة على الآخرين، بل إنه يدعوهم إلى تقبلها من خلال الاقتناع الفكري والحوار الإنساني الهادئ المنطلق من المنطق السليم والمسلمات الفكرية المنطلقة من القواسم المشتركة التي نؤمن بها نحن ومن نتحاور

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠.

معه. والدين باعتباره سلوكاً فردياً منطلقاً من النية ولا يتعلق أبداً بالظواهر البادية من خلال العمل، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

فالإسلام لا يفرض الدين على أحد بل يدعوهم للنظر والتفكير بخلقه وما حوله ليتأكدوا من أن هذه الدنيا لا يمكن أن تكون إلا من إبداع خالق حكيم لا يتركنا دون أن يُبين لنا كيفية التوصل إليه، فأرسل لنا رسله بالحق ومعهم رسالاتهم التي تخرجنا من ظلمات الجهل إلى نور العلم والإيمان، وبيّن لنا الخير من الشر، والرشد من الغي، فلا بد من الإيمان بالله ورسله وكتبه انطلاقاً من القناعة الفكرية لا من خلال القهر والفرض، ولذلك يدعو الإسلام للحوار توصلاً للحقيقة، وبالتالي فإنه يدعو لحوار الحضارات لا صراعها. ويأمر اللّه عباده بالدفع بالتي هي أحسن في جميع الأحوال، فيقول سبحانه تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[2]

ويقول الله عز وجلّ في آية أخرى:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[3].

بالنظر إلى ما تقدم، يتبين لنا أن الإسلام يطرح فكرة أخرى بديلة عن فكرة صراع الحضارات التي تؤدي إلى الويلات والمصائب، وهذه الفكرة هي فكرة التفاعل الحضاري الذي يدعو إلى أن تأخذ الحضارات من بعضها

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٤.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.

البعض ليكمل النقص عند إحداها بما حققته الأخرى فتتساوى الحضارات في الرقي والمدنية والكمال الإنساني. وهذا الأمر الذي نتحدث عنه ليس فكرة ابتدعناها نحن المسلمون، بل هي أمرٌ شهد لنا به علماء الغرب قبل علمائنا، فها هو المفكر الغربي كريستوفر دوسن، يقول في كتابه (تكوين أوروبا):

«إن الحضارة الإسلامية احتفظت بمركز الصدارة منذ أوائل العصور الوسطى فصاعداً، لا في الشرق فحسب، بل كذلك في غرب أوروبا، إذ نمت الحضارة الغربية في ظلال الحضارة الإسلامية التي هي أكثر منها رقياً وقتذاك، وكانت الحضارة الإسلامية العربية ـ لا البيزنطية ـ هي التي ساعدت العالم المسيحي في العصور الوسطى على استرداد نصيبه من التراث اليوناني العلمي والفلسفي»(١).

إن التفاعل الحضاري الذي يدعو إليه الإسلام ليس أمراً باطنياً، بل هو دعوة واضحة كرسها القرآن الكريم من خلال الدعوة للحوار انطلاقاً من القواسم المشتركة بيننا وبين من ندعوه للحوار، فمع أهل الكتاب كانت الدعوة إلى أن يكون الإيمان بالله الواحد هو القاسم المشترك في عملية الحوار فقال سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٢).

أما في الحوار في الأساس من دون تحديد للجهة التي نحاورها دعا

---

(١) تكوين أوروبا، الصفحة ٢٠٣.
(٢) سورة آل عمران ٦٤.

الإسلام أن ننطلق في هذا الحوار من أن لا مقدسات، بل كل شيء قابل للطرح والمناقشة، فقال الله سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

فهذه الدعوة للحوار والتي تفرض مسبقاً قبل بدايته أنه يمكن أن نكون على ضلال مقدمة لوضع إمكانية أن يكون الآخر على صواب انطلاقاً من الفكرة العظيمة التي تقول: «فكري صواب يحتمل الخطأ وفكر غيري خطأ يحتمل الصواب». هذه الدعوة تعتبر دليلاً واضحاً على أن هذا الدين يدعو لعملية التفاعل الحضاري مع الحضارات الأخرى مقدمة للوصول إلى الحقيقة التي يسعى إليها كل إنسان يريد أن يرتاح في دنياه ويعرف الهدف الذي من أجله وجد. وبذلك يمكن لنا أن نعتبر أن عملية التفاعل الحضاري من خلال نظرية التدافع يمكن أن تطور البشرية، في حين أن الدعوة للصراع ستؤدي حتماً إلى زوال الأمم مع ما يصاحب ذلك من مصائب ومصاعب وكوارث اجتماعية وإنسانية. من جهة أخرى يعتبر الإسلام أن العلاقات بين البشر تقوم على أساس التعارف والتعاون على البر والتقوى وليس على الصراع والقتال، ذلك أن البشر جميعاً من أصل واحد وهو التراب، ومن أب وأم واحدة هما آدم وحواء عليهما السلام، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2].

ومعنى التعارف هنا أوسع من مجرد المعرفة السطحية، بل هو أوسع

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

دلالة من ذلك، إذ إن معناه التعارف المؤدي إلى التبادل المعرفي الذي يعني أن يعرف بعضنا آراء بعض ويتبادلها مع الآخرين، ومن خلال ذلك نتعرف على الخطأ والصواب في ذلك فنلغي الخطأ لمصلحة الصواب، وعليه كلما تعارفنا أكثر كلما قلت فرص التنازع العسكري والخلافات السياسية. ذلك أن المشكلة الأساسية في بعدنا عن الحوار هي جهلنا بالآخر وكما قيل: «الإنسان عدو ما يجهل». ومن ناحية أخرى، فإن السنة الإلهية تقضي أنه في النهاية سينتصر الإسلام بصفته ديناً إلهياً وهذا ما وعدنا به الله عز وجل بقوله:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[١].

إن الإسلام يعتبر إن الأصل في الحضارات هو التفاعل وليس الصراع الذي هو شذوذ عن القاعدة يتنافى مع الفطرة الإسلامية، أما الكلام عن صراع الحضارات فهي أفكار ابتدعها بعض من سعى للسيطرة على العالم من خلال بث الفرقة بين أبناء البشر وتقسيمهم بين معسكر الأقوياء ومعسكر الضعفاء، وأن على الضعفاء أن يسيروا في ركب الأقوياء وإلا فإنهم سيلاقون المصير الأسود الذي ينتظر كل من كان مثلهم، وفي مقلب آخر حاول ماركس استغلال الضعفاء، في عملية التسلط ليتحول بعد ذلك الضعفاء إلى أقوياء يسيطرون على العالم وتنقلب الآية وتستمر عملية الصراع المتجددة، والتي لن يكون لها نهاية إلا بالرجوع إلى الإسلام الذي يبني ولا يهدم، ويدعو للتفاعل لا للتقاتل.

---

(١) سورة الصف، الآية: ٨.

البحث الرابع

مفهوم الحرية
من منظور إسلامي

٤ ـ مفهوم الحرية من منظور إسلامي

١ ـ مقدمة

تعتبر مسألة الحرية من المسائل الأكثر إثارة في القرنين الأخيرين، وقد اتهم الإسلام في هذا المجال تهماً باطلة تعبر عن جهل بأحكامه وتعاليمه، وما سنحاول أن نستعرضه في هذا المجال هو توضيح لنظرة الإسلام إلى الحرية لما لهذا المفهوم من معان سامية لا يمكن أن يقف الإسلام بوجهها ويعاديها.

ومسألة الحرية لم تظهر مع الإسلام وبالتالي لم تظهر في القرنين الأخيرين، وليست هي من منتجات الثورة الفرنسية، بل هي منذ بداية تكون الفكر لدى البشرية، إنها دعوة كل الأديان وهذا ما سنبينه في طيات البحث.

إن البشرية عبر تاريخها الطويل سعت نحو تكوين الحقوق الفردية والجماعية، لذلك ترى أن التاريخ يذخر بالثورات ضد الظلم والطغيان. وتدعو هذه الثورات إلى تغيير الواقع المزري الذي يعيشه البشر إلى ما هو أفضل وأصلح للبشرية. وتارة يكون التغيير من خلال إصلاحيين دون تدخل إلهي، وتارة يكون السعي نحو التغيير من خلال أنبياء ورسل يرسلهم الله سبحانه وتعالى لإعطاء البشر حقوقهم التي فرضها الله عز وجل لهم، ومن ضمنها الحقوق الفردية والجماعية التي يقع على رأسها الحرية بأشكالها كافة.

إننا وبالرجوع إلى داخلنا نستطيع أن ندرك أن كلاً منا يعيش في داخله توقاً للتحرر من القيود التي يفرضها عليه النظام خاصة إن كان هذا النظام نظاماً بشرياً ويتسم بالظلم، وبالتالي يمكن لنا أن نقول إن الحرية هي من الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها.

فالله عز وجل عندما خلق الإنسان خلقه حراً، وبالتالي فإن هذه المنحة التي منحه إياها الله سبحانه وتعالى لا يجوز له التخلي عنها والتهاون فيها، وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذا المعنى ما يلي:

«ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً»[١].

إن الله عز وجل أرادنا أن نكون أحراراً بل هو خلقنا وجعلنا كذلك، وما كان من قبيل الجعل من قبل الخالق لا يجوز التخلي عنه والمس به من قبل المخلوق، حيث إنه لا يملك التصرف في أمر هو من اختصاص خالقه.

إن الله عز وجل أراد للإنسان أن يكون حراً مختاراً مهما كان لونه أو دينه أو فكره أو مذهبه، وهذا معنى التكريم الذي منحه إياه عندما قال في كتابه الكريم:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[٢].

ومعنى التكريم هو جعله مخلوقاً مختلفاً عن غيره من المخلوقات وذلك بأن جعله مخلوقاً مفكراً مختاراً.

وبنظرة مدققة للكون نجد أنه في الوقت الذي يذخر بالتنوع الكبير بين

(١) نهج البلاغة، الجزء ٣، الصفحة ٥١.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

الجميل والقبيح، الطويل والقصير، الجيد والرديء، نجد أن هناك تنوعاً كبيراً في العقائد والأفكار والديانات منها المتقارب ومنها المتعارض حتى يصل إلى درجة التناقض. والأسئلة التي تتبادر إلى الذهن هنا هي أنه حيال هذا التنوع الشامل هل ينفي الإسلام العقائد الأخرى المخالفة ويمنعها من الوجود وحرية الحركة؟ هل يعطي الإسلام للفكر المخالف صفة المشروعية أم يسلبها ولا يعترف بها؟ هل يسمح الإسلام للدين أو المعتقد الآخر أن ينشر فكره حتى في الوسط الإسلامي خاصة في فرض تناقض هذا الفكر معه؟ ألم يسعى الإسلام إلى فرض معتقده بالقوة من خلال الفتوحات الإسلامية والتي سعى من خلالها إلى تطويع مجتمعات كثيرة له دون أن يفسح بالمجال لهم في ممارسة طقوسهم بحرية.

٢ ـ معنى ومفهوم الحرية

الحرية في اللغة مقابل الرق والعبودية، والمقصود منها اصطلاحاً التحرر من كل القيود التي يمكن أن تفرض على الإنسان سواء على صعيد المعتقد أو الفكر أو التعبير، وكل ما يمكن أن يعبر عن الإنسان في نمط تفكيره وأسلوب حياته والمظهر الذي يريد أن يتمظهر به.

وقد عُرفت الحرية أو الليبرالية بما يلي:

«الليبرالية مفهوم إنساني يعبر عن وسيلة متغيرة لتحقيق غاية ثابتة هي ضمان حرية الفرد والتطلع من ثم إلى إقامة نظام متكامل من العدل الاجتماعي الشامل»[1].

وقد اختلف في مفهوم الحرية هل هو واسع ليشمل كل شيء أم أنه

---

(١) جريدة الرياض، مقالة الليبرالية من منظور إسلامي، للكاتب يوسف أبا الخيل في ٢١/آب/٢٠٠٧.

مقيد بقيود يحددها نظام معين أو شريعة محددة؟ وقد ذهب البعض إلى أن الحرية هي كل شيء، ولا قيمة لشيء من دونها، ولتوضيح المقصود نورد ما نقله عبد الله العروي حيث قال في مفهوم الحرية ما نصه:

«تعتبر الحرية المبدأ والمنتهى، الباعث والهدف، الأصل والنتيجة في حياة الإنسان، وهي المنظومة الفكرية الوحيدة التي لا تطمح في شيء سوى وصف النشاط البشري الحر وشرح أوجهه والتعليق عليه»[١].

هذا المعنى في جوهره الذي يعني حماية الفرد في أن يؤمن بما يريد ويفكر بالطريقة التي يعتقدها صحيحة، ومزاولته للطقوس التي يؤمن بها، لا يتعارض مع الإسلام وإن كان هناك خلاف في التفاصيل كما سنبين في طيات البحث.

يعتبر الإسلام الحرية سبباً للحساب أمام الله عز وجل ولا يقبل من الإنسان أن يتذرع بأن الشيطان سيطر عليه وغشه ودهاه؛ لأن قدرة الإنسان على التفكير وحريته في اختيار الدين موجودة وهي الأساس للمحاسبة، فقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عن قصة إبليس ما نصه:

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢].

وكما أنه لا يمكن للإنسان أن يدعي أن الشيطان قد غشه إذ لا سيطرة

---

(١) مفهوم الحرية، الصفحة ٣٢.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

للشيطان على الإنسان الذي هو حر في الاختيار، وكما لا نستطيع أن نفعل ذلك مع الشيطان كذلك لا نستطيع مع أي شيطان آخر من شياطين الإنس والجن.

أصالة الحرية:

وقع خلاف حول هل أن الحرية هي الأصل بحيث أن سلبها عن الفرد يحتاج إلى دليل، أم أنها ليست كذلك بحيث نحن بحاجة إلى تقديم تبرير عند منحها إلى أي فرد؟ فلو كانت الحرية هي الأصل فإنك لن تستطيع التدخل في شؤون الآخرين، بينما لو أنها لم تكن كذلك فإنك تستطيع سلبها عنهم والتعامل معهم على أساس سؤالهم عن أي فعل يقومون به وطلب تبريرهم لهذه الأفعال.

بالرجوع إلى آراء المفكرين نجد أنهم شبه مجمعين على أن الحرية هي الأصل، ولذلك لا يجوز عندهم التدخل في شؤون الآخرين وتصرفاتهم إلا بقدر تحدده قوانين يتفق عليها المشرعون في مجتمع ما، أو التشريعات الإلهية المعتمدة في المجتمعات الدينية. وعليه، فأنت لست بحاجة إلى تقديم تبرير لكون الإنسان حراً فيما يفعل، بل إن تدخلك في شؤونه هو المحتاج إلى دليل.

٣ ـ الحرية في المجتمعات الغربية

لقد عانى المجتمع الغربي من قيود كبيرة على الحرية بحيث حولت مجتمعاتهم إلى مجتمعات عبودية في بعض مراحل التاريخ في أوروبا؛ ففي تاريخها القديم كانت العبودية موجودة في بعض مراحلها، وقد قام فلاسفة كبار كسقراط، وأفلاطون، وأرسطو، بمعارضة الطبقية التي كانت سائدة في ذلك الزمان، كما قام كل من جان جاك روسو وفولتير بالتمرد على الاستبداد الذي كان سائداً في زمانهم.

ففي العصور الوسطى مثلاً رزحت الشعوب الأوروبية في ظل القمع والإرهاب باسم الكنيسة والدين المسيحي حيث سن الملك الفرنسي شارلمان قانوناً يقضي بإعدام كل من يرفض أن يتنصر، ولما قاد حملته القاسية على السكسونيين والجرمان أعلن أن غايته إنما هي تنصيرهم.

أما محاكم التفتيش التي أنشأتها الكنيسة في تلك العصور فإن لها من السمعة السيئة والسجل القاتم ما دعا الكنيسة للتنصل منها لاحقاً، فقد عملت على فرض آراء الكنيسة على الناس باسم الدين، والتنكيل بكل من يرفض أو يعارض شيئاً من تلك الآراء، فنصبت المشانق وأشعلت النيران لإحراق المخالفين، ويُقدر عدد من عاقبتهم هذه المحاكم بحوالي ثلاثمائة ألف شخص أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً وهم أحياء، منهم العالم الطبيعي برونو الذي نقمت منه الكنيسة لأنه قال بتعدد العوالم وحكمت عليه بالقتل بأن لا تراق من دمه قطرة، وذلك يعني أن يحرق حياً وهذا ما حصل، وهكذا عوقب العالم الطبيعي الشهير غاليلو بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس.

وعندما اكتشف الأوربيون القارة الجديدة أو العالم الجديد كما أسموه لم يتعاملوا مع الشعوب هناك أي الهنود الحمر معاملة إنسانية، بل قمعوهم واستعبدوهم وخاضوا في وجههم حروب إبادة تعتبر من أقسى حروب الإبادة في التاريخ، ثم ما لبثوا أن جلبوا إلى هذا العالم الجديد الزنوج من أفريقيا بالقوة والقهر واستعبدوهم وسخروهم لخدمتهم وزراعة مزارعهم، وهذا الأمر لا يقف عند حدود حرية التعبير، بل تعداه بشكل كبير نحو استعباد الشخص في كامل حريته ليصبح عبداً يخدم أسياده تماماً كما الحيوانات تخدم أصحابها.

وإن قلت أليس في الإسلام أحكاماً للعبيد الذين كانوا يباعون

ويشترون ويمارس عليهم ما مارسه الأوروبيون المستعمرون على الأفارقة وأبناء العالم الجديد؟ قلت: إن الرق والعبودية ليس من إنتاج المجتمع الإسلامي ولا هو الذي جاء به إلى مجتمع الجزيرة العربية، بل إن الإسلام جاء إلى مجتمع كان الرق مستشر فيه بحيث لا يمكن أن يأتي ليلغيه فجأة، بل تعامل معه كأمر واقع شجع على التخلي عنه من خلال التحفيز على تحرير العبيد الذين عند شخص ما كلما وقع في خطأ يوجب عليه كفارة يكون في أساسها تحرير رقبة مؤمنة، ومن ذلك ما قاله الله عز وجل في كتابه الكريم:

﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(١).

إن التشجيع على تحرير رقبة بسبب أم من دون سبب سوى الطمع في الأجر والثواب من الله عز وجل أدى إلى إنهاء حالة الرق في الإسلام من دون حاجة لا إلى ثورة من العبيد ولا إلى حتى المطالبة بذلك. في حين أن تحرير العبيد في المجتمعات الغربية خاصة في أميركا لم يحصل إلا بعد سلسلة من الثورات أدت إلى قتل مئات الآلاف من الناس وهم إلى الآن لم يحصلوا على ما يريدوه من الحرية، إذ إن العبودية ما زالت موجودة وإن كانت بأسلوب وطريقة مختلفتين. فما حصل من تمييز عنصري في جنوب أفريقيا في القرن العشرين والثورة للخروج من هذا التمييز مع ما كلفت الشعب الأسود من قتلى وجرحى ومعوقين خير دليل على ما نقول.

إن مبدأ حرية التعبير مثلاً ظهر في أوروبا في وقت كان هناك سعي لسلخ الدين عن حياة المجتمع هناك وأدى ذلك لولادة نظام من نوع جديد

---

(١) سورة القصص، الآية: ٣.

هو النظام العلماني اللاديني وذلك كرد فعل طبيعي على مواجهة استشراء حكم رجال الدين في تلك الفترة وظلمهم للشعوب الأوروبية.

ومن جهة أخرى، تحولت الحرية في المجتمعات الغربية إلى تفلت وترك للقيم والأخلاق؛ بحيث تحول الشباب إلى عصابات أحداث تنمو لتصبح عصابات منظمة ومافيات للتجارة بالمخدرات.

إن الاختلاط والإباحية في المجتمعات الغربية خاصة في الولايات المتحدة الأميركية هددت الأسر وحولت المجتمعات إلى مجتمعات خالية من القيم والأخلاق، فالفتاة تحت سن العشرين تخالط الشبان، وتذهب للبارات، وتشرب الخمر، وتتعاطى المخدرات ولا يستطيع أهلها الوقوف في وجهها إما لأنهم مقتنعون بأنها لها الحرية في أن تفعل ما تريد، وإما لأنهم مثلها في التهتك والانحراف، أو لأنهم لا يستطيعون الوقوف بوجهها خوفاً منها ومن العصابات التي تنتمي إليها.

كل ذلك يرتكب باسم الحرية حتى بات المجتمع الغربي يعاني اليوم أزمة في بنيانه الاجتماعي من خلال ترهل وتهاوي بنيان الأسرة التي تشكل الخلية الأساسية في المجتمع.

لقد بات الإنسان في المجتمع الغربي إنساناً لا يؤمن بأي قيم؛ يتزوج ساعة يشاء ثم يطلق بسرعة البرق، بل يعاشر من دون أي عقد زوجي حتى بات العدد الأكبر للأطفال في المجتمع الغربي هم أطفال أنجبوا خارج مؤسسة الزواج.

إن هذه الأجواء تؤكد أن هناك خللاً بنيوياً في تعريف قيمة الحرية لدى الغرب أدت إلى حالة من الظلم الفادح وإلى انتهاك كثير من القيم وعدم مراعاة للمقدسات حتى أنهم يستهزئون بالسيد المسيح عليه السلام مع أنهم

في أغلبهم مجتمعات نصرانية تقدسه وتعتبره في بعض الأحيان إلهاً أو ابن إله ما يدل على هذا الخلل البنيوي عندهم.

وهنا أحب أن الفت إلى قضية مهمة وهي تلك الشعارات التي يواجهنا بها بعض المتأثرين بالغرب، فيطرحون علينا أن الحضارة والتقدم في الغرب سببها هذه الحرية المطلقة التي لا حدود لها والتي يستطيع فيها الإنسان فعل ما يريد، فتنطلق أفكاره لتنتج إبداعاً وتعطينا مثلاً يجب أن يحتذى إن أردنا السير في ركب التطور.

ولكن الصحيح أنه حتى في المجتمعات الغربية لا وجود لشيء اسمه حرية مطلقة، بل إن هناك حدوداً يرسمها القانون، فهناك قوانين السير التي تمنع السائق من إطلاق حريته في قيادة سيارته كيفما شاء، وهناك القوانين في الأحوال الشخصية التي تمنعه من الزواج من امرأة ثانية حتى لو كانا متحابين ومتفاهمين على ذلك، فأين هي هذه الحرية التي تمنع فيها النساء من الحجاب في مدارس فرنسا، ويمنع فيها المسلمون في بعض بلدان الغرب من أن يذبحوا ذبائحهم على الطريقة الإسلامية؟

إن الحرية في المجتمعات الغربية جعلت الفرد يعيش خارج إطار المجتمع فيعيش لوحده ولا يلتفت إلى الآخرين في مجتمعه من أبناء جلدته بعين الرحمة والشفقة والتعاون. وفي هذا المجال يقول باكنيون ما نصه:

«إن البالغين كافة يجب أن يصبحوا أحراراً بحيث يمارسون حرية التعبير عن كل الآراء حتى لو كانت أغراضها غير أخلاقية بل حتى من أجل الدعوة إلى تدمير الحرية»[1].

إن كلام باكنيون هذا دليل على أن المجتمع الغربي لا يحترم الرأي

---

(١) تسامح الغرب مع المسلمين، الصفحة ١٢٦.

الآخر ولا الفكر الآخر ولا التعبير الآخر. فكيف تطلبون منا أن نقلدهم في حرية هذا مآلها؟!

إن هكذا حرية تعني عدم وجود نظام يحكم الفرد والمجتمع فيتحول هذا المجتمع إلى مجتمع بهائمي يأكل فيه القوي الضعيف، بل إلى مجتمع لا نظام فيه فكيف يمكن أن نتصور مجتمعاً لا نظام فيه؟

ومن المشاكل التي نعانيها مع الغرب هو أنه يريد أن يمارس الحرية على المنتمين إليه أما إذا وصل الأمر إلينا فإن الأمر يصبح له اعتبارات مختلفة، ففي الوقت الذي يجوز للمواطن في أوروبا مثلاً أن يلبس ما يريد تمنع فتياتنا من الحجاب، وفي الوقت الذي يحق للمواطن الغربي أن يأكل ما يريد يمنع المسلم من ذبح لحومه على الطريقة الإسلامية، في حين أنهم لا يستطيعون منع اليهود من الذبح على طريقتهم، كل هذا معناه أن الغرب لا ينظر إلى الحرية على أساس أنها قيمة إنسانية مشتركة، بل هي مختصة بفئة دون أخرى، فإذا بهذا المجتمع الغربي يكيل بمكيالين في كل شيء في السياسة والاقتصاد والصحافة وغيرها، فلم يسمح للمسلمين مثلاً الاعتراض على التعرض لشخص رسولهم ﷺ، ولكن قائمة العالم قامت عند التعرض لحقيقة الهولوكوست وأنها مسألة وقعت أم لا، وإذا ما وقعت هل هذا هو حجمها الحقيقي أم أن هناك مبالغة؟ إن الغرب هذا لا يؤمن بالحرية إلا بالقدر الذي يؤمن له ذلك السيطرة على الأمم والتغلب عليها وقهرها، وهو حتى في الحرية يسعى للتفلت من كل الضوابط الأخلاقية والإنسانية.

٤ ـ الحرية في الإسلام

سنتناول هذا المبدأ على المستويين النظري والتطبيقي، ذلك أن هناك إشكالية كبيرة ناشئة من أننا عندما نتكلم عن مفهوم من المفاهيم على

المستوى النظري ونصل إلى نتيجة فيه يواجهنا آخرون ببعض الممارسات لبعض الدول في مراحل التاريخ الإسلامي من أنظمة ذات شكل إسلامي وإن كانت في حقيقة الحال ليست كذلك. وعليه، فإن المعيار في مناقشة أي فكر هو ما يقوله على المستوى الفكري، فإذا ما كان هناك خطأ في التطبيق فالمشكلة ساعتئذٍ في المنتمي لا في الفكرة أو العقيدة.

أ ـ على المستوى النظري:

حيث إن الإسلام دعا إلى العدل ورفض الظلم فقال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[١].

وحيث إن استعباد الآخرين وسلب حريتهم مخالف للعدل ومصداق لا ريب فيه للجور، فإن هذا المفهوم سيكون حاكماً على كل حكم من أحكام الإسلام، وبالتالي فإن الإسلام يرفض الإكراه الذي يخالف بالطبع الحرية ويؤدي إلى سلبها.

فالإسلام يعتبر أن الإنسان حرٌ في تصرفاته ومعتقداته طالما أنها لا تؤثر على سلامة المجتمع والمعتقدات الإسلامية التي يؤمن بها أبناء المجتمع الإسلامي. فالإسلام كمعتقد إلهي يعتبر أن الأفكار الأخرى هي أفكار باطلة، وهذه الأفكار إما أنها أفكار مادية تنطلق من تجربة فردية لبعض الأشخاص الذين هم في النهاية بشر لا يمكن مقارنتها بما يصدر عن خالق البشر الذي هو الله عز وجل، أو أن هذا المعتقد هو معتقد إلهي كان هو الدين المفروض من الله سبحانه وتعالى، على البشر في مرحلة من

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.

مراحل التطور البشري أن تؤمن به ولكن على أساس أنه دين جاء به نبي عن الله سبحانه وتعالى لمرحلة انتهت ولم يعد له صلاحية قيادة الحياة البشرية في هذه المرحلة، لأن الله عز وجل أنزل ديناً جديداً هو المعتمد الآن ويجب على الناس الإلتزام به.

مع ذلك فإن الإسلام لم يفرض على الآخرين أن يؤمنوا كرهاً بالإسلام بل دعاهم للاعتقاد به عن قناعة وإيمان باختيارهم، فقال الله عز وجل في كتابه الكريم:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

فالله عز وجل لا يريد من المؤمنين فرض الإيمان على الآخرين، بل مجرد دعوتهم للإسلام وهم مخيرون بين الإيمان به أو الكفر، فإذا آمنوا فقد استمسكوا بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، أما الذي يكفر منهم فيكون هو من اختار أن يكون سبباً لعذاب الله عز وجل، ذلك أن الرشد بيِّن والغي بيِّن والإنسان حر في اختيار أي منهما، ويدل على ذلك أيضاً ما ورد في سبب نزول هذه الآية في تفسير جامع البيان حيث ورد ما نصه:

«قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا استكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك»(٢).

وهذا يشكل دليلاً آخر على أن هذين الولدين اللذين لم يسمعا لأبيهما الحريص عليهما أن يؤمنا بدين الحق لم يكونا مشركين كافرين بأصل الدين

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) جامع البيان الجزء ٣ الصفحة ٢٢.

أو وجود الله، بل كانا يؤمنان بالله على الطريقة النصرانية التي نسخها الله عز وجل بالدين الجديد الذي هو خاتم الأديان، والذي يجب على جميع الناس بعد نزوله أن يؤمنوا به ومع ذلك رفض رسول الله ﷺ أن يسمح له باستكراههما على ما يراه حقاً وفيه مصلحتهما.

إن الله عز وجل أرادنا أن نختار الإيمان بالإسلام أو الكفر به، ولكن بعد أن أعطانا البرهان على دين الحق كي يكون تعذيبه لنا إن كفرنا مبرراً، فمن رحمته بنا أعطانا البرهان على صحة الدين الذي يريدنا أن نؤمن به، والاختيار بين طريقين من دون إكراه هو المصداق الفعلي للحرية، وقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۞ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾(١).

فالله الذي خلقنا لنعبده ولم يخلقنا عبثاً لم يتركنا من دون أن يدلنا على الطريق الصحيح للوصول إلى نهج الحق. وهنا لا بد من الإشارة إلى مسألة مهمة وهي أن موضوع الإيمان ليس مجرد طقوس خارجية، بل هو عملية داخلية في النفس البشرية إذ يمكن لأي شخص أن يدّعي أنه مؤمن بالإسلام وهو في داخله ألد أعداء هذا الدين، وخير دليل على ذلك هم المنافقون الذين أظهروا الإيمان للمسلمين ولكنهم اتخذوا هذا الإيمان درعاً كي يحموا به أنفسهم وهم في واقع الأمر أشد أعداء هذا الدين، وقد وصفهم الله عز وجل في كتابه الكريم بقوله:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٧٤ ـ ١٧٥.

يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۞ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(١).

ولذلك لم يرد الله عز وجل من المؤمنين إكراه غيرهم على الإسلام، بل تركهم على حريتهم في ذلك فهم إن تملكوا هذه الحرية لن يُعَدّوا في عداد المؤمنين وبالتالي سيكونون مكشوفين أمامهم، وبالتالي فإنهم لن يشكلوا خطراً على المجتمع الإسلامي ويمكن التعامل معهم على هذا الأساس بكل وضوح. وهذا المعنى الذي الفتنا إليه يتحدث عنه العلامة الطباطبائي في كتابه تفسير الميزان عند عرضه لتفسير آية لا إكراه في الدين بقوله:

«قوله: (لا إكراه في الدين) نفي الدين الإجباري لما، أن الدين وهو سلسلة من المعارف العلمية التي تتبعها أخرى عملية يجمعها أنها اعتقادات، والاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار، فإن الإكراه إنما يؤثر في الأعمال الظاهرية والأفعال والحركات البدنية المادية، وأما الاعتقاد القلبي فله علل وأسباب أخرى قلبية من سنخ الاعتقاد والإدراك، ومن المحال أن ينتج الجهل علماً، أو تولد المقدمات غير العلمية تصديقاً علمياً»(٢).

ولما تقدم نجد السبب الحقيقي الذي لأجله نهى الله عز وجل عن فرض عقيدتنا على الآخرين. ولو كان موضوع فرض العقيدة على الآخرين مسألة جيدة فيها مصلحة البشر لكان الله عز وجل تدخل وفرض الدين على الناس وجعلهم جميعاً مؤمنين، وهذا لم يفعله ما يدل على عدم إرادته لذلك وقد قال الله عز وجل في هذا المعنى:

---

(١) سورة المنافقون، الآيتان: ١ ـ ٢.

(٢) تفسير الميزان، الجزء ٢، الصفحتان ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[1].

وبالنظر إلى الآية الكريمة نلتفت إلى نكتة مهمة تؤكد على أن الله سبحانه وتعالى يرفض فرض الإيمان على الناس من خلال إيراده عبارتي (كلهم) و(جميعاً)، وهذا يعني أن من السنن الكونية التي لا تغيير فيها أن يكون الناس أمتين أمة إيمان، وأمة كفر، ولن يمكن أن نجعل الناس أمة واحدة، ولأجل ذلك كان هناك جنة ونار، وإلا لما كان هناك من حاجة لجهنم مع كون الناس بأجمعهم مؤمنين.

وفي خطاب الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ تراه يؤكد على هذا المفهوم وهو دعوة الناس للإيمان من دون إكراه من خلال قوله سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[2].

فحتى رسول الله ﷺ الذي أُمر بدعوة الناس إلى الإيمان وفُرض على المؤمنين أن يطيعوه لم يخوله الله عز وجل بأكثر من البلاغ الواضح البين وبعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

وبالرجوع إلى سيرة الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام نجد أنهم عندما مارسوا عملية الدعوة للإسلام كانت دعوتهم هذه باللين والحكمة والموعظة الحسنة، وتحملوا في سبيل ذلك الأذى من الناس من خلال التعامل معهم بأسلوب فظ لا يرضى عنه الله عز وجل ولا المؤمنون، وسأسرد للدلالة في هذا المجال روايتين على الشكل التالي:

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٩.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٤.

«عن جابر بن عبد الله قال: أبصرت عيناي وسمعي وأذناي من رسول الله ﷺ بالجعرانة وفي ثوب فضة ورسول الله ﷺ يقبضها للناس فيعطيهم؟ فقال له رجل: يا رسول الله اعدل فقال: ويلك، فمن يعدل إن لم أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل، فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فلأقتل هذا المنافق، فقال: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية»[١].

إن هذا الشخص وجد أن تقسيم النبي ﷺ غير عادل ولم يجد في نفسه غضاضة من أن يوجه له هذه الملاحظة القاسية وهو رأس الدولة الإسلامية، فما كان من عمر إلا أن طلب من الرسول أن يضرب عنقه ولكنه رفض ذلك، ما يدل على أمور كثيرة منها سماحة الإسلام وخلق النبي الكريم، وكان جوابه مختصراً إن لم أعدل أنا فمن يعدل؟! وبكلام آخر لو أني كنت ظالماً أجاز لله عز وجل اختياري للنبوة؟! ولكن هذا لا يعني كما في مجتمعاتنا اليوم أن يؤدي هذا الاعتراض لقتل المعترض أو ضربه أو سجنه بحجة التعرض للذات العليا لرأس الدولة، بل إنك قد تجد في مجتمعاتنا هذه الأيام مختاراً في قرية يقتل أو يُبعد أو يضرب من يتطاول عليه فضلاً عن رئيس أو ملك. إن هذا التصرف يدل بما لا مزيد عليه على صون الحرية الفردية في الإسلام إلى حد التعرض بالاعتراض على رأس الدولة الذي له إضافة إلى موقعه السياسي قدسية موقع النبوة. وفي نفس المعنى ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه خطب في أحد الأيام فقال:

«سلوني فإني لا أُسأل عن شيء دون العرش إلا أجبت فيه، لا يقولها

---

(١) كنز العمال، الجزء ١١، الصفحتان ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

بعدي إلا جاهل مدع أو كذاب مفتر. فقام رجل من جانب مسجده في عنقه كتاب كأنه مصحف وهو رجل آدم ضرب طوال جعد الشعر كأنه من مهودة العرب، فقال رافعاً صوته لعلي: أيها المدعي ما لا يعلم والمقلد ما لا يفهم! أنا السائل فأجب، فوثب إليه أصحاب علي وشيعته من كل ناحية فهمّوا به فنهرهم علي عليه السلام فقال لهم: دعوه ولا تعجلوه! فإن الطيش لا تقوم به حجج الله ولا تظهر براهين الله. ثم التفت إلى الرجل وقال له: سل بكل لسانك وما في جوانحك فإني أجيبك، إن الله تعالى لا تعتلج عليه الشكوك ولا يهيجه وسن»[١].

لقد حاول أتباع أمير المؤمنين علي عليه السلام أن يقوموا بإسكات هذا الذي حاول الاعتراض بأسلوب فيه من السخرية والاستهزاء ما لا يقبله شخص عادي من أمير فكيف إن كانت هذه السخرية صادرة عن شخص عادي في وجه الأمير؟ ومع ذلك رفض أمير المؤمنين علي عليه السلام أن يُفعل هذا بالرجل، واعتبر أن أسلوب النهر هو أسلوب طائش لا تقوم به الحجة والبرهان، بل إن المطلوب في هذا المجال هو النقاش الفكري الهادئ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن ما حصل يدل على الحرية التي كان يتمتع بها المواطنون أيام الحكم الإسلامي.

إن منع المواطنين من أن يفكروا بحرية ويعرضوا آراءهم كذلك لن يتوقف أثره عند حدود منع الاستفادة الفردية بل سيشمل ذلك المجتمع بأكمله، ولولا الحرية التي تمتع بها العلماء في إبداء مخترعاتهم التي كانت في الغالب مغايرة لما كان متعارفاً لدى الناس في ذلك الزمان، لما تقدمت الأمم ولما وصلنا إلى التطور المدني والعلمي الذي ننعم به اليوم.

---

(١) بحار الأنوار، الجزء ٥٤، الصفحتان ٢٣١ ـ ٢٣٢.

إن الإسلام يدعو إلى تلاقح الأفكار من خلال التفكير بصوت عال وإبداء أرائنا من دون خوف من أحد، فإن عملية المناقشة والحوار تؤدي إلى الوصول إلى الرأي الأصوب وتبعد الأمم عن التفكير من دون أن يعلنوا ما يفكرون فيه ويناقشونه مع الآخرين وإلا لما أمكن أن نصوب أخطاؤنا ونقدم أفضل ما عندنا، وهذا ما دعا إليه أمير المؤمنين علي عليه السلام عندما قال:

«اضربوا بعض الرأي ببعض يتولد منه الصواب»[١].

وهذه دعوة صريحة لكي يتناقش الناس مع بعضهم البعض ويشاوروا بعضهم في أفكارهم، لأن هذا التلاقح الفكري سيؤدي حتماً إلى الصواب الذي هو ضالة كل مؤمن.

إن ما يدعو للاستغراب في موقف البعض هو اتهامهم الأفكار الأخرى المغايرة لأفكارهم بالبطلان وعدم الصواب والخطأ، بل والانحراف عن جادة الصواب، من دون الإطلاع على هذه الأفكار ومناقشتها، وهو أمر لا يقره منطق سليم، بل إن اتهام هذه الأفكار بالبطلان بهذا الأسلوب يعنى تعصباً أعمى وعدم موضوعية من هؤلاء، ولذلك وجدنا أن أكثر الحكام السياسيين كانوا يدعون إلى أفكار معينة ويمنعون من مناقشتها، بل على المواطنين الإيمان بها والتسليم لها من دون أية مناقشة والتي إن حصلت ستؤدي حتماً إلى تعريض صاحبها للمسآلة أمام القانون، وقد يؤدي ذلك به إلى حبل المشنقة، في حين أن الإسلام يدعو للمناقشة لأفكار الآخرين على قاعدة الوصول إلى الصواب، وقد بين الله عز وجل ذلك في كتابه الكريم بقوله:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، الصفحة ٩١.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٢٤.

إن الإسلام الذي يؤمن بوجود الله ووحدانيته يدعو الكفار الذين لا يؤمنون بهذه القضايا والتي هي مسلمات لديهم، لأن تكون هذه المسلمات على طاولة النقاش والبحث.

وبالرجوع إلى الفقه الإسلامي نجد أن حقل الإباحة فيه واسع بشكل كبير، وهو يعطي مساحة واسعة للفرد والجماعة لكي يمارسوا مسؤوليتهم في التوحيد والعمران وبناء المجتمع، إن الإباحة الواسعة تعطي فرصاً أكبر للمكلف كي يبدع ويخترع ويطور من إمكانات المجتمع الإسلامي.

وفي نفس هذا السياق نجد أن أصول الفقه يبتني في منهج على أصالة الحِل، وأصالة الإباحة، وأصالة عدم التكليف، إلى ما هنالك من أمور تشدد على أن الحرام والمقيدات تحتاج إلى أدلة واضحة، وإلا فإن الأصل هو الحِل، لذلك وجدنا أن الله عز وجل استنكر على أولئك الذين يكثرون من السؤال عن بعض التكاليف ثم بعد تبيانها لهم يكفرون بها، فقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[1].

ومن ذلك أيضاً الأسئلة الكثيرة التي سألها اليهود لموسى عليه السلام عن البقرة التي أمرهم الله سبحانه وتعالى أن يذبحوها وكان يمكن أن يذبحوا في بدايات الأمر أية بقرة حتى انتهى الأمر إلى أن فرض عليهم الله ذبح بقرة عزيزة عليهم فلم يفعلوا فكفروا.

ب ـ على المستوى التطبيقي:

هناك الكثير من الأحداث التي جرت في التاريخ الإسلامي يمكن أن

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠١.

تستغل ممن يريد الإساءة للإسلام لاتهامه بأنه دين لا يعطي أية حرية للمخالفين له ويسعى لفرض أفكاره عليهم، وأن هذا الدين يسعى لتذويب المخالفين له فيه بحيث يبقى وحده الدين الذي يؤمن به المواطنون في دولته.

في حين أن النظرية تقول أن لا إكراه في الدين، ولكن الحكام مارسوا عملية الفرض تحت طائلة الإلغاء الجسدي لمن خالفهم في الدين. وأنا لا أريد هنا أن أنفي هذه الوقائع أو أفسرها على أساس مخالف لما ظهرت عليه، ولكن أريد أن أؤكدها لأقول إن من مارس هذه الأعمال المخالفة للإسلام هي السلطة التي أرادت أن تفرض الاستقرار السياسي والأمني من خلال القمع ومنع وجود أي مخالف على أرض سلطتهم. هذه السلطة لم يكن همها في ذلك تطبيق أحكام شرعية إسلامية بقدر ما كانت تمارس سلطة سياسية تتخذ من الدين من خلال وعاظ السلاطين ستاراً لتنفيذ مآربهم وتحشيد الناس وراءهم على أساس نصرة الدين المؤدية للشهادة ودخول جنة الخلد.

والسؤال هنا هل اقتصر الأمر على من هم مخالفين لهم في العقيدة أم أن هذه الإجراءات شملت حتى من هم مماثلين لهم في العقيدة من المسلمين ولكنهم مخالفون لهم في المذهب؟ بل هل انحصر القمع والإلغاء بهؤلاء أم شمل الأمر أيضاً من هم على نفس المذهب ولكنهم كانوا على خلاف سياسي مع السلطة الحاكمة؟

الحقيقة، أن نظرة متفحصة للتاريخ ومن دون تفصيل كي لا نُضَيع البحث ونحرفه عن وجهته الحقيقية تؤكد لنا أن هذه السلطات السياسية كانت تقمع كل من خالفها على الإطلاق حتى لو كان المخالف ليس فقط من دين واحد ومذهب واحد، بل من عائلة سياسية واحدة، وما حصل بين الأمين والمأمون من أولاد هارون الرشيد يعتبر دليلاً واضحاً على ذلك.

إننا نستطيع أن نؤكد أن سماحة الإسلام تظهر فيما عرضناه ضمن البحث الفكري النظري والذي طبق في دولة الإسلام التي أنشأها نبينا محمد ﷺ، حيث كان يحاور الجميع ولا يسعى لقتلهم، وقد نقل لنا القرآن الكريم ذلك في مواضع كثيرة منها استقبال نصارى نجران في مسجده في المدينة حيث قال:

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[1].

فلم يسعَ رسول الله ﷺ لفرض الإسلام على نصارى نجران وهو القادر على ذلك من خلال الحرب، ولكنه دعاهم للمحاجة على قاعدة الابتهال لله عز وجل وأن يكون هو الفيصل في الدلالة على من معه الحق ومن هو على باطل. أما في عصر أئمة أهل البيت عليهم السلام حيث لم يكونوا هم السلطة الحاكمة بل كانوا ضمير الأمة وحماة الدين يسعون قدر الإمكان للدفاع عنه وتقويم الانحرافات التي تحصل من الحكام، فإنهم عليهم السلام كانوا في كل مرة تسعى السلطات الحاكمة لفرض الدين على الآخرين يسعون لتبديل المواجهة من مواجهة عسكرية أو قمعية إلى مواجهة فكرية عقائدية.

ومن خلال ما تقدم يظهر لنا أن الإسلام دين لا مجال فيه للإكراه للدخول فيه، والتاريخ يُظهر أن دار الإسلام لم تكن في أية مرحلة من مراحل التاريخ داراً للمسلمين فقط، بل كانت تذخر بالتنوع الديني والمذهبي والفكري، فلم تستطع حتى السلطة السياسية أمام تصدي الأئمة عليهم السلام وعلماء الدين المخلصين من فرض مجتمع خالص لا يحتوي

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

سوى المسلمين، بل إن غير المسلمين كانوا يعيشون بينهم ويتمتعون بحقوقهم الاقتصادية والإنسانية والسياسية كافة، وإذا ما سعى الحاكم لفرض شيء عليهم كان العلماء يتصدون له ويعيدونه لجادة الصواب.

وعندما أوفد أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام مالك الأشتر ليكون والياً على مصر قال له:

«وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم. ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل»[1].

نعم لقد عامل الإسلام من لم يكن مسلماً ويعيش بين المسلمين بكل لطف ورحمة باعتبار أنهم نظراء لنا في الخلق، ونعرف كيف أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام أقصى والياً لأنه منع امرأة كتابية فقيرة أن يُسد فقرها من بيت مال المسلمين فاعتبر عليه السلام أن دينها المخالف لدينه لا يمنع من أخذها لحقها من بيت مال المسلمين، لأن الله عز وجل يطلب من المسلمين أن لا يكونوا طغاة بل أن يكونوا أصحاب رسالة.

مقارنة بين مفهوم الحرية في الإسلام والإعلان العالمي لحقوق الإنسان:

إن الناس وخاصة العلمانيين منهم يتغنون بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان باعتباره من أهم مبتدعات الفكر الإنساني في مسيرة تطوره، ولعلهم يعلنون أو يحاولون الإيحاء بأن هذا الإعلان فيه ما لا يوجد في فكر إنساني سابق، بل حتى فيما ورد في الكتب السماوية، وهذا إما ناتج عن جهل

(١) نهج البلاغة، الجزء ٣، الصفحة ٨٤.

منهم بالإسلام والأديان السماوية كافة، أو أنهم عن قصد يحاولون التوهين بالدين عموماً وبالإسلام خصوصاً.

وبالرجوع إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان نجد أنه ورد في المادة التاسعة عشرة منه ما نصه:

«لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أي تدخل، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون التقيد بالحدود الجغرافية».

وبالرجوع إلى الآيات التي أوردناها سابقاً من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وما ورد في السنة النبوية وسيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام نجد أن ما جاء في القرآن والسنة أوسع وأشمل بكثير مما دعا له الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

ففيما يتعلق بالحرية الشخصية نجد أنه في ظل النظم الغربية وباسم الديمقراطية وحرية الأفراد وحقوق الإنسان إلى آخر هذه المسميات التي ابتدعوها، للفرد أن يفعل ما يريد ويرتكب ما يهوى دون أية ضوابط، فلا حدود للحرية عندهم ولا يوجد في قاموسهم حلال ولا حرام؛ فله أن يزني، وأن يتعاطى المخدرات، وللمرأة وللرجل أن يكونا شاذين على الصعيد الجنسي، فالرجل يرتكب اللواط ويفتخر بذلك، والمرأة تمارس السحاق وتفتخر وتعلن ذلك، بل إن بعض الدول أدخلت في قوانينها تشريعات لزواج المثليين، وفي الدول الديمقراطية نواد للعراة ولفعل الشواذ مع حماية كاملة من القانون.

إن كل هذه الأمور منعها الإسلام ليس من باب قمع الحرية الشخصية في هذا المجال، بل من باب أن في ذلك دماراً للمجتمع وفساداً كبيراً،

ولحماية المجتمع وصيانته أهمية أكبر من إطلاق الحرية الفردية، والعقل يرشد إلى أن الأهم مقدم على المهم، وبالتالي فإن الحرية الشخصية مصانة ولكن ضمن حدود عدم إيقاع المجتمع بفساد كبير. وفي الأمثلة التي اخترناها ثبت للعالم أن الشذوذ الجنسي أحد الأسباب الكبرى لمرض فقد المناعة المكتسبة (الايدز) الذي يعاني منه عالم اليوم أيما معاناة، ما يؤكد أن لإطلاق الحرية على هذا المستوى عواقب مدمرة يجب حماية المجتمع منها.

إن نظرة الإسلام للحرية تقوم على مبدأ أن المجتمع هو تماماً كمركب فيه كثير من الناس فلا يستطيع أحدهم تحت حجة الحرية الشخصية أن يخرق الجانب الذي هو فيه لأي سبب من الأسباب، لأن ذلك سيؤدي حتماً إلى غرق المركب بأكمله بمن فيهم هذا الذي خرق، وهذا ما عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله:

«مثل القائم على حدود الله والمداهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقال الذين في أعلاها لا ندعهم يصعدون فيؤذونا، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»(١).

فإن القائم على حدود الله هو المستقيم في أمر الله المطيع له، الذي لا يرتكب ما نهاه عنه ويفعل ما يؤمر، الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، وأما المداهن فعكس ذلك تماماً. ومثل هذا المثال الوارد في كلام

---

(١) كنز العمال، الجزء ٣، الصفحتان ٦٩ ـ ٧٠.

رسول الله ﷺ ذلك الشخص الذي يريد أن يقول إني أريد العيش في الحياة حراً طليقاً لا أقيد بأي قيد وأتصرف كما يحلو لي. فينطلق مع أهوائه وغرائزه كما ينطلق بعض الكتاب خاصة المنحرفين منهم فيزينون للناس الفاحشة والرذيلة باسم الفن والشعر والأدب، ويقولون ما نفعله يكفله لنا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي سمح لنا بحرية الرأي والتعبير، فإذا بالنتيجة أن تنمو بذرة الفساد هذه وينتشر فيروس الفواحش ويفسد المجتمع، فتنتشر الرذيلة ويعم الانحراف فلا يقف الأمر عند نفس الشخص بل يشمل المجتمع بأكمله الذي يصبح ساحة للجريمة من قتل واغتصاب وسرقة وأوبئة، ويصبح علاج هذه المشاكل من أصعب الأمور.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(١).

ومعنى ذلك أنه صحيح أن الذي يفتعل الفتنة قد يكون شخصاً واحداً أو مجموعة من الأشخاص ولكن خطرها سيعم الجميع ولن ينحصر بالظالم وحده، وكل الأمور الفاسدة التي يدعونا إليها أصحاب الرأي الفاسد هي من الفتن التي قد يعم خطرها الناس كافة. ولذلك حذرنا الله من السكوت عليها وطلب إلينا مواجهتها بكل أساليب المواجهة من باب الدفاع عن النفس الذي هو حق مشروع، لأن الفساد الذي سيعم المجتمع سيشملني ويشمل المقربين إلي من أولادي وعائلتي وأصدقائي، وإذا لم أفعل فقد يعاقبني الله عز وجل بسبب سكوتي، وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله:

«أيها الناس، إنما يجمع الناس الرضاء والسخط، وإنما عقر ناقة ثمود

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا فقال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾[(١)] فما كانت إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة»[(٢)].

فلا يجوز أن نقر الظالم على ظلمه وإلا كان مصيرنا أن يعمنا الله عز وجل بعذابه بسبب رضانا عن فعله من خلال السكوت عنه الذي هو بمثابة الرضا، وإن كنا في داخلنا قد نعترض ولكننا لا نحرك ساكناً.

٥ ـ أنواع الحرية

تأخذ الحرية مظاهر مختلفة تتنوع بتنوع المجالات التي تتعاطى معها، وحيث إن مجالات العمل الإنساني كثيرة بحيث يصعب إحصاؤها لذا اخترت أن أحدد عدداً من أهم أنواع الحرية المتداولة وهذا لا يعني عدم وجود مجالات أخرى، بل إنها موجودة إلا أن ما نتعرض له هو أهمها حيث سنعرض لرأي الإسلام في كل نوع من هذه الأنواع، وهي على الشكل التالي:

أ ـ حرية المعتقد والدين:

لكل إنسان الحق بأن يعتنق الدين الذي يريد ولا يجوز من الناحية الشرعية إجبار شخص على التدين بدين لا يريده أو عقيدة لا يؤمن بها، والإسلام دعا الناس ليؤمنوا به ولكن على قاعدة أن يقتنعوا بهذا الدين ولا يُكرَهوا على الإيمان به، في حين أن هناك عقائد أخرى ترفض أن يدخل في الدين من لم يكن أبوه وأمه على هذا الدين، فالزرادشتيون والمجوس يحرمون على أي إنسان لم يولد زرادشتياً أن يعتنق دينهم رغم اعتقادهم

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٥٧.
(٢) نهج البلاغة، الجزء ٢، الصفحة ١٨١.

بأفضلية دينهم على باقي الديانات، ولذلك نرى أن دينهم ذاهب للانقراض، فإن عدد أتباع المجوسية اليوم في العالم لا يتجاوز المائة وعشرين ألف معتنق.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كيف يكون الدين ديناً ويمنع الناس من أن يهتدوا إليه؟ إن هذا لا يتناسب مع ألوهية الرب الذي يُدعى إليه من خلال هذا الدين، في حين أنه يجب أن تتوافر كل الصفات الجيدة في الإله الذي يجب أن يتبع، فهو يجب أن يكون رحيماً وعطوفاً ويريد الهداية لكل الناس. ففي الإسلام نجد كثيراً من الآيات والروايات التي تدعو لعبادة الله الواحد القهار من خلال الإسلام، فالله يطلب من نبيه أن يدعو الناس للإسلام على طريقة الحكمة والموعظة الحسنة فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[١].

وفي نفس الوقت فإن الإسلام لم يكتفِ ببيان أسلوب الدعوة، بل وضع للداعي من الأجر الشيء العظيم، فهذا رسول الله ﷺ يقول لأمير المؤمنين علي عليه السلام:

«وأيم الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه شمس وغربت»[٢].

إذن، الإسلام دين يدعو للحق وللإيمان بالله عز وجل، ويشجع الآخرين على الدخول فيه ويدعوهم إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة لا بالإكراه والضغط والقوة.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٢) بحار الأنوار، الجزء ٣٢، الصفحة ٤٤٨.

مع قناعة الإسلام بخطأ أحكام الأديان الأخرى إلا أنه سمح لهم بأن يمارسوا أحكامهم على حسب ما ورد في معتقداتهم، ولم يمنعهم من ذلك طالما أنهم يعيشون بين المسلمين مسالمين لا يؤذونهم ولا يعرضونهم لخطر، لذلك نجد أن الكثير من الروايات تعرضت لأن الإسلام يلزم هؤلاء بما يعتقدونه من أحكام ولا يفرض عليهم أحكامه، فقد ورد عن محمد بن مسلم أنه سأل الإمام الباقر عليه السلام فقال:

«سألته عن الأحكام؟ قال: تجوز على كل دين بما يستحلفون»[١].

فهنا مع عدم القناعة بما سيحلف به المجوسي مثلاً ولكن كونه مقدساً عنده رضي الإسلام بأن يحلف بما يحلف به عادة. ومن ذلك ما روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

«ألزموهم بما ألزموا أنفسهم»[٢].

لذلك، نجد أن الإسلام لا يتعرض للمجوسي إن نكح أمه وأخته، حيث إن ذلك جائز في دينه وإن كان دينه محل شك بل طعن عندنا.

وهذا الموقف الإسلامي كان محل إشادة من علماء الغرب منهم آدم متز الذي قال:

«لم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل في الشعائر الدينية لأهل الذمة، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم، وإن الحكومة في حالات انحباس المطر، كانت تأمر بتنظيم مواكب يسير فيها النصارى وعلى رأسهم الأسقف، واليهود وعلى رأسهم النافخون بالأبواق»[٣].

---

(١) وسائل الشيعة، الجزء ١٦، الصفحة ١٦٦.
(٢) وسائل الشيعة، الجزء ١٧، الصفحة ٤٨٥.
(٣) مقالة الإسلام والحرية الدينية، أحمد نجم.

ب ـ حرية التعبير:

لقد أكد الإسلام على ضرورة أن يكون المسلم حراً في التعبير عمّا يعتقده، وقد أكد ذلك من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[١].

إن هذه الآية الكريمة تعبر بشكل واضح عن وجود أكثر من رأي في المجتمع الإسلامي وقد وصل التعبير عنه إلى درجة التنازع، فإذا وصلت الأمور إلى هذه المرحلة فإن المرجع الذي يحسم هذا الموضوع هو الله ورسوله، فهذه الآية الكريمة دليل على التعددية الفكرية في المجتمع الإسلامي. إن الإسلام طلب من المؤمن الالتفات إلى أنه مسؤول عن كل لفظ يتلفظ به وسيتحمل مسؤوليته أمام الله سبحانه وتعالى فقال في كتابه الكريم:

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٢].

فكونك مراقب يضعك أمام مسؤولية المحاسبة أمام الله عز وجل، وبالتالي ستكون محددات الحرية لديك هي ضوابط تجاه الله عز وجل، وهذا ليس استعباداً لبشر بل عبودية لله نختارها طائعين، في حين أن المجتمعات الغربية العلمانية التي لا تؤمن بالله لا تخاف من المحددات القانونية للدولة المدنية وقد تستطيع الهروب منها، أما المؤمن فهو يعلم

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.
(٢) سورة ق، الآية: ١٨.

علم اليقين أنه لن يستطيع الهروب من الرقابة الإلهية فينضبط في السياق العام للمجتمع على الأسس الأخلاقية والاجتماعية. ومن هذا المنطلق تم التأكيد على أهمية ضبط اللسان الذي هو أبرز أداة للتعبير ورمزها فقد قال رسول الله ﷺ:

«جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أوصني، فقال: إحفظ لسانك، قال: يا رسول الله أوصني، قال: إحفظ لسانك، قال: يا رسول الله أوصني، قال: إحفظ لسانك، ويحك وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم»(١).

فالإسلام دعانا لأن ننتبه من زلات اللسان وأن نعرف أن مصير العبث في الكلام على غير منهج الحق سيصير بنا إلى جهنم، فدعانا إلى الكلمة الطيبة ونهانا عن الكلمة الخبيثة فقال في كتابه الكريم:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾(٢).

فعلى المسلم أن يكون كلامه ليناً فهو ليس حراً في استعمال أي كلام ولو كان بذيئاً في التعبير عن رأيه بالآخرين سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، نعم الغلظة في القول مع أعداء الدين المحاربين للإسلام لا مانع منه. وحتى على الصعيد الفردي فإن الله سبحانه وتعالى أجاز لمن ظلم أن يرفع عنه الظلم ولو باستعمال كلام سيء فقال عز وجل:

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾(٣).

---

(١) الكافي، الجزء ٢، الصفحة ١١٥.
(٢) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤ ـ ٢٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٨.

فهذا هو رأي الإسلام في حرية التعبير وصورة موجزة عن بعض الضوابط التي يجب أن يلتفت إليها في هذه المجالات.

ج ـ الحرية الفردية:

ذهب البعض إلى أن الناس أحرار في ما يتعاطون به مع شخصهم فلهم إن شاءوا أن يضمنوا سلامتها، ولهم أن يعرضوها للخطر، ولهم أن يصونوها، وأيضاً لهم أن يهينوها وليس لأحد عليهم من سبيل، بل وصلوا إلى أكثر من ذلك حيث ذهبوا إلى جواز قتل أنفسهم اختياراً من خلال الانتحار.

أما في الإسلام فإن هذه الحرية مقيدة بعدم تعريض النفس للضرر والإهانة وخاصة تعريض النفس للقتل الذي اعتبره الإسلام بمثابة كفر بالله عز وجل. فالإسلام منع المسلم من أن يأكل ما يريد أو يشرب ما يريد إذا كان الذي يأكله ويشربه مضراً لنفسه، حتى أن الأكل والشرب زيادة عن اللازم يصبح حراماً وإن كان في أصله جائزاً ما دام أنه يضر به. ولذلك فقد حرم الإسلام إضرار النفس والضرر لها وللآخرين بغير وجه حق، ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«لا ضرر ولا ضرار في الإسلام»[1].

وانطلاقاً من هذا الحديث فإنه لا يجوز شرعاً أن تتجاوز الحرية الفردية الحدود التي تؤدي للإضرار بالنفس أو الآخرين، ولذلك فللإنسان الحق بالأكل شرط أن لا يكون مضراً، وأن لا يكون حراماً في نفسه أو بسبب كونه مغصوباً، وله الحق بالعمل شرط أن لا يكون العمل مضراً بالنفس أو الآخرين أيضاً، وأن لا يكون العمل في أمر حرام كأن يبيع الخمر، وللإنسان الحق في أن يعيش بأمان ويضمن أمان الآخرين.

---

(١) من لا يحضره الفقيه، الجزء ٤، الصفحة ٣٣٤.

ومن الأمور التي ضمنها الإسلام حق حفظ الذات من الإهانة، فلم يفوض الإسلام للمسلم أن يعرض نفسه لكل ما يؤدي إلى إهانتها وتحقيرها فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إن الله عز وجل فوض إلى المؤمن أموره كلها ولم يفوض إليه أن يكون ذليلاً أما تسمع قول الله عز وجل يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]؛ فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً ثم قال: إن المؤمن أعز من الجبل، إن الجبل يستقل منه بالمعاول والمؤمن لا يستقل من دينه شيء»[٢].

فالمؤمن كريم النفس عزيز فوض الله له كل أمره لكن لم يفوض له أن يذل نفسه، وأيضاً منعنا الإسلام من إهانة الآخرين وإيذائهم واغتيابهم والنميمة بينهم وكل ما هو مسيء للآخرين. ومن ذلك نهي الإسلام عن سباب الآخرين، أو كيد المكائد لهم والفتنة فيما بينهم، فالكرامة الشخصية محفوظة ومصانة في الإسلام.

ومن الحقوق التي ضمنها الإسلام من ضمن الحقوق الفردية حق التنقل والانتقال، وحق المسلم في أن يكون له السكن الملائم، وحقه في أن يمتلك، وحقه في أن لا يُعلم الآخرين بما هو من شؤونه الخاصة ومن ضمن ذلك سرية المراسلات بينه وبين الآخرين.

د ـ حرية الرأي:

لم يمنع الإسلام من أن يكون للإنسان رأي حتى لو كان هناك خلاف لأحكام الإسلام، فحرية الاختلاف مصانة طالما أنه مجرد اختلاف، أما إذا

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ٧.

(٢) الكافي، الجزء ٥، الصفحة ٦٣.

وصل الأمر إلى حد تهديد السلم والأمن والعمل لفرض الرأي الـ خالف فهذا ما لا يقره الإسلام ولا يرضى به، بل ويحاربه، وأتاح الإسلام حرية الجدال والنقاش وإن وضع سلسلة من الضوابط الأخلاقية لذلك من خلال النهي عن المراء والرياء، وصان الإسلام حرية الاجتهاد بل شجع عليها وأعطى للمجتهد إن أخطأ أجراً وهو أجر الاجتهاد وإن أصاب أجران.

هـ ـ حرية الصحافة:

وهي وسيلة من وسائل التعبير التي يستطيع فيها الصحافي أن يقول ما يشاء ضمن إطار الموضوعية والصدق وعدم الإساءة للآخرين ومقدساتهم، وعدم فضح أمور الناس التي هي من خصوصياتهم الشخصية، صحيح أن الصحافة لم تكن كصناعة موجودة بتفصيلها الموجود اليوم في عهد الرسول، إلا أن ذلك لا يعني أن المبادئ الأساسية التي هي من أخلاقيات هذه المهنة ليست مناطاً لحكم شرعي، بل إن الشرع الإسلامي حدد لكل تفاصيل هذه المهنة حكماً شرعياً يحدد الحلال والحرام.

وفي أيامنا هذه حصلت مشكلة كبيرة نتيجة استغلال الغرب للحرية الصحافية من خلال الرسوم المسيئة لشخص النبي محمد ﷺ من قبل رسام كاريكاتوري، وقد استند معظم الغرب في دفاعهم عنه لمقولة حرية الصحافة والتعبير، وهذه ليست حرية بمفهوم المنطق السليم بل هي تعد ليس على شخص النبي ﷺ، بل أكثر من ذلك هي تعد على كرامة أمة ودين، ومس بمقدساتها وهذا ما لا يقره منطق سليم، وهي وقاحة وليست حرية. فالحرية في الإسلام لها قيود وحدود، فهي في المفهوم الإسلامي ترتبط بالمسؤولية الشرعية عن قيم الدين والأخلاق الحميدة، وهذا هو الفارق في فهم الحرية بين الإسلام والغرب.

إن الإسلام لا يحاكم الغرب على أساس منظومة قيمه، وفي نفس

الوقت إنه يدعو الغرب لأن لا يحاكمه على أساس قيمه، فنحن لا نريدهم أن يعبدوا ما نعبد وإن كنا نتمنى لهم ذلك لخلاص أنفسهم ولكننا لن نعبد ما يعبدون فلهم دينهم ولنا دين. وهذا الأمر هو ما حدده الإسلام في مكة المكرمة منذ بداية الدعوة الإسلامية فقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾[1].

لذلك ليس من الحرية أن تسب ديني ونبيي أو أن أسب دينك ونبيك وأي رمز من الرموز المقدسة لديك أو لدي، فالإسلام يؤكد على حماية المقدسات عند الآخرين بغض النظر عن إيمانه بقدسيتها، ولكن الهدف هو احترامه للمشاعر الإنسانية عند الآخرين وإبقاء الطريق مفتوحاً بيننا وبينهم للحوار، وعلى الأقل صيانة لمقدساتنا كي لا يتعرض لها الآخرون عندما نتعرض لمقدساتهم.

و ـ حرية التعليم:

لقد صان الإسلام حرية التعليم بل إنه أكثر من ذلك جعل التعلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، فليس الإنسان حراً فقط في أن يتعلم، بل أكثر من ذلك جعل التعليم واحدة من الأمور التي يميز فيها المسلم عن المسلم الآخر فقال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[2].

---

(١) سورة الكافرون، الآيات: ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٩.

وبالتالي، فإن حرية التعليم مصانة في الإسلام، طبعاً قد يؤخذ على الإسلام تدخله في المناهج التعليمية من خلال منعه لتعليم ما لا فائدة فيه، أو ما يوجب الضرر على المجتمع؛ لأنه لا بد من أن يكون المنهاج منهاجاً مفيداً للفرد وللأمة ولا يحتوي ما فيه ضرر عليهما، وهذا لا يناقض الحرية المسؤولة في شيء.

ز ـ الحرية السياسية:

ويقصد بها هنا حرية تشكيل الجمعيات السياسية والنقابات المهنية والإعلام عن هذه الجهات من خلال صحافة وإعلام حر. وأيضاً حرية التظاهر والتناقض مع ما تعلنه الدولة من قرارات إن اعتبرت الجهة السياسية هذه القرارات ليست في صالح الشعب الذي تتصدى الجهة السياسية للدفاع عن مصالحه.

إن أفضل مثل على إعطاء الحرية السياسية هي وجود الحركات الاعتراضية في الحياة السياسية الإسلامية ووصولها إلى تكوين ظاهرة سياسية حاربت السلطة في بعض الأحيان، من الخوارج، إلى القرامطة، والى ثورة المختار الثقفي، وثورة الزنج وما إلى هنالك من حركات سياسية. ومن أفضل الأدلة التي تُساق في هذا المجال ما قاله أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«. . . فلا تكلموني بما تُكلم به الجبابرة ولا تتحفظوا مني بما يُتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً من حق قيل لي ولا التماس إعظام لنفسي فإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يُعرض عليه كان العمل به أثقل عليه فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل فإني لست بفوق أن أخطئ. . .»[1].

(١) نهج البلاغة، الجزء ٢، الصفحة ٢٠١.

فهذا رأس السلطة وأمير المؤمنين يطلب من الناس أن يوجهوا له الانتقاد فيما لو وجدوا فيه ما يظنونه خطأ، وليسهل عليهم الأمر قال لهم وهو المعصوم فلست بفوق أن أخطئ، وهذا مصداق كبير من مصاديق الحرية السياسية في الإسلام وهو السماح أن يصل الانتقاد إلى رأس السلطة.

٦ ـ عقبات في وجه الحرية

عند دراستنا للتاريخ القديم والحديث نجد أن هناك موانع كثيرة وقفت عقبة في وجه الحرية في المجتمعات سواء الإسلامية أو غيرها، مادية كانت أو دينية، التي حاول البعض فيها الدعوة لذلك، وسنورد هذه الموانع على الشكل التالي:

أ ـ موانع في المجال السياسي:

من خلال دراستنا للواقع السياسي على مر الأزمان نجد أن هناك مانعين سياسين أمام الحرية: الأول يضعه الحكام في وجه الشعوب التائقة إلى الحرية والثاني يضعه الشعب نفسه.

إن خوف الحكام على سلطتهم وخوفهم من أنهم إن أطلقوا حرية الشعوب في التعبير عما يريدون فإن ذلك سيؤدي إلى أن يقوم الشعب بفضح الظلم الذي يعانون منه أو الفساد المستشري في المجتمع بسب هؤلاء الحكام، وأمام هذا الخوف يقوم الحاكم بوضع قيود على الحرية تصل في بعض المجتمعات إلى حالات الكبت المطبق الذي يؤدي إلى الاستعباد في بعض الأحيان. ولكي يكرس الحاكم سيطرته يقوم بالهيمنة على المراكز والمؤسسات الفكرية والعقائدية والثقافية والدينية، ويصبح الكاتب أمام خيارين إما أن يكتب كما يريد السلطان، أو أن يترك الكتابة لأنه إذا فكر في كتابة ما يفكر فيه فسيكون مصيره السجن أو حبل المشنقة.

وهذا فيما لو تيسر له ناشر ينشر له كتابه لو صمم أن يكتب على خلاف هوى السلطان، ذلك أن الناشرين عادة يفكرون بالربح ولا يفكرون بما يُنشر وما هي المبادئ التي يجب أن يعرفها الناس وفيها مصلحتهم.

إذا ما رجعنا إلى تاريخ أئمتنا عليهم السلام لوجدنا أن موضوع الحرية خاصة في موضوع التعامل مع الحاكم هو الذي يطبع حركتهم السياسية، ولعل أبلغ تعبير عن هذا المعنى تمثل في ثورة الإمام الحسين عليه السلام، حيث إنه ثار على الواقع الفاسد ليُطلق رأيه الحر في مواجهة الظالم، ولذلك عندما خاطب الجند الذين تجمهروا لقتاله وهم الذين أرسلوا يطلبونه بالأمس دعاهم ليكونوا أحراراً فقال لهم:

«ويحكم يا شيعة الشيطان إن لم يكن لكم دين ولا تخافون المعاد فكونوا أحراراً وارجعوا إلى أنسابكم إن كنتم أعراباً كما تزعمون»[١].

فلقد دعاهم الإمام الحسين عليه السلام لأن يكونوا أحراراً ليعبروا عن أفكارهم الحقيقية التي هي في الواقع تعرف حق الإمام الحسين عليه السلام، وأنه الأولى بالحكم، وأنهم عندما ساروا على خلاف قناعاتهم فهذا يعني أنهم عبيد للسلطة وليسوا أحراراً كما يريدهم الله عز وجل أن يكونوا.

وإذا رجعنا إلى الديانات الأخرى لوجدنا أن أحبار اليهود منعوا المتدينين على دينهم من البحث عن التوراة الحقيقية بعد أن انتشر الكلام عن تحريفها، وكذا فعل القساوسة المسيحيون عندما منعوا أتباعهم من البحث عن الإنجيل الحقيقي وسط كم متعدد من الأناجيل، في حين لو رجعنا إلى السيد المسيح عليه السلام لوجدنا أنه لم يحرم على الحواريين أن يستمعوا إلى المعتقدات الأخرى وإنما طلب منهم اختيار الأصلح فقال لهم:

---

(١) كشف الغمة في معرفة الأئمة، الجزء ٢، الصفحة ٢٦٢.

«خذوا الحق من أهل الباطل ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق، كونوا نقاد الكلام فكم من ضلالة زخرفت بآية من كتاب الله، كما زخرف الدرهم من نحاس بالفضة المموهة النظر إلى ذلك سواء، والبصراء به خبراء»[١].

فالمسيح عليه السلام لم يمنعهم من الاستماع إلى الكلام ولكنه دعاهم إلى تمييزه ومعرفة الحق منه من الباطل اعتماداً على مضمونه لا على قائله، وهو نفس ما دلنا عليه أمير المؤمنين علي عليه السلام عندما قال:

«لا يعرف الحق بالرجال، إعرف الحق تعرف أهله»[٢].

بل إن القرآن الكريم دعانا إلى أن نميز في نفس كلام الحق بين حسن وأحسن فنتبع الأحسن منه فقد قال سبحانه وتعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٣].

فاختيار الأفضل من الأقوال يتبعه من هداه الله عز وجل من العقلاء.

أما القيود التي يضعها الشعب نفسه فهي تتمثل في تكتل الفئات الأغلب منه في جو السلطة السياسية والتسبيح بحمدها بشكل يعملون على منع كل من يفكر في الخروج عن السلطة في أي مجال من المجالات سواء أكانت فكرية أم عقائدية أم علمية بحتة.

إن العبودية السياسية التي تحلى بها بعض الشعوب منعت كثيراً من المبدعين من تقديم كل ما عندهم من آراء خوفاً من الاضطهاد الشعبي الذي يعمل على عزل المفكر عن المجتمع، بحيث يحولونه إلى إنسان موبوء تنفر

---

(١) بحار الأنوار، الجزء ٢، الصفحة ٩٦.

(٢) مستدرك سفينة البحار، الجزء ٢، الصفحة ٣٤٤.

(٣) سورة الزمر، الآية: ١٨.

منه الناس ويبتعدون عنه ويقاطعونه ولا يبيعونه، فيضطر أمام هذا الضغط إما إلى مسايرتهم وترك ما يفكر به، وإما أن يهاجر إلى مناطق أخرى يعمل فيها على زرع أفكاره التي يؤمن بها.

ومشكلة الداعية والمفكر والمبدع مع الشعب حصلت مع الأنبياء عليهم السلام، فكم من نبي عانى مع قومه ما عانى وبعد فترة طويلة من الدعوة كانت النتيجة أنه لم يؤثر سوى بعدد قليل منهم، ثم هجر قومه إلى قوم آخرين. ومن الأمثلة الواضحة ما حصل مع نبي الله نوح عليه السلام حيث قال لقومه كما نقل إلينا القرآن الكريم:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[١].

فبعد أن لبث في قومه ما يقارب الألف سنة كانت النتيجة أنه بنى سفينة نقل بها من الدواب من كل زوج اثنين ومن آمن به من قومه، وكان مصير الذين عاندوه وخالفوه الغرق في الطوفان الذي حذرهم منه، فغرقوا حتى أن ابنه لم ينجُ من الغرق وقد بين الله سبحانه وتعالى ذلك لنا بقوله:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾[٢].

وفي النتيجة، فإذا كان هذا ما حصل مع الأنبياء عليهم السلام فإن ما سيحصل مع المفكرين العاديين سيكون أصعب من ذلك بكثير.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٩ ـ ٦٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦٤.

ب ـ موانع في المجال الاقتصادي:

للعامل الاقتصادي أثر بين في منع المفكرين من إبداء ما عندهم ذلك أنهم غالباً ما يكونون فقراء ولا يمتلكون التمويل اللازم لبلورة أفكارهم، حيث إن بعض الإبداعات خاصة في المجال العلمي تحتاج إلى تمويل لن يتوفر لمن يريد إطلاق فكرة مستهجنة في الغالب فلا يتجرأ أصحاب الأموال على تمويلها.

إن للعامل الاقتصادي أثراً كبيراً في إطلاق الحريات فهي التي تشجع أصحاب الأفكار على إطلاقها كما أنها تمنعهم من ذلك. ومن جهة أخرى، فإن لإطلاق الحريات أثراً في الاقتصاد فقد ثبت أنه في كل المجتمعات التي تعاني من أزمة حريات نجد أن هذه المجتمعات تعاني من أزمات اقتصادية، في حين أن المجتمعات التي تنطلق فيها الحريات تكون عادة مجتمعات متقدمة اقتصادية.

يمكننا أن ندعي في هذا المجال أن الحريات في المجتمع تساعد على نموه وتطوره في الميادين كافة، وأن الخوف من إطلاقها سيؤثر سلباً على هذا المجتمع. إن المجتمعات القامعة للحريات تتميز بنمط واحد أو أنماط قليلة من الإنتاج؛ ذلك أنها لا تطلق المجال للحريات الاقتصادية حيث لا يستطيع من لديهم أفكار اقتصادية مبدعة أن يعبروا عمّا يؤمنوا به فتكون النتيجة الذهاب في الاقتصاد إلى اقتصاد موجه من السلطة الحاكمة، وأحادية إنتاج تؤثر على النمو بشكل أكيد.

ج ـ موانع سببها التعصب الأعمى:

يعتبر التعصب الأعمى واحداً من معوقات الحرية، حيث إن هذا التعصب يسد مداخل الفكر عند الإنسان ويمنعه ليس فقط من قبول الآخر

بل إنه يمنعه من الاستماع إليه، وبالتالي لو وقف الأمر عند حدود عدم الاستماع إلى من يملك فكراً تجديدياً لكان الأمر هيناً، إذ يترك لهذا المفكر إمكانية إبداء الرأي الذي يؤمن به حتى لو أن المستمعين سيكونون قلة، فإنهم سيتحولون مع الزمن في فرض صحة الفكرة الجديدة وصوابيتها إلى كثرة معتبرة. أو على الأقل تبقى الفكرة حية إلى اليوم الذي يأتي من يتبناها لا أن تموت بسبب عدم السماح لها بالانطلاق.

المشكلة الأكبر هي في قيام هؤلاء المتعصبين بقمع صاحب الفكرة التجديدية ومنعه من إعلانها، بل الوصول إلى حد تصفيته جسدياً لتموت الفكرة بموته، وهذا ما يمكن أن يشكل الخطر الأكبر على التقدم والرقي، وما حصل مع غاليلو في القرن التاسع عشر عندما طرح فكرة أن الأرض كروية مناقضاً ما كان متبنى من قبل الكنيسة وأدى إلى أخذه إلى المشنقة فكان شهيد أفكاره، خير دليل على ذلك.

٧ ـ كيف يمكن أن نحقق الحرية؟

هناك عناوين كثيرة لا بد من تحقيقها قبل أن نصل بمجتمعاتنا إلى المستوى اللائق الذي يمكن أن يوصف فيها هذا المجتمع بأنه مجتمع حر، فلا بد من تنشيط المؤسسات الأهلية التي تهتم بمنع الاستعباد وفرض الآراء على الآخرين وتشجع على تحلي المواطنين وخاصة أصحاب الفكر والرأي منهم بالحرية اللازمة ليقولوا ما يريدون شرط الإلتزام بالضوابط الأدبية والأخلاقية وحماية الأمن والسلم الاجتماعي. ومن جهة أخرى، يجب إطلاق الحريات الإعلامية من صحافة وإذاعة وتلفزيون ومسرح مع تقوية النقابات في كل هذه المجالات، ولا بد من فتح الطريق أمام التنوع الثقافي في المجتمع وسط احترام الآراء المختلفة وكذا إتاحة المجال للتعددية السياسية.

ولكن مشكلتنا مع الغرب أنه يسعى لفرض تفسيره لقيم الحرية علينا وفق منظوره وتراثه الحضاري متجاهلاً ثقافتنا وحضارتنا، ويحاول ابتزازنا وفق مفاهيمه وتفسيره الخاطئ لهذه القيم والمفاهيم. ووصل به الأمر إلى حد اعتبار أن قيمه ومفاهيمه هي التي تشكل المعيار الذي يقاس بها الآخرون، ومن خلال ذلك يقوم بابتزازنا على المستوى السياسي والتدخل في شؤوننا الداخلية فيطلب منا إخلاء سبيل إنسان قام بالإساءة لمقدس تحت عنوان أن هذا حرية رأي ولا مقدس يقف في وجه حرية الرأي، بل إن بعض الدول اكتشفت أن بعض جمعيات حقوق الإنسان في مجتمعاتها باتت من حيث تدري أو لا تدري تكشف أسراراً أمنية للدولة التي ينتمون إليها تحت عنوان استطلاع الواقع الاجتماعي والسياسي والحقوقي لهذا المجتمع، وإذا ما قامت الدولة باستدعائهم من أجل التحقيق معهم حول التقارير السرية التي كشفوها تقوم الدنيا ولا تقعد بل قد يتحرك مجلس الأمن من أجل هذه الغاية.

يجب أن لا نخاف من التعبير عن أنفسنا بالطريقة التي تنسجم مع مكوننا الثقافي والحضاري أعجب ذلك الغرب أم لم يعجبه، فنحن أمة راقية وقعت في حالة انكماش حضاري وستعود لموقع الريادة عندما تعود لأصولها الحضارية والفكرية.

إن الغرب من أجل أن لا نعود إلى هذه الأصول يسعى كل جهده وتحت مظلة حقوق الإنسان لنشر الرذائل وتصديرها لنا، بدءاً من اعتراضه على إقامة الحدود الشرعية، إلى رفضه وضع ضوابط شرعية للعلاقة بين الجنسين، إلى طلبه مساواة المرأة والرجل بالميراث، وطلبه إعطاء الحق لزواج المثليين، وتشجيعهم الأطفال على التمرد على ولاية الأبوين، إلى ما هنالك من مظاهر تفكك مجتمعي يعاني منها الغرب ويحاول إيجاد حلول

لها، وقد ينتهي به الأمر بعد مدة للعودة إلى قيمنا التي تحفظ الأسرة وبالتالي تحفظ المجتمع.

هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإن ممارسة الحضارة في المجتمعات الغربية تقع ضمن دائرة القيم الحضارية الغربية، في حين أن كل ما هو معارض لها ممنوع، أما نحن فنريد ممارسة الحرية خارج إطار قيمنا، بل مع قيم تتعارض معها، فإن التعارض بين القيم والمفاهيم الإسلامية وتلك الغربية يصل إلى حد التناقض، وعليه فإن الحرية المنسجمة مع قيم الإسلام لم يمنعها الإسلام، إنما الذي منعه هو الحرية التي تخرج عن قيمه لتتمسك بالقيم الغربية، فلا يفطن المسلم إلى أن هناك منعاً وحظراً على أمور في الحضارة الغربية تتعارض مع قيمه، ويظن أن هناك حرية مطلقة فيعمل على نقله إلى مجتمعاتنا وهو ما يسبب الخلل والمشاكل فيه.

إن المقدس الذي يتم تجاوزه في المجتمعات الغربية هي مقدساتنا لا مقدساته، وبالتالي يظن البعض عن جهل أو عن علم أن الحرية الغربية تجيز التجاوز على المقدس، وهذا غير صحيح بل إنهم عندما يتجاوزون على السيد المسيح عليه السلام فإنهم يتجاوزون عليه باعتباره غير مقدس عندهم إما لأنهم علمانيون أو لأنهم يهود لا يؤمنون بقدسية للسيد المسيح وأمه مريم عليها السلام.

وهناك مسألة أخرى متفرعة وهي رد فعل سلبي على التعرض لمقدساتنا، حيث إن ذلك أدى إلى ركون البعض إلى الجمود في مواجهة الغرب لحماية مقدساتنا، وهذا وإن انطلق من نية سليمة إلا أنه أدى إلى تراجع الأمة وتركها للاجتهاد الذي هو سبيل التقدم والرقي، بل والركون إلى التقوقع ورفض الحرية وهذا ما لا يصح، بل لا بد من حرية منسجمة مع مبادئنا تعمل على إطلاق الاجتهاد في مجتمعنا ما يوصلنا إلى مصاف الأمم الراقية.

٨ ـ الحرية مطلقة أم أن هناك حدوداً؟

بما أننا قدمنا سابقاً أن الأصل في الإسلام هو الحرية فما هي طبيعة هذه الحرية؟ هل هي حرية مطلقة أم أنها محددة بحدود وضوابط؟ ثم ما هي طبيعة هذه الحدود؟ ومن هو المخول بوضعها؟

قبل الخوض في الموضوع لا بد من ملاحظة أننا استعملنا تعبير حدود الحرية ولم نستعمل عبارة قيود الحرية، حيث أن الإسلام اعتبر أن هناك حدوداً للحرية وليس قيوداً، فالقيود مانعة من الحرية في حين أن الحدود هي ضوابط توضع لتحديد مساحة الحركة عندما تمارس حريتك، وما وضعه الإسلام هو منظومة من الحدود التي تحدها وتحقق فعالية قيمة الحرية في إطار العدل.

وبالرجوع إلى الموضوع ففي الحقيقة لا يوجد إنسان عاقل يمكن أن يقول بإعطاء حرية لا ضوابط لها ولا حدود، لأن ذلك سيؤدي حتماً إلى تضارب حريات البشر بين بعضهم البعض، فلو أراد كل إنسان منا أن يمارس حريته من دون مراعاة لحرية الآخرين فإن ذلك سيؤدي حتماً إلى الاصطدام، فأنت حر في الاستماع إلى ما تريد في منزلك ولكن لا يجوز لك أن ترفع صوت المذياع بشكل يؤدي إلى إزعاج جارك فإن ذلك سيمس بحريته الشخصية هو، لذلك فإن حرية أي فرد من الأفراد تتوقف عند اصطدامها بحرية الآخرين.

فالحكمة تقتضي أن يوضع لكل شيء حدود وقواعد، وبالتالي فالحرية يجب أن توضع لها الضوابط لأنها من دون ذلك تصبح أبشع من عدمها، إذ يضحى وجودها بلا غاية كعدمها ويصبح الأمر مجرد عبثٍ لا قيمة له، وبالرجوع إلى تجارب الأمم السابقة نجد أمثلة كثيرة على ما نقول.

إن حريتك تخولك أن تؤمن بأي دين تريد وتقتنع به، ولك أن ترفض كذلك أي دين أو مبدأ لا تؤمن به، ولكن ذلك لا يخولك أن تمس بمقدسات الدين الذي لا تؤمن به وتتعرض لقادته وسادته، وهذا ما نهى عنه الإسلام، فإن الله عز وجل طلب من المؤمنين عدم التعرض لمقدسات المشركين فقال في كتابه الكريم:

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

إن الله عز وجل مع معرفته القطعية بعدم قدسية ما يؤمن به الآخرون دعا المؤمنين لعدم التعرض لهذه المقدسات، فحريتك في أن ترفض ما يؤمن به الآخرون لا تصل إلى حدود المس بالمقدسات بالنسبة إليهم حتى لو لم تكن كذلك في واقع الأمر.

ومع ذلك، فإن محددات الحرية لا يجوز أن تكون اعتباطية، بل يجب أن تنطلق من قانون يتسالم عليه المشرعون في المجتمع سواء أكانوا في نظام علماني أم حتى في نظام ديني. غاية ما هنالك أن مصدر التشريع للمحددات في النظام العلماني هو الدستور المتسالم عليه بينهم، في حين أن المرجع في النظام الديني هو الشريعة الإسلامية انطلاقاً من الكتاب الكريم والسنة النبوية. والمطلوب من هذا القانون أن يحمي الحرية وينظم ممارستها بشكل لا تؤدي إلى التعدي في ممارستها على حقوق الآخرين وحرياتهم.

حدود يجب أن تفرض على الحرية:

لقد وضع الإسلام قواعد لحرية الإنسان أفراداً ومجتمعات بأن جعل إطاراً معقولاً لحرية الفكر والقول وحرية العمل، وهذه الحدود تشمل تنظيم

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.

علاقة الإنسان بربه وعلاقته بنفسه وبالناس من حوله وبالحياة كلها، حتى أنها تشمل علاقة الإنسان بالحيوانات والبيئة وكل محيط نعيش فيه. ويجب أن نعرف أن الحرية مسؤولية وليست تشريفاً من ربنا فقط أو ميزة لا يترتب عليها شيء، والقاعدة العامة التي وضعت في الإسلام هي: «عدم الإضرار بالآخرين وعدم الإضرار البالغ بالنفس».

وقد يتساءل البعض أنه كيف تكون هناك حرية وبنفس الوقت هناك أنظمة تقيد حركتها؟ والذي يجب أن نفهمه أن ما نتكلم عنه هنا هو الحرية المسؤولة التي لا يمكن أن تكون مطلقة لا حدود تحدها وتضبط إيقاعها.

إن الحدود التي يمكن أن تفرض على الحرية من الناحية الشرعية تقع على أنواع مختلفة على الشكل التالي:

١ ـ حدود أخلاقية:

لا بد للإنسان عندما يمارس حريته في التعبير عمّا يؤمن به أو يفكر به أو يريد أن يعلن عنه من أن لا يتواجد فيه الأمور التالية:

أ ـ عدم السخرية من الآخرين بشكل تتعرض شخصيتهم للإهانة ولا تلقيبهم بألقاب تؤذيهم استناداً إلى قول الله سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(١).

ب ـ لا يجوز أن تفتح لنا الحرية في التعبير المجال لأن نذكر الآخرين بعيوبهم التي هي مخبأة عن الناس، أي أن لا نغتابهم فضلاً عن أن نمارس البهتان عليهم، يقول الله سبحانه وتعالى:

(١) سورة الحجرات، الآية: ١١.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[1].

ج ـ لا يجوز أن تؤدي بنا الحرية إلى البدعة في الدين بإضافة ما ليس فيه إليه، إذ لا يجوز تحت عنوان الحرية وأمام ضغط الغرب علينا، ولأجل أن نثبت أننا حضاريون بنظر الغرب أن نُدخل ما ليس في الدين فيه. ومن قبيل ذلك ما قام به بعض المسلمين ظناً منه أنه يحاول إظهار الدين بمظهر حضاري يعمل على نفي حكم ثابت في الشريعة على قاعدة أن هذا كان في زمان ولا يصلح لزمان آخر. ومنهم من ذهب مثلاً إلى الطلب من نسائنا ترك الحجاب في البلاد الغربية، ومنهم من قال إن الحكم الشرعي الفلاني قاسٍ، كقطع يد السارق فتراه يفتي بعدم جريانه في عصرنا الحاضر، إن كل ذلك لا يجوز الدخول فيه تحت أي عنوان من العناوين.

د ـ لا يجوز أيضاً تحت عنوان الحرية وبذريعتها الخوض في أمور تدعو للفساد والرذيلة داخل المجتمع، فلست حراً في أن تدخل أفلاماً إباحية إلى مجتمعاتنا تحت عنوان أن ذلك من قبيل الحرية الشخصية أو حرية الإعلام.

هـ ـ لا يجوز أيضاً بحجة الحرية الترويج لأفكار وحركات ومذاهب هدامة للأجيال كما في الدعوة لعبادة الشيطان لعنه الله.

٢ ـ حدود قانونية:

القانون الإسلامي المستند إلى الشريعة يمنع من يمارس حريته في التعبير أو في الاعتقاد أو في الإعلان من أن يقوم أثناء ممارسته بالأمور التالية تحت طائلة العقاب:

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

أ ـ الافتراء على المسلمين بل حتى على غيرهم ممن هم معنا ويعيشون بيننا وتحت حكم الإسلام، وذلك بإدخال ما ليس في دينهم بدينهم، أو القول عنهم بما لا يؤمنون به إلى كل ما يكون مصداقاً للافتراء.

ب ـ سب الله ورسوله (والعياذ بالله)، بل سب كل ما هو مقدس سواء لدى المسلمين أم لدى غيرهم ممن يعيشون بيننا وهم محترمون في خصوصيتهم.

ج ـ الخلاف بين المسلمين واقع وهم ليسوا على مذهب واحد سواء في عقيدتهم أم في فقههم، وبالتالي فإنه لا يجوز استناداً إلى هذا الخلاف تكفير المسلمين؛ لأن الخلاف في الرأي ما لم يؤد إلى نكران ما يعلم من الدين ضرورة ليس كفراً.

د ـ إيذاء الآخرين بغض النظر عن دينهم ما داموا محترمي الدم والعرض والمال بل وقذفهم.

هـ ـ التعدي على حرية الآخرين إما بالقتل أو الاعتداء والاحتلال.

و ـ التعدي على رموز ومقدسات ومسلمات الآخرين.

٩ ـ واقع الحرية في مجتمعاتنا

الحقيقة أن بعض المسلمين وأمام انبهارهم بالمستوى المتقدم الذي وصلت إليه الدول الغربية ظنوا أن السبب في هذا التقدم هو الحرية المفتوحة التي أخذها الناس هناك، ما أدى إلى انطلاق المفكرين والمبدعين لديهم ووصولهم إلى المستوى الذي وصلوا إليه. والصحيح أن مجتمع الحرية الذي عاشوا فيه أثر بشكل ملحوظ على التقدم وساهم فيه ولكن ليس كل ما هو من مظاهر الحرية ساهم فيها، بل الحرية الفكرية وحرية

التعبير عن الآراء والأفكار، أما مظاهر التفلت فقد ساهمت في تخلف هذه المجتمعات على المستوى الحضاري، فكان الناتج هو تصاعد كبير وملحوظ على مستوى التقنيات وتخلف كبير على المستوى الإنساني الاجتماعي.

فالذي حصل هو قيام المسلمين بتقليد المجتمعات الغربية في الأمور التي لا علاقة لها بالتقدم العلمي، فقلدوهم في طريقة اللبس والتفلت، وترك كل القيم، والنزوع نحو الميوعة وكسر التقاليد التي هي في أصلها قيم دينية؛ في علاقة الجنسين وفي الحشمة والإيمان من صلاة وصوم والتي اعتبرها دعاة التطور نوعاً من التخلف، وهي السبب في ما نعانيه من تراجع خطير في المستويات جميعاً.

كيف نعالج المشاكل الناتجة عن التفلت في مجتمعاتنا؟

لكي نعالج مجتمعاتنا مما تعاني منه لا بد من ثورة شاملة على كل المستويات ضمن خطة منظمة ومركزة على الشكل التالي:

١ ـ نشر الوعي الديني:

لا بد من الاستناد إلى الوعي الديني في مواجهة أي خطر انحرافي في الأمة، ولا بد من أن نفهم أن الحرية وقوانينها في الغرب تعتمد على مفاهيمهم هم ولا مجال لمقارنتها بمفاهيمنا وقيمنا التي قد تختلف في بعض المجالات اختلافاً جذرياً، فعلينا تلقي مفاهيمنا من نصوص القرآن والسنة النبوية المطهرة حسب الأصول المحددة في هذا المجال. فمن وصل منا إلى مرحلة الاجتهاد تعامل مع هذه النصوص ليوسع دائرة تطبيقاتها على جوانب الحياة المتطورة المتغيرة، ومن لم يصل إلى مرحلة الاجتهاد رجع إلى المجتهدين ممن يجوز الرجوع إليهم.

أما إذا احتجنا إلى الرجوع لاستعارة شيء من الثقافات والحضارات الغربية قمنا بالإطلاع عليه وتمحيصه وتخليصه من الشوائب وصياغته صياغة جديدة تتناسب مع فكرنا ومفاهيمنا، لأن مشكلتنا فيما تلقيناه عن الجيل السابق أنه أخذ ما عند الآخرين أخذ المسلمات من دون الالتفات إلى الفوارق الكبيرة بين ما عندنا من قيم ومفاهيم وما عندهم، فإذا بحضارتنا قد انحطت وغلبت عليها الثقافات الغربية وضاعت الأمة بين ما يجوز وما لا يجوز فيما يتعاملون معه من مواضيع حياتية.

إن نشر الوعي الديني سيؤدي إلى تأمين المناعة من التأثر بما يروج له في مجتمعاتنا تحت عنوان الحرية، وفي نفس الوقت سيؤدي إلى التمتع بحرية مسؤولة ضمن الحدود والضوابط الشرعية التي نعرفها من خلال الوعي الذي نملكه.

٢ ـ سن قوانين تحمي الأخلاق والآداب العامة:

إن الحرية المسؤولة هي هدفنا، ولا مجال لعيش كريم في مجتمع كريم إلا بحرية تصون اختياراتنا، وبنفس الوقت لا بد من سن قوانين تحمي تنفيذ الحرية المسؤولة وتصون الحرية من الانحراف عن مؤداها الحقيقي الذي بيناه، ولا بد لهذه القوانين من أن تكون مستلهمة ومستنبطة من الدين كأحكام شرعية أو على الأقل من الأخلاق الحميدة والقيم الإنسانية والآداب العامة. ولا بد من تنفيذ هذا القانون بحذافيره ومعاقبة المتخلف عن تنفيذه والمتجاوز له بعقوبات قاسية كي نحمي المجتمع.

٣ ـ ضبط وسائل الإعلام:

تعتبر وسائل الإعلام على اختلافها أهم وسائل نشر الفاحشة والرذيلة، لذا، لا بد من ضبط هذه الوسائل ومنعها من نشر ما يخدش الحياء، ونشر

الفاحشة والرذيلة، وتدعو للخروج عن القيم الإنسانية المعروفة، بل فتح وسائل إعلامية ملتزمة توجه المجتمع التوجيه الأخلاقي المنضبط.

٤ ـ موضوع الملابس:

قلنا إن الإنسان حر في اختيار الملبس الذي يريد ولكن لا يجوز أن يكون هذا الملبس مبتذلاً يؤدي إلى نشر الانحراف خاصة في لباس المرأة، حيث عمل المجتمع الغربي تحت حجة الحرية الشخصية إلى تعريتها ما أدى إلى التعرض لها خاصة عند لبسها لباساً فاحشاً، وبالرجوع إلى الإحصاءات العالمية نجد أن كثيراً من عمليات الاغتصاب كان من أهم أسبابها لباسٌ مبتذل أدى إلى إغراء شخص مريض غير منضبط ساقته شهوته لاغتصاب من هيأت له الأجواء من خلال لباسها.

وهذا لا يقتصر على المرأة، بل على الرجل أن يكون لباسه محتشماً لا يهينه ويؤذي الذوق العام، لذلك حرم الإسلام لباس الشهرة وأن يلبس الرجل لباس المرأة أو أن تلبس المرأة لباس الرجل، فإن كل ذلك غير جائز شرعاً وليس من الحرية المسؤولة في شيء.

٥ ـ إبدأ بنفسك ثم بغيرك:

كأية عملية تغيير لا بد من أن تكون عملية قلب المفاهيم شاملة، وهذا يجب أن ينطلق من مكان ما وهذا المكان هو نفس الذي يريدون تغييره، فعليهم قلب كل نظام حياتهم بما يتوافق مع نمط الحياة الجديدة لذلك قال الله سبحانه وتعالى:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[١].

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

يجب كي تكون عملية التغيير حقيقية وأن نبدأ بأنفسنا، لأن السنة الإلهية تقول إن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فعملية التغيير هي انعكاس لتناقض موجود في نفس المغير مع الواقع من حوله، وهذا التناقض يضعه بين خيارين إما أن يتغير هو مع واقعه، أو يغير هو الواقع الذي يعيش فيه. والمغيرون هم قادة عرفوا أنهم على حق فقادوا المجتمع نحو الحق الذي يؤمنون به. أما الذين يتغيرون من خلال محيطهم فهم جماعة يعرفون أنهم على باطل ويسعون نحو الحق فيتغيرون، أو أنهم جهلة لا يعرفون أنهم على حق ويظنون أن الحق في مجتمعهم الذي هو على باطل يظنونه حقاً فيتغيرون معه، أو أنهم يعرفون أنهم على حق ومجتمعهم على باطل لكنهم استضعفوا أنفسهم وانسحقوا أمام واقعهم بحجة ضعفهم وتحولوا إلى الباطل من الحق الذي هم عليه وهؤلاء أدانهم الله في كتابه الكريم فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾(١).

يجب علينا ونحن نقوم بواجبنا الشرعي في عملية التغيير أن تتوافر فينا شروط التغيير التي ننتزعها من التاريخ الذي ندرسه، فلا بد أولاً من أن نقتنع أننا على حق، وثانياً أن المجتمع من حولنا على باطل، وثالثاً أن عملية التغيير تحتاج إلى رجال يؤمنون بالله ولا يخافون في الصدع بالحق لومة لائم، فيطلقون كلمة الحق في وجهه حتى يغيروا الواقع بالحق فإن لم يستطيعوا فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وإن استطاعوا فإن الله سبحانه

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.

وتعالى سيعطيهم على ذلك الدرجات العليا، أما إذا أحسوا بأنهم ضعافٌ وأن الواقع ظالم وأقوى منهم، وأنهم إن واجهوا سيتعرضون للضرر في أنفسهم وأهلهم، فعليهم نكران الواقع سراً وفي أنفسهم، فإن لم يستطيعوا حتى هذا وكان مكثهم بين هؤلاء سيفرض عليهم التغير معهم وبنفس طريقتهم فليعلموا أن أرض الله واسعة وليهاجروا فيها.

٦ ـ نشر الفضيلة وتبيان محاسنها:

إن الناس لن يؤمنوا بسهولة وبالتالي فإنهم سيصارعون للبقاء على نفس النمط الذي كانوا يعيشون فيه، وبالتالي فإن عملية التغيير تحتاج إلى جهد استثنائي ورضا بالتعرض للأذى وخطر الموت والجرح والأسر وخلافه، وحسبنا في ذلك أسوتنا الحسنة رسول الله ﷺ الذي قال:

«ما أوذي أحد مثل ما أوذيت في الله»[١].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يجب أن نبين محاسن هذا الدين وفضائله كي يقوم الناس بالتعرف عليه، وفي هذا المجال حيث إننا نتعامل عادة مع مسلمين انحرفوا عن جادة الصراط المستقيم، يجب أن نبين لهم واقع الدين الحقيقي، وأن ما يمارسونه بعيد كل البعد عن حقيقة الدين بأسلوب حكيم بعيداً عن الإجبار والقهر والفرض والفظاظة في الدعوة التي حذر الله عز وجل منها، حتى رسول الله ﷺ فقال له:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٢].

---

(١) كنز العمال، الجزء ٣، الصفحة ١٣٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

فالمطلوب أن يكون الأسلوب ليناً لأن الفظاظة تؤدي إلى نفور الناس منا، وبالتالي فإن عملية الدعوة لا تفشل فحسب بل تؤدي إلى رد فعل عكسي فيترك الناس الدين ويبتعدوا عنه أكثر مما هم عليه الآن.

٧ ـ شغل أوقات الفراغ بما يفيد والبعد عن العبث:

من أهم ما أعطانا الله سبحانه وتعالى الوقت، فهو رأس المال الذي يجب أن نصرفه في المكان المناسب، وعليه، يجب أن لا نضيع هذا الوقت بالمزاح واللهو واللعب لأن الله سيسألنا عن هذا الوقت ويحاسبنا عليه، فقد قال رسول الله ﷺ:

«إذا كان يوم القيامة لم تزل قدما عبد حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعما اكتسبه من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن حبنا أهل البيت»[١].

لذلك، وحيث إن العمر مسؤولية شرعية أمام الله عز وجل يجب أن لا نضيعه إلا بما هو مفيد، ونحن هنا لا ندعو إلى التنسك والرهبنة، بل ندعو إلى أن يكون الغالب هو صرف الوقت في إطار المسؤولية الشرعية، وأن يكون وقت الترفيه في نفس المجال أيضاً؛ بمعنى إننا نرفه عن أنفسنا كي تتقوى هذه النفس على الاستمرار في عملية الدعوة بشكل أقوى وبزخم أكبر، فهذا هو مفهومنا للوقت من الناحية الشرعية.

٨ ـ عدم التسرع في الحصول على النتائج:

عملية التغيير لا يمكن أن تُقاس بالزمن بقدر ما تقاس بالإنجاز، فهذه العملية قد تأخذ جيلاً وأكثر، المهم هو أن نبدأ وأن نقوم بواجبنا تجاه

---

(١) تحف العقول، الصفحة ٥٦.

أمتنا، أما موضوع حصول التغيير وعدمه فهذا توفيق من الله سبحانه وتعالى، لكن يجب الالتفات إلى أن نكون على المنهج الصحيح في إدارة عملية التغيير والأناة في تحقيق الأهداف، لأن التسرع قد يُعطي آثاراً سلبية ومضرة وتبعد عن الهدف بدلاً من الاقتراب منه.

١٠ ـ مظاهر تشريعية تتناقض مع الحرية

بالرجوع إلى الشريعة الإسلامية والتاريخ نجد أن هناك الكثير من الفتاوى والقرارات التي اتخذها الحكام تأخذ طابعاً استبدادياً يناقض الحرية، أو هكذا فُسرت من قبل المستشرقين وبعض من يريد إثبات عدم صحة ما يقوله علماء الإسلام عن صلاحية هذا الدين للاستمرار على مر العصور والأزمان، وسآخذ فيما يلي بعض هذه الأمور عارضاً لتفسيرها على ضوء الشرع الحنيف، ومثبتاً أن هذا الدين لا يُناقض الحرية بل يدعو لها.

١ ـ قتل المرتد:

من الأمور التي تثار على مفهوم الحرية في الإسلام موضوع الحد الذي يُقام على المرتد عن دينه، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«من بدل دينه فاقتلوه»[١].

ويستغرب هؤلاء كيف يجوز أن يُقتل شخص لم يشهر سيفاً على أحد ولم يقتل أحداً؟ وفاتهم أن هذا الشخص لم يترك دينه بينه وبين نفسه وإلا لما عرف أحد بذلك ولم يُقَم عليه حد، بل إنه جاهر وأعلن أنه ترك هذا الدين، ما يفرض على القاضي أن يستتيبه عبر الموعظة والإقناع، فإن تاب وعاد فلا سبيل لنا عليه وإن لم يتب فإنه لا مجال للقول أن يترك بلا

(١) مستدرك الوسائل، الجزء ١٨، الصفحة ١٦٣.

عقاب، فإن ذلك سيشكل دعوة لغيره لترك الدين خاصة أولئك الذين لديهم بعض الشكوك، فيتركون الدين ويسلكون منهجاً آخر في حين كان من الممكن إزالة الشبهة بأقل نقاش ممكن. وإذا ما أضفت لذلك أن هناك من يسعى لإخراج الناس من الإسلام عبر التبشير وتقديم المغريات المادية من المال إلى النساء إلى السلطة وخلافه، نجد أنه لا بد من فرض عقوبة رادعة تصل إلى حد الإعدام.

إن ترك الدين والدعوة لغيره الذي قد يكون كفراً صراحاً هو بمثابة ما يسمونه اليوم في المجتمعات العلمانية بالخيانة العظمى التي يكون عقاب مرتكبها الإعدام من دون أن يُستنكر عليهم ذلك.

لا بد من الالتفات هنا إلى أن القتل ليس أمراً مباشراً، بل يجب الصبر عليه وموعظته مدة من الزمن حتى يعود إلى رشده وبالتالي إلى دينه، وقد اختلف في مقدار المدة؛ فذهب البعض إلى كونها ثلاثة أيام ومنهم من ذهب إلى أكثر من ذلك، ولعل العبرة تكون في إمكانية التوبة فتطول المدة وعدمها فتنقص إلى حد لا تقل عن ثلاثة أيام.

٢ ـ منع نشر كتب الضلال:

كيف يكون هناك حرية في الإسلام وأنتم تمنعون بعض من يخالفكم في الرأي من نشر كتبهم؟ ألا يعني هذا قمعاً للحريات الشخصية؟

في الحقيقة، الحرية كما قلنا لها حدود، ومن الحدود أن لا تصبح وسيلة لنشر الفساد في المجتمع. فالإنسان حر في أن يفكر كما يريد ويؤمن بما يريد، ولكن أن يُحول هذا الكلام إلى كتاب ينشره ويوزعه للناس لإثارة الشكوك في أنفسهم، فهذا لا مجال له لأنه من الناحية العملية هذا الأمر قد يُشكل حد الاعتداء على أمن المجتمع الفكري وبالتالي أمنه الشخصي.

٣ ـ منع تمكين الكافر من القرآن:

وهذا الأمر وإن كان صحيحاً فهذا لا يعني أن الإسلام يمنع من نشر دينه بين الآخرين، بل وكما قدمنا أن الإسلام يطلب من المؤمنين أن يدعو الآخرين إلى دينهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكن الذي نمنع منه هنا هو تمكين الكافر من القرآن الكريم إذا احتملنا أنه سيقوم بإهانته منه شخصياً أو من خلال من يمت إليه بصلة، أما إذا ضمنا احترامه له فلا إشكال لدينا من ذلك، بل يصبح الأمر مطلوباً إذا علمنا أنه سيقوم بقراءته وقد يهتدي إلى الإسلام كما ورد في القرآن الكريم:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾(١).

فهذا الكافر الذي استجار بالمسلم أمره الله عز وجل بأن يجيره، والهدف أن يسمع كلام الله وله أن يؤمن أو أن يبقى على دينه، ولكن بعد أن يسمع كلام الله يبلغه مأمنه ليذهب في حال سبيله.

٤ ـ الجهاد لنشر الدين:

هنا لا بد من الإشارة إلى أن الجهاد في الأصل هو إما للدفاع عن بيضة الإسلام وهو الجهاد الدفاعي، أو الجهاد للدعوة الإسلامية وهو المقصود من البحث هنا، حيث إن البعض اعتبر أن معنى ذلك أنك تفرض على الآخرين دينك بالقوة وهذا مناف للحرية، ولكن بالرجوع إلى الواقع نجد أنه أولاً ليس الأمر دعوة الآخرين إلى سلطة دولة دنيوية أو سلطة شخص، بل هو دعوة الناس إلى أن يدخلوا في الدين الذي يؤمن به الجيش الذي يهاجمهم فيرتقون ليصبحوا مثلهم بل ويتقلبوا في المسؤوليات ضمن

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦.

هذه الدولة، ومن لا يريد الدخول في الدين لا يُكره على ذلك بل يعيش بين المسلمين مصاناً ومحفوظ الكرامة، فهم يدعونهم للهداية لأنهم يعتقدون أن ما يؤمنوا به هو الصواب ويريدون أن يزيلوا الإكراه عن المستضعفين منهم ليهتدوا إلى الإسلام.

وبالرجوع إلى التاريخ نجد أن الأمم التي دخلت في الإسلام حافظت على لغتها وحافظت أيضاً على وجودها حتى في فرض محافظتها على دينها، وحافظت أيضاً على ثقافتها القومية الخاصة، بل أكثر من ذلك، فإن هذه الأمم ساهمت في بناء مجد الحضارة الإسلامية وكان لهم الباع الطويل في ذلك، بل إنها صارت بعد مدة مركز الخلافة كما حصل في الدولة العثمانية، حيث صار الأتراك هم مركز الخلافة بعد أن كانت عند العرب في البداية، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن هذا الدين لا يسعى لإكراه الناس على الدخول فيه حتى مع خوضه للحرب التي يقصد الدعوة من خلالها، بل يسعى لإدخالهم في الدين رحمة بهم فاتحاً أمامهم الفرص المتكافئة مع غيرهم ليصيروا بعد ذلك هم القادة.

٥ ـ تطهير الجزيرة العربية من المشركين:

كيف تكون هناك حرية وقد حكم الإسلام بتطهير الجزيرة العربية من المشركين؟ والحقيقة أن الآية الكريمة التي يمكن الاستفادة منها في هذا المجال ما ورد في القرآن الكريم من خلال قوله سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(١).

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

وهذه الآية الكريمة إنما تمنع دخولهم إلى المسجد الحرام، والتعدي عنه إلى ما زاد يحتاج إلى دليل، وهو وإن كان مشهوراً التعدي عنه إلى كامل الجزيرة العربية، إلا أن قيام الدليل على ذلك مشكل كما قال سماحة المرجع الخوئي (قدس سره):

«المشهور بين الفقهاء أن على المسلمين أن يخرجوا الكفار من الحجاز ولا يسكنوهم فيه ولكن إتمامه بالدليل مشكل»[١].

فبالتالي، كل ما يمكن إقامة الدليل عليه هو المسجد الحرام، أما التعدي عن ذلك فلا دليل عليه.

البحث الخامس

بين الديمقراطية
والشورى وولاية الفقيه

٥ ـ بين الديمقراطية والشورى وولاية الفقيه

مقدمة

بعد تصاعد الصحوة الإسلامية في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي طرحت نظرية الحكم الإسلامية على بساط البحث، وقد حصل كثير من الأخذ والرد حول النظام الإسلامي الذي يمثل الإرادة الإلهية في سياسة شؤون الأمة والدولة، ومنهم من ذهب إلى أن لا نظرية للإسلام في هذا الأمر، بل إنه متروك للأمة أن تختار ما هو الأفضل لها حتى لو كان هذا النظام في كل شؤونه من إنتاج البشر، المهم أن لا يتعارض في أحكامه مع ما علم من الشرع ضرورة أو ما أجمع عليه فقهاء المسلمين.

وانطلاقاً مما تقدم، ذهب البعض إلى أنه يمكن لنا أن نعتمد النظام الديمقراطي أو النظام الاشتراكي مع حذف ما يتعارض مع الإسلام منه، أو بمعنى آخر أن نكيفه مع أحكام الإسلام بشكل لا يتعارض معه، بل يوافقها مع الحفاظ على جوهر الديمقراطية أو الاشتراكية فيه.

إن نظرتنا للإسلام على أنه دين حياة بمعنى أنه دين ودولة لا يمكن أن ينسجم مع مقولة أن لا نظام في هذا الدين لإدارة شؤون الحياة، بل كونه كذلك يفرض أن يحتوي هذا الدين على أحكام شرعية تمس كامل

شؤون الحياة، فلكل واقعة سواء أكانت صغيرة أم كبيرة حكم شرعي، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«ما خلق الله حلالاً ولا حراماً إلا وله حد كحد الدور فما كان من الطريق فهو من الطريق وما كان من الدور فهو من الدور حتى أرش الخدش وما سواه والجلدة ونصف الجلدة»[١].

فمقتضى شمولية الأحكام الشرعية لكل شيء أن يكون هناك أحكام تتعلق بالسلطة، ومن هو الأهل لتوليها، وطبيعة الحكم الذي يجب أن يعتمد، وهذا ما سنشير إليه في طي البحث التالي.

ومع كل الذي قدمناه ذهب البعض إلى القول إنه صحيح أن الأحكام الشرعية شاملة لوقائع الحياة كافة، ولكن هذه الأحكام هي على صعيد التكليف الشخصي لكل مسلم على حدا ولا يشمل الأمر الأحكام العامة التي تتعلق بنظام حكم وما شابه.

وما سنناقشه في هذا البحث هو إثبات أن الإسلام قدم في أحكامه نظاماً لدولة كما قدم نظاماً للأمور الشخصية، وللإشارة إلى الدليل على ذلك نقول إن نظام الحدود والديات والقصاص والخمس وأحكام بيت المال والجهاد من خلال خوض الحروب الدفاعية أو الهجومية، كل ذلك يدل على أن هذه الأحكام هي أحكام دولة لا يمكن أن تطبق على الصعيد الفردي، بل لا بد من دولة تنظم هذه الأمور ومثيلاتها.

ومن الأدلة على كون الإسلام هو دين ودولة هي تلك الدولة التي أنشأها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسار من بعده على دربه الخلفاء الذين تولوا إدارة شؤون الحياة في كل جوانبها الشخصية والسياسية؛ فأقاموا المعاهدات،

---

(١) بحار الأنوار، الجزء ٢٦، الصفحة ٣٥.

وخاضوا الحروب، وحاسبوا المخطئين، وأقاموا الحدود الشرعية، واقتصوا من القاتل، وحتى عندما انحرف القادة عن النهج الإسلامي من خلال تحويل الحكم في الإسلام إلى ملك عضوض كما فعل معاوية بن أبي سفيان، إلا أن الذين قاموا بذلك لم يحكموا من خلال نظام آخر غير الإسلام، بل حكموا على أساس الإسلام في تشريعاته، وإن حرفوا بعضها أو انتهكوا بعضها الآخر، إلا أن ذلك لا يعني أن الدولة التي كانوا يديرون لم تكن دولة إسلامية.

سينقسم البحث فيما يلي إلى التعرض لكلٍ من الأنظمة الثلاثة الديمقراطية، والشورى، وولاية الفقيه بشيء من التحليل والشرح عبر التعرض لكل مفهوم على حدا، ثم بعد ذلك نقارن بينها ونحدد المذهب المختار من قبلنا.

ويجب في هذه العجالة أن أنبه إلى أن هذا البحث ليس بحثاً تفصيلياً، ولكنني سأسعى أن لا يكون الإجمال مخلاً على أن أحاول قدر الإمكان إعطاء البحث حقه في عرض كل الجوانب التي تُكَون صورة مقبولة عن هذه المواضيع ما يساعد على تكوين رأي واضح فيها.

أولًا: الديمقراطية

١ ـ معنى الديمقراطية:

الديمقراطية كلمة يونانية تنقسم إلى قسمين الأول (ديمو) ومعناها عامة الناس والقسم الثاني (قراط) ومعناه حكم، وبذلك تصبح الكلمة بمجموعها تعني حكم عامة الشعب. وقد عرفها البعض بأنها العملية السلمية لتداول السلطة بين الأفراد أو الجماعات ما يؤدي إلى نظام شامل يسير عليه الناس في كل شؤونهم فتتحول الديمقراطية إلى نظام اجتماعي عام.

والديمقراطية كشكل من أشكال الحكم، هي حكم الشعب لنفسه بصورة جماعية من خلال الأغلبية التي تصل إلى الحكم من خلال الانتخاب، وعلى الأقلية أن تذعن لهذا الخيار الذي أعلن عنه الشعب من خلال تصويته.

وهناك في موضوع الديمقراطية إشكالات ناتجة عن الممارسة، إذ يظن البعض أن مجتمعاً يحكم من خلال الديمقراطية سيؤدي إلى مجتمع حر يذخر بالحيوية الشعبية كون هذا الشعب هو الفيصل الذي يمكن أن يغير الحكم من خلال عملية الانتخاب القادمة، ما يؤدي بالحكم أن يراعي مصلحة المواطن في كل ما يصدر من قوانين، ولكن الذي يحصل أن الواقع أدى إلى الوصول إلى القناعة التالية وهي أن وجود حكومة ديمقراطية لا يعني بالضرورة وجود مجتمع ديمقراطي.

لقد أصبحت الديمقراطية، وخاصة في النصف الثاني من القرن العشرين، قناعاً يتلطى خلفه الحاكم ليمارس ديكتاتورية بغيضة، وكثيراً ما دخل إلى السجون مناضلون سياسيون تحت عنوان الحفاظ على الديمقراطية، في الوقت الذي يتشدق فيه الحاكم أمام الناس والرأي العام المحلي والدولي بأنه يدعم الديمقراطية، ثم تجد أنه يدعو إلى انتخابات هي إلى التعيين أقرب منها إلى الانتخابات، لأنه كثيراً ما تكون النتيجة معروفة سلفاً، وينال الحاكم في الاستفتاءات أو الانتخابات التي يجريها ٩٩،٩٩٪ من الأصوات، في الوقت الذي لا يكون له منافس في هذه الانتخابات الصورية، فلا مجال أمام الشعب أن يختار بين الحاكم وشخص آخر بغض النظر عن ماهية هذا الشعب.

٢ ـ تاريخ الديمقراطية:

أول ممارسة معروفة للديمقراطية كانت في القرن الخامس قبل الميلاد في أثينا حيث كان هناك انتخابات، غير أنه في هذه الانتخابات كان التصويت لا يحق إلا لحوالي ربع أو نصف سكان أثينا الذكور، وكان مواطنو أثينا في تلك الفترة يمارسون عملية التصويت على القرارات مباشرة بدلاً من التصويت على نواب يختارونهم لتمثيلهم في ندوة برلمانية، وهذا النظام هو ما اصطلح على تسميته بالديمقراطية المباشرة أو الديمقراطية النقية، ومع مرور الزمن تغير معنى الديمقراطية وارتقى تعريفها كثيراً منذ القرن الثامن عشر مع ظهور أنظمة ديمقراطية في كثير من دول العالم.

قبل ذلك ظهر شكل من أشكال هذه الديمقراطية في جمهوريات الهند القديمة في القرن السادس قبل الميلاد حيث كانت تعرف هذه الجمهوريات بال(ماها جانا باداس) وإن كنا لا نعرف الكثير عنهاوعن ممارستها، ثم بعد

ذلك وبالتحديد في القرن الرابع قبل الميلاد وفي عهد الإسكندر الكبير كتب الإغريق عن دولتي ساباركايي وسامباستايي اللتين كانتا تُحكمان بما يعرف اليوم بباكستان وأفغانستان حيث كان شكل الحكم هناك ديمقراطياً ولم يكن ملكياً.

وفي العام ١٩٠٠م، لم يكن يوجد نظام ديمقراطي واحد يضمن حق التصويت وفق المعايير الدولية، وإن كان هناك ٢٥ دولة تمارس ديمقراطية محدودة أي ما يعادل ١٩٪ من دول العالم وقتها، ولكن في العام ٢٠٠٠ كانت ١٢٠ دولة من دول العالم الـ١٢٩ أي ما يوازي ٦٠٪ من مجموعها تعد ديمقراطية. ونتيجة لهذه الإحصاءات والتطور في عدد الدول التي تمارس الديمقراطية توقع البعض ومن بينهم فرانسيس فوكوياما صاحب نظرية (نهاية التاريخ)، أن تصبح الدول الديمقراطية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية المقياس العالمي لشكل المجتمع البشري.

٣ ـ أنواع الديمقراطية:

هناك أنواع من الديمقراطية والاختلاف ناتج عن تطبيق هذه النظرية التي لم تكن في الأساس ذات مواد تطبيقية واضحة، بل كانت مفاهيم عامة إجمالية، وعند الخوض في التفاصيل أنتجت أنواعاً مختلفة من الديمقراطيات. سنتعرض لهذه الأنواع بشيء من الشرح لتعميم الفائدة:

أ ـ الديمقراطية المباشرة:

وتسمى كما قلنا سابقاً بالديمقراطية النقية وهي نظام يصوت فيه الشعب على القرارات مباشرة من دون تكليف أشخاص ينوبون عنهم في ذلك. وهذا النوع أصبح نادراً جداً وهو النظام الأول الذي اعتمد في المجتمعات الديمقراطية، وهو ما زال يطبق اليوم في المجتمعات الصغيرة والجمعيات ذات العدد القليل من المنضوين.

ب ـ الديمقراطية النيابية:

وهي نظام ينتخب فيه الشعب ممثلين عنه وهم يقومون باتخاذ القرارات نيابة عن الشعب الذي ينتخبهم وهم يمثلونه، وهؤلاء يسمون عادة بالنواب، وهو الشكل المعتمد في هذه الأيام حيث يعيش الشعب في ظل نظام ديمقراطي نيابي.

ج ـ الديمقراطية التوافقية:

وهو نظام تعتمده عادة الدول ذات الأطياف المختلفة سواء على صعيد العرق أو الدين أو اللغة، حيث تتخذ القرارات لا على أساس الأكثرية العددية، بل على أساس أن تكون الأكثرية من كل فئة مع هذا القرار بشرط أن لا تعترض إحدى الفئات عليه.

٤ ـ العناصر الأساسية للديمقراطية:

لا بد من توافر عناصر معينة في أية ديمقراطية كي تكون ديمقراطية صحيحة بحسب الموازين التي وضعها أرباب الديمقراطية ومدعوها؛ فيصح إطلاق هذا العنوان عليها، وهذه العناصر هي على الشكل التالي:

أ ـ القاعدة الجماهيرية:

حيث إن الديمقراطية هي حكم الشعب لنفسه، لذا لا بد من وجود قاعدة للحكم هم الجماهير الذين يشاركون في عمليات التصويت، وهم كل من يحق له التصويت، أي البالغين من أفراد الشعب أو البالغين الذكور بحسب بعض الأنظمة التي تمنع النساء من التصويت.

ب ـ الأرض:

وهي الرقعة التي يعيش فيها هؤلاء الناس وعليها تمارس القرارات

التي تتخذ باسمهم. ولا بد من أن تكون هذه الأرض ملكاً للشعب الذي ينتخب وعليها تمارس ديمقراطيتهم وسيادتهم، فلا يشمل الأمر المستعمرات التي يسيطر عليها محتل ما.

ج ـ النظام الانتخابي:

لا بد من تحديد النظام الذي على أساسه تتم عملية الاختيار والموافقة على القرارات التي تتخذها السلطة الحاكمة، والذي يمكن أن يكون من خلال الاستفتاء أو من خلال الانتخاب أو أي شكل آخر.

د ـ رضا الشعب بالنظام:

لا بد من أن يرضى الشعب بالنظام الذي على أساسه تتم عملية الانتخاب، وبالتالي يرضى بالنتيجة التي ستظهر من خلال هذه الانتخابات حيث إن عدم الرضا والدخول القهري في عملية الانتخاب هي دكتاتورية مقنعة بالديمقراطية وبالتالي لا شرعية لها.

هـ ـ أن تكون العملية حقيقية لا شكلية:

لا بد من أن تكون عملية الانتخاب حقيقية لا صورية كما يحصل في كثير من البلدان في أيامنا هذه، وبالتالي تنتج شكلاً جديداً من الإدارة لا أن تكون عملية مسرحية شكلية أقرب إلى التعيين منها إلى الانتخاب.

٥ ـ مساوئ الديمقراطية:

هناك الكثير من الانتقادات التي وجهت إلى الديمقراطية، وبعض هذه الانتقادات قد تكون مشتركة بينها وبين غيرها من النظم، في حين أن بعضها مختص بالديمقراطية. سأحاول أن أنقل بعضاً من هذه الانتقادات بشيء من الإجمال:

أ ـ الصراعات الدينية والعرقية:

الديمقراطية تنظر إلى الشعب باعتباره وحدة واحدة، ولكننا نجد أن كثيراً من الدول لا يجمعها وحدة ثقافية أو عرقية أو دينية واحدة، وهذه التعددية قد تكون عادية لا تأثير لها على المجتمع والتواجد في ضمن دولة واحدة، في حين قد تكون من ناحية أخرى مولدة للكثير من المشاكل التي تصل إلى حد العداء بين هذه المكونات، وعليه، فإن الديمقراطية ستؤدي في حال حصول تصويت على أي أمر إلى سيطرة الأكثرية، التي قد تكون من مكون واحد، على الأقلية التي قد تكون صدفة من المكون الآخر، ما قد يسبب غلياناً شعبياً يؤدي لاحقاً إلى ثورات وإراقة دماء. وهذا المعنى يمكن مشاهدته بشكل واقعي فيما حصل بعد تفكك الإتحاد السوفياتي، حيث وقعت حروب أهلية في يوغسلافيا السابقة والقوقاز ومولدافيا بل في كل مكان من العالم تعيش فيه مكونات متناحرة بسبب الاختلافات المتنوعة.

ب ـ البيروقراطية:

إن عملية الانتخاب المستمرة، ومجيء نواب جدد عليهم مهمة التشريع، يجعلهم يقومون بتغيير القوانين من دون ضرورة تدعو لذلك والإتيان بسيل جديد من القوانين وهو ما يعتبر ضاراً من عدة نواح. وهذا ما لا يترك فرصة مقبولة لتجربة القوانين القديمة حتى يصار إلى تغيرها أمام أية مشكلة تطرأ، في حين أن الديمقراطيين يشكلون على الأنظمة الأخرى بالتعقيدات الكبيرة التي توضع في وجه إصدار قوانين جديدة أو التعديل على القوانين الموجودة أصلاً.

ج ـ السياسات قصيرة المدى:

حيث إن التغيير مستمر في مستويات القيادة نتيجة للانتخابات

الدورية، وبما أن الحكام غالباً ما يطمحون ويطمعون في التجديد تراهم لا يعتمدون سياسات طويلة المدى كما تقتضي عملية التغيير، وينصرفون إلى ما يعود بالنفع السريع على الناخبين كي ينتخبونهم مرة أخرى، مما يؤدي إلى عدم تقديم النفع للمجتمع بل للأتباع والإنتهازين، وهذا ما يساعد على زيادة التخلف والبعد عن النمو والتطور.

د ـ الأفضلية للأغنياء لا للكفاءات:

تحتاج العملية الانتخابية في المجتمعات الديمقراطية إلى صرف أموال كثيرة، فالحملات الانتخابية مكلفة جداً خاصة في ظل أنظمة لا تضع حدوداً لعملية الصرف المالي في الانتخابات كما هي أغلب الدول النامية ودول العالم الثالث، وهذا ما يؤدي لخيارين سلبيين، فإما أن لا يكون هناك مجال للكفاءات من الوصول إلى المواقع التي يستأهلونها عندما يكونون فقراء، أو اضطرارهم لإعطاء فروض الطاعة لممولي العملية الانتخابية كالأغنياء أو الشركات الكبرى أو الأحزاب الغنية، ما يجعلهم غير قادرين على ممارسة قناعاتهم ويضعهم تحت تأثير الممولين في سياساتهم سواء الاقتصادية أو السياسية.

هـ ـ طغيان الأغلبية:

من مساوئ الديمقراطية موضوع طغيان الأغلبية على الأقلية، فترى النواب يعملون لصالح من انتخبهم فلا يكونون نواباً عن الأمة، بل عن ناخبيهم وهذا ما يؤدي إلى ضياع حقوق الأقلية مع أنهم مواطنون يتمتعون بنفس الحقوق التي تتمتع بها الأغلبية.

٦ ـ محاسن الديمقراطية:

كما للديمقراطية مساوئ كذلك لها محاسن سنعدد أهمها، وهي على الشكل التالي:

أ ـ الاستقرار السياسي:

إن الديمقراطية تؤمن للشعب إمكانية تغيير السلطة السياسية من دون التعرض للأسس القانونية للحكم، مما يجعل المواطن مطمئناً من حصوله على فرصة منتظمة لتغيير حكامه، أو تغيير السياسات التي قد يعارضونها، وهذه الطريقة من التغيير السلمي أفضل بكثير من اللجوء إلى العنف في عملية التغيير وهذا يؤمن الاستقرار السياسي في المجتمع.

ب ـ انخفاض نسبة الفساد:

من الطبيعي أن يكون هناك نسبة أدنى من الفساد في نظام ديمقراطي منه في نظام ديكتاتوري، حيث إن الحاكم في النظام الديمقراطي يضع نصب عينيه أنه مراقب من قبل الشعب الذي يمكن أن يغيره في أول انتخابات مقبلة، في حين أن الحاكم في النظام الديكتاتوري لا يخاف من ذلك ويكون قادراً على ارتكاب ما يريد من دون خوف من المحاسبة.

ج ـ انخفاض مستوى الفقر:

دلت الإحصائيات على أن هناك علاقة تبادلية بين ازدياد الديمقراطية وارتفاع إجمالي الناتج القومي للفرد وانخفاض معدلات الفقر. وهذا الكلام لم تثبت صحته، حيث إن هناك أنظمة ديمقراطية ومع ذلك فإن مستوى الفقر فيها كبير، كما في الهند مثلاً. وهناك دول مثل السويد وكندا تأتي في موضوع معدلات الناتج القومي بعد تشيلي وأستونيا، في حين أنها أكثر ديمقراطية منها إن لم نقل إن الديمقراطية شبه معدومة في بلد مثل تشيلي. وهذا ما يؤدي إلى القول أن لا علاقة بين مستوى الدخل الفردي أو معدل الناتج القومي وبين الديمقراطية، فأحدهما ليس سبباً للآخر.

٧ ـ إشكالات على الديمقراطية:

هناك إشكالات كثيرة على الديمقراطية كطريقة حكم إذا ما قارنتها بالنظام الإسلامي الذي يعتبر أن مصدر التشريع هو الله سبحانه وتعالى. ففي حكم غير إسلامي أو غير إلهي يتبنى نظاماً شاملاً للحياة لن يكون هناك مجال لجعل التشريع بيد فرقة من الناس مهما بلغت فكرياً وعلمياً وثقافياً. إن الأحكام والقوانين لها مصدر في التشريع الإسلامي وهذا المصدر هو القرآن الكريم والسنة النبوية إضافة إلى العقل والإجماع، وبالتالي فلن يكون قيمة لما يتوصل إليه المجلس التشريعي المنتخب في تشريعات جديدة، وبالتالي فإنه لا يمكن تبني الديمقراطية بهذا المعنى.

من جهة أخرى، فإن ترك التشريع للبشر قد يؤدي إلى أن يشرعوا لأنفسهم ما يضيع القيم الإنسانية والأخلاقية، وهذا ما حصل فعلاً في الديمقراطيات من خلال تشريع الزواج المثلي، والقمار، والدعارة، وغيرها.

وضياع القيم الإنسانية أدى إلى سيطرة الطبقات الغنية على الحكم من خلال تجمع الشركات الكبرى ما أدى إلى تشريعات لصالحها أوجدت قاعدة كبيرة من الفقراء في المجتمعات الرأسمالية، وباتت ظاهرة المشردين بلا مأوى من الظواهر الكبرى في المجتمعات الديمقراطية، وتداعت كل قيم حقوق الإنسان والحرية وما شابهها من قيم.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن معيار الحق لا يكون من خلال كثرة الذين يتبنونه فقد يكون الحق مع الأقلية، وما تواطأت عليه الأكثرية قد لا يكون فيه على حق. وإذا ما رجعنا إلى الآيات الكريمة لوجدنا عدداً لا بأس من الآيات تذم الأكثرية وسأعرض لبعضها على الشكل التالي:

من الأمور التي ذمت الأكثرية بها أنها في أكثرها لا يؤمنون، فقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١).

وفي مجال آخر وصف الأكثرية بعدم العلم فقال قي كتابه الكريم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

وفي مجال آخر وصفهم ليس بأنهم لا يعلمون، بل إنهم جاهلون، فقال في كتابه الكريم:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾(٣).

وكذلك تم وصفهم بأنهم لا يشكرون الله على ما أنعمه الله عليهم، فقال في كتابه الكريم:

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾(٤).

وفي آية أخرى وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم فاسقون، فقال في كتابه الكريم:

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾(٥).

وفي آية أخرى وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم يبنون مواقفهم على أساس الظن وليس انطلاقاً من قاعدة منطقية سليمة، فقال في كتابه الكريم:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١١.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٠٢.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(١).

وفي آية أخرى وصفهم الله سبحانه وتعالى بأن إيمانهم ليس إيماناً حقيقياً ولكنهم مشركون حتى في إيمانهم، فليس هذا الإيمان إيمانا خالصاً لوجه الله سبحانه وتعالى، فقال في كتابه الكريم:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(٢).

وفي آية أخرى وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم لا يعقلون ما أنزله الله سبحانه وتعالى، فقال في كتابه الكريم:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(٣).

وفي آية أخرى يصل وصف الله سبحانه وتعالى للذروة بأنهم مشركون فقال في كتابه الكريم:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾(٤).

هذا لجهة الأكثرية، في حين أن الله سبحانه وتعالى مدح الأقلية في كثير من المواقع معتبراً أن أهل الحق في كثير من الأحيان هم الأقلية. وسأعرض لعدد من الآيات التي تتحدث عن هذه المسألة للتوضيح وهي على الشكل التالي:

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٦.
(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٣.
(٤) سورة الروم، الآية: ٤٢.

فقد عرض لنا الله سبحانه وتعالى حال اليهود مع الإيمان، فحدد لنا أن عدد المؤمنين بما فرض الله عليهم من واجبات قليل، فقال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[1].

وفي مجال آخر تحدث القرآن الكريم عن أن الذين يلتزمون تكليف الجهاد هم الأقلية، فقال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[2].

وإذا رجعنا إلى قصة النبي نوح عليه السلام لوجدنا أنه بعد أن قضى في قومه تسعمائة وخمسين سنة لم يصعد معه في السفينة إلا نذر قليل من البشر مع ما تعنيه السفينة من حجم قليل من الناس فيما لو كانت تمتلئ بهم فقط فكيف لو عرفنا أنه حمل معه حيوانات من كل زوجين؟ اثنين إن ذلك يدل على أن الذين كانوا مع الحق هم قلة وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله سبحانه وتعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[3].

وفي مجال آخر وصف الله عز وجل أن الشكور من عباده هم القلة لا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٦.
(٣) سورة هود، الآية: ٤٠.

الكثرة، وكأن التمييز للحق لا يدركه إلا قلة استطاعت أن تخرج من الشهوات وإغراءات الدنيا، فقال سبحانه وتعالى:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(١).

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾(٢).

بعد هذا كله يتبين لنا استحالة أن يترك الله عز وجل أمر التشريع للبشر للناس على ما يجتمع عليه أكثرهم، بل من رحمته بهم قام بإنزال التشريع من عنده كي يكون في ذلك صلاح أمرهم، وكي لا يكون التشريع متأثراً بالمصلحة الشخصية للمشرعين التي قد تتعارض مع مصالح الغالبية العظمى الصامتة من الناس، وخالق البشر هو الأعلم بما فيه صلاحهم وخيرهم في دنياهم وآخرتهم.

وكي لا يكون أمر الذين يسلكون الطريق الإيماني مرتبكاً خائفاً من الأكثرية التي تسعى لسحقهم كونهم قلة يريدون تغيير الواقع نحو الأفضل، ويعارضهم في ذلك المصالح المادية والشخصية للحاكمين التي تحاول منعهم بالقهر والقوة، كان كلام الرسول والأئمة حول هذا الموضوع هو الحث على التمسك بالحق مهما غلت التضحيات، والوعد بالمصير اللائق في الآخرة وهو اكتساب رضوان الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، وخير تعبير عن ذلك هو ما قاله أمير المؤمنين علي عليه السلام لهؤلاء:

«أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله، فإن الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير، وجوعها طويل»(٣).

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٢) سورة الواقعة، الآيتان: ١٣ ـ ١٤.
(٣) نهج البلاغة، الجزء ٢، الصفحة ١٨١.

ثانياً: الشورى

١ ـ معنى الشورى:

الشورى لغة هي: «استخراج الرأي بمراجعة البعض البعض الآخر، وشاوره: استخرج ما عنده من رأي، وأشار عليه بالرأي يشير إذا ما وجه الرأي»[١].

ويقول أهل اللغة: «والاستشارة مأخوذة من قول العرب: شرت الدابة وشورتها إذا علمت خبرها يجرى أو غيرها»[٢].

أما اصطلاحاً فقد عرفها ابن العربي بأنها: «الاجتماع على الرأي ليستشير كل واحد صاحبه ويستخرج ما عنده»[٣].

ويمكن تعريف الشورى بأنها: (النظر في الأمور من أرباب الاختصاص والتخصص لاستجلاء المصلحة المفقودة شرعاً وإقرارها).

ولا تقتصر الشورى على أنها نظام للحكم فقط، بل هي أعم من ذلك، فهي تشمل كل ميادين الحياة الإنسانية العام منها والخاص، من الأسرة إلى الشركة إلى كل مؤسسات المجتمع المدني من جمعيات ونوادي مختلفة، فهي بالتالي أسلوب معتمد في إدارة شؤون الناس.

---

(١) معالم المدرستين، الجزء الأول، الصفحة ١٥٢.

(٢) تفسير القرطبي، الجزء ٤، الصفحة ٢٤٩.

(٣) مجلة المختار ـ مقالة الشورى ـ عدد ١/تشرين الأول/٢٠٠٦.

٢ ـ حجية الشورى:

من المعروف أنه لا يعتمد نظام في الإسلام ما لم يكن مستنداً إلى الأصول الشرعية المقررة من خلال الكتاب والسنة وهذا ما اصطلح على تسميته بالحجية، ونحن سنتعرض لهذه الحجية من خلال القران الكريم والسنة المطهرة والعقل.

أ ـ حجية الشورى في القرآن الكريم:

ونحن نرجع أساساً إلى القرآن الكريم حيث إنه مصدر التشريع والحجية الأساسي، وفي بحثنا عن ذلك يجب أن ننظر في الآيات التي نصت على الشورى، وبعد التعرض لها ننظر في مدى دلالتها على المطلوب،وهناك نصان أساسيان في القرآن الكريم للدلالة على الشورى بشكل مباشر وإن كان هناك بعض الآيات ذات دلالة ما على الموضوع.

أول الآيات التي دلت على الشورى هي ما ورد في سورة آل عمران حيث قال الله سبحانه وتعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(١).

والنص هنا واضح في توجه الله عز وجل لرسوله ﷺ بصيغة الأمر بأن يشاور قومه في أموره فإن ذلك يساهم في تأليف قلوب المؤمنين وتشيع المودة بينهم بسبب الشورى، ومن جهة أخرى، فإن في ذلك تعويداً لهم

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

على المشورة، حيث إن المؤمنين الذين يعتبرون الرسول ﷺ أسوة حسنة لهم سيتبعونه في نهجه المبني على المشورة.

أما الآية الكريمة الثانية فهي التي وردت في سورة الشورى، فقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(١).

ومن خلال هذه الآية الكريمة يمكن الاستدلال على حجية الشورى، فهي بحسب ما ورد إحدى الدعائم الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي. وحمل السورة لاسم الشورى إنما جاء للدلالة على عظم أهمية هذه الطريقة في التعامل في المجتمع الإسلامي على جميع الصعد.

المهم أن الفقرة التي يعتمد عليها في الآية الكريمة للدلالة على حجية الشورى هي: (وأمرهم شورى بينهم) والأمر في اللغة يأتي بمعاني عديدة منها: الطلب، والشيء، والحادثة، والشأن، والحال، وأرجع بعض الأصوليين معناها إلى كل ذلك. والظاهر أن المقصود من الأمر هنا شؤونهم جميعها فقد ورد الأمر بهذا المعنى الواسع في عدة آيات وأحاديث منها قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢).

ومن ذلك قول أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون»(٣).

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

(٢) سورة هود، الآية: ١٢٣.

(٣) نهج البلاغة، الجزء ١، الصفحة ٣٦.

وأما الشورى فمعناها أن يرجع بعضهم للبعض الآخر في الأمر وأخذ الرأي فيه. ولكن إضافة الضمير (هم) إلى الأمر دليل على أن المشاورة تتعلق بأمور خاصة بهم ولا تتعلق بالله سبحانه وتعالى، حيث إنه قد وضع لكل شيء في الكون أحكاماً شرعية، لأنه سبحانه وتعالى خلق هذا الكون وله فيه أغراض ومقاصد حددها وعلينا أن نتبعه فيها عباداً له مخلصين.

وبالتالي، فالأمور التي بين أيدينا على نوعين: أحدها مرتبط بالله سبحانه وتعالى وقد شرع لها ما يناسبها من أحكام وليس لنا فيها رأي، والأخرى ترتبط بنا كبشر ويكون العائد فيها شخصي أو جماعي ولكنه لا يرتبط بالتدخل المباشر لله فيه بل تركها لنا، ومن ذلك الأمور العلمية والإجرائية. فإن كان شخصياً فهو أمر لنفس الشخص أن يتصرف فيه بمقتضى قاعدة السلطنة، وإن كان جماعياً فالنهج المتبع في ذلك هو الشورى.

وقد أشكل البعض على دلالة الصيغة الواردة في هذه الآية الكريمة حيث قال إنها جاءت خبرية في حين أنها كما قلنا جاءت بصيغة الأمر في سورة آل عمران، وقد حددت أن المؤمنين كما من صفاتهم أنهم يقيمون الصلاة كذلك يشاورون بعضهم البعض في أمور حياتهم.

وقد استدل من تبنى الشورى عليها من خلال آيات أخرى لم تذكر كلمة الشورى بمادتها وإن أشارت إليها بمعناها، منها ما ورد في سورة البقرة حيث قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

ومن استشهد بهذه الآية الكريمة استند إلى تفسير معنى الخليفة بما ذهب إليه الشيخ الطوسي في تفسيره التبيان حيث قال:

«والخليفة هو المدبر للأمور من قبل غيره بدلاً من تدبيره»[(١)].

والأمور التي استخلف الله الإنسان لتدبيرها هي أمور الإنسان ذاته. ومؤدى هذا كما قال الإمام السيد محمد باقر الصدر رضوان الله تعالى عليه:

«إن الله سبحانه وتعالى أناب البشرية في الحكم والقيادة. وعلى هذا الأساس تقوم نظرية حكم الناس لأنفسهم بأنفسهم وشرعية ممارسة الجماعة البشرية حكم نفسها بنفسها بوصفها خليفة عن الله»[(٢)].

ويكون ذلك من خلال الشورى التي ينتخب فيها الناس من يمثلهم في قيادة المجتمع. وإذا كان المسلمون يرون أن الحكم محصور بالمعصوم في عصر حضوره، فإن الأمر يعود إلى الجماعة البشرية في عصر غيبته.

ومنها ما ورد في سورة طه حيث قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾[(٣)].

وقد استشهد البعض بهذه الآيات للاستدلال على أهمية المشاورة، بل وجوبها على قاعدة أنه إذا جاز في النبوة الاستشارة فهو بالحاكمية والإمامة أكثر جوازاً.

---

(١) التبيان، الجزء ٨، الصفحة ٥٥٦.

(٢) الإسلام يقود الحياة، الصفحة ١٢٤.

(٣) سورة طه، الآيات: ٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢.

والآية الأخرى وردت في سورة النمل حيث وردت إشارة إلى الاستشارة فقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾[(١)].

وهذه الآية الكريمة استدل بها البعض على حجية الشورى باعتبار إيراد العمل الذي قامت به بلقيس من دون إدانته أو التعرض له سلباً إنما كان بسبب شرعية هذا العمل، ولكن الصحيح أن هذه الآية قاصرة الدلالة عن تشريع الشورى كنهج في الحكم الإسلامي.

ب ـ حجية الشورى في السنة:

إن السنة النبوية تشمل الفعل والقول والإقرار؛ فإن قول المعصوم وفعله وتقريره حجة من الناحية الشرعية، وقد ثبت من السنة النبوية ومن دون التعرض لذلك بالتفصيل أن رسول الله ﷺ استشار أصحابه في مواضع عديدة، منها استشارته إياهم في الموقع الذي ينزلون فيه في موقعة بدر، وكذلك استشارهم بعد انتهائها حول أسارى المعركة هل يأخذ بهم فداء ويطلقهم أو لا، وقد نزلت الآية الكريمة بعدم أخذ الفداء. وفي معركة أحد استشارهم بملاقاة الكفار خارج المدينة أو البقاء فيها، وقد قرر الرسول الأخذ برأي من قال بخروج المسلمين لملاقاة الكفار خارج المدينة. وكذلك قبوله مشورة الصحابي الجليل سلمان رضي الله عنه في حفر خندق حول المدينة في معركة الخندق، وفي مصالحة بعض المشركين في هذه الموقعة وكثيراً من الأمور التي راجع فيها الرسول ﷺ أصحابه في القرار الذي سيتخذه، ولا نريد ذكرها جميعاً فإنها ظاهرة وواضحة ولمن أراد الاستزادة أن يرجع إلى كتب السيرة المطهرة.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٣٢.

بل قد بلغ الأمر برسول الله ﷺ أن جعل العصمة للأمة من خلال الرأي والقرار الذي ينتج عن الشورى، وذلك لتطمئن الأمة إلى حكمة الرأي وصوابية القرار إذا كانا مؤسسين على الشورى من خلال أهلها فقال ﷺ:

«إن أمتي لا تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم»(١).

وقد ذهب من ذهب إلى الشورى في تفسير مخالفة الرسول إلى بعض ما أشار عليه به صحبه أنه هناك تمييز بين السيادة الإلهية فيما يأتي به الوحي وهو من مختصات المعصوم وبين ما هو في إطار التنفيذ العملي مما هو واقع في دائرة السلطة البشرية حيث كانوا في الأول يسلموا تسليماً أما في الثاني فكانوا يمارسون الشورى في صنع القرار.

أما فيما ورد عن الأئمة عليهم السلام فقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة منها ما ورد عن الإمام الحسن عليه السلام أنه قال:

«ما تشاور قوم إلا هدوا إلى رشدهم»(٢).

وفي ذلك تحفيز على العمل بالشورى حيث إنها الطريق الأسلم للرشد في إدارة أمورنا.

ومن ذلك ما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«قيل يا رسول الله ما الحزم؟ قال: مشاورة ذوي الرأي وأتباعهم»(٣).

فاعتبر ﷺ أن مشاورة ذوي الرأي هي المصداق العملي للحزم، وقد يقع البعض في هذا التفسير بحيرة إذ قد يظن أن الحزم الذي هو

---

(١) سنن ابن ماجة، الجزء ٢، الصفحة ١٣٠٣.
(٢) تحف العقول، الصفحة ٢٣٣.
(٣) وسائل الشيعة، الجزء ٨، الصفحة ٤٢٤.

الإصرار على الرأي يخالف المشورة، ولكن هذا الحديث الشريف يلفت إلى نقطة مهمة وهي أن المشورة تؤدي إلى توسيع الفهم حول الفكرة ما يؤدي إلى الحزم فيها استناداً إلى خلاصة آراء أهل الفكر، ويكون عن قناعة وفهم وفكر ثاقب لا عن تعصب أعمى المساوي للجهل.

ومن هذه الأحاديث ما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من باطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها»[١].

وهذه أيضاً تدل على أن من ترك الشورى فهو لا يستأهل أن يكون على وجه هذه الأرض وباطنها خير له من ظاهرها.

وفي هذا المجال ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال:

«من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها»[٢].

فمعنى أن يكون الهلاك مصير من يستبد برأيه والتحفيز نحو المشاركة، هو أن الشورى إن لم تكن واجبة فهي على الأقل مطلوبة على نحو أكيد من الشرع الكريم.

وفي هذا المجال أيضاً ورد عن الإمام الرضا عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام أنه قال:

«من جاءكم يريد أن يفرق الجماعة ويغصب الأمة أمرها ويتولى من غير مشورة فاقتلوه، فإن الله عز وجل قد أذن بذلك»[٣].

---

(١) كنز العمال، الجزء ١١، الصفحة ١٢٣.

(٢) نهج البلاغة، الجزء ٤، الصفحة ٤١.

(٣) عيون أخبار الرضا(عليه السلام)، الجزء ١، الصفحة ٦٧.

وفي هذا الحديث الشريف دليل على أنه لا يجوز تولي أمور المسلمين بالإكراه والغصب، بل لا بد من الرجوع إلى الشورى في تعيين الإمام المتولي لأمرها، وبالرجوع إلى نص معاهدة الصلح بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان نجد ما مفاده:

«... وليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين...»(١).

ولكن في هذا المجال يجب أن نبين أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان في بعض الأحيان يستشير أصحابه وقد يجمعون على رأي ويخالفهم الرسول صلى الله عليه وآله بذلك.

ج ـ حجية الشورى من العقل:

إذا لم يقم دليل من النقل على الإمام من خلال عدم النص والتعيين على شخص معين من قبل الله سبحانه وتعالى، فإن العقل يحكم بالشورى كأفضل وسيلة لانتخاب الإمام، وهذا عليه سيرة العقلاء على مختلف انتماءاتهم الدينية أو الفلسفية أو السياسية، وترى الناس تاريخياً يحبون ويتعاطون بإيجابية مع الانتخابات الديمقراطية على خلاف تعاملهم مع الوراثة الملكية أو الحكومات العسكرية القائمة على القهر والغلبة بالقوة العسكرية.

٣ ـ من هم أهل الشورى؟

اختلف في أهل الشورى بأنهم كل المسلمين أم الخاصة منهم، وقد ذهب الأكثر إلى أنهم أهل الحل والعقد، أي أهل الاجتهاد من علماء الأمة

---

(١) بحار الأنوار، الجزء ٤٤، الصفحة ٦٥.

القادرين على استخراج الأحكام من مداركها المقررة، ومنهم من اعتبرهم أو زاد على ما ذكرنا الأشراف والأعيان، وقد قال في ذلك الإمام محمد عبده:

«علماء الأمة المجتهدين والأمراء والحكام ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة»(١).

ويقول عنهم الأستاذ أبو الأعلى المودودي:

«وهم الحائزون لثقة الناس العامة الذين يطمئن إليهم الناس لإخلاصهم ونصحهم وأمانتهم وأهليتهم والذين تضمن مشاركتهم في أقضية الحكومة أن الأمة ستمد إلى الحكومة يد التعاون في تنفيذ هذه الأقضية»(٢).

٤ ـ الشروط المطلوبة في أهل الشورى

كي يصح أن يكون الشخص مشيراً يجب أن يتمتع بمواصفات معينة، وكذلك يجب أن يكون عددهم محدداً، بأن لا يفتح العدد بشكل تصبح عملية الشورى معقدة وغير ممكنة، خاصة أن الأمر ليس مجرد أن تقول نعم أم لا، بل أن تبدي رأيك مع إيضاح الايجابيات التي اعتمدت عليها وتنفي الرأي الآخر مع تبيان سلبياته، وهذا غير ممكن مع اتساع العدد إلى حد يصبح معه اتخاذ قرار يحتاج إلى وقت طويل جداً. وبالتالي تنقسم هذه الشروط إلى قسمين شروط نوعية وشروط كمية.

---

(١) الشورى بحث لموقع الشامسي الإلكتروني.
(٢) تدوين الدستور الإسلامي، الصفحة ٨٥.

أ ـ الشروط النوعية:

لا بد في أهل الشورى كما قدمنا سابقاً من أن يكونوا مسلمين لأننا نتحدث هنا عن دولة إسلامية ولا بد ثانياً من توافر شرط العدالة فيهم، لأن الله نهى عن إخبار غير الثقة، وأن يتوافر فيهم من العلم ما يمكنهم من إبداء الرأي، وأن يكونوا حكماء إلى الدرجة التي تمكنهم من وضع الأمور في نصابها، واشترط فيهم الاختيار بخروجهم عن أي ضغط يسلبهم حرية إبداء رأيهم كما هو، فيجب أن لا يقعوا أسرى لا للهوى ولا لضغط الآخرين.

وقد اشتُرط أخيراً، أي في العصر الأخير، المقبولية عند الناس، حيث كانت الشورى في السابق من خلال التعين والتسالم على أن فلاناً من أهل الحل والعقد، أما اليوم ومع كثرة عدد الناس اشترط المقبولية من الناس.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أنه لا مانع من الاستفادة من غير المسلمين في الشورى خاصة لمن هم من أهل الكفاءات منهم، خاصة في البلاد التي يشكلون فيها نسبة لا بأس بها، وبالتالي فاستشارتهم فيما هو لصالح الأمة أمر مهم لا إشكال فيه. وهنا تنحصر استشارة من هم على غير الإسلام بالأمور التقنية لا الأمور الشرعية البحتة شرط أن يكونوا ثقات مؤتمنين.

ب ـ الشروط الكمية:

بما أن تجربة الشورى كانت منذ بداية عصر ما بعد وفاة النبي ﷺ، وبغض النظر عن صحتها وعدمها في هذا المجال، فإن من ذهب إلى شرعية الشورى في اختيار الحاكم نظر في تلك الحوادث التاريخية واستنتج من خلال الوقائع العدد الذي تنعقد فيه الشورى، فقال:

إن أقل عدد تنعقد فيه الشورى هو خمسة، واستُدِل لذلك ببيعة أبي

بكر، حيث إنها انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها ثم تابعهم الناس في ذلك، وذهب آخرون إلى أن العدد ستة مستندين في ذلك إلى تعيين عمر لستة تنعقد الشورى بقرار خمسة منهم، ومنهم من ذهب إلى أنها تنعقد بأربعة، ومنهم من قال إنها تنعقد بثلاثة، ومنهم من قال بأنها تنعقد باثنين كما ذهب إلى ذلك سليمان بن جرير الزيدي حيث قال:

«إن الإمامة شورى فيما بين الخلق ويصح أن تنعقد برجلين من خيار المسلمين، وإنها تصح في المفضول مع وجود الأفضل...»[(١)].

بل ذهب بعضهم إلى انعقادها بواحد مستدلين لذلك بقول العباس رضي الله عنه لعلي عليه السلام:

«ابسط يدك يا ابن أخ أبايعك فيقول الناس عم رسول الله صلى الله عليه وآله بايع ابن أخيه فلا يختلف عليك اثنان»[(٢)].

فهنا ذهب العباس رضي الله عنه بأنه بمبايعته لعلي عليه السلام تنعقد الشورى برأيه وحده وتسير الناس معه من دون حاجة لرأي ثاني، واستدلوا لذلك أيضاً بنفوذ قرار الحاكم وهو واحد.

وقد رفض آخرون هذا الرأي وقالوا إن الشورى لا تنعقد إلا بجمهور أهل الحل والعقد في كل بلد ليكون الرضا به عاماً والتسليم لإمامته إجماعاً. في حين أنه ذهب البعض ومنهم الثوبانية والمرجئة إلى أنها لا تثبت إلا بإجماع الأمة عن بكرة أبيها.

والثوبانية كما ورد في طرائف المقال:

---

(١) الملل والنحل، الجزء ١، الصفحة ١٥٥.

(٢) الفصول المختارة، الصفحة ٣٤١.

«الثوبانية، أصحاب ثوبان المرجي، قالوا: الإيمان هو المعرفة والإقرار بالله وبرسله وبكل ما لا يجوز في العقل أن يفعله»[١].

أما المرجئة فهم كما في النهاية لابن الأثير:

«المرجئة وهم فرقة من فرق الإسلام يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة. سموا مرجئة لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي: أي أخره عنهم. والمرجئة تُهمز ولا تُهمز وكلاهما بمعنى التأخير»[٢].

وبعد هذا الاستطراد لشرح الطائفتين نقول إن الشافعية ذهبت إلى أن أقل عدد يمكن أن تعقد به الإمامة أربعون قياساً على ما تصح به الجمعة عندهم.

ولكن الظاهر أن لا عدد محدد لأعضاء الشورى بل يمكن تقدير المصلحة التي يراها القائد أو القيادة بحسب النظام المعتمد، وتحديد العدد المناسب الذي قد يقل أو يكثر بحسب ما يمكن أن يكون مسهلاً لاتخاذ قرارات الشورى.

٥ ـ محاسن الشورى

للشورى محاسن كثيرة نعدد أهمها على الشكل التالي:

١ ـ تأليف القلوب وإشاعة المودة.

٢ ـ تعويد المسلمين على هذا النهج الذي استخدمه الرسول ﷺ منعاً من التفرد بالرأي والديكتاتورية.

---

(١) طرائف المقال، الجزء ٢، الصفحة ٢٣٩.

(٢) النهاية في غريب الحديث، الجزء ٢، الصفحة ٢٠٦.

٣ ـ إرجاع الأمر إلى أهل الاختصاص، لا التعنت وفرض إصلاحات تكون في الواقع إفساداً للمجتمع.

٤ ـ إدخال غير المسلمين في الشورى يُعطي للدولة استقراراً يضمن لهم المشاركة ويمنع الأعداء من استغلالهم ضد الدولة الإسلامية.

٥ ـ الشورى هي عملية إثراء وتثمين وتصويب للرأي وللقرار قبل اتخاذه من قبل المسؤول.

٦ ـ هل الشورى ملزمة؟

الآيات التي دلت على الشورى صحيح أنها جاءت بصيغة الأمر من قبيل وشاورهم في الأمر، ولكن نفس هذه الآيات دلت على أن القرار في النهاية هو للنبي ﷺ باعتباره صاحب السلطة المطلقة والمسؤول عن تنفيذ الإرادة الإلهية، لذلك عقب الله سبحانه وتعالى على قوله: (وشاورهم في الأمر) بقوله: (فإذا عزمت فتوكل على الله).

وبالرجوع إلى السيرة النبوية الشريفة نجد أن النبي ﷺ رجّح أحد الآراء فاعتمده، كما حصل عندما استشار أصحابه في معركة أحد في الخروج للقتال خارج المدينة أو التحصن فيها، وكان رأي شيوخ المهاجرين والأنصار عدم الخروج في حين كان رأي الشباب هو الخروج، وقد نزل عند رأي الشباب مرجحاً لرأيهم على رأي الشيوخ الكبار. وفي بعض المرات خالف إجماع صحابته خاصة عندما يوجد نص قرآني أو وحي في القضية، إذ لا اجتهاد في مورد النص، وبالتالي تصبح الشورى في تنفيذ الأمر الوارد لا في أصل القيام به وتنفيذه. وفي بعض المرات انطلق لتنفيذ أمر أتاه من الله سبحانه وتعالى من دون اللجوء إلى مشاورتهم وذلك عندما اشتد الأذى على المؤمنين من المشركين في قريش، جمع أصحابه وقال لهم ومن دون مشورة من أحد:

«لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه»(١).

وقد أرسل رسول الله ﷺ الصحابي مصعب بن عمير رضي الله عنه أميراً على من أسلم من أهل المدينة ودون أن يتشاور مع أحد ودون إجراء انتخاب.

كل هذا يدل على أن الشورى واجبة من حيث المبدأ، وأن ولي الأمر عليه أن يستشير، ولكن القرار في النهاية يعود إليه كونه القائد الوحيد للأمة بالتنصيب الإلهي. أما اليوم فهل يوجد من ينوب عن النبي ﷺ في هذه الأيام؟ نعم، بحسب رأينا، إن السلطة الشرعية مستمرة إلى يومنا هذا وإلى آخر الزمان، وهذا ما سنبينه في الجزء الثالث عندما نتحدث عن ولاية الفقيه.

٧ ـ بين الديمقراطية والشورى

هناك خلط كبير بين الديمقراطية والشورى، ويظن البعض أن الأولى مساوقة في المعنى للثانية، ولكن الصحيح أن هناك فرقاً كبيراً بينهما، فالشورى هي التزام الأقلية بقول الأكثرية كما في الديمقراطية، ولكن من ضمن ضوابط يحددها الحكم الشرعي الثابت من خلال الكتاب والسنة. أما في الديمقراطية فإن الأكثرية يمكن أن تغير ما هو ثابت في أصل القانون والدستور من خلال رأيها الذي قد يتغير كل فترة من الزمن.

فهناك فرقان أساسيان بينهما وهما:

١ ـ أن المسلم ينطلق من كون الشورى حقاً أعطاه الله سبحانه وتعالى للأكثرية ، أما في الديمقراطية فإن مصدر الحق هو الشعب.

(١) تاريخ الطبري الجزء ٢ الصفحة ٧٠.

٢ ـ هناك حدود للشورى في الإسلام وهي أن ليس لها أن تشرع تشريعات مخالفة للأحكام الشرعية الأولية الثابتة، فالخمر حرام ولا تستطيع الأكثرية أن تصدر تشريعاً مخالفاً لهذا الحكم الشرعي، أما في الديمقراطية فإنها تستطيع أن تغير من دون ضوابط على الإطلاق.

٨ ـ إشكالات على الشورى

يرد على الشورى إشكالات متعددة: منها أن النظام الإسلامي والحكومة الإسلامية هما حكومة القانون الإلهي، وعليه لا يمكن لأهل الشورى أن يكونوا مشرعين، بل تنحصر مهمتهم في التشاور في تنفيذ هذه الأحكام.

والأمر الآخر أنه من خلال الأدلة الدالة على الشورى فإننا في نفس الوقت الذي نقول فيه بثبوتها وأنها واردة من خلال القرآن والسنة، إلا أنها لا تعطي للشورى صلاحية اتخاذ القرار الملزم الذي حصره الله عز وجل بالفقهاء كما سيتبين معنا، وترك للفقهاء بعد المشورة اتخاذ القرار المناسب فقال عز وجل:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(١).

فالشورى إنما تكون من أجل إطلاع القائد على خيارات متعددة أو لرجوعه إلى أهل الخبرة في مجال من المجالات، أما القرار فهو عائد للولي الذي أمره بيده، قد يأخذ برأيهم أو لا يأخذ به، لذلك قال الله عز وجل: (فإذا عزمت فتوكل على الله).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

وأما الاستناد إلى الشورى التي حصلت بعد وفاة النبي ﷺ في ثبوتها كطريق إلى تعيين الحاكم فهو محل إشكال كونه قد ثبت لدينا أن الولاية بعد رسول الله ﷺ كانت لأمير المؤمنين علي عليه السلام وما حصل في سقيفة بني ساعدة كان بالنسبة إلينا خروج عن وصية رسول الله ﷺ وتعيينه لعلي عليه السلام بأمر من الله عز وجل كخليفة للمسلمين في غدير خم في السنة التي حج فيها حجة الوداع، وهذا أمر لا نريد الاستفاضة فيه بل أحببنا الإشارة إليه فقط. ونكتفي في الإشارة إلى ذلك بما قاله أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«واعجباه، أتكون الخلافة بالصحابة والقرابة» ورُوي له شعر في هذا المعنى:

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم فكيف بهذا والمشيرون غيب.
وإن كنت بالقربى حججت خصيمهم فغيرك أولى بالنبي وأقرب»[1]

وبذلك يكون ما ورد من آيات حول الشورى إنما كان أمراً تعليمياً أخلاقياً وليس إلزامياً، بحيث لو تخلف عنه الحاكم لزم خروجه عن الشرع الحنيف، بل إن أقصى ما يمكن القول به هو مخالفة الأولى لا أكثر ولا أقل، وإن تنزلنا وقلنا بلزومها فهي من باب إلزام الإمام والقائد بأن لا يطلق حكمه وقراره إلا بعد المشورة بغض النظر عن التزامه بمضمونها وعدم التزامه بذلك.

(١) نهج البلاغة، الجزء ١، الصفحة ١٢٥.

ثالثاً: ولاية الفقيه

١ ـ مقدمة صغيرة

ذهب الشيعة الإمامية إلى أنه بعد وفاة الرسول ﷺ انتقلت الخلافة إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام ومن بعده إلى أبنائه المعصومين عليهم السلام حتى الإمام محمد بن الحسن المهدي الغائب المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف الذي سيظهر عند نهاية الزمان ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، وفي عصر الغيبة الذي كان في العام ٢٥٥ هجرية الموافق لـ ٨٦٩ ميلادية إلى حين عصر الظهور يكون الأمر بيد المجتهد الجامع للشرائط الذي يقوم مقام الإمام المعصوم في عصر غيبته، فهو المرجع في الأمور كلها كما كان النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام المرجع فيها، وعلى المؤمنين الرجوع إليهم في ذلك، وقد استدل الشيعة لذلك بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهذا ما سنبينه بشيء من الاختصار غير المخل إن شاء الله سبحانه وتعالى.

٢ ـ معنى ولاية الفقيه

ولاية الفقيه تعني أن السلطة التي تقود الأمة الإسلامية بعد انتهاء عصر الغيبة الصغرى وبداية عصر الغيبة الكبرى للإمام المهدي عجل الله تعالى

فرجه إنما تكون للفقيه العادل ضمن شروط ومواصفات حددها الشارع الكريم عندما أعطاهم هذه الولاية.

والولاية هنا بمعنى الحكومة والسلطة التي يُرجع إليها في كل أمور الناس الاقتصادية والسياسية والتربوية والاجتماعية، فليست مختصة بجانب دون آخر.

أما الفقيه فهو من وصل في علمه إلى درجة تؤهله استنباط الأحكام الشرعية من مداركها المقررة، فهو المرجع المجتهد الذي يرجع إليه الناس في كل أحكامهم الشرعية الدينية والدنيوية.

٣ ـ دليل ولاية الفقيه من القرآن الكريم

ورد كثير من الآيات التي يمكن تفسيرها بشكل مباشر أو غير مباشر على أساس أنها دليل على ولاية الفقيه، وسنأخذ أهمها وهي على الشكل التالي:

الآية الأولى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[١].

وقد ذهب البعض إلى أن هاتين الآيتين الكريمتين تدلان على ولاية الفقيه ذلك أن الحكم بالعدل جاء هنا بصيغة الأمر نصاً (إن الله يأمركم) وهذا دليل على الوجوب والإلزام، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فحيث

(١) سورة النساء، الآيتان: ٥٨ ـ ٥٩.

إن الحكم بالعدل لا يكون من منظار إسلامي إلا من خلال الأحكام الإسلامية وبالتالي على الحاكم أن تتوافر فيه شرائط أهمها العلم بأحكام هذا الدين وهذا لا يتوفر إلا لمن كان فقيهاً مجتهداً عالماً بأحكام الشرع الحنيف حلالها وحرامها.

ولكن أُشكل على ذلك بأن غاية ما تدل عليه الآية الكريمة هو الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه من مسائلهم الشخصية، وبمعنى آخر إنها تشكل دليلاً على ولاية الفقيه في مجال القضاء ولا تتعداه إلى الحكم باعتباره نظاما لسياسة أمور الناس.

وقد أُجيب عن ذلك بأن الحكم بين الناس على إطلاقه كما ورد في الآية الكريمة يتجاوز مورد القضاء وتبقى صلاحية الآية الكريمة للدلالة على ولاية الفقيه.

وقد يظن البعض أن المقصود بالأمانات هنا هو موضوع الأموال التي يضعها شخصٌ عند آخر وهذا غير صحيح، بل إن الصحيح هو أن المقصود منها هنا ما هو أعم من ذلك فيشمل الأمانة الكبرى التي أودعها الله عز وجل عندنا وهي أمانة الإسلام والحفاظ عليه وتطبيقه.

إضافة إلى أن سياق الآيتين يتحدث عن أمور الدولة والحكم، فهما تتحدثان عن الحكم بين الناس وطاعة أولي الأمر وهم الحكام مفترضو الطاعة من الله عز وجل، ووجوب رد ما نختلف فيه إلى الرسول في حال حضوره وإلى خلفائه في حال وفاته، ولم يحدد ما هي الأمور التي نختلف فيها، بل أطلق مما يعني أنه يشمل الحكم بمعنى قيادة الدولة وسياسة شؤون الناس، وبالتالي فإن الأمانة تتحدث عن إدارة السلطة الإسلامية كيف تكون، ولذلك فرّع طاعة أولي الأمر على طاعة الرسول ﷺ التي هي طاعة أمرة وولاية وليست طاعة محبة فقط، وهذا ما نقول عنه إنه يتم من خلال الفقهاء العدول بصفتهم مكلفين بذلك وأمناء وخلفاء عن الرسل.

الآية الثانية:

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

واستدل على ولاية الفقيه في هذه الآية الكريمة من خلال التوجيه التالي: إن الله عز وجل لم يرض بأن ينال عهده ويكون أماماً للناس من كان ظالماً، وهذا يدل على أن النبي إبراهيم قد أخذ منصب الإمامة من خلال عدالته وإضافة إلى ذلك من خلال علمه وفقهه.

ولكن يرد على هذا الكلام أن غاية ما تدل عليه الآية الكريمة هو ضرورة أن يتوافر فيمن يريد التصدي للإمامة أن يكون عادلاً، أما أن يكون فقيهاً فهذا ما لا تنهض الآية الكريمة للدلالة عليه.

الآية الثالثة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾(٢).

وقد استدل على دلالة هذه الآية الكريمة على ولاية الفقيه من خلال التقريب الآتي: حيث إن معنى الطاغوت هو كل سلطة حكومية أو قضائية لا تحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى فإننا مأمورون بالكفر بها، وبالتالي الإيمان بما يخالفها من ولاية وحاكمية وهي ولاية العدل والإحسان ولاية الفقهاء العدول.

وبالتالي لا شرعية لأي حكم إذا حكم بغير ما أنزل الله سبحانه وتعالى حتى

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٠.

لو كانت غالبية الشعب معه أو انتخب من خلالها. وهذا ما يدل على عدم شرعية الديمقراطية كطريق للحكم بين الناس وتشريع القوانين لهم، بل العبرة في كون ما نحكم به كونه من خلال ما أنزل الله سبحانه وتعالى.

الآية الرابعة:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[١].

ومعنى أن يكون الله سبحانه وتعالى إلهاً في الأرض هو أن تنفذ سلطته على الناس من خلال الحكم الذي يريده لهم والدين الذي شرعه لهم، فلو حكم الناس من خلال قوانين وأحكام مصدرها ليس ما أنزله الله عز وجل فهذا ينافي إرادته عز وجل وبالتالي ينافي إلوهيته على الأرض، وحيث إن الأحكام الشرعية التي سيحكم بها الحكام لا بد من أن يكونوا على علم بها فلذلك لا بد من كون الحاكم فقيهاً عالماً مجتهداً عادلاً وهذا هو معنى ولاية الفقيه.

٤ ـ دليل ولاية الفقيه من السنة النبوية المطهرة

ورد في السنة النبوية المطهرة وفي أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام الكثير من الروايات التي تصلح للدلالة على ولاية الفقيه سنعرض لأهمها فيما يلي:

الرواية الأولى:

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهم ارحم خلفائي، ـ قالها ثلاث مرات ـ

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٤.

قيل: يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون من بعدي، ويروون عني أحاديثي، وسنتي، فيعلمونها الناس من بعدي»[١].

وقد استدل بهذه الرواية على ولاية الفقيه بتقريب أن المقصود من رواية الحديث ليس مجرد الرواية من دون إمعان نظر وتفكر وتدبر، بل المقصود هو استنباط الحكم الشرعي من هذا الحديث من خلال تحليله على ضوء الأسس الشرعية لاستنباط الأحكام، وإلا لما كان هؤلاء أهلاً لمنصب الخلافة لرسول الله ﷺ، فلم يكن موقعه ﷺ مجرد ناقل للحديث بل كان ولياً للمؤمنين بل أولى بهم من أنفسهم. ومعنى الخلافة هنا هي الاستمرار على نهج الرسول بكل التفاصيل ما عدا تلقي الوحي وإنشاء أحكام جديدة أو نسخ قديمة ثابتة، ومعنى ذلك أن لهؤلاء الولاية على الناس كما كان للرسول ﷺ الولاية عليهم، وعليه لا مجال للشك في دلالة هذه الرواية على ولاية الفقيه.

الرواية الثانية:

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا، قيل يا رسول الله: وما دخولهم في الدنيا؟ قال: إتباع السلطان فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم»[٢].

ودلالة هذه الرواية على ولاية الفقيه تكون من خلال تفسيرنا لمعنى الأمانة ذلك أن الرسل لم يتركوا وراءهم أمانات مادية بل تركوا الدين ليضعوه أمانة في أعناق العلماء، وعليه، فإن المهام التي اضطلع بها

---

(١) وسائل الشيعة، الجزء ١٨، الصفحة ٦٦.
(٢) الكافي، الجزء ١، الصفحة ٤٦.

رسول الله ﷺ تكون للفقهاء من بعده وهذه المهام هي قيادة الناس وسياسة أمورهم، فبحسب فهمنا لموضوع الأمانة عن الرسل أنها ليست مجرد نقل الحديث أو الفتوى، بل الإمرة والقيادة وسياسة أمور الناس. فهي لا تقتصر على الأمانة في النقل فقط، بل تتعداه للأمانة في التطبيق والتنفيذ لإرادة الله عز وجل.

الرواية الثالثة:

ورد في توقيع صدر عن الإمام الحجة المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف جواباً لإسحاق بن يعقوب من خلال محمد بن عثمان العمري ما نصه:

«أما ما سألت عنه أرشدك الله وثبتك ـ إلى أن قال: وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله. وأما محمد بن عثمان العمري فرضي الله عنه وعن أبيه من قبل فإنه ثقتي وكتابه كتابي»(١).

واستدل على ولاية الفقيه هنا من خلال التقريب التالي: إن السؤال في الرواية ليس عن مجرد الحوادث الواقعة في زمن ومكان حضور الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف حيث يمكن الرجوع إليه مباشرة، بل يعم حالة غيابه حيث لا يمكن الرجوع إليه وسؤاله. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الحوادث الواقعة مطلقة فلا تشمل فقط أمور العبادات والمعاملات الفردية، بل تعم كل ما يجب تحديد موقف شرعي منه سواء في السياسة أم الأمور الاجتماعية أو الاقتصادية. وعليه، فإن الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف المفترضة طاعته قد جعل على المسلمين ولياً في

(١) وسائل الشيعة، الجزء ١٨، الصفحة ١٠١.

فترة غيبته الكبرى وهم العلماء الفقهاء الذين وصلوا إلى مرحلة الاجتهاد، ومعنى أنه حجة الله تذكيرنا بأن ولايته ليست مجرد ولاية اختيارية، بل هي ولاية تعينية من الله سبحانه وتعالى ومن خلال حجته جعل العلماء حجة علينا، وهذا معنى ولاية الفقيه التي نستدل عليها في بحثنا. فالفقهاء اليوم هم المرجع في كل أمور الناس ويجب الرجوع إليهم، وكل عمل لا يستند إلى رأيهم هو عمل باطل لا شرعية له.

الرواية الرابعة:

وهي مقبولة عمر بن حنظلة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال:

«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث فتحاكما إلى السلطان وإلى القضاة أيحل ذلك؟ قال: من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى الطاغوت، وما يُحكم له فإنما يأخذ سحتاً وإن كان حقاً ثابتاً له، لأنه أخذه بحكم الطاغوت، وقد أمر الله أن يكفر به، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾[1]. قلت: فكيف يصنعان؟ قال: ينظران من كان منكم ممن روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوا به حكماً فإني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه فإنما استخف بحكم الله وعلينا رد، والراد علينا الراد على الله وهو على حد الشرك بالله...»[2].

وقد استدل على ولاية الفقيه من خلال هذه الرواية بتقريب أنه معنى جعل العلماء حكاماً على المسلمين هو أنهم منصوبون من قبله عليه السلام وأن

(١) سورة النساء، الآية: ٦٠.
(٢) الكافي، الجزء ١، الصفحة ٦٧.

غيرهم لا ولاية له ولا شرعية، وهو ما يسمى بالمصطلح الفقهي النصب العام، والذي يعني وضع مواصفات عامة للولي ومن تنطبق عليه هذه المواصفات يكون صالحاً لتولي هذا المنصب. في مقابل النصب الخاص الذي يكون تولية من الإمام عليه السلام لشخص بعينه كما حصل مثلاً في تولية أمير المؤمنين علي عليه السلام لمالك الأشتر رضوان الله سبحانه وتعالى عليه عندما ولاه مصر.

وقد استشكل البعض بأن هذه الرواية تنحصر دلالتها بالقضاء انطلاقاً من السؤال الذي يوضح أن السائل يستفسر عن واقعة معينة بخصوص ترافع شخص حول حق شخصي أمام قاضٍ أو قضاة الجور، فلا تصلح هذه الرواية للدلالة على الولاية العامة للفقهاء، بل غاية ما تدل عليه هو ولايتهم في مجال القضاء بين الناس.

ولكن الرواية أعم من ذلك حيث إن الإمام الصادق عليه السلام تحدث عن هؤلاء بوصف جعلهم حكاماً لا قضاة في مقابل نزع الشرعية عن ولاة الجور في القضاء وغيره، وعليه، فإنه يمكن أن نستدل بهذه الرواية على ولاية الفقيه العامة.

الرواية الخامسة:

روى أبو خديجة عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«بعثني أبو عبد الله عليه السلام إلى أحد أصحابنا فقال: قل لهم: إياكم إذا وقعت بينكم خصومة أو تدارى في شيء من الأخذ والعطاء أن تحاكموا إلى أحد هؤلاء الفساق، اجعلوا بينكم رجلاً قد عرف حلالنا وحرامنا فإني قد جعلته عليكم قاضياً وإياكم أن يخاصم بعضكم بعضاً إلى السلطان الجائر»[1].

---

(١) وسائل الشيعة، الجزء ١٨، الصفحة ١٠٠.

والمقصود من الفساق هنا القضاة الذين نصبهم حكام الجور، وعليه يمكن الاستدلال من الرواية على أمور عدة:

١ ـ عدم شرعية تعيينات حكام الجور وبالتالي عدم شرعية حكمهم.

٢ ـ عدم شرعية ما يحكم به القضاة غير المعينين من حكام العدل.

٣ ـ ضرورة الرجوع في كل أمورنا وخاصة في أحكامنا وخصوماتنا إلى ولاة العدل.

وانطلاقاً مما تقدم يمكن الاستدلال على ولاية الفقيه العامة دون التوقف على استعمال الإمام الصادق عليه السلام لتعبير القضاة، ذلك أن المقصود هو تحديد شرعية الحاكم وعدم شرعيته وبالتالي شرعية قراراته، فلا شرعية لقاضٍ عينه هذا الحاكم الجائر.

الرواية السادسة:

ما رواه القداح عبد الله بن ميمون عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً به، وإنه يستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر»[1].

وتقريب الاستدلال بهذه الرواية المسماة صحيحة القداح تماماً كالاستدلال بغيرها، حيث إن العلماء لما كانوا ورثة للأنبياء ولما لم يورث

(١) الكافي، الجزء ١، الصفحة ٣٤.

الأنبياء ديناراً ولا درهما فإنهم يرثونهم في موقعهم في قيادة الأمة وهذا معنى ولاية الفقيه العامة.

روايات أخرى:

وردت روايات أخرى عن النبي ﷺ وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام تصلح للدلالة على ولاية الفقيه العامة بنفس التقريب المتقدم وسنوردها من دون تفصيل، وهي على الشكل التالي:

ما ورد في جامع الأخبار عن النبي ﷺ أنه قال:

«أفتخر يوم القيامة بعلماء أمتي، وعلماء أمتي كساير الأنبياء قبلي»[١].

ومعنى أن يكونوا كسائر الأنبياء هو أنه لهم الولاية العامة على الناس.

ومن ذلك ما ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال:

«العلماء حكام على الناس»[٢].

والحكام هنا معناها واضح وهو الولاية والسلطة لا مجرد القضاء أو الحسبة أو ما اصطلح على تسميته بالولاية الخاصة.

٥ ـ الدليل العقلي على ولاية الفقيه

لقد أجمع المسلمون على ضرورة إقامة الدولة الإسلامية، وأن النظام الإسلامي لا يقوم إلا من خلال دولة تنفذ أحكامه سواء على صعيد القصاص من الحدود والديات، أو الجهاد الذي يحتاج إلى أن تقوم الدولة بإعداد الجيش الذي يتولى أمر تنفيذ هذه الشريعة. فالإسلام دين ودولة،

(١) عوائد الأيام، الصفحة ١٨٧.
(٢) مستدرك الوسائل، الجزء ١٧، الصفحة ٣٢١.

وكذلك الأحكام المالية من خمس وزكاة والتي لا يمكن أن تنفذ بالشكل المطلوب الذي يؤدي الغرض الإلهي منها إلا من خلال دولة ونظام إسلاميين. وحيث إن تنفيذ هذه الأحكام من الواجبات الشرعية، وحيث إن ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب، وهذه أيضاً قاعدة أصولية مجمع عليها وهي أمر منطقي بديهي لا خلاف عليه، فينتج من ذلك أن الحكومة الإسلامية الواجبة الإنشاء لا بد من قائد لها، وهذا الحاكم القائم بهذا الواجب لا بد من أن يكون فقيهاً عالماً مجتهداً ملماً بأحكام الشرع الإسلامي. وقد ذهب الإمام الخميني (قدس سره) إلى أن ولاية الفقيه من البديهيات التي لا حاجة فيها إلى برهان، أولاً لأن العقل يستقل في القول بوجوبها وثانياً للآيات والروايات الكثيرة الواردة في هذا المجال. وفي مجال آخر استدل بعض الفقهاء على الولاية العامة للفقهاء بعد عدم تمامية الدليل اللفظي عندهم، إما بأنه إذا انحصرت الولاية بالفقيه الذي يحتاج قيداً إضافياً وهو الخاص في هذا المجال وبين غيره الأعم منه، فالقدر المتيقن الجامع بين الخيارين والواجد للشرط على أية حال والمبرئ للذمة هو أن تكون الولاية للفقيه دون غيره.

٦ ـ رأي الفقهاء في ولاية الفقيه

أجمع الفقهاء على أن للفقيه ولاية على المؤمنين غير أنهم اختلفوا في حدود هذه الولاية، فمنهم من ذهب إلى أنها تماماً كولاية المعصوم كما الإمام الخميني (قدس سره) الذي قال:

«ويملك هذا الحاكم الفقيه الجامع للشرائط من أمر الإدارة والرعاية السياسية للناس ما كان يملكه الرسول وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب»[١].

(١) الحكومة الإسلامية، الصفحة ٤٩.

ومنهم من ذهب لحصرها في شؤون من الحياة دون غيرها، فحصرها في الأمور الحسبية وما يحتاجه المؤمنون في نظم أمرهم من الأمور التي يقطع بحرمة تركها وإهمالها، كإدارة شؤون الأيتام والأوقاف، وهذا الرأي كان عليه سماحة المرجع آية الله العظمى السيد الخوئي (قدس سره)، حيث قال:

«لا تثبت الولاية للفقهاء في عصر الغيبة بأي دليل، وأن الولاية تختص بالنبي والأئمة عليهم السلام، وعليه فإن الذي يثبت للفقيه هو جواز التصرف وليس الولاية»(١).

ومنهم من أضاف إلى ذلك القضاء، ومنهم من أضاف الولاية على أمر الغائب عن أمواله وأولاده القاصرين دون غيرها من الأمور، والشاهد من ذلك كله أنهم بعد إجماعهم على الولاية اختلفوا في السعة والضيق.

وقد اعتبر الإمام الخميني (قدس سره) أن موضوع ولاية الفقيه يصل في وضوحه وثبوته إلى درجة كونه ضرورة من ضروريات الدين فقال:

«ولاية الفقيه فكرة علمية واضحة قد لا تحتاج إلى برهان، بمعنى أن من عرف الإسلام أحكاماً وعقائد يرى بداهتها»(٢).

ومنهم الميرزا محمد تقي الشيرازي (رضوان الله تعالى عليه) حين أفتى بالجهاد واتبعه العلماء في ذلك، كان حكمه صادراً عن موقف حكومته وولايته الشرعية.

وكذلك الشيخ النراقي (رضوان الله تعالى عليه) يرى أن جميع شؤون رسول الله صلى الله عليه وآله ثابتة للفقهاء مع استثناء ما استثنى من شؤونه الخاصة.

---

(١) كتاب الاجتهاد والتقليد، السيد الخوئي قدس سره، الصفحة ٤٢٠، بتصرف.
(٢) الحكومة الإسلامية، الصفحة ٧.

ومنهم الشيخ الأصفهاني (رضوان الله تعالى عليه) في حاشيته على كتاب المكاسب حيث قال:

«وربما يستدل لعموم ولاية الفقيه بالمعنى الثاني بوجه عقلي ومحصله: أن ما ثبت للإمام عليه السلام من حيث رياسته الكبرى وهي الأمور التي يرجع فيها المرؤوسون من كل ملة ونحلة إلى رئيسهم إتقاناً للنظام فهي ثابتة للفقيه، إذ فرض هذا الموضوع فرض نصب الرئيس لئلا يلزم الخلف من إيكال أمره إلى آحاد الناس فيدور الأمر في الرئيس المنصوب بين أن يكون الفقيه أو شخص آخر والأخير باطل قطعاً فتعين الأول»[1].

في حين أن الشيخ النائيني (قدس سره) كان يقول إن هذا الموضوع أي ولاية الفقيه العامة يستفاد من مقبولة عمر بن حنظلة.

٧ ـ بين الديمقراطية وولاية الفقيه

قلنا إنه لا يمكن القبول بمبدأ الديمقراطية لأننا نؤمن بنظام إلهي وتشريع من رب العالمين، ولا يمكن استبدال ما هو إلهي بما هو بشري، وفِعل ذلك قلة دراية وسفه لا يمكن أن يرضاه عاقل لنفسه، ولكننا في نفس الوقت لا نمانع الاستفادة من آليات الديمقراطية من خلال تطبيقها في مجالات تنفيذ هذه الأحكام الشرعية، فمن المعروف أنه يمكن أن يقع خلاف بين الفقهاء في تفسير حكم شرعي ما، وعليه يمكن الركون إلى آلية أن التنفيذ يستند إلى رأي الأكثرية منهم كما هو رأي الديمقراطية في التعامل مع الخلافات.

كما يمكن أن نعتمد النظام البرلماني الديمقراطي لا على أساس أن

(١) حاشية المكاسب للأصفهاني، الجزء ٢، الصفحة ٣٩٠.

تكون مهمة النواب أصل التشريع، بل على أساس أنهم يعملون على تشريعات وقوانين تنفيذية للأحكام الإسلامية الأولية، ففي مجال التزاحم مثلاً فإنه يمكن إعطاء هذا المجلس أو غيره صلاحيات تمييز المهم من الأهم في مجالات التزاحم ، وفي عصرنا الحاضر نجد مثالاً عملياً على ذلك من خلال أن الجمهورية الإسلامية الإيرانية تعتمد مجالس مختلفة كمجلس الشورى، ومجلس الخبراء، ومجلس تشخيص المصلحة، وكل هذه المجالس تتخذ فيها القرارات بناء لأكثرية معينة بحسب نوع القرار المتخذ.

وهنا يجب التنبيه أننا عندما نعتمد الديمقراطية فهذا لا يعني أننا نعتمدها بتفصيلاتها كافة التي جاءت بها، بل نأخذ منها ما لا يتعارض مع أحكام ديننا الحنيف، وبالتالي لا تعود ديمقراطية حقيقية بل هي نوع من الاستفادة من تجارب الآخرين في مورد لا يتعارض مع معتقداتنا، وبالتالي فإن ما قاله البعض من أن الديمقراطية لا تنسجم ولا يمكن أن تطبق إلا من خلال نظام علماني، أو من خلال نظام رأسمالي أو شيوعي صحيح، ولكننا هنا لا نتحدث عن تطبيق الديمقراطية بل ما نتحدث عنه هو تطبيق النظام الإسلامي بجوانبه كافة والتحرك في مساحات فراغ تركها لنا.

وعليه، فإننا نتبنى ما تحولت له الديمقراطية في العصر الحديث من كونها منهجاً في إدارة شؤون الدولة أو الجماعة لا على أساس كونها عقيدة شاملة.

٨ ـ الجمع بين منهجي ولاية الفقيه والشورى

تحصّل معنا مما تقدم أن المنهج الإسلامي في القيادة هو منهج ولاية الفقيه، غير أن منهج الشورى والذي عليه من الأدلة ما لا يمكن تلافيه أو غض النظر عنه هو منهج متبع في الدولة الإسلامية كمكمل للمنهج

الأساسي في القيادة، فعلى الولي الفقيه أن يكون لديه من المشيرين ما يُسدد قراراته، ويوسع ادراكاته، ويفتح له أبواباً لم تكن لتفتح له فيما لو اتخذ القرار من دون الرجوع إليهم، وهذا الأمر الذي كان يمارسه رسول الله ﷺ من خلال العدد القليل من الأصحاب لديه لا بد اليوم من تنظيمه من خلال مجلس شورى أوسع لا حاجة فيه لعدد محدد كون الشرع لم يلزمنا بذلك فيمكن انتخاب المشيرين ليكونوا أعضاء في مجلس الشورى على أساس قاعدة معينة تضعها الدولة الإسلامية كما يحصل اليوم في انتخاب مجلس الشورى في الجمهورية الإسلامية في إيران.

أما بالنسبة لموضوع قرارات الشورى في ضمن نظام ولاية الفقيه فيمكن تصور طريقين لذلك: الصورة الأولى: وهي أن يُعطي الولي الفقيه للشورى المنتخبة الصلاحية لاتخاذ القرار المناسب على أن يكون له حق التدخل في الاعتراض على أي قرار تتخذه هذه الشورى ويمنع تنفيذه بما له من ولاية شرعية. وبذلك يكون التشريع من صلاحية مجلس الشورى بتفويض من الولي الفقيه وله أن يوقف تنفيذ أي تشريع ويعيده إلى المجلس لتصحيحه.

والصورة الثانية: أن يكون المجلس صاحب صلاحية إصدار مشاريع القرارات ولا تكون ملزمة وشرعية إلا بعد أن يوافق عليها الولي الفقيه وهذا هو مصداق قوله سبحانه وتعالى:

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾(١).

ويمكن تصور طرق أخرى للجمع بين موضوع الشورى وولاية الفقيه ضمن نظام الحكم، ولكن الجامع الأساسي لها هو أن القرار في النهاية هو للولي الفقيه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

وهنا لا بد من الإلفات إلى أن الشورى لا تكون فقط في مجال إصدار القرارات والقوانين، بل تعم موضوع أن يكون حول الولي الفقيه مستشارون في المجالات كافة التي يحتاجها خاصة في الأمور التقنية العلمية التي قد تكون غائبة عنه أو يجهلها.

ومن جهة أخرى، فإن الشورى قد تدخل في نفس انتخاب ولي الفقيه الذي يجب أن تتوافر فيه شروط قد تتوافر في أكثر من شخص، فلا بد من مجلس شوروي ينتخبه على أن يكون هذا المجلس من الأشخاص الذين تتوافر فيهم صلاحية أن يكونوا هم أنفسهم ولي فقيه فينتخبون أحدهم أو غيرهم ممن تتوافر فيه الشروط ليكون ولياً فقيهاً والطريقة المعتمدة في انتخاب الولي الفقيه في إيران من خلال مجلس الخبراء هي طريقة شوروية، كما أن نفس أعضاء مجلس الخبراء ينتخبون بطريقة الشورى وإن كانت شورى واسعة في إيران لأنها تتم من خلال الشعب.

٩ ـ شورى الفقهاء

ذهب البعض إلى أنه يمكن الجمع بين الشورى وولاية الفقيه على أساس أن تكون الولاية لا لفقيه فردي بل لمجلس فقهاء تكون لهم الولاية بأجمعهم، فما يتفقون عليه أو يكون عليه رأي أغلبهم يكون هو القرار الذي على الأمة أن تتبعه. غير أن هذا لا دليل عليه لا من القرآن ولا من السنة، بل إن الدليل على كون الولاية للفقيه الفرد الذي تتحدث عنه مجمل الروايات. فالآية تحدثت مع الرسول الفرد، والروايات تحدثت عن الإمام الفرد وعندما تحدثت عمن يخلف الإمام المعصوم في حال غيبته تحدثت أيضاً عن الفقيه الفرد. ومع ذلك يمكن أن يقال إن الولاية للفقيه إنما كانت لفقاهته وهذا متوفر بشكل أكبر بمجموعة من الفقهاء يقل مع إجماعهم أو

اجتماع أكثريتهم على رأي وقوعهم في الخطأ، وهذا ما يصون الأمة بشكل أكبر ولا مانع من الوصول في بعض الظروف إلى هذا الرأي مع عدم إمكان الإجماع على فقيه واحد. ويبقى هذا استثناء والأصل هو ولاية الفقيه الفرد.

أخيراً: المنهج الحق

من المسلم به بين علماء المسلمين أن الإسلام هو نظام شامل للحياة، وبالتالي فإن الدولة الإسلامية هي نظام سياسي اجتماعي تتحدد هويته من خلال الالتزام بالكتاب والسنة. فالله يريد أن يكون هو الحاكم على الأرض كما هو الحاكم في السماء، فقال في كتابه الكريم:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

أما كيفية قيادة هذه الدولة فتكون من خلال نظام لا بد أنه قد حُدد في هذا الدين، وعليه ظهرت عدة مدارس في الفكر السياسي الإسلامي حول النظام السياسي في الإسلام وهي بين اتجاهات أساسية ثلاثة تدور بأجمعها حول لمن تكون الحاكمية أو الولاية والتي تعني السلطة العامة في المجتمع. الاتجاه الأول ذهب إلى كون السلطة بيد عامة المسلمين الذين يتعين عليهم أن يختاروا من يرونه من بينهم مناسباً لقيادتهم من خلال الشورى، والاتجاه الثاني ذهب إلى أن هذه السلطة هي للفقيه العادل ما اصطلح على تسميته بولاية الفقيه كما قلنا، والاتجاه الثالث ذهب إلى الجمع بين الولاية والشورى بطرق مختلفة. ونحن تبنينا من خلال ما تقدم الاتجاه الثاني.

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٤.

البحث السادس

العلمانيـــة

٦ ـ العلمانية

١ ـ تمهيد

تعتبر العلمانية واحدة من القضايا المعاصرة التي أثارت جدلاً كبيراً بين المفكرين في القرن العشرين تحديداً، وقد اعتبر الإسلاميون أن من دعا إلى العلمانية إنما هدف من وراء ذلك إقصاء الدين عن دوره في قيادة الحياة، وأن ما يصح عند المسيحيين لا يصح عند الإسلاميين، ذلك أن المسيحية ليست ديناً ودولة، بل هي طريقة في العبادة بين الإنسان وربه على قاعدة أترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

في حين أن الإسلام يعتبر أن كل ما عندنا هو لله عز وجل، ولا يوجد فرق بين حكم خاص له علاقة في الطقوس العبادية وآخر له علاقة بالمعاملات المالية أو العلاقات الأسرية وبين ثالث له علاقة بالسلم والحرب ورابع له علاقة بالعلاقات الدولية، فالإسلام هو دين ودولة ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

وعليه، فإن الدعوة للعلمانية في أوروبا أمرٌ طبيعي بعد أن عانى

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٢.

الأوروبيون من تدخل الإكليروس في الشؤون السياسية العامة انطلاقاً من آراء شخصية عندهم لا من أحكام واردة عن الله عز وجل، وقد كان للطغيان الديني لرجال الدين المسيحي أثر في انتشار العلمانية السريع في أوروبا، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى استغلال الموقع الديني؛ فكانت الكنيسة تحظى بالكثير من الهبات التي يقدمها الأثرياء الإقطاعيون للتملق والرياء، أو يهبها البعض بدافع الإحسان والصدقة. وقد قويت هذه الدوافع بعد مهزلة صكوك الغفران، إذ انهالت التبرعات على الكنيسة، وتضخمت ثروات رجال الدين تضخماً كبيراً. ولم تقنع الكنيسة بامتلاك الإقطاعيات برقيقها وما يملكه بعض رجال الدين من آلاف الأرقاء، بل أرغمت أتباعها على العمل المجاني في حقولها وفي مشروعاتها، ولاسيما بناء الكنائس والأضرحة، وكان على الناس أن يرضخوا لأوامرها ويعملوا بالمجان لمصلحتها مدة محدودة، هي في الغالب يَوْمٌ واحِدٌ في الأسبوع، ولا ينالون مقابل ذلك جزاءً ولا شكوراً. كل هذه الأمور أدت إلى ظهور الكثير من الدعوات لتيارات سياسية مناهضة للكنيسة وصل بعضها في التطرف إلى حد الإنكار لوجود الله عز وجل كما حصل في التيارات المادية التي كان من أبرز أركانها الحزب الشيوعي.

أما في الدولة الإسلامية فقد كان لطرح العلمانية هدف أساسي وهو ضرب الخلافة الإسلامية وتقسيم العالم الإسلامي إلى قوميات مختلفة من أجل إضعافها وإبعاد الإسلام عن قيادة الحياة، ونحن في هذا المجال لا نعني أننا نوافق على طرح العلمانية في أوروبا؛ لأن هذه العلمانية لم تقدم للأوروبيين الحلول الناجحة للمشكلة الإنسانية والاجتماعية عندهم، بل إننا نعتبر أن الإسلام هو الحل لكل مشاكل البشرية على اختلاف انتماءاتها سواء العرقية أم الشكلية أم القومية وإلى ما هنالك من اختلافات تعج بها المجتمعات.

ما نريده من وراء هذا البحث أن نتعرض لهذه الفكرة من خلال توضيحها في معناها، وكذلك تاريخ نشوئها ورأي الإسلام بها باعتبارها قضية معاصرة ما زالت حتى اليوم حية في مجتمعاتنا السياسية، ونحن عندما نريد أن نوضح رأي الإسلام بالعلمانية فإنما نريد أن نرفع غشاوة عن نظر الكثير من المسلمين الذين باتوا يعتبرون ونتيجة للتربية الخاطئة والمفاهيم المنحرفة التي تبث في مجتمعاتنا أن لا مانع من الناحية الشرعية في أن نكون مؤمنين بالإسلام وفي نفس الوقت ندير شؤون العباد والبلاد من خلال أنظمة وقوانين لا علاقة للإسلام بها، بل أكثر من ذلك قد تكون هذه القوانين معارضة للدين الإسلامي كتلك القوانين التي تعتمد على الربا في المعاملات المالية.

إن الإسلام وكما سنبين بالتفصيل لاحقاً يعتبر أن الحكم يجب أن يكون حكماً إسلامياً يعتمد القرآن الكريم والسنة النبوية في إدارة شؤون الحياة كلها، ومن لم يفعل ذلك فليس بحكم الإسلام مسلماً بل هو كافر كما يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(١).

ومعنى أن تبتغي غير الإسلام ديناً يعني أن تأتي بنظام آخر مخالف لأحكام الله سبحانه وتعالى وتطبقه في المجتمع معتبراً أن أحكام الله فقدت صلاحيتها بمرور الزمن أو تطور الحياة، ما يفرض على الإنسان أن يطور نظامه السياسي والاجتماعي.

إن نظرة الإسلام إلى الدين الإسلامي أنه قانون إلهي صالح للتطبيق مهما اختلفت ظروف الحياة وتطورت الوسائل، بل إنه يمكن أن يتطور

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

ويلائم ظروف الحياة المختلفة، وهناك فرق بين التطور في الوسائل التي يمكن الاستفادة منها في تطبيق الأحكام الإسلامية بهذه الوسائل المتطورة وبين تطور المفاهيم الإنسانية كالصدق والكذب والأمانة والخيانة، فإن هذه واحدة لا تتغير بتغير الزمان، نعم الذي يتغير هو الوسيلة التي تعتمدها في كذبك أم صدقك.

لقد ذهب بعض المتدينين للأسف إلى تبني العلمانية على أساس أنها تمنع من الصراعات الدينية خاصة في بلاد تتعدد فيها الطوائف والمذاهب، كما أن الدولة العلمانية يسوسها العلمانيون ويكون علماء الدين بعيدين عن التلوث بأوساخ الحكم، أو أن يستغل الدين من لا يؤمن به فيمارس الاضطهاد والظلم باسمه وينعكس الأمر على الدين من دون أن يكون له أي دخل فيما يفعله هذا الحاكم الظالم.

ولكن هذا الأمر لا قيمة له من منظور إسلامي، ذلك أن الدين الإسلامي حفظ لكل مواطن في دولته حق التعبد على أساس المذهب أو المعتقد الذي يؤمن به، وضمن الحرية الشخصية على أن لا تتحول هذه الحرية إلى سبب أو دعوة لتقويض النظام الإسلامي. أما التنزيه فهذا إنما يكون عند الحكام غير المؤمنين، أما الحاكم المؤمن فلا يُتصور منه سوى العدل ورعاية الناس بالحسنى، وإن ظهر في بعض الأحيان بعض الحكام من المسلمين الذين ظلموا واستباحوا الحرمات فهم متجاوزون للحق وللدين وللإسلام ولا يجوز أن نحمل الدين أخطاء المنتسبين إليه.

٢ ـ معنى العلمانية

العلمانية بفتح العين مشتقة من الكلمة عَلم بفتح العين أيضاً، وهي مرادفة لكلمة عالم، وهي في اللغة الإنكليزية (Laicism)، وفي الفرنسية

(Laïcisme) وهما كلمتان مشتقتان من اليونانية من كلمة (لاوس) والتي تعني شعب أو رعاع وهما عكس (الكهنة) أي النخبة في الماضي. ومن ثم صارت هذه الكلمة تدل على القضايا الشعبية (الدنيوية) بعكس الكهنوتية أي الدينية.

ومن خلال هذا التقديم نجد أن معنى كلمة العلمانية هو اللادينية أو الدنيوية، لكن لا على أساس أنها ما يقابل الأخروية فحسب بل أكثر من ذلك فهي بمعنى كل ما لا صلة له بالدين أو ما كانت علاقته مع الدين علاقة تضاد.

وفي دائرة المعارف البريطانية تم تفسير العلمانية بالتعبير التالي:

«هي حركة اجتماعية، تهدف إلى صرف الناس، وتوجيههم عن الاهتمام بالآخرة، إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها، وذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى، رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا، والتأمل في الله واليوم الآخر، وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ(Secularism) تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبشرية، وبإمكانية تحقيق مطامحهم في هذه الدنيا القريبة»[(١)].

وفي قاموس العالم الجديد شرح لكلمة العلمانية على الشكل التالي:

«الروح الدنيوية، أو الاتجاهات الدنيوية، ونحو ذلك على الخصوص: نظام من المبادئ والتطبيقات (Practices) يرفض أي شكل من أشكال الإيمان والعبادة. وهي أيضاً الاعتقاد بأن الدين والشئون الكنسية، لا دخل لها في شئون الدولة، وخاصة التربية العامة»[(٢)].

(١) ويكبيديا الموسوعة الحرة مادة علمانية.
(٢) قاموس العالم الجديد مادة علمانية.

وفي معجم أكسفورد شرح للكلمة على الشكل التالي:

«دنيوي، أو مادي، ليس دينياً ولا روحياً، مثل التربية اللادينية، الفن أو الموسيقى اللادينية، السلطة اللادينية، الحكومة المناقضة للكنيسة».

٣ ـ تعريف العلمانية

ورد في العلمانية عدة تعاريف ولعل أشملها ما ورد في الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة على الشكل التالي:

«العلمانية: هي دعوة إلى إقامة الحياة على غير الدين، وتعني في جانبها السياسي بالذات، اللادينية في الحكم، وهي اصطلاح لا صلة له بكلمة العلم، والمذهب العلمي، ومن أفكار ومعتقدات هذا التيار، أن بعضهم ينكر وجود الله أصلاً، والبعض الآخر يؤمن بوجود الله، لكنهم يعتقدون بعدم وجود أي علاقة بين الله وبين حياة الإنسان، ويعتقدون أن الحياة تقوم على أساس العلم المطلق، وتحت سلطان العقل والتجريب، ويقولون: بفصل الدين عن السياسة وإقامة الحياة على أساس مادي، وينادون بتطبيق النفعية على كل شيء في الحياة واعتماد مبدأ الميكيافلية في الفلسفة والحكم والسياسة والأخلاق، ولقد رشح هذا التيار على العالم الإسلامي وانتشر بفضل الاستعمار والتبشير وقام دعاته في العالم العربي والإسلامي بالطعن في حقيقة الإسلام والقرآن والنبوة، وزعموا بأن الإسلام استنفذ أغراضه وهو عبارة عن طقوس وشعائر روحية، وزعموا بأن الإسلام لا يتلاءم مع الحضارة ويدعو إلى التخلف»(١).

وقد اختصر مارسيل غوشيه تعريف العلمنة باعتبار العلاقة بينها وبين الحداثة من ناحية المعنى هي علاقة ترادف فقال:

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الصفحة ٣٦٥.

«العلمانية هي الخروج من الدين»[١].

وهو بذلك لا يقصد الخروج على الدين بمعنى محاربته، بل الخروج من الدين بمعنى إخراجه من حياتنا وإبعاد تأثيره عليها، فهو لا يقصد ما قصده نيتشه بمقولته موت الدين، بل إنه يعترف بالدين ويدعو للخروج منه مقدمة للوصول إلى الحداثة على أساس أن الدين من وجهة نظره معوق أساسي للحداثة، ولا يمكن حصول التقدم والدين يتدخل في كل شؤون الحياة، وإن كان لا ضير بالنسبة إليه من ممارسة الدين على مستوى الطقوس الشخصية.

أما ترجمة العلمانية وتعريفها على أساس أنها مشتقة من العلم مقابل الجهل فهذا خطأ كبير وذر للرماد في العيون لشد المنبهرين بالتقدم التكنولوجي الغربي وإبعاده عن الدين. ذلك أن المقصود منها لو كان كذلك لكانت ترجمتها بالإنكليزية هو (Scientism) في حين أن ترجمتها كما هو المتعارف بـ (Secularism) ومعناه اللادينية أو الدنيوية وهو التعبير الأصح والتعريف الأدق للعلمانية.

٤ ـ ماهية العلمانية

من خلال التعريف والشرح المتقدم تتضح لنا ماهية العلمانية، فهي تعني أن كل مؤسسات الدولة وكل ممارسات الأفراد والمسؤولين فيها يجب أن تنطلق من منطلقات غير دينية، وتسعى العلمانية لتعزيز الأفكار ومنظومة القيم التي تتعارض مع الدين، وتوهين كل ما هو ديني حتى لو كان صحيحاً إما بنفي صحته أو بنسبته إلى غير الدين، وباختصار فإن الحركة

(١) العلمانية كجهادية دنيوية (مقالة).

العلمانية تسعى لأن لا يكون للدين مكان في الحياة العامة وقد يتوسع البعض لأن لا يكون له مكان حتى في الحياة الخاصة.

وفي الدول العلمانية التي اتخذت موقفاً أخف من غيرها بالنسبة للدين فسمحت ببعض الأنشطة الدينية، إلا أنها ضيقت على هذه الفئات بحيث سعت كي لا يمتلكوا الإمكانات المناسبة والظروف الموضوعية لتنفيذ ذلك. والعلمانية من جهة أخرى هي أيديولوجيا تشجع المدنية والمواطنة وترفض الدين كمرجع رئيسي وأساسي للحياة السياسية، ويمكن أيضاً اعتبارها مذهباً يتجه إلى أنّ الأمور الحياتية للبشر، وخصوصاً السياسية منها، يجب أن تكون مرتكزة على ما هو مادي ملموس وليس على ما هو غيبي، وترى أنّ الأمور الحياتية يجب أن تتحرر من النفوذ الديني، ولا تعطي ميزات لدين معين على غيره. وعلى العكس من المرجعيات الدينية التي تعتمد على ما تعتقده حقائق مطلقة أو قوانين إلهية لا يجوز التشكيك في صحتها أو مخالفتها مهما كان الأمر، وتُفسّر العلمانية من الناحية الفلسفية أن الحياة تستمر بشكل أفضل ومن الممكن الاستمتاع بها بإيجابية عندما نستثني الدين والمعتقدات الإلهية منها.

وما يميز العلمانية بحسب التعمق في خطابهم وخططهم هو العناوين التالية:

١ ـ رفض كل ما هو إسلامي إما رفضاً كلياً أو جزئياً، فقد ذهب غلاة العلمانية إلى القول إن الإسلام هو من مخلفات عصور الظلام والتخلف، في حين دعا من هم أخف حدة في التعامل مع الإسلام إلى إعادة قراءته من جديد على ضوء معطيات العصر والتقدم الذي حصل بعد مئات القرون، فإذا بالقراءة الجديدة تحوله إلى شيء آخر غير الإسلام على خلاف ما أتى به الرسول الكريم.

٢ ـ تسخيف الإيمان بالغيب والسخرية ممن يقوم بذلك، والدعوة للإيمان بكل ما هو واقع تحت التجربة، واعتبار أن هذا الإيمان جزء من الأساطير والخرافات التي لا تمت للعقل بصلة، بينما الإيمان بالفكر العلماني هو دعوة للعقلانية والواقعية.

٣ ـ الرجوع إلى التاريخ الإسلامي وتفسيره تفسيراً خاصاً على أساس الفكر العلماني واتهامه بأنه تاريخ دموي استعماري عنصري غير حضاري، لقد عمدوا إلى قراءة التاريخ الإسلامي قراءة انتقائية غير نزيهة ولا موضوعية من أجل إثبات صحة نظريتهم وفساد نظرية خصمهم.

٤ ـ اتهام الإسلام بالتطرف والإرهاب كل ذلك لتخويف الناس من الإيمان بالإسلام مستغلين لذلك بعض التصرفات الخاطئة للمسلمين الذين نحو، منحى عسكرياً أدى لقتل أعداد من الأبرياء تحت ستار الدعوة للإسلام أو مقاومة الكفر.

٥ ـ استغلال فكرة الحداثة لرفض كل ما هو ديني باعتباره تخلفاً، ومن خلال الحداثة السعي للتنصل من كل الأحكام الشرعية والقيم الأخلاقية.

٦ ـ يسعى العلمانيون للترويج لكل ما هو غربي وإعطائه هالة كبيرة، بحيث وقع المسلمون تحت تأثير هذا الترويج فانتشرت آخر صرعات الموضة الحديثة في اللباس والأكل والعطور، ومن خلال ذلك هاجموا الأحكام الإسلامية المتعلقة بالمرأة وسعوا لنزع حجابها وتعطيل دورها في تربية الأسرة ورعاية الأطفال، إلى إخراجها للعمل بينما تقوم الخادمة بمهامها وهذا ما ساهم في تفكيك الأسرة والقضاء على الحياة الأسرية.

مراحل نشأة العلمانية:

يمكن لنا أن نعتبر أن كل ظاهرة لا دينية في التاريخ، بل كل ظاهرة

حاولت إقصاء الدين عن الحياة هي ظاهرة علمانية. غير أننا نتحدث هنا عن الظهور العملي في التاريخ. وبالرجوع إلى التاريخ نجد أن ظاهرة العلمانية ارتبط ظهورها بعصر التنوير في القرن الثامن عشر في أوروبا ولعبت الدور الأساسي في المجتمع الغربي، والشخص الذي نادى بفكرة العلمانية هو جورج هوليواكي وهو بريطاني ملحد، وكما ظهرت العلمانية في الغرب في عصر التنوير ظهرت فكرتها أيضاً في الهند، وحصلت هذه الفكرة على دعم كبير من الهندوسيين، والدولة التي كانت الأسبق في تطبيق مبادئ العلمانية بشكل عام هي كندا.

أما اليابان فقد سعت لتطبيق العلمانية بعد الحرب العالمية الثانية حين استلم السلطة الحزب الليبرالي الديمقراطي (وهو حزب ذو توجه علماني) والذي لا يزال حاكماً إلى الآن بأغلبية ساحقة تسيطر على مقاعد البرلمان وعلى السلطة التنفيذية اليابانية، وفي تركيا بدأ تطبيق العلمانية في تاريخ ٣ مارس ١٩٢٤ م عندما قام مصطفى كمال أتاتورك بعزل الشريعة الإسلامية عن الحكم والسياسة.

أما من الناحية النظرية فقد مرت العلمانية بثلاث محطات هي على الشكل التالي:

أ ـ المحطة الأولى:

وهي ما اصطلح عليها بمرحلة التحديث حيث سيطر الفكر النفعي المادي على جوانب الحياة كافة، وسعى الحكام إلى زيادة الإنتاج في ظل طفرة اقتصادية كبرى، ما أدى إلى ظهور الدولة القومية العلمانية في الداخل والاستعمار للدول المتخلفة أو النامية ذات الثروات الطبيعية في خارج أوروبا، لضمان زيادة الإنتاج من جهة من خلال تأمين أسواق للمنتجات، ومن جهة أخرى تأمين المواد الأولية التي يحتاجونها في الصناعة.

ب ـ المحطة الثانية:

هي مرحلة سيادة الفكر النفعي ما أدى إلى تقسيم الدولة القومية إلى مجتمعات أصغر، فظهرت النزعات العرقية ما أدى إلى تقسيم الدولة القومية إلى دويلات أصغر، واستبدل الاستعمار العسكري بأشكال أخرى منه كالاستعمار السياسي والاقتصادي والثقافي.

ج ـ المحطة الثالثة:

وهي مرحلة غياب الثوابت والمعايير الحاكمة لأخلاقيات المجتمع، والتطور التكنولوجي في مجال الاستنساخ، والتلاعب بالجينات الوراثية، وتحول فكرة التحرر إلى سبب للانحلال الأخلاقي حيث انتشرت الأوبئة كالايدز، وجنون البقر، وأنفلونزا الطيور، وما شابهها من أمراض حفل بها هذا العصر. والسمة الأبرز له هي الانحلال الأسري والتفكك الذي أصاب المجتمعات فلم يعد هناك من روابط بين البشر.

٥ ـ أنواع العلمانية

بحسب التجربة هناك أنواع أربعة للعلمانية بحسب اطلاعنا على الدول في التاريخ الحديث وهي على الشكل التالي:

١ ـ العلمانية الكلية:

ويطلق عليها أيضاً (العلمانية الطبيعية المادية) وهي رؤية شاملة للواقع تحاول بكل صرامة تحييد علاقة الدين والقيم المطلقة والغيبيّات في كل مجالات الحياة. ويتفرع عن هذه الرؤية نظريات ترتكز على البعد المادي للكون، وأن المعرفة المادية هي المصدر الوحيد للمعرفة، وأن الإنسان يغلب عليه الطابع المادي لا الروحي، وفي هذا القسم تمنع الدولة العلمانية

المواطنين من القيام بأية مظاهر وسلوكيات دينية، حيث يحرص القيمون عليها على أن لا يكون هناك مجال لدخول الدين في أي مرفق من مرافق الدولة، فهي معاداة كاملة مع الدين، وأفضل مثال عليها في عصرنا الحاضر هو العلمانية التركية حيث يمنع المواطن من أن يمارس طقوسه من صلاة وغيرها في المرافق الحكومية، وتمنع المرأة من الحجاب سواء في الوظائف الحكومية أم في المدارس والجامعات.

٢ ـ العلمانية من دون تدخل في الدين:

وفي هذا النوع تحرص الحكومة العلمانية على أن يكون للمواطن الحرية في المعتقد الذي يؤمن به ولا تتدخل الحكومة في الاعتقاد الشخصي الديني للمواطن، ولكن الدولة من حيث الحكم والقوانين هي دولة لا دينية بل إن دستورها ينطلق من قوانين يضعها الساسة تبعاً لتغير الظروف والأوضاع. وهذه العلمانية موجودة في أغلب الدول الأوروبية والأميركية.

ولعل التجربة الماليزية التي خاضها مهاتير محمد تعتبر مثالاً واضحاً على هذا المذهب عبر عنه بمقولته المشهورة:

«حين أصلي أدير وجهي للكعبة، وحين أتعامل اقتصاديا أدير وجهي ناحية بورصة نيويورك»[(١)].

٣ ـ العلمانية مع تدخل في الدين:

وفي هذا النوع من العلمانية تتدخل الدولة في الحرية الفردية وحرية المعتقد فتحدد للمواطن طبيعة إيمانه وما هو مسموح أو غير مسموح به من المعتقدات التي يؤمن بها مع عدم السماح للدين في التدخل في أي من شؤون السياسة وإدارة الدولة. والنموذج الأبرز لهذا النوع هو العلمانية في بعض البلدان العربية.

---

(١) أي مستقبل للشريعة الإسلامية؟ علمانية الدولة من منظور إسلامي.

٤ ـ العلمانية المتلبسة لبوس الدين:

وهنا يكون الحكم علمانياً بكل معنى الكلمة والقوانين توضع من قبل مشرعين سواء أكانوا برلماناً أم حكومة أم ملكاً أم أميراً، ولكن هؤلاء يقولون مثلاً إن دستور الدولة هو القرآن ويحكمون باسمه، في حين أنهم قد ينتهكون القرآن وأحكامه في كثير من المجالات. وهذا النوع من الدول تجده في الدول العربية خاصة تلك ذات الحكم الملكي المطلق أو الدستوري.

وهذا ما اصطلح على تسميته بالعلمنة الدينية التي عمل لها مارتن لوثر، بكسره احتكار الكنيسة الكاثوليكية للإيمان الديني، من خلال ردّ هذا الإيمان إلى الشخص البشري، وأوكل إلى عقله المتمتع بالسؤدد الذاتي مهمة تأويل النصوص المقدسة. وقد ترتب على ذلك نتيجة خطيرة من منظور الحداثة: فالأب الذي صار هو المسؤول ـ لا الكاهن ـ عن التعليم الديني لأولاده، صار ملزماً بأن يتعلم قراءة النصوص المقدسة بنفسه وبأن يعلّم هذه القراءة لأولاده بدورهم. وهكذا اقترن الإصلاح البروتستانتي بثورة حقيقية على صعيد محو الأمية وتحطيم احتكار رجال الدين لعملية القراءة والكتابة، ولكن في نفس الوقت أدى إلى جملة تحريفات في فهم النصوص الدينية وصلت إلى حد اعتبار الكنيسة الكاثوليكية بدعة البروتستانتية خروجاً عن التعاليم المسيحية.

أما من الناحية الإسلامية، فلا يوجد رجل دين ورجل دنيا، وبالتالي يمكن لمن لم يكن متعمماً ولكنه يملك حظاً كافياً من العلم أن يتعامل مع النصوص القرآنية والنبوية تفسيراً واستنباطاً شرط امتلاكه للعلم المؤهِل لذلك، ففهم هذه النصوص ليس محصوراً في الإسلام بفئة خاصة هي غير موجودة أصلاً.

مجالات العلمنة:

يعتبر أكثر الداعين إلى العلمنة أنه لا بد من شمولها لجوانب الحياة كافة، في حين ذهب بعضهم إلى شمولها لجوانب دون أخرى، وسأعرض من خلال ما يلي أهم الجوانب التي يتحدث عن العلمنة فيها وهي على الشكل التالي:

١ ـ العلمنة الدينية:

وتدعو العلمانية من خلالها إلى التدخل في الشأن الديني على قاعدة أن لكل شخص الحق في تفسير النص الديني على حسب ما يرتئيه هو، وهذا النوع من العلمنة وإن اعترف بوجود الدين إلا أنه فسره على طبق ما يريد وأخذ منه ما يرتئيه مناسباً وترك ما لم يعتبره كذلك.

٢ ـ العلمنة الثقافية:

لقد عمل هؤلاء على تطوير ثقافة ذات نزعة دنيوية ومنعتقة من ربقة التصور الديني للحياة والعالم، وقد تصاعدت هذه الأفكار بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر وكانت الذروة في القرن السابع عشر حيث تمخضت عن ظهور نوع أدبي جديد هو الرواية التي هي بالتعريف فن متمحور حول الإنسان في مصائره الدنيوية.

٣ ـ العلمنة اللغوية:

وهذه العلمنة سعت إلى لغة جديدة متحررة عن اللغة الفصحى ومتجهة نحو اللهجة العامية، التي أطلقوا عليها زوراً وبهتاناً اسم لغة، وهذه اللغة التي ابتدعوها تسعى إلى ضرب قدسية المقدس من اللغات كاللاتينية عند المسيحيين والعربية عند المسلمين.

٤ ـ العلمنة العقلية:

وفي هذا المجال سعى العلمانيون إلى عكس المقولة التي تعايشت مع الأديان، فبعد أن كانت الفلسفة في خدمة اللاهوت أصبحت الفلسفة عندهم تحت إمرة العقل لوحده وتحت سيادته المطلقة. ونحن لا نغالي إذا قلنا إنه منذ تلك اللحظة التي باتت فيها سلطة العقل لا تعلو عليها سلطة أخرى، بدأ تاريخ جديد للإنسان من حيث إنه، بين سائر الكائنات الحية، هو الكائن الوحيد الذي يصنع نفسه بنفسه ويعيد خلق نفسه بنفسه بقوة عقله.

٥ ـ العلمنة العلمية:

وهنا كانت المعركة لصالح العلمانيين في أوروبا حيث استطاعوا ومن خلال العلم أن يثبتوا فشل كثير من النظريات التي كانت تتبناها الكنيسة وتكفر كل من يخالفها، منها مثلاً نظريتها حول الأرض وشكلها ودورانها، فانتصر غاليلو بأن ثبتت مقولته حول كروية الأرض. وكذلك اندلعت معركة بين داروين والكنيسة حول أصل الإنسان وقصة الخلق، وهي وإن كانت في تلك المرحلة لصالح داروين إلا أن نظريته فشلت في الاستمرار وامتلاك تفسير ثابت ومستمر للخلق، ولكن هذا لم ينفع مع الإسلام الذي أعطى للعلم كل مجالاته، واعترف باكتشافاته، ووسع آفاق العلماء من خلال تقديم معطيات أولية ساعدتهم في التقدم والتطور، وقد كان التحدي من الله عز وجل للإنسان أن يسبر أغوار السماء والأرض للوصول إلى الحقائق المذخورة في هذا العالم فقال سبحانه وتعالى:

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾[1].

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.

وهذا السلطان هو سلطان العلم الذي من خلاله يمكن الوصول إلى النفاذ في وجودنا ومعلوماتنا خارج هذه الأرض إلى أركان سموات أخرى وأراضين.

٦ ـ العلمنة القانونية:

وتعمل هذه العلمنة على أن التشريع من حق الإنسان ولا دخل للدين في ذلك، وقد كان أبلغ نتائجها في نهاية القرن الثامن عشر حيث أطلق إعلان حقوق الإنسان والمواطن الصادر عن الجمعية التأسيسية للثورة الفرنسية ليحوّل المركزية من الله إلى الإنسان، ولينقل مبدأ السيادة وحق التشريع من الله وخلفائه على الأرض إلى الأمة وممثليها في المجلس النيابي. وقد نصّ البند الثالث من إعلان حقوق الإنسان والمواطن على أن:

«الأمة هي مصدر كل سلطة وكل سلطة للأفراد والجمهور من الناس لا تكون صادرة عنها تكون سلطة فاسدة»(١).

وقد حول هذا القانون أو الإعلان السلطة من الملك الذي كان يحكم باسم الله لا باسم الأمة أو الشعب، ولذلك كان يسمى الملك في فرنسا رسمياً بأنه الملك المسيحي جداً، إلى الأمة بمجموعها.

ومنذئذ بات التشريع وما يستتبعه من سنّ للقوانين موضع تطوير وعقلنة دائمين بالاستناد إلى مرجعية بشرية خالصة، وطبقاً لحاجات الزمان والمكان، ومن منطلق القيم التي يحددها البشر لأنفسهم بأنفسهم دونما تقيد بوثنية أي نص أول.

٧ ـ العلمنة الجنسية:

وقد استكمل العلمانيون من خلال هذا النوع من العلمنة مخططهم،

---

(١) إعلان حقوق الإنسان والمواطن المادة الثالثة.

ذلك أنهم من خلال ما دعوا إليه من تفلت جنسي سعوا إلى تفكيك أواصر المجتمع من خلال تفكيك بنية العائلة التي هي الخلية الأساس في المجتمع. وربما تكون الكشوف التحليلية النفسية لسيغموند فرويد في مطلع القرن العشرين هي التي قدمت لهذه العلمنة ركيزة سيكولوجية مماثلة لتلك التي قدمتها للعلمنة العلمية الثورة العلمية من خلال غاليلو وداروين. وقد تفتقت هذه العلمنة عن تحرير مزدوج للحياة الجنسية البشرية من ربقة الجريمة وربقة الخطيئة معاً. فباستثناء ممارسة الجنس مع القصَّر أو الاغتصاب، لم يعد أي شكل من أشكال هذه الممارسة يعتبر جريمة يعاقب عليها القانون. يصدق ذلك سواء على العلاقات الجنسية خارج مؤسسة الزواج، أم على الممارسات الجنسية المثلية، أم تلك الموصوفة بـ«الشاذة».

وبالإضافة إلى رفع يد الكنيسة عن الحياة الجنسية للإنسان وإقرار مؤسسة الزواج المدني، فقد جرى قانونياً استبعاد مفهوم الخطيئة عن شتى أشكال العلاقات الجنسية، وتم إقرار الحرية التامة في هذا المجال، بما في ذلك حرية الاعتقاد بالخطيئة لدى المؤمنين، شريطة ألا يحدّ هذا الاعتقاد من حرية الآخرين في الممارسة الجنسية. وبمعنى من المعاني يمكن القول إن العلمنة الجنسية جعلت من الإنسان سيد جسده، مثلما جعلت منه العلمنة العلمية والفلسفية سيد عقله، بدون أية مرجعية مفارقة أو متعالية إلا لمن يريد أن يقيد ممارسته الجنسية عن طوع إرادة واختيار بمثل تلك المرجعية. وإنما هاهنا، أي في مجال الممارسة الجنسية، يمكن أن نتحدث ليس فقط عن «خروج من الدين» بل كذلك حتى عن «خروج على الدين». فالأصل في الجنس المعلمَن هو الإباحة، والإباحة تلغي الخطيئة ومفهومها. وغني عن البيان أن هذه العلمنة الجنسية هي التي اصطدمت ولا تزال تصطدم بأعتى مقاومة من الكنيسة ومن سائر الأجهزة الدينية الأخرى، وبشكل خاص في البلدان ذات الموروث الطُّهراني، لأنه بدون مفهوم

الخطيئة أو الحرام يفقد الدين ـ ومعه كل سلطة دينية ـ ركيزة حيوية من ركائزه.

٦ ـ أهداف العلمانية

تهدف العلمانية من خلال سعيها لإبعاد الدين عن الحياة، خاصة العلمانية الشاملة، إلى القضاء على كل ما اسمه دين بغض النظر عن ماهية هذا الدين، وهي عندما تسعى لإيقاع الفتنة بين الأديان فعلى قاعدة أن يقاتل المتدينون بعضهم البعض مقدمة لإضعافهم مما يسهل عليها القضاء عليهم لاحقاً أو إبقائهم ضعافاً لا تأثير لهم.

ولعل أبرز مواجهة تمت بين العلمانيين والمتدينين هي تلك التي حصلت بينهم وبين المسلمين، ذلك أن العلمانيين ركزوا على الإسلام كثيراً لما استشعروه من قوة هذا الدين وصلاحيته لمواكبة العصر وعمق تعلق الناس به، فسعوا إلى تفتيت الأمة الإسلامية مقدمة للسيطرة على هذه الأمة والقضاء عليها.

وهذا ما عبر عنه المستشرق الإنجليزي المتأمرك هاملتون جب بقوله:

«المقصود من الجهود المبذولة لحمل العالم الإسلامي على الحضارة الغربية هو تفتيت وحدة الحضارة الإسلامية التي تقوم عليها وحدة المسلمين؛ لأن كل قطر سيتجه إلى اقتباس ما يلاءم ظروفه من هذه الحضارة، وعند ذلك تتعدد أساليب الاقتباس بتعدد البيئات الإسلامية المختلفة، فتفقد الحضارة الإسلامية طابعها الموحد، بل لا يعود هناك شيء اسمه حضارة إسلامية»[(١)].

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، الجزء ٢، الصفحة ٢١٥.

إذا تمعنا ملياً بهذا الكلام يتضح لنا أن هناك هدفين أساسين يعمل العلمانيون على تحقيقهما، وهما أولاً تفتيت العالم الإسلامي وثانياً تفتيت التوجهات الإسلامية، ما يؤكد لنا أن الهدف هو إيقاع الفتن بين المسلمين، وإبعادهم عن بعضهم البعض، وجعلهم مذاهب متعددة يكفر بعضهم بعضاً، وهذا ما حذر منه رسول الله ﷺ عندما خطب بالناس يوم النحر في منى بقوله:

«أيها الناس لا ترجعوا من بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلى يوم يلقون ربهم فيحاسبهم، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد»[١].

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو كيف استطاع الاستعمار أن ينال من وحدتنا ويقسم الأمة ويفتتها؟ والجواب نجده في كتاب (وجهة الإسلام) الذي أشرف عليه جب حيث يلفت المستشرق الألماني كامبفماير النظر إلى عوامل وحدة هذه الحضارة حتى يمكن التركيز عليها، وتتلخص بثلاث نقاط:

«أولها هي: أهمية الكتلة العربية وخطورتها في نظره، وثانيها هي: أن أهم العوامل التي تستمد منها هذه الكتلة وحدتها هي: اشتراكها في اللغة العربية الفصحى، واشتراكها في العناية بالتراث الإسلامي القديم وتاريخه وأدبه، وثالثها هي: ما يستتر وراء كلامه من أنه يتمنى أن يحدث في مصر ما حدث في تركيا من قطع كل صلة بالماضي الإسلامي واستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية»[٢].

---

(١) مستدرك الوسائل، الجزء ١٨، الصفحة ٢٠٦.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، الجزء ٢، الصفحة ٢١٤.

لذلك وجدنا أن العلمانيين ركزوا هجومهم على اللغة العربية وحروفها، فسمعنا في لبنان من دعا إلى تبني الحرف اللاتيني، وفي تركيا تخلوا كلياً عن الحرف العربي، ومن ثم تحدثوا عن التحديث في اللغة فانتشرت العامية وتم التفلت من الشعر الموزون إلى الشعر الحديث الذي لا روح له، ومن الناحية السياسية قسموا العالم الإسلامي إلى دويلات مختلفة متصارعة في كثير من الأحيان.

ومن الأهداف العملية التي عمل لها المستعمر وهي ذات تأثير على المستوى البعيد زمنياً، إذ إنها تسير ببطء، العمل على إيجاد التفاهم المفقود بين الإسلام والعلمانية وذلك من خلال تطوير الإسلام وإعادة تفسيره على ضوء المفاهيم العلمانية، وذلك على أساس تصوير الإسلام بأنه قريب من المفاهيم الغربية وغير متعارض معها.

٧ ـ الإيجابيات والسلبيات

أ ـ إيجابيات العلمانية من وجهة نظر المؤيدين:

لقد اعتبر مؤيدو العلمانية أنها حركة في اتجاه التحديث وابتعاد عن التقليد والرجعية، حيث اعتبر هؤلاء أن الإنسان يسير في طور تكاملي والدين يشكل إعاقة في السير نحو التكامل. وذهب هؤلاء إلى أن الدولة العلمانية تسمح للحرية الشخصية أن تنطلق بشكل أفضل، فهي تعطي حرية للشاذين والمثليين وما هو محرم في الشرع الإسلامي كالإجهاض وغيرها.

ويعتقد العلمانيون أن الإيجابية المهمة فيها تجلت عملياً من خلال تخلص أوروبا من خلالها من حكم الكنيسة وتعصبها في مواجهة أي فكر مغاير لها. ولذلك يجب برأيهم أن تنحصر الكنيسة في داخل المعبد ولا تخرج لتتحكم بالتقدم العلمي وتقف في وجه النهضة العلمية.

وما يعترضون به على الكنيسة لا يعفون منه الحكم الإسلامي الذي تحول برأيهم بعد الخلفاء الأربعة إلى ملك عضوض ونظام ملكي شمولي فميزوا بين المسلم وغير المسلم، والعربي وغير العربي حتى وصل الأمر إلى الحكم العثماني الذي انهار أمام الفكر العلماني الذي جاء به كمال أتاتورك. وهم يعتبرون أن العلم الذي ظهر لدى المسلمين لا علاقة للإسلام به بل كان على يد فساق المسلمين.

ويستدل العلمانيون على أن الحل بما ذهبوا إليه وليس بالدين، على أساس أن الإنسان كائن متطور وهو يتغير من حال إلى حال أفضل وأرقى مع تقدم الزمن وتوسع مدارك الإنسان، وعليه ينبغي أن تكون الأحكام التي تنظم حياته متغيرة، والدين باعتباره يحتوي على أحكام ثابتة غير قادرة على مواكبة هذا التطور وستؤدي بالإنسان إلى أن يعيش حالة الجمود والتخلف الدائم عن مواكبة العصر.

وقد اعتبر هذا البعض المدافع عن العلمانية أن أوروبا تدين بتقدمها لعلمنتها، لا لمسيحيتها، وهذا ما يؤكد أن العلمنة تعتبر دافعاً ضرورياً للتقدم والتطور ولا علاقة للدين بذلك من قريب أو بعيد. ولو أصرينا على التمسك بالدين فإننا نصر على العيش في القرون الغابرة مما سيؤدي إلى التخلف والتقوقع والعيش خارج الزمن.

ب ـ سلبيات العلمانية من وجهة نظر المعارضين:

يذهب هؤلاء إلى أن الحكومة العلمانية تخلق مشاكل أكثر مما تحل، في حين أن الحكومة الدينية أو غير العلمانية تبقى أفضل من الحكومة التي تبتعد عن الروح والفضائل والقيم. وأن الدولة الدينية تعطي حرية أكبر من الدولة العلمانية خاصة للأديان الأخرى، في حين أن العلمانيين لا يتسامحون مع كل ما هو ديني. بينما يعتبر أن الدولة العلمانية تسمح من

خلال عنوان الحرية الشخصية بانتهاك كل القيم الدينية من خلال السماح بالإجهاض والزواج المثلي وغيرها، في حين أن الدولة الدينية تصون منظومة القيم والأخلاق.

وما ذهب إليه من أراد الترويج للعلمانية من أنها تقف في وجه التقدم العلمي قد يصح بالنسبة لما حصل في أوروبا، ذلك أن الكنيسة وقفت فعلاً في وجه التقدم العلمي واعتبرت ما توصل إليه العلماء نوعاً من الكفر والسحر والزندقة. أما في الإسلام فإن الخلافة الإسلامية رعت عملية التقدم العلمي ووقفت إلى جانب العلماء وشجعتهم على اختراعاتهم، ثم إن هؤلاء استندوا في كثير من هذه الاختراعات إلى القرآن الكريم. وأما أن بعض هؤلاء العلماء من غير المسلمين أو من الفساق فهذا لا يغير من الواقع شيئاً طالما أن هؤلاء جزء من الأمة رعتهم وأمنت لهم الظروف المناسبة للتوصل إلى ما توصلوا إليه من اكتشافات واختراعات ولم تتهمهم لا بفسق ولا بكفر ولا بزندقة.

أما ما ذهبوا إليه لجهة ثبات الأحكام الشرعية وتطور الإنسان فغير صحيح، حيث إن جوهر الإنسان ثابت؛ فالصدق كمفهوم يبقى على حاله ولا يتغير بتطور العصر، فجوهر الإنسان ليس تلك الأمور المادية التي تحيط به من مأكل وملبس ومسكن ومركب، بل هو تلك المفاهيم التي تقود حياته وتجعله يتخذ المواقف. فالإنسان في القرن الواحد والعشرين وإلى يوم القيامة محتاج دائماً إلى هداية الله سبحانه وتعالى والمتمثلة في ما يرسله إليه من أحكام تصونه عن الفساد وتوجهه نحو خيره وخير المجتمع.

أما قولهم إن الشريعة بما هي أحكام واردة عن الله سبحانه وتعالى جامدة تقيد العقل عما يدركه من خلال الاحتكاك بالواقع فتجمده وتعطله فهذا غير صحيح أيضاً، وذلك بيّن من خلال ما ورد في توكيل الإنسان في

التصرف في حياته بما يتوصل إليه من خلال عقله في مساحات شاسعة اصطلح على تسميتها بمناطق الفراغ التشريعي، فقد ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال:

«إن الله تبارك وتعالى حد حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تنقصوها، وسكت عن أشياء لم يسكت عنها نسياناً لها فلا تكفلوها، رحمة من الله لكم فاقبلوها. . .»[١].

وكذلك في الأمور الفنية والتقنية التي تركها الله للإنسان يتعاطى معها من خلال ما يتوصل إليه عبر إعمال العقل، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أنتم أعلم بأمر دنياكم»[٢].

وإضافة إلى ذلك فإن الإسلام ترك للعقل كل المجال حتى في دراسة التشريعات والنصوص الشرعية كون هذه النصوص قابلة لأكثر من تفسير وتحتمل أكثر من رأي، مما يعني أن المجتهد عندما يتبنى هذا الرأي دون غيره إنما يفعل ذلك من خلال عقله وإبداعه العلمي.

ومن جهة أخرى، فإن الإسلام يعتبر أن الأحكام الشرعية كونها قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان فإنما يؤمن أيضاً بأن هذه الأحكام قادرة على التطور والتغير بتغير الزمان والمكان، إضافة إلى أن نفس هذه الأحكام قابلة للتغير من جهة الضرورة على قاعدة أن الضرورات تبيح المحظورات؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم:

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ

---

(١) من لا يحضره الفقيه، الجزء ٤، الصفحة ٧٥.
(٢) كنز العمال، الجزء ١١، الصفحة ٤٦٥.

حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[١].

ومعنى أنه ما جعل عليكم في الدين من حرج هو أن الأحكام الأولية قابلة للتغير بسبب الضرورات من خلال الضرر أو الحرج. وهذا يعني أن الشريعة في الوقت الذي تتحلى فيه بالثبات والخلود تتحلى أيضاً بالمرونة والقدرة على التكيف مع التطور في الوسائل وتغير الأساليب.

إن تجربة قرن كامل في قيادة المجتمعات الإسلامية بمعزل عن النظام الإسلامي أثبتت للعلمانيين أنفسهم أنهم كانوا مخطئين في عزل الإسلام عن الحياة، فبدأوا يلتفتون شيئاً فشيئاً إلى دينهم الإسلامي بدرجات متفاوتة، ويدعون إلى عقد ندوات حوارية بينهم وبين الإسلاميين، وهذا في حدّ ذاته حالة صحية مطلوبة، لأن الأخطار التي تهدد الأمة من العولمة الصهيونية في بلاد الإسلام كلها لاسيما في فلسطين تستدعي اللقاء والحوار والتقارب، حتى يصل الجميع إلى صيغة تجمع الكل على القضايا الجوهرية الواحدة في مواجهة تلك الأخطار، وإلا فالعدو بالمرصاد، ويمكن أن يسد علينا نوافذ الضياء جميعاً.

٨ ـ كيف دخلت العلمانية بلادنا؟

من المعروف أن سقوط الخلافة الإسلامية كان بداية تحول كبير في الأمة الإسلامية، ومن المعروف أيضاً أن الغرب المستعمر نال من هذه الخلافة من خلال فكرة العلمانية التي بدأ بترويجها بواسطة كمال أتاتورك

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

الذي عمل على فصل تركيا عن بقية العالم الإسلامي، وتزامن هذا مع دعوات قومية أخرى كالقومية العربية والفارسية والكردية، ثم بعد ذلك مزقت الدولة الإسلامية أكثر وأنشئت نتيجة لاتفاقية سايكس بيكو كيانات أصغر ودويلات تتنازع مع جيرانها على الحدود، في حين أنها مع غيرها جزء من الأمة الأكبر والتي هي الأمة الإسلامية.

لقد خاض النظام العلماني في تركيا، لترسيخ دعائم العلمانية حرباً شرسة لا هوادة فيها، فبدءاً من تغيير حروف الكتابة مروراً بتحريم ألبسة شعبية تقليدية (كالطربوش) ومحاربة اللباس الإسلامي (كالحجاب)، وانتهاء بعملية تغريب على كل المستويات، وبرغم ذلك كلّه لا يزال العلمانيون في تركيا يعتبرون أن العلمانية في تركيا في خطر وأن الإسلاميين استعادوا كثيراً من قوتهم وقد يستعيدون تدريجياً ما فقدوه من هويتهم الإسلامية.

لقد خاض العلمانيون حرباً شرسة ضد الإسلاميين شملت الحظر، والاعتقال، والأحكام القضائية الجائرة، والحرمان من ممارسة العمل السياسي، والضغوط لإسقاط الحكومة، والضغوط على بقايا الأحزاب العلمانية الخالصة لتتوحّد في جبهة واحدة، فأبعدوا أربكان ثم استطاعوا ضرب أردوغان ليعود الأخير ويأخذ زمام المبادرة من جديد ويحقق انتصاراً كاسحاً في انتخابات العام ٢٠٠٧م.

لقد وفدت إلينا العلمانية بعد الحرب العالمية الثانية في ظل الحرب العسكرية ففرضوا علينا فرضاً عبر هزيمتنا عسكرياً فكرهم ونمط حياتهم بالإكراه والقهر، ولئن نجحت العلمانية في الغرب ذلك أنها كانت نتاجاً فكرياً عن التخلف الفكري والهيمنة اللامنطقية من الكنيسة على كل جوانب الحياة بشكل منع من تقدم أوروبا، إلا أنها لم تكن كذلك في بلادنا، بل فرضت علينا فرضاً ما جعلها تفشل في تحقيق مراميها في إبعاد الإسلام عن

واقع الحياة، فرأينا أن الإسلام عاد ليقود الحياة خاصة في الربع الأخير من القرن العشرين الميلادي.

لقد عملت العلمانية على استغلال قضية المرأة بدعوى أنها مظلومة في ظل الشريعة الإسلامية، وعلى ضوء هذا نفهم كثرة المؤتمرات التي تؤيد المرأة وتزعم أن حقوقها مهضومة وخاصة في ظل الشريعة الإسلامية، وهكذا عقدت عدّة مؤتمرات للمرأة مثل (مؤتمر السكان في مصر) إذ كان من أهم أهدافه إباحة الإجهاض والشذوذ الجنسي، ومؤتمر بكين للمرأة الذي ظهرت فيه كما في مؤتمر القاهرة دعوة نسائية علمانية تسمي (الفمنزم ـ feminism) وهي نظرية المساواة بين الجنسين سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

والذي يؤكد أن العلمانية فرضت على أمتنا فرضاً هو أن الأنظمة التي شكلها الغرب المستعمر لم تستطع أن تقود المجتمعات بالشكل الجيد، فأصبحت هذه الدول عالة على الغربيين الذين ومع كل الدعم الذي وفروه لهذه القيادات لم يستطيعوا أن يؤمنوا حكماً سليماً ومستقراً لهم.

وها هو أول مندوب سامي بريطاني في مصر وأحد أبرز قادة الحملات التغريبية على العالم الإسلامي في العصر الحديث (إفلن بارنج) المعروف بـ (اللورد كرومر) يوضح أهداف الإنجليز الحضارية! فيقول:

«المصريون يتمسكون تمسكاً تاماً بالإسلام الذي هو أحد الكلمات المرادفة للوطنية في الشرق، والإنجليز لا يهدفون إلى نشر المسيحية ولكنهم يريدون نشر حضارة تقوم على أساس مسيحي»[1].

إن أكثر المتأثرين بالفكر العلماني هم الطلبة الذين سافروا إلى دول العلمنة على أساس أن ينهلوا من علمها في المجال التكنولوجي فإذا بهم

(١) Modern Egypt، ج ٢، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ نقلا عن مجلة البيان.

يعودون حاملين للفكرة العلمانية بعد أن وقعوا في تلك البلاد في براثن المفكرين العلمانيين وفي أجواء الرذيلة والإباحية تحت عنوان الحرية الفكرية والاعتقادية.

بعد المرحلة الأولى من الاستعمار المباشر جاء الانتداب، ثم بعد ذلك أعطيت استقلاليات للدول فخرج المستعمر من الباب ليدخل من الشباك عبر حكومات تنتمي إليه وتعتمد فكره ومنهجه وتمارس على حركات التحرر من الضغوط ما لا يحتمل خاصة تلك الحركات الدينية التي سعت لإعادة الدين ليقود الحياة. فتحولت هذه الدول خاصة الحواضر الكبرى منها إلى مروج للعلمانية كالقاهرة ودمشق وبغداد وبالطبع كان الدور الأبرز للبنان الذي اصطلح على تسميته ببلد الإشعاع والنور، فمن خلاله كان يتخرج قادة الفكر العلماني خاصة أولئك الذين تخرجوا من الجامعة الأميركية أو الجامعة اليسوعية في بيروت.

ولا ننسى في هذا المجال الدور الذي لعبته المنظمات التبشيرية التي رصدت لها تلك الدول الأموال الضخمة ووفرت لها الدول المحلية التسهيلات اللازمة فجابت أصقاع العالم الإسلامي تدعو لزعزعة ثقة المسلمين بدينهم وتدعوهم لتركه سواء لدين آخر أو إلى اللادين، ما ساهم في نشر العلمانية في صفوف عامة الناس من خلال إغراءات مالية ومادية.

وفي نفس المجال أنشأ اللورد كرومر في مصر كلية فيكتوريا التي قصد بها تربية جيل من أبناء الحكام والزعماء والوجهاء في محيط إنجليزي، ليكونوا من بَعْدُ هُم أدوات المستعمر الغربي في إدارة شؤون المسلمين، وليكونوا في الوقت نفسه وبمضي الوقت أدواته في التقريب بين المسلمين وبين المستعمر الأوروبي، وفي نشر الحضارة الغربية، هذه الكلية التي لم ينحصر تأثيرها في مصر، بل إن كثيراً من قادة العالم العربي

والإسلامي وبعض دول أفريقيا تخرج منها حتى سميت بسبب ذلك بمدرسة المشاهير.

أما التنظيمات السياسية والنوادي الاجتماعية والأحزاب العلمانية والحركات الماسونية التي انتشرت في العالم الإسلامي والأقطار العربية والتي أخذت لنفسها عناوين مختلفة ما بين يسارية وليبرالية، وقومية وأممية، سياسية واجتماعية وثقافية وأدبية بجميع الألوان والأطياف، وهذه جميعها مع اختلاف توجهاتها الفكرية ومنشئها السياسي، إلا أن هناك جامعاً وقاسماً مشتركاً بينها وهو أنها جميعها أحزاب علمانية تدعو لإبعاد الدين عن الحياة.

ولا ننسى في هذا المجال ما لعبته البعثات الدبلوماسية لبعض الدول الغربية في الشرق، فقد أصبحت في الأعم الأغلب جسوراً تمر من خلالها علمانية الغرب الأقوى إلى الشرق الأضعف من خلال الاقتداء، ومن خلال المنح الدراسية وحلقات البحث العلمي، والتواصل الاجتماعي، والمناسبات والحفلات، ومن خلال الضغوط الدبلوماسية والابتزاز الاقتصادي، وليس بسر أن بعض سفارات الدول الكبرى أكثر أهمية وسلطة من القصر الرئاسي أو مجلس الوزراء في تلك الدول الضعيفة التابعة.

وأيضاً لا يمكن إهمال دور الشركات الغربية الكبرى التي وفدت لبلاد المسلمين مستثمرة في الجانب الاقتصادي، لكنها لم تستطع أن تتخلى عن توجهاتها الفكرية، وقيمها وأنماط حياتها الاجتماعية وهذا أمر طبيعي، فكانت من خلال ما جلبته من قيادات إدارية وعمالة فنية احتكت بالشعوب الإسلامية سبباً مهماً في نشر الفكر العلماني وقيمه الاجتماعية وانعكاساته الأخلاقية والسلوكية، هذا إن لم نقل إنها في الأساس عملت من خلال دخولها لمناطقنا لنشر هذا الفكر المنحرف الذي من خلال نشره يسهل

عليهم السيطرة على ثروات البلاد التي دخلوها من خلال السيطرة على أفكار غالبية الفئات المنتجة في المجتمع.

وقد كان لوسائل الإعلام المسيطر عليها من هذه الدول العلمانية الدور الأبرز في نشر الفكر العلماني وإقناع الناس به وإبعادهم عن دينهم وتأمينه أجواء الانحراف والرذيلة لحرف الناس عن معتقداتهم، ولم يفلح قيام بعض الآباء بعدم إدخال التلفاز أو الراديو إلى بيوتهم من تخفيف تأثير هذه الوسائل، ذلك أنها نشرت ثقافة في المجتمع أثرت على الجميع من لديه هذه الوسيلة ومن لا يمتلكها، فضلاً عن اتهام من قام بذلك بالتخلف والرجعية.

٩ ـ العلمانية في بعض بلاد المسلمين

تتفاوت مسألة العلمنة بين البلدان الإسلامية، وليس هناك معيار علمي واضح يمكن الاعتماد عليه في تصنيف علمانية كل دولة من هذه الدول حدة أو ضعفاً، ولكن الصفة العامة التي نجدها في هذه الدول العلمانية هي أنها بأغلبها متخلفة ويعيش شعبها أزمات اقتصادية وفقراً مدقعاً ونسبة عالية من الأمية، مخالفين بذلك كل الأسس التي بنيت عليها العلمانية كما وصفوها لنا، بل إنهم وعدونا بالرقي والتقدم فيما لو التزمنا بالعلمانية فإذا بالنتائج عكس ذلك تماماً، وإذا بالعلمانية ستار للدكتاتورية والقهر والظلم.

فالدول الخليجية التي تذكر في قوانينها أن الدين للدولة هو الإسلام إلا أنها تمارس في كل تفاصيل الحكم علمانية واضحة تُعطي دوراً للدين بالمقدار الذي يُرضي الملك والأمير ويؤمن استمرار حكمه واستقراره.

أما في مصر كبرى الدول العربية والتي دخلت إليها العلمانية مع حملة نابليون بونابرت، فإن أول تعامل رسمي مع العلمانية كقانون كان في العام ١٨٨٣م، عندما أدخل الخديوي إسماعيل الذي كان مفتوناً بالغرب، وكان

أمله أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا القانون الفرنسي على دستورها، أما في أيامنا هذه فقد نص الدستور المصري الحديث على:

«الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع»(١).

وبالتالي فمصر تعتبر أسبق الدول العربية دعوة إلى التحديث والعلمنة.

أما الجزائر التي تم إلغاء الشريعة الإسلامية فيها عقب الاحتلال الفرنسي سنة ١٨٣٠ م، فإن دستورها يتميز بدرجة عالية من العلمنة كون هذه الدولة قد أخذت دستورها عن فرنسا ومع ذلك نجد في هذا الدستور عبارة أن الإسلام هو دين الدولة.

أما الهند فحتى العام ١٧٩١م كانت الأحكام تستند إلى الشريعة الإسلامية، ثم بدأ التدرج من هذا التاريخ لإلغاء الشريعة الإسلامية بتدبير الإنكليز وانتهت تماماً في أواسط القرن التاسع عشر، لتصبح الهند بذلك دولة علمانية بالكامل.

وفي تونس التي اعتمدت القانون الفرنسي منذ العام ١٩٠٦م، فإن هذه الدولة التي منعت تعدد الزوجات وغيرت بقانون الأحوال الشخصية بما يتناسب مع العلمنة ومع ذلك نص دستورها أيضاً على أن الإسلام هو دين الدولة.

أما في المغرب التي اعتمدت القانون الفرنسي في العام ١٩١٣م، فالموقف أوضح، فهذه الدولة التي هي دولة علمانية بكل ما للكلمة من معنى نجد في دستورها العبارة التالية:

---

(١) دستور جمهورية مصر العربية.

«المملكة المغربية دولة إسلامية ذات سيادة كاملة، لغتها الرسمية اللغة العربية.... وفي الفصل السادس: الإسلام دين الدولة، والدولة تضمن لكل واحد حرية ممارسة شؤونه الدينية. وفي الفصل التاسع عشر: الملك أمير المؤمنين، والممثل الأسمى للأمة ورمز وحدتها وضامن دوام الدولة واستمرارها، وهو حامي حمى الدين، والساهر على احترام الدستور، وفي الفصل الثالث والعشرون: شخص الملك مقدس لا تُنتهك حرمته»(١).

أما في ليبيا حيث الحكم حكم علماني ومع ذلك فالدستور ينصُّ بشكل واضح على أن الدولة شريعتها القرآن بحسب العبارة التالية:

«في مقدمة إعلان الدستور: إن شعبها كان ولا يزال مستعيناً بالله متمسكاً بكتابه الكريم مصدراً للهداية وشريعة للمجتمع... وفي المادة ثانياً: القرآن الكريم هو شريعة المجتمع في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية»(٢).

أما في لبنان البلد الطائفي بكل معنى الكلمة فهو وإن حافظ للطوائف على التحاكم على أساس الأحكام الشرعية في مجال الأحوال الشخصية إلا أن الحكم في كل جوانبه الأخرى حكم علماني.

أما في سوريا فقد ألغت الشريعة فيها بعد انتهاء الدولة العثمانية، واليوم فإن هذه الدولة تعتبر دولة علمانية، وأما الإسلام فهو فقط كما ورد في دستورها هو دين رئيس الدولة.

أما تركيا فقد لبست ثوب العلمانية عقب إلغاء الخلافة واستقرار الأمور تحت سيطرة مصطفى كمال أتاتورك، والإسلاميون هناك ما زالوا

---

(١) دستور المملكة المغربية.

(٢) دستور الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى.

يعانون من ظلم العلمانية وتدخلها في حريتهم الدينية حتى على المستوى الشخصي. وكان آخرها تدخل المحكمة الدستورية في إلغاء القانون الصادر عن مجلس النواب التركي والذي يسمح للنساء بلبس الحجاب في المؤسسات الرسمية، تحت حجة مخالفة هذا القانون للدستور الذي ينص على علمانية الدولة، كأن الحجاب في المؤسسات الرسمية يشكل انتهاكاً لهذه العلمانية ويشكل خطراً عليها.

وعلى هذا المنوال نجد أن أغلب الدول الإسلامية تدرج في دساتيرها أن الإسلام هو دين الدولة ولكن هذا الدين يغيب بشكل كامل عن كل جوانب الحياة القانونية. وفي كثير من هذه الدول تراهم يشرعون التعليم الديني ولكنهم يوكلونه إلى أساتذة علمانيين يدرسون هذا الدين كأي مادة دراسية غير مهمة والعلامة لا دخل لها في النجاح وعدمه، هذا فضلاً عن كون المعلم في كثير من الأحيان غير مؤمن بهذا الدين ويستغل الحصة التعليمية للتوهين به وإبعاد التلاميذ عنه.

١٠ ـ هل من الممكن التعايش بين الإسلام والعلمانية؟

إن البحث في هذا الموضوع ينطلق من منطلقين الأول هو التعايش مع الفكرة مع التسليم بمقبوليتها شرعاً بمعنى إعطائها الشرعية الكاملة، والثاني هو التعامل معها كأمر واقع من دون التسليم بشرعيتها، بل باعتبارها أمراً مفروض علينا التعايش معه فنعمل على التقليل من أضراره بأن نغطي كامل المساحات الممكنة من خلال الأحكام الشرعية، وأما الأمور الأخرى فنتركها لعدم القدرة على الانطلاق في التعامل معها من خلال الحكم الشرعي.

أما المنطلق الأول فهو أمرٌ لا يقره الشرع ولا يمكن القبول به، ذلك

أن كل ما لا ينطلق من الشرع لا يمكن القبول به ولا مشروعية له، فنحن مأمورون بأن نكفر بالطاغوت الذي هو كل حكم بما لم ينزل من عند الله سبحانه وتعالى.

وأما المنطلق الثاني فلا مانع منه من الناحية الشرعية على أساس القاعدة الشرعية المشهورة التي تقول: «إن الميسور لا يسقط بسقوط المعسور».

ولعل هذا البحث أخذ مداه في السنوات الأخيرة بعد أن دخل الإسلاميون في تركيا في الانتخابات النيابية ووصلوا أخيراً لرئاسة الجمهورية والحكومة في أكبر دولة علمانية في الشرق التي تعتبر من الدول العلمانية الرائدة. وكذلك بعد دخول الإسلاميين في العملية الانتخابية في أكثر من بلد علماني كلبنان، والجزائر، ومصر، وغيرها من البلدان التي تعتبر بلداناً علمانية.

لقد أثبتت التجربة التركية واللبنانية والجزائرية وغيرها أنه يمكن للإسلاميين أن يحققوا مكاسب كثيرة لمصلحة الإسلام من خلال ما يعملون له من قوانين فيها مصلحة للإسلام والمسلمين، أو في مواجهة قوانين تشكل خطراً عليهم.

لقد أثار بعض الإسلاميين خاصة السلفيين منهم إشكالات كثيرة على هذه المشاركة على قاعدة أن معنى ذلك الرضا بحكم غير الإسلام للحياة وترسيخ سيطرته على المسلمين وإطالة أمد هذه السيطرة، في حين أن المطلوب هو التغيير الجذري وبالقوة ومهما كانت التكاليف بغض النظر عن الإمكانات التي نمتلكها.

وهنا، فإننا نقول إن الأمر يعتبر صحيحاً في فرض القدرة على التغيير

كما حصل في التجربة الإيرانية في الثورة التي قادها الإمام الخميني (قدس سره)، أما في حالة عدم القدرة على التغيير أو عدم امتلاك الإمكانيات التي تؤهل لذلك فإن العمل على تحقيق بعض مصالح المسلمين من خلال التعايش مع الواقع الموجود من دون التسليم بشرعيته يعتبر أمراً مقبولاً إن لم نقل واجباً.

مع ذلك نؤكد أنه يجب أن لا يغيب عن بالنا أن على الإسلاميين أن يسعوا دائماً لتطبيق الحكم الإسلامي في جوانب الحياة كافة شرط توافر الإمكانات والظروف المناسبة، ويجب أن نعلم أن العلمانية هي من أشد الحركات والأفكار خطراً على الإسلام، وأنّ المعركة بين العلمانية والإسلام معركة تاريخية على امتداد القرن الميلادي العشرين، وقد بدأت في تركيا قبل إسقاط آخر أشكال الخلافة الإسلامية، وما تزال مستمرة، وربما شهدت تركيا قبل سواها نهايتها، ولا يوجد ما يستدعي من أي بلد آخر أن ينتظر استمرار المعركة لعدة أجيال قبل حسمها، وهذا في مقدّمة ما تستدعيه الاستفادة من التجربة التركية النموذجية.

١١ ـ رأي الدين بالعلمانية

أ ـ رأي المسيحية بالعلمانية:

بالرجوع إلى تعريف العلمانية وماهيتها يمكن لنا أن نستكشف أن هذا النمط من التفكير يهدف لمعاداة وتقويض كل ما هو ديني، لذلك فإن مشكلته لا تنحصر مع المسلمين بل مع كل ديانة إلهية، وأكبر مواجهة خاضتها العلمانية منذ نشأتها كانت مع المسيحية التي اعتبرت العلمانية هرطقة وزندقة ومنعت المتدينين من الانضواء تحت رايتها، غير أن هذه المواجهة كانت بالنسبة إلى الكنيسة مواجهة فاشلة حيث لم تحسن الكنيسة إدارة هذا الصراع فكانت النتيجة لصالح العلمانيين.

وكان من نتيجة هذه الهزيمة أن تحولت الكنيسة نفسها نحو التغرب والعلمنة، ويقول في هذا المعنى الباحث الدكتور سيد محمد نقيب العطاس ما نصه:

«وقد انفردت المسيحية وحدها من دون أديان العالم الكبرى جميعاً، بأنها قد حولت مركز ظهورها من القدس إلى روما، علامة على بداية تغريبها، وكان ذلك مؤشراً واضحاً على بداية تعلمُنها»[١].

ولم يقتصر الأمر عند هذه الحدود، بل إن الشعور بالهزيمة الفكرية التي لها مبرراتها، ذلك أن الكنيسة لم تهزم في المجال اللاهوتي بل إنها هزمت في مجال التقدم العلمي الذي لم يكن من التعاليم المسيحية بل هي أفكار وضعها قساوسة وأرادوا إلزام الناس بها، كان من نتيجة هذه الهزيمة أن قامت الكنيسة ومن خلال عدة مجامع مقدسة بتعديل الكثير من معتقداتها والتنازل عن الكثير من ثوابتها، وقامت أيضاً بتنقيح الكتاب المقدس الذي كان يعتبر من المقدسات التي لا تمس ـ أليس هو كتاب الله وكلامه؟! ـ وعبر المجامع المختلفة حتى انهارت قداستها وفقدت قيمتها كمرجعية أخلاقية دينية للإنسان الغربي.

ولعل الذي ساهم في فشل الكنيسة في هذه المواجهة هو الفصل في المسيحية بين ما لقيصر وما لله فأعطى المبرر للعلمنة السياسية أولاً، ثم القانونية، ثم الأخلاقية. هذا إضافة إلى الثنائية الحادة والمتناقضة في تاريخ العلاقة بين لاهوتيين حاربوا العلماء الطبيعيين يمثلون الكنيسة، وعلماء طبيعيين لا أرواح ولا قلوب لهم يمثلون الدنيوية والمادية. ولا ننسى هنا الانفصام الشديد بين أخلاق الزهد والضعف والاستكانة التي تكرسها

---

(١) «مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية»، الصفحة ٤٦ والصفحة ٤٨.

المسيحية، وبين الواقع الذي كان يعيشه الرهبان والباباوات من بذخ وفساد وترف، مما أفقد المسيحية الواقعية القابلية لإمكانية التطبيق.

إن الكنيسة ومع معاداتها الواضحة والتناقض البين بينها وبين العلمانية، إلا أنها لم تخض معها صراعاً يتناسب مع الخطر الذي تمثله هذه العلمانية على الدين بشكل عام، بل هادنتها إلى حد تغيير الكثير من المبادئ الكنسية لصالح علاقة طبيعية معها.

ب ـ رأي الإسلام بالعلمانية:

بالنسبة إلى الإسلام فتاريخ صراعه مع العلمنة عبر قرنين من الزمان يُثبت أنها لم تؤثر فيه إلا في الشكل وقد بقي الجوهر والمضمون في غاية النقاء، وهذا الجوهر يشد الأمة دائماً إليه فتعيد صياغة نفسها شكلاً ومضموناً. ويمكن القول إن الجوهر والمضمون في الإسلام يشكل مرجعية يرجع إليها عند حصول أي تشكيك في بعض المفاهيم الإسلامية الجزئية.

إن العلمانية تتعارض مع الإسلام تعارضاً تاماً في شتى المجالات، ولا وجه للمقارنة بينهما على الإطلاق، وذلك لأن الإسلام نظام إلهي شرَّعه رب الخلق الذي يعلم أحوال عباده، وما يُصلح معاشهم، وما يُحقق لهم الخير في دنياهم وأخراهم. والعلمانية هي من وضع البشر وهم يخضعون للأهواء والشهوات، وتتغلب عليهم العواطف البشرية التي تحيد بهم عن الحق والصواب.

وما يميّز الإسلام عن المسيحية أنه في الإسلام لا يوجد رجال دين ورجال دنيا، بل كلنا رجال دين بمعنى أننا نلتزم تعاليمه وندعو الناس للإقتداء به، فالإسلام لا ينفصل عن الحياة العامة للمسلمين، ونحن نعلم أن الإسلام لم يكن منهج عبادة فقط، بل هو دين للحياة بكل تفاصيلها

يغنيها ويطورها، ولذلك كان أفضل الناس هو أكثرهم إفادة للمجتمع فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله عز وجل أنفعهم لعياله»(١).

فالدين يتحول إلى محرك للفرد نحو خدمة المجتمع فيزدهر هذا المجتمع بدفع ديني ولم يكن الدين الإسلامي يوماً معوقاً للتقدم والازدهار، بل هو وبحسب ما ثبت تاريخياً كان دائماً عاملاً دافعاً نحو التقدم العلمي والتقني، وإن كان هناك من مشكلة فلا تعود للدين بل للمتدينين الذين أساءوا استخدام الدين أو استغلوه في تحقيق مصالح شخصية وفردية على حساب مصلحة المجتمع والعقيدة. ويثار هنا سؤال مهم وهوأنه هل هناك فرق بالنسبة إلى الإسلام بين العلمنة الشاملة والجزئية؟

والجواب أنه لما كان الإسلام ديناً شاملاً لجميع جوانب الحياة، ولما كان هذا الدين لا فرق فيه بين السياسة وغيرها فكل ما عندنا لله والله عز وجل يريدنا أن نسعى لكي تكون الحاكمية لله فيكون هو الله في الأرض كما هو الله في السماء، بناء لذلك كله، لا يمكن القبول حتى بالعلمنة الجزئية، فما من واقعة إلا وفيها حكم شرعي. فلا يجوز تطبيق الشرع في مجال وتركه في مجالات أخرى وقد حذر الله سبحانه وتعالى من ذلك بقوله:

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢).

---

(١) وسائل الشيعة، الجزء ١١، الصفحة ٥٦٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٥.

فقد أشار الله عز وجل إلى أن مصير الذي يعمل على تطبيق جزء من هذا الدين وترك الجزء الآخر هو الخزي في هذه الحياة الدنيا، بمعنى أن أمرهم سيؤدي بهم إلى التسافل نزولاً حتى الوصول إلى مرحلة الخزي، فضلاً عن مصيرهم في الحياة الآخرة.

وهذه الفئة التي تعمل لذلك في أيامنا هذه والتي تدعو لفصل الدين عن الدولة، أو لترك بعض الأحكام الشرعية لعدم انسجامها مع روح العصر هم في واقع الأمر لا يؤمنون أصلاً بالله ولا برسله، ولكنهم يريدون أن لا يخوضوا مواجهة شاملة من أول الأمر بل أن يقسموا المواجهة إلى مرحلتين، في المرحلة الأولى يجعلوننا نتنازل عن بعض الأحكام الشرعية فإذا ما حصل هذا الأمر وصار طبيعياً يسهل تنازلنا عن بقية الأمور، فإن انهيار القدسية للأحكام الشرعية يسهل مهاجمتها في المرحلة الثانية، وهذا ما حصل في المرحلة الثانية عند كثير من المجتمعات التي أدخلت العلمانية إليها، فلم تقتصر العلمنة على ما حصل في المرحلة الأولى بل تعداها إلى الدعوة للعلمانية الشاملة في المراحل اللاحقة وهذا ما حذر منه الله عز وجل بقوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾(١).

فقد اعتبرهم الله عز وجل كفاراً حقيقيين ولم يعتبر الأمر منهم خطأ في اجتهاد أو تقييم دنيوي لمسألة معينة على ضوء فهم خاص ضمن ظروف خاصة.

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٥٠ ـ ١٥١.

والإسلام مع كل ذلك ليس ديناً يقصر الأمور على التفسير الغيبي، بل إنه دعا للتعلم والاستفادة من العلم والتجربة وشجع لذلك، فما رسمه من قوانين عامة هي في واقعها ثابتة لا تتغير مع تغير الزمان وتقدمه لا يمنع من ترك الأمور الأخرى لما يمكن أن يحرز من خلال التطور والتقدم العلمي، بل أكثر من ذلك فإن الإسلام دعا إلى الاعتماد في هذه الأمور على العلم وما توصل إليه.

إن الله عز وجل ـ في الإسلام ـ ليس خالقاً توقفت علاقته بالبشر عند حدود الخلق، بل هو سبحانه وتعالى خالق ومدبر فله كل شيء الخلق وأمر البشر بعدها ولذلك قال في كتابه الكريم:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

ومعنى أن له الأمر أنه لم يترك البشر من دون تدبير منه وتدخل، بل إنه وضع من الأحكام ما ينظم حياة البشر في كل الجوانب التي تحتاج إلى تدخل إلهي.

بل أكثر من ذلك إنه قيوم السماوات والأرض، أي إن استمرار قيام الكون بإرادته عز وجل وهذا ما ورد في الكتاب الكريم بقوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[2].

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٤١.

وهذا هو ما كرسه الأشاعرة بغض النظر عن قناعتنا بهذه النظرية فيما اصطلح على تسميته بنظرية الخلق المستمر. فإن الله عز وجل إذا قطع إمداده للكون بالوجود تلاشى بما فيه.

وبالنسبة للإسلام، فإن علاقة الدين بالدنيا قائمة على الوصل وليس الفصل، فالدنيا خادمة للدين، وهي مزرعة الآخرة، ودار العبور، ولا بد من التزود منها، ومع ذلك كله يبقى الهدف الآخرة ورضوان الله سبحانه وتعالى:

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(١).

فإذا كانت العلمانية هي الاستفادة من الدنيا وعدم الزهد فيها إلى حد تركها نهائياً فهذا ما لا مانع منه، أما إذا كان المقصود كما هو واضح محاربة كل ما هو ديني، فهذا لا يمكن القبول به ويتعارض مع الإسلام كلياً.

وإذا ما دخلنا في التفاصيل نجد أن الأخلاق في الإسلام واقعية وليست مثالية، ومن شاء أن يسمو إلى المثالية فالأمر له ويمكن للإنسان أن يسمو في مصاف الأخلاق إلى أن يصل إلى القدوة الكبرى نبينا محمداً ﷺ، ولكن هذا هو اختياره وليس أمراً مفروضاً في الإسلام وإن شجع عليه. إن المراد في الإسلام هو العدل، أما الاحسان فهو لمن أراد أن يتجاوز الحدود البشرية ويقترب من الملائكية، فالإسلام لا يمنعه بل يبارك له جهاده ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٧.

﴿فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١).

فإن المطلوب من الناحية الشرعية في هذه المسألة هو إعطاء المطلق طليقته حقها المحدد، ولكن إذا أراد أن يتجاوز العدل إلى الإحسان فيعطيها أكثر من ذلك فهو بالنسبة إلى الإسلام أقرب إلى التقوى، أما النزول عن مرتبة العدل إلى الظلم فهو أمر مرفوض.

لذلك استعصى الإسلام على العلمنة وهو أمرٌ أدهش باحثي علم الاجتماع فها هو العالم الإنجليزي (إرنست غلنر) يقول:

«إن النظرية الاجتماعية التي تقول: إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يُقوّض الإيمان الديني ـ مقولة العلمنة ـ صالحة على العموم، لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام جداً من هذا!! إنه لم تتم أي علمنة في عالم الإسلام، إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به قوية، وهي أقوى مما كانت من مائة سنة مضت، إن الإسلام مقاوم للعلمنة في ظل مختلف النظم الراديكالية والتقليدية والتي تقف بين النوعين... والإصلاح الذاتي استجابة لدواعي الحداثة في عالم الإسلام يمكن أن يتم باسم الإيمان المحلي، وليس على حساب الإيمان»(٢).

ج ـ دور اليهود في العلمانية:

إذا رجعنا لكل العقائد والفلسفات التي حاربت الدين وسعت لتقويض القيم لوجدنا بشيء من التدقيق أن للصهيونية دوراً أساسياً في ذلك، وليس غريباً بعد الذي تقدم أن يكون اليهود وراء الدعوة إلى إقامة الحياة على غير

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.
(٢) نقلاً عن د. محمد عمارة في تعليقه على مقال للقس جوتفرايد كونزلن «مأزق المسيحية والعلمانية في أوربا» الصفحتان ٤١ ، ٤٢ ـ تقديم وتعليق د. محمد عمارة ـ نهضة مصر ـ ١٩٩٩.

الدين، وذلك من أجل السيطرة، ومن أجل إزالة الحاجز الديني الذي يقف أمام اليهود حائلاً بينهم وبين أمم الأرض.

إن سعي الصهيونية للسيطرة على العالم ابتداء من أوروبا جعلهم يسعون لإزالة الحاجز الديني الذي يشكل عقبة في وجه نمو سيطرتهم، لذلك سعوا وبكل قوة إلى تظهير فكر جاهلي يعادي الدين ويعتبره معيقاً لتقدم الأمم بل هو كما ورد في الماركسية (أفيون الشعوب)، وقد استطاع هذا الفكر أن يهيمن على أوروبا كلها، وأصبح يحمل شعارات الإلحاد والفوضى الأخلاقية عناداً للكنيسة ورجالها. والحق أَنَّ هذه الأسباب وتلك الظروف ليست مبررة لابتعاد النصارى وغيرهم عن الدين.

وفكرة أن العلم لا صلة له بالدين وأن الدين يحارب العلم، هي الفكرة السائدة في الغرب طيلة القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر الميلاديين، ومع إطلالة القرن العشرين بدأت بوادر التفاهم والمصالحة بين رجال الكنيسة والاتجاه الجاهلي، وانتهت بتنازلات كبيرة من الطرفين إلى أن دخلت الأحزاب الدينية النصرانية مجالات السياسة في بعض الدول الغربية.

وتتفق المصادر على أن اليد الطولى في تحريف العقيدة النصرانية تعود إلى بولس «شاؤل» اليهودي، وهو الذي أثار موضوع ألوهية المسيح لأول مرة مدعياً أنه ابن الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وذلك أنه منذ مجمع نيقية سنة ٣٢٥م والكنيسة تمارس الطغيان الديني والإرهاب في أبشع صوره، ففرضت بطغيانها هذا عقيدة التثليث قهراً، وحرّمت ولعنت مخالفيها، بل سفكت دماء من ظفرت به من الموحدين، وأذاقتهم صنوف التعذيب وألوان النكال.

ونتيجة لوضع الكنيسة ووقوفها ضد مطالب الناس، دبّر اليهود

مكايدهم لاستغلال الثورة النفسية التي وصلت إليها الشعوب الأوروبية، لاسيما الشعب الفرنسي، فأعدوا الخطط اللازمة، لإقامة الثورة الفرنسية الرامية إلى تغيير الأوضاع السائدة، وفي مقدمتها عزل الدين النصراني الذي حارب العلم عن الحياة، وحصره في داخل الكنيسة وإبعاد رجالها عن التحكم الظالم.

وفعلاً قامت الثورة الكبرى عام (١٧٨٩م) واستطاع اليهود أن يجنوا ثمرات عملهم على حساب آلام الشعوب، والدماء التي أهرقت من جرائها، واستطاعوا أن يظلوا في الخفاء بعيداً عن الأضواء، وأن يزوّروا كثيراً من الحقائق التاريخية، لستر مكايدهم وغاياتهم، واستطاعوا أن يصوروا هذه الثورة وما جرّت وراءها بالصورة الجميلة المحببة، وأن يجعلوها إحدى الأعمال التاريخية المجيدة، وذلك عن طريق الدعايات والإشاعات المزخرفة المقرونة بالشعارات البراقة التي انخدع بها الناس، وأخذت ترددها دون أن تفهم الهدف الذي ترمي إليه.

ووضع اليهود شعاراً مثلثاً لهذه الثورة هو (الحرية، والمساواة، والإخاء).

أما أصل مخططات هذه الثورة فقد وضعها جماعة النورانيين من الحاخامين اليهود، واستخدموا للبدء بالدعوة إليها بين سادة المال اليهود العالميين، الثري المرابي الكبير (روتشيلد الأول) ثم ابنه (ناتان روتشيلد). ومما يدل على أن الثورة الفرنسية هي من صنع اليهود وتدبيرهم ما تتبجح به بروتوكولاتهم في البروتوكول الثالث فتقول:

«تذكروا الثورة الفرنسية التي نحن أطلقنا عليها لقب (الكبرى) فإن أسرار تدابيرها عندنا معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا»[١].

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون، البروتوكول الثالث.

ما أريد أن أوضحه هنا أن اليهود الصهاينة عملوا ويعملوا على ضرب كل القيم الدينية، بل والأخلاقية العامة من أجل سيطرتهم الشاملة على العالم التي لن تتم إلا من خلال ضرب كل القيم والإساءة إلى كل الأديان ورموزها ومقدساتها.

١٢ ـ كيف يمكن مواجهة العلمانية

يجب أن لا نكابر فنقول إن العلمانية لم تؤثر في بلادنا ولم تغير في معتقدات وأفكار أبنائنا، بل علينا منذ البداية أن نقر أن هناك تأثيراً مدمراً للعلمانية يختلف من منطقة إلى أخرى، ومن شعب إلى آخر، ومن بيئة اجتماعية إلى بيئة اجتماعية أخرى. وعندما نعترف بالتأثير الذي أحدثته هذه العلمانية يجب علينا أن نفكر بوسائل مواجهتها بعد وضع اليد على الثغرات التي استغلتها للنفوذ إلى مجتمعاتنا.

لقد دخلت العلمانية إلى العالم الإسلامي مستغلة غياب المفاهيم الإسلامية الصحيحة عن واقع العالم الإسلامي مما مهد الطريق إلى دخول العلمانية إلى العالم. وذلك، إضافة إلى طغيان كثير من المفاهيم المنحرفة عن الإسلام الصحيح، ما ساهم إلى حد كبير في إخصاب الأرضية الفكرية التي عملت عليها العلمانية.

إن دراسة متعمقة للواقع الذي كانت عليه أمتنا قبل دخول العلمانية إليها وواقعها بعد هذا الدخول يؤدي بنا إلى القناعة بأن مواجهة العلمانية تكون من خلال الأفكار التالية التي تعتبر أهم ما يمكن أن نعمل له في المواجهة، وإن كان هناك أمور أخرى يمكن القيام بها ولكن هذه أهمها وهي على الشكل التالي:

١ ـ التمسك بالثوابت:

بما أن أحد أهم منافذ العلمانية إلى بلادنا هو موضوع الخلافات العقائدية بين المسلمين خاصة تلك المتعلقة بالفروع، لذا لابد لنا أن نؤكد على أصول العقيدة الثابتة القاطعة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وفصلها عن فروعها، والتأكيد على الأصول، وترك الفروع التي اختلف حولها العلماء حتى لا نتمزق من جديد.

٢ ـ اعتماد المنهج الشمولي في فهم الإسلام:

إن فصل بعض الأحكام والمفاهيم عن المنظومة الإسلامية الكاملة يؤدي إلى الفهم الخاطئ لهذه الأحكام والمفاهيم، فمثلاً إن الحكم الشرعي في إعطاء الأنثى نصف حصة الذكر من دون التدبر في بقية الأحكام المتعلقة بوجوب نفقة الذكر على زوجته وعلى الأسرة يؤدي بنا إلى القول بأن هذا الحكم ظالم، بينما أخذ الأحكام كمجموعة كاملة يؤدي إلى فهم هذا الحكم واعتبار أن الإسلام قد أعطى المرأة حقها وحفظه لها، لذا لابد من تبني المنهج الشمولي في فهم الإسلام الذي يجمع بين العقيدة والشريعة والسلوك والحركة والبناء الحضاري، من خلال منهج عقلي أصولي سليم.

٣ ـ الدعوة للوحدة بين المسلمين:

لقد سعت العلمانية لتكريس هيمنتها على العالم لبث الفرقة بين الأديان فيما بينها وبين المذاهب المختلفة، لذا فلابد في مواجهتها من الوقوف في وجه تفتيت الأمة، فليس من الإخلاص لله ولرسوله أن نرجع في واقعنا الجديد إلى صراعات السلفية والصوفية والأشعرية والمعتزلة والحنبلية والجهمية، والسنة والشيعة، تلك الأفكار التي ذهبت مع صراعات عصرها، ولنا اليوم عشرات المعضلات الحضارية الحديثة التي تنتظر

الجواب السديد. وفي نفس الوقت، لابد من مواجهة تفتيت الأفكار، ونظرة موضوعية للاجتهاد، وعد تيارات الفكر الإسلامي القديم تيارات اجتهادية جابهت الفلسفات والتيارات الفكرية في زمانها فأصابت وأخطأت، وليس من المصلحة إحياؤها اليوم وإدارة صراعات جديدة عليها.

٤ ـ تطوير الخطاب الإسلامي:

من مشاكل الإسلاميين التي تجعل الجيل الصاعد ينفر من الدين هو موضوع الخطاب المستعمل الذي في بعضه ترداد لصيغ لم تعد مفهومة من الجيل الصاعد، أو أن لهذا الجيل صيغة من الخطاب يفهمها ومن الصعب عليه فهم غيرها، لذا لابد من الارتقاء بالخطاب الإسلامي إلى المستوى المواكب للذوق المعاصر وللفهم المعاصر، فليس من الحكمة استعمال التقنيات المعتمدة في الكتب الصفراء التي كانت تتناسب مع الأجيال التي سبقتنا بقرون عديدة، فلهذا الخطاب أدوات تختلف عن أدوات الخطاب في الجيل المعاصر.

٥ ـ التاكيد على اللغة العربية:

من الخطط الأساسية التي اعتمدتها العلمانية هو إبعاد الناس عن ثقافتهم ودينهم وفكرهم وتراثهم الحضاري، ومن أهم ما سعوا إليه كي يقطعوا التواصل بين الشعوب وتراثهم وفكرهم هو قطع الاتصال بلغتهم، فوجدنا أن كمال أتاتورك سعى كي يغير الحرف التركي القديم بحرف لاتيني، ووجدنا أن هناك الكثير من المثقفين ـ كما يقولون عنهم ـ دعوا لتغيير الحرف العربي بحرف لاتيني أيضاً، وهذا ما دعا إليه مثلاً الشاعر سعيد عقل في لبنان.

وفي نفس الوقت الذي دُعي فيه لترك الخط الذي يعبر عن ثقافة الأمة

قام هؤلاء بالتعرض أيضاً للغة وقواعدها، فتحولنا من اللغة الفصحى إلى اللهجة العامية التي لا قواعد لها ولا ضوابط، ويستغلون ذلك من أجل ضرب التواصل مع ثقافتنا وفكرنا والمفاهيم التي نؤمن بها.

إن الرد العملي في وجه هذه المخططات هو بالتمسك بلغتنا العربية الفصحى وتعليم أولادنا إتقانها وكذلك إجادتها إلقاءً وكتابة وقراءة وفهماً.

٦ ـ العناية بالتراث الإسلامي:

كما قلنا في طي البحث إن قطع علاقة الأمة مع تراثها هو واحد من أهم أهداف العلمانيين ويتوسلون لأجل ذلك عناوين متعددة، منها أنهم يشوهون هذا التراث وينسبون إليه ما ليس فيه، إضافة لاتهام من يتمسك بتراثه بالتخلف والرجعية، وينسبون تخلف أمتنا وعدم تطورها إلى هذا التمسك، وأن أوروبا لم تتقدم إلا عندما تركت تراثها وراء ظهرها.

ونحن عندما ندعو للتمسك بالتراث لا ندعو للتمسك الأعمى وأخذه بغثه وسمينه وأخذ ما يناسب منه وما لا يناسب، في حين أننا نقول إن التراث يحتوي تجارب الأمم وبالتالي فإننا يمكن لنا الاستفادة من هذه التجارب والمنطق يدعو لذلك، وفي نفس الوقت ندعو لتقييم مستمر لهذه التجارب لتطويرها ورفض ما ليس مفيداً منها والتمسك بالمفيد ومناسبته للغة العصر والتطور الحاصل فيه.

٧ ـ تعرية الأطروحات العلمانية:

تعتري الأطروحات العلمانية الكثير من المفاهيم المعادية للدين، وينال بعضها من الأفكار والمفاهيم الدينية، إما مباشرة وبشكل سافر، وإما بشكل غير مباشر وملتبس، وتعتبر الأمور المعادية للدين بشكل سافر أقل خطورة من تلك التي تتلطى خلف العبارات الرنانة كالحداثة والتطور، بل

إنا نرى أن المفاهيم المعادية بشكل سافر للدين لا مكان لها خاصة في المجتمعات الإسلامية، وبالتالي ما يجب العمل عليه هو تعرية الأطروحات الملتبسة من القشور التي تخفي وراءها حقيقة العداء للدين، فالإسلام لا يعارض التجديد إذا كان هذا هو المقصود من الحداثة، أما إذا كان المقصود من الحداثة هو نقض كل ما هو ثابت في الدين ولا يتلاءم مع دعواتهم التي تحاول التحرر من المفاهيم والقيم الدينية، فهذا ما لا يرضى به الإسلام ولا يقبل به بل ويحاربه أيضاً.

إن الأسلوب الذي يجب اعتماده في مواجهة الأطروحات العلمانية يجب أن يكون بلغة عصرية بعيدة عن التعصب والغوغائية وتضع في اعتبارها الانطلاق من المسلمات العقلية وصولاً إلى بلورة القناعات في الأمور المشكوك فيها.

٨ ـ التمسك بتاريخنا بسلبياته وإيجابياته:

من المعروف أن التاريخ حافل بكثير من الأمور التي يختلف فيها المؤرخون، إما على أصل وقوعها أو على تفسيرها أو النظر في نتائجها وأسبابها وانطباقها على التعاليم التي كانت هذه الشعوب تؤمن بها.

إن القاعدة الذهبية التي يجب أن تكون أساسية في دراستنا للتاريخ هي أننا لا نستطيع أن نحاكم المعتقدات خاصة الإلهية منها على أساس السلوك الذي اعتمدته الشعوب المؤمنة بهذه المعتقدات، فقد تتصرف الشعوب أو الحكام على خلاف ما تُعلن بأنها تؤمن به؛ فما قام به حكام بني أمية من جعل الخلافة ملكاً عضوضاً لا يمكن أن نعتبره أمراً إسلامياً، أو أن نحاكم الإسلام على أساسه، ولا يمكن أن نحاكم الإسلام على أساس تصرفات بني أمية من خلال حياة البذخ التي عاشوها أو شربهم للخمر وتعاطيهم المنكر، ولكن هذا لا يعني بالمطلق أن نقطع صلتنا بتاريخنا ونتبرأ منه

بالمطلق، بل لابد من استمرار الصلات مع تاريخنا بسلبياته وإيجابياته وتفسير بعض الأمور التي لا تتناسب مع ديننا من خلال وجهة نظر موضوعية.

٩ ـ مواجهة التفسيرات الخاطئة للإسلام:

هناك فرق بين ما هو إلهي ثابت بنص من آية أو رواية معتبرة، وبين ما هو من تفسيرات البشر واجتهاداتهم. فأما الأول فهو ما يجب التمسك به وعدم التبرؤ منه، بل محاولة تفسيره لمن يجهله تفسيراً مقبولاً منطقياً. أما الثاني فهو قابل للنقاش والتراجع عنه إلى فهم آخر قد يكون أكثر انسجاماً مع الفهم المتطور للإسلام. إننا عندما ندعو لذلك فإننا لا نريد أن نترك الثابت القطعي أو أننا نتراجع لمجرد أننا نستسلم أو نتراجع أمام هجمة العلمانية، بل إننا ندعو إلى إعادة تصحيح التفسيرات التي أعطاها البعض للإسلام من أجل أن يقاربوا بينه وبين العلمانية فحرفوا في هذا الدين وأدخلوا فيه ما ليس فيه.

١٠ ـ تقديم البديل الإسلامي:

لا يكفي نقض المشاريع العلمانية وبيان تهافتها، بل لابد من إبراز البدائل الإسلامية، ولابد من تمثل الحل الإسلامي وصياغته برؤى معاصرة جديدة تلبي تطلع العقل الإنساني إلى مزيد من المعرفة، وتلبي طموح العقل إلى التنوع والثراء في نموذجه الإسلامي.

ولا يمكن إبراز الفقر والخيبة في النموذج العلماني إلا إذا قورن ذلك بما ينجزه علماء الإسلام من مشاريع فكرية ونماذج إصلاحية.

١١ ـ فتح باب الاجتهاد:

لابد من فتح باب الاجتهاد، لكي يتمكن العالِم من تأويل التعاليم

الإسلامية تأويلاً جديداً حراً ومواجهة الأفكار الجديدة التي عممتها العلمانية وبثتها في أوساط المسلمين بأسلوب جديد ومادة معرفية جديدة، منطلقين من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

١٢ ـ الجرأة على القيام بإصلاحات:

عملية الإصلاح هي عملية تغيير غير جذرية تحافظ على الأصل مع تغيير في الآليات وبعض الأساليب وإعادة صياغة لبعض التفاصيل، وهذا الأمر لا مانع منه بل يجب أن نتحلى بالجرأة على القيام ببعض الإصلاحات لما اعتور بعض المفاهيم من أخطاء ناتجة عن تأويلات للنصوص بما ليس فيها أو بما لا تحتمل من تأويل أو تفسير. فليس هناك مانع من الإصلاح ولكن المشكلة في العمل تحت هذا العنوان لإصلاح ما هو سليم وإفساد تحت هذا العنوان ما هو سليم.

١٣ ـ محاربة مظاهر البدع والخرافة والتواكلية:

تعتبر مواضيع الخرافات والبدع من المواضيع الأساسية التي استغلها العلمانيون في الهجوم على الدين، لذا لابد من تنقية مفاهيمنا من كل ما هو خرافة أو بدعة والتمسك بنص الشرع الحنيف. ونحن هنا لا ندعو لترك الإيمان بالغيب بما هو أساس في عقيدتنا وما نؤمن به، بل إننا ندعو إلى أن نفهم أن ليس كل ما هو في ديننا غيبي بل إن أكثر ما ورد في هذا الدين هو من الأمور الواقعية التي ندرك أهدافها ونعرف مغاذيها، وعندما نكون على دراية بهذا الدين غيبه وواقعيته فإننا سنكون أقدر على مواجهة التخلف في أمتنا أولاً، ومواجهة العلمنة في أمر استغلته إلى أبعد الحدود في الحرب التي خاضتها على ديننا.

١٤ ـ نقض الفكر العلماني من خلال توضيح ما قدموه للأمة:

لابد من نقض الفكر العلماني إن قلنا إنه يوجد فكر علماني من خلال فضح أفكاره الهدامة ومن خلال السؤال عن الإنجازات التي قام بها العلمانيون وما قدموا لبلدانهم وأمتهم، وعمّا فعله الحكام اللادينيون الذين كانوا يحكمون بلاد الإسلام، والذين كانوا ينتمون إلى القومية والوطنية والماركسية؟

فهل ساهموا في تقدّم المجتمع إلى الأمام؟ وهل وحّدوه؟ أم هل بنوا مجتمعاً متماسكاً؟ أو هل قادوا تنمية ناجحة؟ هل أسسوا فيها قضاءً عادلاً يمكن الركون إليه والاطمئنان إلى أحكامه؟ ما هي السياسة التعليمية التي اعتمدوها وكيف ربوا مجتمعاتهم وعلى أية قيم؟ هل حفظت كرامة الإنسان المسلم؟ هل كانوا يحكمون بشورى حقيقية أم بديكتاتورية وفرض وهيمنة؟ هل سخّروا المنافقين من الكتاب والأدباء والشعراء وأهل الصحافة لمصالح الجماهير المخدوعة أم لمصالحهم الطاغوتية؟ ما هو مصير الفقراء في مجتمعاتهم هل قدموا لهم حلولاً حفظتهم وساهمت في رفع ألم الجوع عنهم؟ هل أوجدوا اقتصاداً قنوعاً في العالم الإسلامي؟ أم ضيّعوا ثروات الأمة في رغبات النفس الأمارة بالسوء، وبناء القصور وتزيينها، والمحافظة على استمرارهم في الحكم والسلطان والطغيان؟!.

ألم يحن الوقت لكي يعترف هؤلاء بأنهم مسخوا الأمة بالتقليد، وصنعوا لها الكوارث تلو الكوارث، وأوقعوها راكعة ذليلة أمام الطغيان الأمريكي والصهيونية العالمية.

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم

اسم الكتاب	اسم المؤلف	دار النشر	الطبعة
٢ ـ الاتجاهات الحديثة في الشعر العربي المعاصر	عبد الحميد جيدة	المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت	الأولى
٣ ـ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر	محمد محمد حسين	المكتبة البلدية	الأولى
٤ ـ الاستشراق	ادوارد سعيد	دار رؤية القاهرة	الأولى
٥ ـ الإسلام والحرية الدينية	أحمد نجم	موقع http://www.cdhrap.net.	مقالة
٦ ـ الإسلام يقود الحياة	الشهيد السيد محمد باقر الصدر	دار التعارف للمطبوعات	الأولى
٧ ـ إعلان حقوق الإنسان والمواطن	ويكبيديا الموسوعة الحرة	موقع ويكبيديا الإلكتروني	****
٨ ـ آفاق جزائرية	مالك بن نبي	مكتبة عمارة ـ مصر ـ القاهرة	طبعة ١٩٧١
٩ ـ انسلاخ التاريخ ومواجهة الحضارات	محمد عودة سبتي	موقع ألف ياء الالكتروني	مقالة
١٠ ـ أي مستقبل للشريعة الإسلامية علمانية الدولة من منظور إسلامي	مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان	موقع المركز الإلكتروني	مقالة

اسم الكتاب	اسم المؤلف	دار النشر	الطبعة
١١ ـ بحار الأنوار	العلامة المجلسي	مؤسسة الوفاء «لبنان»	الثانية
١٢ ـ بروتوكولات حكماء صهيون	عجاج نويهض	المؤسسة العربية للدراسات والنشر	الرابعة
١٣ ـ تاريخ الأمم والملوك	ابن جرير الطبري	مؤسسة الأعلمي «بيروت»	الأولى
١٤ ـ التبيان في تفسير القرآن	شيخ الطائفة الطوسي	مكتب الإعلام الإسلامي	الأولى
١٥ ـ تحف العقول عن آل الرسول	الشيخ ابن شعبة البحراني	مؤسسة النشر الإسلامي «إيران ـ قم»	الثانية
١٦ ـ تدوين الدستور الإسلامي	أبو الأعلى المودودي	دار الفكر ـ بيروت	الأولى
١٧ ـ تفاصيل فلسفة العولمة ونتائجها	****	موقع إسلام أون لاين الإلكتروني	بحث
١٨ ـ تفسير الجامع لأحكام القرآن	أبو عبد الله القرطبي	مؤسسة التاريخ العربي «بيروت»	الأولى
١٩ ـ تكوين أوروبا	كريستوفر دوسن، ترجمة ومراجعة د سعيد عبد الفتاح عاشور، ود محمد مصطفى زيادة	مشروع الألف كتاب، القاهرة	طبعة العام١٩٦٧
٢٠ ـ الثابت والمتحول	أدونيس	دار الساقي للطباعة والنشر	الثامنة
٢١ ـ الثقافة والإمبريالية	إدوارد سعيد	دار الآداب	الثالثة
٢٢ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن	أبو جعفر الطبري	دار الفكر بيروت	الأولى

اسم الكتاب	اسم المؤلف	دار النشر	الطبعة
٢٣ ـ جريدة الرياض	يوسف أبا الخيل	السعودية ـ الرياض	عدد ٢١/ آب/٢٠٠٧
٢٤ ـ جريدة الشرق الأوسط	تركي محمد	السيادة في عصر العولمة	العدد ٧٤٣٩
٢٥ ـ جريدة اللواء اللبنانية	مقالة لفوكوياما	بيروت	عدد الاثنين ١٢/١١/ ٢٠٠٧
٢٦ ـ الجهاد الاقتصادي	بيتر كريفت	إجناتيوس برس	الأولى
٢٧ ـ حاشية المكاسب(طج)	الشيخ الأصفهاني	المطبعة العلمية	الأولى
٢٨ ـ الحداثة	الدكتور / مسعد محمد زياد	موقع www.geocities.com	مقالة
٢٩ ـ الحداثة في ميزان الإسلام	عائض القرني	دار الأندلس الخضراء ، الرياض	الأولى
٣٠ ـ الحداثة مناقشة هادئة لقضية ساخنة	الدكتور محمد خضر عريف	دار القِبلة للثقافة الإسلامية، جدة السعودية	الأولى
٣١ ـ الحداثة من منظور إسلامي	الدكتور عدنان النحوي	دار النحوي، الرياض، السعودية	الرابعة
٣٢ ـ الحداثة من منظور إيماني	الدكتور عدنان النحوي	دار النحوي، الرياض، السعودية	الثالثة
٣٣ ـ حضارة العرب	غوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر	دار إحياء الكتب العربية	سنة (١٩٥٤م)
٣٤ ـ الحكومة الإسلامية	الإمام الخميني قدس سره	مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت	الأولى
٣٥ ـ دستور جمهورية مصر العربية	****	****	****

اسم الكتاب	اسم المؤلف	دار النشر	الطبعة
٣٦ ـ دستور المملكة المغربية	****	****	****
٣٧ ـ سقوط الحضارة الغربية، رؤية من الداخل	أحمد منصور	دار القلم، دمشق	الأولى
٣٨ ـ سنن ابن ماجة	محمد بن يزيد القزويني	دار الفكر ـ بيروت	الأولى
٣٩ ـ الشباب المسلم والعولمة	د. كامل الشريف	موقع البلاغ الالكتروني	مقالة
٤٠ ـ شعرنا الحديث إلى أين؟	غالي شكري	دار الشروق	الأولى
٤١ ـ الشورى	مجموعة من الباحثين	موقع الشامسي الإلكتروني	بحث
٤٢ ـ صدام الحضارات وإعادة رسم النظام العالمي	صموئيل هنتنغتون	الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان	الأولى
٤٣ ـ صنم الحرية	فهد بن سعد أبا حسين	موقع صيد الفوائد الإلكتروني	بحث
٤٤ ـ طرائف المقال	العلامة السيد علي أصغر الجابلقي	مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي ـ قم	الأولى
٤٥ ـ العلمانية كجهادية دنيوية	جورج طرابيشي	موقع شبكة العلمانيين العرب الإلكتروني	مقالة
٤٦ ـ عوائد الأيام	المحقق النراقي	الغدير ـ قم	الأولى
٤٧ ـ العولمة أمام عالمية الشريعة الإسلامية	د. عمر الحاجي	دار المكتبي، دمشق	الأولى

اسم الكتاب	اسم المؤلف	دار النشر	الطبعة
٤٨ ـ العولمة والمستقبل ـ إستراتيجية تفكير	سيار الجميل	الأهلية للنشر ـ عمان	الأولى
٤٩ ـ العولمة المزعومة ـ الواقع ـ الجذور ـ البدائل	روجيه غارودي	دار الشوكاني للنشر والتوزيع، صنعاء	١٩٩٨م
٥٠ ـ العولمة من منظور إسلامي	د. كامل الشريف	موقع المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب	مقالة
٥١ ـ العولمة من منظور إسلامي	هيئة الموقع	موقع إسلام أون لاين الإلكتروني	مقالة
٥٢ ـ عيون الحكم والمواعظ	الشيخ علي بن محمد الليثي الواسطي	دار الحديث ـ إيران	الأولى
٥٣ ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام	الشيخ الصدوق	مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت	الأولى
٥٤ ـ الفصول المختارة	الشيخ المفيد	دار المفيد ـ بيروت	الثانية
٥٥ ـ فن الشعر	إحسان عباس	دار الثقافة	الثانية
٥٦ ـ قاموس العالم الجديد	لوبستر	دار جون ويلي وأبناؤه	الأولى
٥٧ ـ الكافي	الشيخ الكليني	دار الكتب الإسلامية ـ إيران ـ طهران	الثالثة
٥٨ ـ كتاب الاجتهاد والتقليد	السيد الخوئي قدس سره	مطبعة صدر ـ قم	الثالثة
٥٩ ـ كشف الغمة في معرفة الأئمة	أبي الحسن الأربلي	دار الكتب الإسلامي ـ بيروت	الأولى
٦٠ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال	المتقي الهندي	مؤسسة الرسالة ـ «لبنان ـ بيروت»	الأولى

اسم الكتاب	اسم المؤلف	دار النشر	الطبعة
٦١ ـ لسان العرب	العلامة ابن منظور	دار إحياء التراث العربي ـ «لبنان ـ بيروت»	الأولى
٦٢ ـ ما العولمة	محمد جلال العظم وحسن حنفي	دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع	الأولى
٦٣ ـ مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا	للقس جوتفرايد كونزلن	مقالة نقلا عن د محمد عمارة	مكتبة نهضة مصر ـ ١٩٩٩
٦٤ ـ مجلة الإسلام اليوم	الدكتور أحمد بن عثمان التويجري	الدين والعولمة	عدد ١٦، ١٧
٦٥ ـ مجلة البيان	نعوم تشومسكي	العولمة بين منظورين	السنة ١٤ العدد ١٤٥ كانون الأول ١٩٩٩
٦٦ ـ مجلة البيان	خالد أبو الفتوح	جذور العلمانية والتغريب في العالم الإسلامي	السنة ١٤ العدد ١٥٩ ذو القعدة ١٤٢١
٦٧ ـ مجلة الشؤون الخارجية الاميركية	يوسف غوف	كيف فعلتها أميركا؟	عدد سبتمبر / أكتوبر ١٩٩٧
٦٨ ـ مجلة عالم المعرفة	هانس بيتر مارتين ـ هارولد شومان	فخ العولمة	العدد ٢٣٨
٦٩ ـ مجلة فصول	محمد برادة	اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحداثة	العدد الثالث من المجلد الرابع

اسم الكتاب	اسم المؤلف	دار النشر	الطبعة
٧٠ ـ مجلة «فكر ونقد»	محمد عبد الجابري	«العولمة والهوية الثقافية»	العدد السادس
٧١ ـ مجلة «فكر ونقد»	إسماعيل صبري عبد الله	العولمة والاقتصاد والتنمية العربية	العدد السابع
٧٢ ـ مجلة المختار	أسرة المجلة	الشورى	عدد ١/ تشرين الأول/ ٢٠٠٦
٧٣ ـ مجلة المستقبل العربي	ثناء عبد الله	العولمة بين القبول والرفض	العدد ٢٥٦
٧٤ ـ مجلة المعرفة	عبد الصبور شاهين	«العولمة جريمة تذويب الأصالة»	العدد(٤٨)
٧٥ ـ مجلة المعرفة	د. نجيب غزاوي	العولمة الخطر على الهوية والكيان	العدد ٤٣٢
٧٦ ـ مجلة المنار الجديد	عمرو عبد الكريم	العولمة عالم ثالث على أبواب قرن جديد	العدد الثالث
٧٧ ـ مجلة مواقف	أدونيس	الافتتاحية	العدد السادس
٧٨ ـ «مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية»	سعيد محمد نقيب العطاس	دار النفائس للنشر والتوزيع	الطبعة الأولى
٧٩ ـ مدينة السياسة: فصول من تطور الفكر السياسي في الغرب	الرئيس الإيراني السابق د محمد خاتمي	دار الجديد ـ بيروت	الطبعة الأولى
٨٠ ـ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل	المحقق النووي الطبرسي	مؤسسة آل البيت(ع) لإحياء التراث ـ لبنان	الأولى
٨١ ـ مستدرك سفينة البحار	الشيخ علي النمازي الشاهرودي	مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم المقدسة	الأولى

اسم الكتاب	اسم المؤلف	دار النشر	الطبعة
٨٢ ـ المسلم بين الأصالة والحداثة	سلطان عثمان	موقع منتدى ليبيا للتنمية البشرية والسياسية	محاضرة
٨٣ ـ معالم المدرستين	السيد مرتضى العسكري(قدس سره)	مؤسسة النعمان ـ بيروت	طبعة عام ١٩٩٠م
٨٤ ـ المفردات غريب القرآن	الراغب الأصفهاني	دفتر نشر الكتب ـ إيران	الأولى
٨٥ ـ مفهوم الحرية	عبد الله العروي	المركز الثقافي العربي	طبعة ١٩٩٣
٨٦ ـ مفهوم العولمة ونشأتها	مبارك عامر بقنه	موقع صيد الفوائد الإلكتروني	مقالة
٨٧ ـ مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون	مطبعة مصطفى محمد مصر	الأولى
٨٨ ـ الملل والنحل	أبي الفتح الشهرستاني	المكتبة العصرية	الأولى
٨٩ ـ منشأ الحداثة وغيرها من المذاهب الفكرية المعاصرة وكيفية علاجها	الشيخ الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي	السعودية	محاضرة
٩٠ ـ من صدام الحضارات إلى حوار الحضارات	الدكتور رسول محمد رسول	موقع الوطنية الثقافية الإلكتروني	مقالة
٩١ ـ من لا يحضره الفقيه	الشيخ الصدوق	منشورات جامعة المدرسين في الحوزة العلمية إيران ـ قم	الثانية
٩٢ ـ منهاج الصالحين	السيد الخوئي	مطبعة مهر ـ قم	الثامنة والعشرين

اسم الكتاب	اسم المؤلف	دار النشر	الطبعة
٩٣ ـ منهج الحضارة الإسلامية في القرآن	الدكتور محمّد سعيد رمضان البوطي	دار الفكر ـ دمشق	الأولى
٩٤ ـ الموسوعة السياسية	إشراف د. عبد الوهاب الكيالي وكامل الزهيري	المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت	الطبعة الأولى
٩٥ ـ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة	الندوة العالمية للشباب الإسلامي	الرياض ـ السعودية	الثانية
٩٦ ـ الميزان في تفسير القرآن	العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي	مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم	الأولى
٩٧ ـ النظام الاقتصادي الإسلامي ـ مبادئه وأهدافه	أحمد محمد العسال، وفتحي عبد الكريم	مطبعة الاستقامة «القاهرة»	الثانية
٩٨ ـ النهاية في غريب الحديث	ابن الأثير	مؤسسة إسماعيليان ـ قم	الرابعة
٩٩ ـ نهج البلاغة	الإمام علي عليه السلام	دار المعرفة ـ «لبنان ـ بيروت»	الأولى
١٠٠ ـ وجهة العالم الإسلامي	مالك بن نبي	دار الفكر المعاصر	الخامسة
١٠١ ـ وسائل الشيعة	الشيخ الحر العاملي	دار إحياء التراث العربي ـ «لبنان ـ بيروت»	الأولى
١٠٢ ـ ويكبيديا الموسوعة الحرة	****	موقع ويكبيديا الإلكتروني	****

الفهرس

الإهـداء ٥

مقدمة المؤلف ٧

ماذا نعني بقضايا معاصرة؟ ١٣

البحث الأول: العولمة من منظور إسلامي ١٧

١ ـ العولمة من منظور إسلامي ١٩

١ ـ مقدمة لا بد منها ١٩

٢ ـ تعريف العولمة ٢٢

١ ـ تعريف السياسيين ٢٤

٢ ـ تعريف الاقتصاديين ٢٤

٣ ـ تعريف التقنيين ٢٥

٤ ـ تعريف الاجتماعيين ٢٦

٥ ـ التعريف الأشمل ٢٦

٣ ـ جذور العولمة ٢٧

٤ ـ أنواع العولمة ٣١

١ ـ عولمة الفضاء الكوني ٣١
٢ ـ العولمة الاقتصادية ٣٣
٣ ـ العولمة الاجتماعية ٣٧
٤ ـ العولمة والدولة الوطنية ٤٠
٥ ـ بين العالمية والعولمة ٤١
٦ ـ الإسلام دين عولمة أم عالمية ٤٤
تشريع الجهاد والعولمة ٤٧
١ ـ المشركون ٤٨
٢ ـ أهل الكتاب ٤٩
٣ ـ البغاة ٥١
وجوب دعوة المشركين للإسلام قبل قتالهم ٥٢
بين الدفاع والجهاد ٥٣
هل هناك جهاد في أيامنا هذه؟ ٥٥
نظرة الإسلام إلى الآخر ٥٧
٧ ـ دور الولايات المتحدة الأمريكية في العولمة ٥٨
٨ ـ دور الصهيونية في العولمة ٦٣
٩ ـ أقوال علماء الغرب في العولمة ٦٥
١٠ ـ عقبات تواجه العولمة ٦٨

١١ ـ النتائج المدمرة للعولمة ٧٤
١ ـ سياسة القطب الواحد ٧٥
٢ ـ سحق الشعوب المستضعفة ٧٥
٣ ـ فرض أنظمة الحكم على الشعوب المستضعفة ٧٦
٤ ـ القضاء على حوار الشمال والجنوب ٧٧
٥ ـ عودة الاستعمار بأشكاله كافة ٧٧
٦ ـ ضياع الدولة كقوة مسيرة ٧٨
٧ ـ تفكيك الضوابط وغزو البيوت ٧٨
٨ ـ تدمير منظومة القيم ٧٩
٩ ـ تدهور مستوى المعيشة ٧٩
١٠ ـ احتكار امتلاك التكنولوجيا ٨٠
١٢ ـ خطر العولمة على المسلمين ٨١
أ ـ الخطر على العقيدة ٨١
ب ـ بث الفرقة في العالم الإسلامي ٨٢
ج ـ نشر الفاحشة والرذيلة ٨٣
د ـ إنحطاط الأمة ٨٣
هـ ـ إلغاء الشخصية الإسلامية ٨٤
و ـ التهديد بالحروب العسكرية ٨٤

ز ـ الخطر على الإمكانات الاقتصادية للأمة ٨٥
١٣ ـ الإسلام في مواجهة العولمة ٨٦
١ ـ على الصعيد الفكري ٨٧
٢ ـ على الصعيد السياسي ٩٠
٣ ـ على الصعيد الاقتصادي ٩١
٤ ـ على الصعيد الاجتماعي ٩٨
أ ـ نظرة الإسلام للمرأة ٩٨
ب ـ المجتمع الإسلامي مجتمع مؤاخاة ٩٩
ج ـ الإسلام دين المساواة ١٠٠
د ـ حفظ أهل الأديان ١٠٠
هـ ـ حفظ الكرامة الإنسانية للمواطنين ١٠١
و ـ العناية بالأسرة ١٠٢
٥ ـ على الصعيد التربوي ١٠٢
وحدة الأمة هي الحل ١٠٤
١٤ ـ معوقات المواجهة ١٠٨
١٥ ـ هل نرفض العولمة رفضاً مطلقاً؟ ١١٢
١٦ ـ ثوابت إسلامية في مواجهة العولمة ١١٥

البحث الثاني: الحداثة من منظور إسلامي ١٢١

٢ ـ الحداثة من منظور إسلامي ١٢٣

مقدمة لا بد منها ١٢٣

١ ـ معنى الحداثة ١٢٦

٢ ـ ركائز الحداثة والرد عليها ١٢٩

١ ـ الحداثة تعني سيادة العقل ١٢٩

٢ ـ الحداثة والموروث التقليدي ١٣٠

٣ ـ الحداثة تعني التغيير المستمر ١٣٠

٤ ـ عبادة العلم لا الرب ١٣٠

مناقشة ركائز الحداثة ١٣١

١ ـ في موضوع سيادة العقل ١٣١

٢ ـ في موضوع الموروث التقليدي ١٣٢

٣ ـ في موضوع التغيير المستمر ١٣٣

٤ ـ في موضوع عبادة العلم لا الرب ١٣٤

بين الحداثة والتجديد ١٣٥

٣ ـ الحداثة من وجهة نظر أصحابها ١٣٥

٤ ـ جذور الحداثة في المجتمع الغربي ١٣٧

١ ـ المذهب الكلاسيكي ١٣٨

٢ ـ المذهب الرومانسي ١٤١
٣ ـ المذهب البرناسي ١٤٤
٤ ـ المذهب الواقعي ١٤٦
٥ ـ المذهب الرمزي ١٥٠
٥ ـ أقطاب ومروجو الحداثة الغربية ١٥٥
٦ ـ الحداثة العربية وأقطابها ١٥٩
أسلوب الحداثويين العرب ١٦٣
٧ ـ رأي الإسلام بين التجديد والحداثة ١٦٦
٨ ـ كيف نواجه خطر الحداثة؟ ١٧٣
البحث الثالث: بين الحضاراتِ حوارٌ أم صراع؟ ١٧٩
٣ ـ بين الحضارات حوار أم صراع؟ ١٨١
١ ـ مقدمة ١٨١
٢ ـ تعريف الحضارة ١٨٥
٣ ـ بين الحضارة والمدنية ١٩٠
٤ ـ مظاهر الحضارة بشكل عام ١٩٣
تواصل الحضارات وتفاعلها ١٩٤
مراحل بناء الحضارة ١٩٥
الكتابة وأثرها في الحضارة ١٩٦

الحضارة إبداع وتميز وليست تقليداً وتبعية ١٩٦
٥ ـ المعالم الأساسية للحضارة الإسلامية ١٩٧
١ ـ الحضارة الإسلامية حضارة إيمانية ١٩٨
٢ ـ الحضارة الإسلامية حضارة إنسانية ١٩٨
٣ ـ الحضارة الإسلامية حضارة عالمية ١٩٩
٤ ـ الحضارة الإسلامية يحكمها القانون ١٩٩
٥ ـ الحضارة الإسلامية تعطي العقل دوره ٢٠٠
٦ ـ الحضارة الإسلامية حضارة منتجة ٢٠٠
٧ ـ الحضارة الإسلامية حضارة يسر لا عسر ٢٠٠
٨ ـ الحضارة الإسلامية حضارة الأمة الوسط ٢٠١
٦ ـ المعالم الأساسية للحضارة المادية ٢٠١
١ ـ النزعة المادية ٢٠٢
٢ ـ فصل الدين عن الحياة ٢٠٢
٣ ـ الحضارة الغربية ذات نزعة علمانية ٢٠٢
٤ ـ الحضارة المادية حضارة الصراع الدائم ٢٠٢
٥ ـ التحلل من كل شيء ٢٠٣
٦ ـ الشعب أو الحزب هو مصدر التشريع في الحضارة الغربية ... ٢٠٣
٧ ـ موارد التباين بين الحضارتين ٢٠٣

٨ ـ كيف نعالج مشكلة الحضارة لدينا؟ ٢٠٥

١ ـ الرجوع إلى الإسلام ٢٠٨

٢ ـ الاعتماد على النفس ٢٠٨

٣ ـ الإيمان بأن هناك مدداً إلهياً ٢٠٩

٤ ـ إيجاد البدائل الفكرية والمنهجية ٢٠٩

٥ ـ إقناع المجتمع بأن في الإسلام خلاصهم ٢١٠

٦ ـ الاستفادة من التطور العلمي للآخرين ٢١٠

٧ ـ الاستفادة من السنن الكونية ٢١١

٩ ـ صراع الحضارات ٢١٢

صراع الحضارات عند هنتنغتون ٢١٣

الرد على هنتنغتون ٢١٥

صراع الحضارات عند فوكوياما ٢١٩

جذور الصراع في الفكر الاوروبي ٢٢١

انتقادات وجهت لفكرة صراع الحضارات ٢٢٣

كيف يتبلور الصراع في عصرنا الحاضر؟ ٢٢٥

١٠ ـ حوار الحضارات ٢٢٨

أ ـ حوار الأديان ضرورة إنسانية ٢٢٨

ب ـ الحوار جزء من التفكير الديني ٢٢٩

ج ـ حوار الأديان ليس جديداً في الإسلام ٢٣٠
د ـ عالمية الإسلام وحوار الحضارات ٢٣٠
هـ ـ حوار الأديان في أوروبا ٢٣٢
١١ ـ العلاقة بين الحضارات هل هي علاقة حوار أم صراع؟ ٢٣٢
١٢ ـ إلى ماذا يدعو الإسلام؟ ٢٣٥
البحث الرابع: مفهوم الحرية من منظور إسلامي ٢٤١
٤ ـ مفهوم الحرية من منظور إسلامي ٢٤٣
١ ـ مقدمة ٢٤٣
٢ ـ معنى ومفهوم الحرية ٢٤٥
أصالة الحرية ٢٤٧
٣ ـ الحرية في المجتمعات الغربية ٢٤٧
٤ ـ الحرية في الإسلام ٢٥٢
أ ـ على المستوى النظري ٢٥٣
ب ـ على المستوى التطبيقي ٢٦١
مقارنة بين مفهوم الحرية في الإسلام والإعلان العالمي لحقوق الإنسان ٢٦٤
٥ ـ أنواع الحرية ٢٦٨
أ ـ حرية المعتقد والدين ٢٦٨
ب ـ حرية التعبير ٢٧١

ج ـ الحرية الفردية ٢٧٣

د ـ حرية الرأي ٢٧٤

هـ ـ حرية الصحافة ٢٧٥

و ـ حرية التعليم ٢٧٦

ز ـ الحرية السياسية ٢٧٧

٦ ـ عقبات في وجه الحرية ٢٧٨

أ ـ موانع في المجال السياسي ٢٧٨

ب ـ موانع في المجال الاقتصادي ٢٨٢

ج ـ موانع سببها التعصب الأعمى ٢٨٢

٧ ـ كيف يمكن أن نحقق الحرية؟ ٢٨٣

٨ ـ الحرية مطلقة أم أن هناك حدوداً؟ ٢٨٦

حدود يجب أن تفرض على الحرية ٢٨٧

١ ـ حدود أخلاقية ٢٨٨

٢ ـ حدود قانونية ٢٨٩

٩ ـ واقع الحرية في مجتمعاتنا ٢٩٠

كيف نعالج المشاكل الناتجة عن التفلت في مجتمعاتنا؟ ٢٩١

١ ـ نشر الوعي الديني ٢٩١

٢ ـ سن قوانين تحمي الأخلاق والآداب العامة ٢٩٢

٣ ـ ضبط وسائل الإعلام ٢٩٢
٤ ـ موضوع الملابس ٢٩٣
٥ ـ ابدأ بنفسك ثم بغيرك ٢٩٣
٦ ـ نشر الفضيلة وتبيان محاسنها ٢٩٥
٧ ـ شغل أوقات الفراغ بما يفيد والبعد عن العبث ٢٩٦
٨ ـ عدم التسرع في الحصول على النتائج ٢٩٦
١٠ ـ مظاهر تشريعية تتناقض مع الحرية ٢٩٧
١ ـ قتل المرتد ٢٩٧
٢ ـ منع نشر كتب الضلال ٢٩٨
٣ ـ منع تمكين الكافر من القرآن ٢٩٩
٤ ـ الجهاد لنشر الدين ٢٩٩
٥ ـ تطهير الجزيرة العربية من المشركين ٣٠٠
البحث الخامس: بين الديمقراطية والشورى وولاية الفقيه ٣٠٣
٥ ـ بين الديمقراطية والشورى وولاية الفقيه ٣٠٥
مقدمة ٣٠٥
أولاً: الديمقراطية ٣٠٩
١ ـ معنى الديمقراطية ٣٠٩
٢ ـ تاريخ الديمقراطية ٣١٠

٣ ـ أنواع الديمقراطية ٣١١

أ ـ الديمقراطية المباشرة ٣١١

ب ـ الديمقراطية النيابية ٣١٢

ج ـ الديمقراطية التوافقية ٣١٢

٤ ـ العناصر الأساسية للديمقراطية ٣١٢

أ ـ القاعدة الجماهيرية ٣١٢

ب ـ الأرض ٣١٢

ج ـ النظام الانتخابي ٣١٣

د ـ رضا الشعب بالنظام ٣١٣

هـ ـ أن تكون العملية حقيقية لا شكلية ٣١٣

٥ ـ مساوئ الديمقراطية ٣١٣

أ ـ الصراعات الدينية والعرقية ٣١٤

ب ـ البيروقراطية ٣١٤

ج ـ السياسات قصيرة المدى ٣١٤

د ـ الأفضلية للأغنياء لا للكفاءات ٣١٥

هـ ـ طغيان الأغلبية ٣١٥

٦ ـ محاسن الديمقراطية ٣١٥

أ ـ الاستقرار السياسي ٣١٦

ب ـ إنخفاض نسبة الفساد ٣١٦
ج ـ إنخفاض مستوى الفقر ٣١٦
٧ ـ إشكالات على الديمقراطية ٣١٧
ثانياً: الشورى ٣٢٢
١ ـ معنى الشورى ٣٢٢
٢ ـ حجية الشورى ٣٢٤
أ ـ حجية الشورى في القرآن الكريم ٣٢٤
ب ـ حجية الشورى في السنة ٣٢٨
ج ـ حجية الشورى من العقل ٣٣١
٣ ـ من هم أهل الشورى؟ ٣٣١
٤ ـ الشروط المطلوبة في أهل الشورى ٣٣٢
أ ـ الشروط النوعية ٣٣٣
ب ـ الشروط الكمية ٣٣٣
٥ ـ محاسن الشورى ٣٣٥
٦ ـ هل الشورى ملزمة؟ ٣٣٦
٧ ـ بين الديمقراطية والشورى ٣٣٧
٨ ـ إشكالات على الشورى ٣٣٨
ثالثاً: ولاية الفقيه ٣٤١

١ ـ مقدمة صغيرة ٣٤١

٢ ـ معنى ولاية الفقيه ٣٤١

٣ ـ دليل ولاية الفقيه من القرآن الكريم ٣٤٢

الآية الأولى ٣٤٢

الآية الثانية ٣٤٤

الآية الثالثة ٣٤٤

الآية الرابعة ٣٤٥

٤ ـ دليل ولاية الفقيه من السنة النبوية المطهرة ٣٤٥

الرواية الأولى ٣٤٥

الرواية الثانية ٣٤٦

الرواية الثالثة ٣٤٧

الرواية الرابعة ٣٤٨

الرواية الخامسة ٣٤٩

الرواية السادسة ٣٥٠

روايات أخرى ٣٥١

٥ ـ الدليل العقلي على ولاية الفقيه ٣٥١

٦ ـ رأي الفقهاء في ولاية الفقيه ٣٥٢

٧ ـ بين الديمقراطية وولاية الفقيه ٣٥٤

٨ ـ الجمع بين منهجي ولاية الفقيه والشورى ٣٥٥

٩ ـ شورى الفقهاء ٣٥٧

أخيراً: المنهج الحق ٣٥٨

البحث السادس: العلمانيـة ٣٥٩

٦ ـ العلمانية ٣٦١

١ ـ تمهيد ٣٦١

٢ ـ معنى العلمانية ٣٦٤

٣ ـ تعريف العلمانية ٣٦٦

٤ ـ ماهية العلمانية ٣٦٧

مراحل نشأة العلمانية ٣٦٩

أ ـ المحطة الأولى ٣٧٠

ب ـ المحطة الثانية ٣٧١

ج ـ المحطة الثالثة ٣٧١

٥ ـ أنواع العلمانية ٣٧١

١ ـ العلمانية الكلية ٣٧١

٢ ـ العلمانية من دون تدخل في الدين ٣٧٢

٣ ـ العلمانية مع تدخل في الدين ٣٧٢

٤ ـ العلمانية المتلبسة لبوس الدين ٣٧٣

مجالات العلمنة ٣٧٤
١ ـ العلمنة الدينية ٣٧٤
٢ ـ العلمنة الثقافية ٣٧٤
٣ ـ العلمنة اللغوية ٣٧٤
٤ ـ العلمنة العقلية ٣٧٥
٥ ـ العلمنة العلمية ٣٧٥
٦ ـ العلمنة القانونية ٣٧٦
٧ ـ العلمنة الجنسية ٣٧٦
٦ ـ أهداف العلمانية ٣٧٨
٧ ـ الإيجابيات والسلبيات ٣٨٠
أ ـ إيجابيات العلمانية من وجهة نظر المؤيدين ٣٨٠
ب ـ سلبيات العلمانية من وجهة نظر المعارضين ٣٨١
٨ ـ كيف دخلت العلمانية بلادنا؟ ٣٨٤
٩ ـ العلمانية في بعض بلاد المسلمين ٣٨٩
١٠ ـ هل من الممكن التعايش بين الإسلام والعلمانية؟ ٣٩٢
١١ ـ رأي الدين بالعلمانية ٣٩٤
أ ـ رأي المسيحية بالعلمانية ٣٩٤
ب ـ رأي الإسلام بالعلمانية ٣٩٦

ج ـ دور اليهود في العلمانية ٤٠١
١٢ ـ كيف يمكن مواجهة العلمانية ٤٠٤
١ ـ التمسك بالثوابت ٤٠٥
٢ ـ اعتماد المنهج الشمولي في فهم الإسلام ٤٠٥
٣ ـ الدعوة للوحدة بين المسلمين ٤٠٥
٤ ـ تطوير الخطاب الإسلامي ٤٠٦
٥ ـ التأكيد على اللغة العربية ٤٠٦
٦ ـ العناية بالتراث الإسلامي ٤٠٧
٧ ـ تعرية الأطروحات العلمانية ٤٠٧
٨ ـ التمسك بتاريخنا بسلبياته وإيجابياته ٤٠٨
٩ ـ مواجهة التفسيرات الخاطئة للإسلام ٤٠٩
١٠ ـ تقديم البديل الإسلامي ٤٠٩
١١ ـ فتح باب الاجتهاد ٤٠٩
١٢ ـ الجرأة على القيام بإصلاحات ٤١٠
١٣ ـ محاربة مظاهر البدع والخرافة والتواكلية ٤١٠
١٤ ـ نقض الفكر العلماني من خلال توضيح ما قدموه للأمة ٤١١
المصادر والمراجع ٤١٣
الفهرس ٤٢٣